ف. شارل دو فوكو

التعرف على المغرب

1883-1884

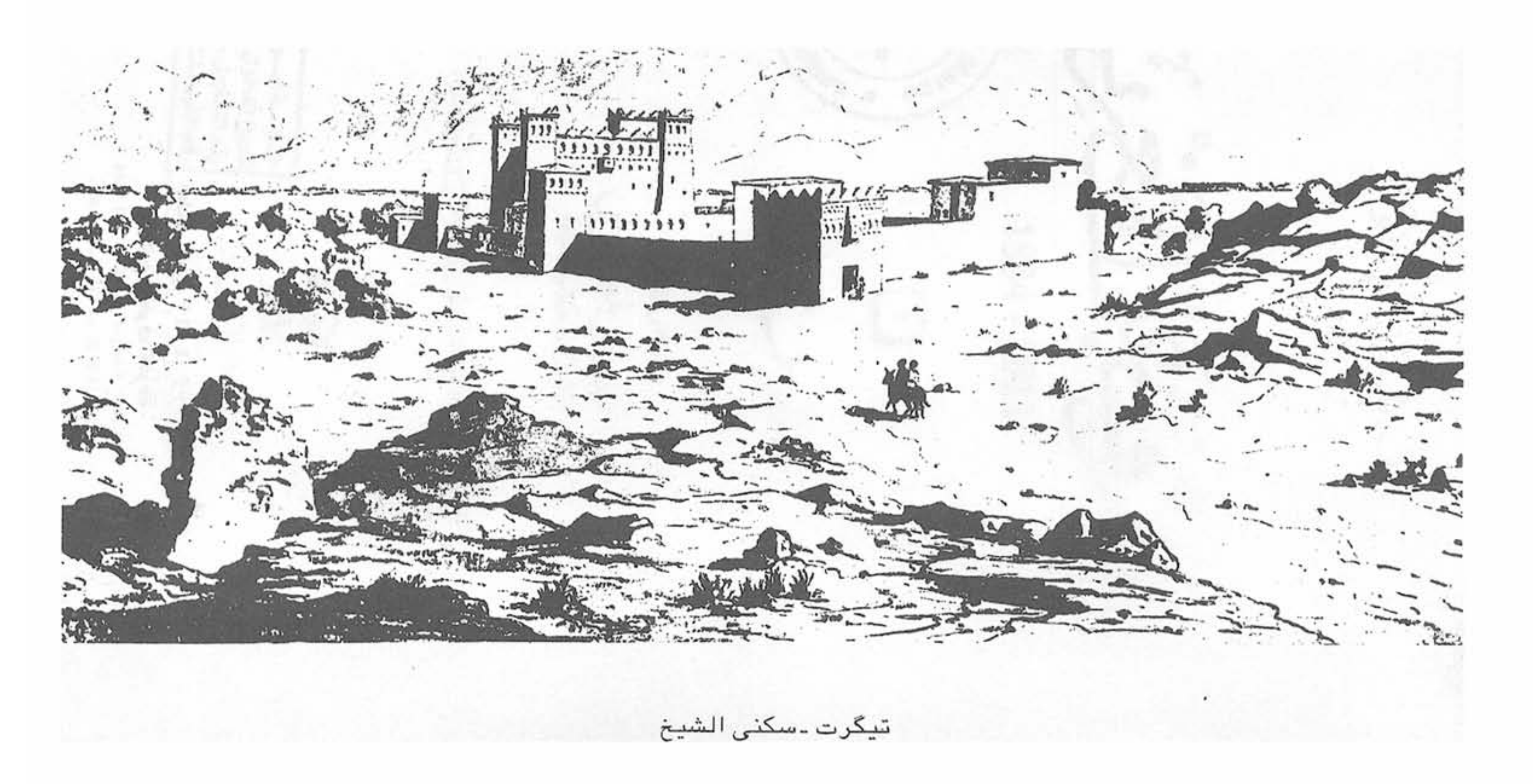
1

الرحلة

ترجمة
المختار بلعربي
أستاذ بكلية الآداب . القنيطرة

بإشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

دار الثقافة



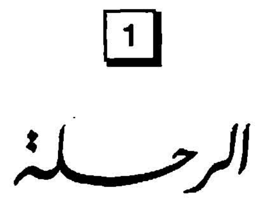
تيگرت ـ سكنى الشيخ

الطبعة الأولى 1419- 1999

ف. شارل دو فوكو

التعرف على المغرب

1883 - 1884



1

الرحلة

ترجمة

المختار بلعربي
أستاذ بكلية الآداب - القنيطرة

بإشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر



دار الثقافة
للنشر والتوزيع

32-34 شارع فيكتور هيكو ـــ ص.ب. 4038
الهاتف : 30.76.44 - 30.23.75
157 شارع لاجيروند ـــ الهاتف : 83.17.17
فاكس 30.65.11 ـــ الدارالبيضاء 20500

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

تدخل رحلة شارل دوفوكو إلى المغرب في أواخر القرن التاسع عشر ضمن الرحلات التي قام بها الأوربيون بعد أن كُسر الباب على إثر المصاعب والمضايقات السياسية والعسكرية التي عرفتها بلادنا منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وتوقيع المعاهدة المغربية الانجليزية سنة 1856 وما تلا ذلك من أحداث مؤلمة في معركة إسلي واحتلال تطوان. اغتنمها الأوربيون فرصة للتعرف على هذه البلاد التي ظلت متمنعة عنهم طوال قرون، وطالما اشرأبت أعناقهم للاستحواذ على خيراتها.

ورغم الظروف المريبة التي تحيط بهذه الرحلة وصاحبها، فإنها حققت من الناحية العلمية نتائج ميدانية بالغة الأهمية مازالت مرجع الباحثين في تاريخ المغرب وجغرافيته حتى الآن.

انطلق دوفوكو من طنجة ــ قادما من الجزائر ــ يوم 20 يونيه 1883 متنكراً في زي يهودي، فزار المناطق الشمالية جبالاً وأودية وشعاباً ومدناً، ووصف السكان وعاداتهم في اللباس والطعام والعمل وتقاليدهم ولهجاتهم، لكنه لم يعط نفسه حق التحدث عن طبائعهم لقصر المدة التي قضاها بين أظهرهم.

لم يكن دوفوكو يهتم بالمقام في المدن المعروفة التي سبق أن كُتب عنها كفاس وتطوان. وإنما كان يهمه بالدرجة الأولى زيارة المناطق المجهولة التي لم تُسلك بعدُ من قِبل الأوربيين مهما بلغت وعورتها وخطورتها، والتعرف على سكان البادية في السهول والجبال ومدى نشاطهم وإنتاجهم وعلاقاتهم بالمخزن، لأنه منذ البداية قسم المغرب ــ كدأب كل المستعمرين ــ إلى «بلاد المخزن» و «بلاد السيبة».

كان دوفوكو يحمل معه دفتراً صغيراً من 5 × 5 سم وقلم رصاص قصيراً يسجل به رؤوس المسائل والأيام والمراحل التي قطعها، وآلة علمية للاشتغال في الميدان. إنه موضوعي ودقيق في ملاحظاته الجغرافية، وفي معظم إشاراته التاريخية

إلا عندما تجمح به خلفياته الاستعمارية فلا يسلم من لمزاته القدحية حكام ولا محكومون.

زار دوفوكو علاوة على منطقة الشمال، بلاد تادلا وسوس ودرعة والصحراء المغربية، وتعرف على أهم الأنهار كأم الربيع ودرعة وسوس وزيز وملوية وروافدها الصغرى والكبرى، وقطعها في عدة نقط بواسطة معابر ومشارع. وخوضاً بالأقدام والدواب، مسجلا بعناية عرضها وعمقها ولون المياه وطعمها وقوة التيارات، ورسم أهم المواقع التي شاهدها سواء منها الطبيعية والعمرانية. واستغرقت الرحلة اثنى عشر شهراً، إذ لم يغادر دوفوكو وجدة ليعود إلى الجزائر إلا يوم 23 ماي 1884.

لقد أحسن الأستاذ المختار بلعربي صنعاً بنقل رحلة دوفوكو إلى اللغة العربية باعتبارها مرجعا لطلاب الجامعة في شعب التاريخ والجغرافيا. لاسيما وقد عُربت هاتان المادتان منذ عقود من السنين. وساعد المترجم تخصصه كجغرافي إيجاد مقابل المصطلحات العلمية الوفيرة التي تزخر بها الرحلة. الأمر الذي أضفى على النص المترجم نوعاً من الغموض في بعض الأحيان لتوالي المصطلحات ما اشتهر منها وما لم يشتهر، بالإضافة إلى ذلك حرص المترجم على المحافظة على النص الأصلي ونقله بأمانة دون مراعاة مقتضى السياق العربي في أغلب الأحيان. لكن يجب أن نتذكر أن هذه أول مرة يُقدم فيها الأستاذ بلعربي على ميدان التعريب، وأن رحلة دوفوكو ـــ كسائر النصوص العلمية ـــ في غاية الصعوبة مادة وأسلوباً.

وقد ارتأت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر أن تقترح نشر **التعرف على المغرب** على دار الثقافة بالدار البيضاء التي استجابت مشكورة لهذه الرغبة، فنشرت نص الرحلة، والخرائط الملحقة بها التي رسمها الأستاذ محمد بلعربي. والأمل وطيد أن يقع تدارك مثل هذه الملاحظات في طبعة قادمة تستوعب التعليقات وتتلافى ما خفي من العبارات.

الرباط في 29 شوال عام 1418 / 1998.2.27

محمد حجي

الرّحلة

I
السفر من طنجة إلى مكناس

1 ـــ السفر من طنجة إلى تطوان

ص 1 غادرت السفينة يوم 20 جوان 1883 صُحْبة الرّبّي مَرْدُوشي ؛ ولمّا لم يكنْ لَدَيَّ أي شيء جديد أريد الوقوف عليه في هذه المدينة المعروفة من خلال عدة كتابات سابقة فإنني كنتُ أتَعجل مغادرتها. محطتي الأولى لابدّ أن تكون مدينة تطوان. مباشرة بعد وصولي إلى مدينة طنجة بحثت عن الوسائل لأجل تطوان. كانت المسافة بين المدينتين مسيرة يوم واحد وكانت قوافل صغيرة تغادر طنجة يوميا والطريق آمنة : إذن لست في حاجة إلى مرافقة أو حرس.

ص 2 رغم قصر الوقت الذي قضيته في طنجة فإن ذلك كان كافيا ليُصْدرَ أرْدِيكَا وزير فرنسا المقيم في طنجة ؛ الذي تفضّل تيرمان الحاكمُ العام للجزائر فأوصاه بي خيراً ؛ أوامره بتهييء رسائل إلى وكلائه قصد تسهيل أعمالي المقبلة في المغرب. كما أمر بتسليمي رسالة من طرف مولاي عبد السلام ؛ شريف وزان الشهير ؛ يأمر هذا الأخير بواسطتها أيا كان من أتباعه أن يوفِر لي عوناً وحماية ؛ وأخيرا زوَّدني أرديكَا بجميع التوصيات التي قد تكون مفيدة لي خلال سفري : لم توجد ولوْ رسالة واحدة بين هذه الرسائل لم تخدمْ مصالحي فيما بعد. ولهذا كثيرا ما كنت أتذكر ـــ من باب الاعتراف بالجميل ـــ العناية التي كنت موضعها من طرف كل من اهتم بسفري.

21 جوان 1883

غادرت المدينة في الساعة الثالثة زوالا. تتكون قافلتي من 6 أو 7 رجال أغلبهم من اليهود و10 دواب حمل. اخترقنا في البداية مجموعة أودية صغيرة حسنة الاستغلال ؛ تفصِل بينها منحدرات جبال يغطّيها الدّوم. قبيْل المساء ؛ توغلنا في وادي نهر مراح. سِرْنا في هذا الوادي خلال ما تبقى من اليوم ؛ بين حقول قمح

(*) هذه العلامة «ص» تدل على الصفحة متلوة بالرقم في النص اللاتيني.

رائعة تكسو الوادي كله. تَوَقفنا في الساعة 9 و15 دقيقة قرب بعض الأكواخ. قضينا الليلة في هذا المكان. الطريق آمنة خلال النهار، لم تبق كما كانت عليه عند الغروب : إنها اللحظة التي يُبَاشِرُ المغيرون خلالها أعمالهم. وهكذا شاهدت ؛ عند غروب الشمس ؛ الفُرسان الخيّالة ؛ مدججين بالسلاح ؛ يأخذون مواقعهم عند أبواب القرى ؛ قرب قطعان الماشية على ربوات يراقبون المحاصيل الزراعية من فوقها. يعكر الجوالة حياة الفلاح الضعيف ؛ خاصة في بلاد المخزن. في هذه الحقول الغنية التي مررت بها يكاد نهب الجوالة من جهة وتشدّدُ بيت مال الدولة لا يتركان للفلاح إلا ما يسد به رمقه.

22 يونيو 1883

3 في الساعة 4 صباحا استأنفنا السير. وسرعان ما دخلنا منطقة الجبال. تسلقنا في البداية منحدرات منتظمة تغطيها أشجار منها الزيتون والضرو خاصة وأعشاب. يوجد بالمنطقة صيد وافر من أرانب وحجل ويمام.

يتغير المشهد انطلاقا من فندق مررنا أمامه. وإذا بالسطح ذي فتاتات صخرية والانحدارات وعرة والطريق صعب. تتباعد الأشجار المثمرة فيحل محلها الآسُ والخلنجُ. وصلنا إلى الفج على الساعة 2 و30 دقيقة.

هذا مقطع السفح الذي تسلقناه اللحظة. السفح الآخر للجبل ؛ مُفَرَّسٌ وعر في البداية ؛ يُوصلنا إلى منطقةٍ مشجرةٍ حيث تظهر الزراعة من جديد في قعر الأودية. تنفرج الشعاب شيئا فشيئاً وتنبسط جوانب المنحدرات. وأخيراً ها نحن في السهل. حتى الوصول إلى مدينة تطوان ما المنطقة إلا أودية متسعة تغطيها كليا حقول قمح على مد البصر تتدفق بها مياهها العذبة. على الساعة 9 و30 دقيقة أَبْصَرْنا المدينة تتراءى على شكل أبيض في أفق من جبال عالية مائلة إلى الزّرقة. دخلنا المدينة على الساعة 11.

اليوم ؛ كما كان الحال بالنسبة للبارحة ؛ صادفت كثيرا من المارّة في الطريق، كان أكثرهم تقريباً راجلين وخاصة في السهل. كانوا فلاحين ذاهبين إلى الحقول وكان قليل منهم حاملا لسلاح. كما كان عدد كبير أيضا من النساءِ لم يَكن أكثريتُهُنَّ متحجبات. شاهدت ؛ بالأمس أعدادا كثيرة من القطعان ضمنها كثير من الثيران أثار انتباهي عُلُوّ قامتها.

صادفت على طول الطريق كله ممراً واحداً صعب السير : إنه جوانب الفج. السطح مترب عموماً. يوجد نهر واحد ذو أهمية هو واد بو صفيحة. ضفاف هذا الواد وعرة يتراوح علُوّها ما بين 5 إلى 6 أمتار. ماء الواد صافٍ وجارٍ. يصل عرض المكان حيث يجري هذا الماء ما بين 6 و8 أمتار وعمقه من 30 إلى 40 سنتمتر. سرير الوادي من الحصى. يُخترق هذا النهر بواسطة قنطرة ذات عَقدَيْن في حالةٍ لأبأس بها. يجب ألا نستنتج من هذا أن القناطر في المغرب هي الوسيلة الوحيدة لعبور الأودية ؛ على العكس عدد القناطر في غاية القلة بالمغرب. لا أظن أنني رأيت ؛ طيلة سفري كله، أكثر من 5 أو 6 قناطر وسوف أذكر في حينها القناطر التي صادفتها خلال تجوالي بالمغرب، ذلك أنه تُعْبر الأنهار عادة على الأرْجُل.

لا أظنني بحاجة إلى القول بأن المغرب لا يتوفر على طرق معبدة. فليس به إلا عدد كبير من طرق السير على الأرجل المتداخلة فيما بينها والمُكونة متاهات يضلّ المرء عبرَها غايتَه بسرعة اللهمّ إلا إذا كانت له معرفة جيدة بالبلد. هذه الطرق ممرات سهلة الممارسة في مناطق السهول لكنها صعبة جدا وكثيرا ما تكون خطيرة في مناطق الجبال.

أثار انتباهي أمران ؛ خاصة، خلال هذا اليوم من السفر : أولهما الماء الطري والجاري، رغم كون الفصل فصل صيف، الذي يخرج من عدد وافر من العيون ص 4 والجداول والأنهار الصغيرة التي صادفتها ؛ وثاني الأمرين قوة النبات الخارقة : تحتلّ الحيز الأكبر من الأرض زراعات غنية ويُغطي الأجزاء غير المزروعة من السطح عُشْب أخضر يانع ولا يوجد نبات نحيف ولا توجد بُقع رملية أو عقيمة ؛ وحتى البقع التي تنتشر فيها الصخور مُخضرة إذ تخرج النباتات من بين الصخور وتكسوها خضرة.

2 ـــ إقامة في تطوان

شيدت مدينة تطوان على هضبة صخرية ناتئة من الجانب الأيسر للوادي الذي يحمل نفس الإسم ويحيط بها في أكبر جزء منها. تشرف على المدينة ؛ شمالا

وجنوبا ؛ جبال عالية وعند قدمها توجد أجمل بساتين الدنيا تسقيها آلاف الينابيع. للمدينة أجمل المظاهر التي يمكن للمرء أن يشاهدها. المدينة ذات بناء متجانس وهي أقل اتساخا من معظم حواضر المغرب. تتجسد تحصيناتها في قصبة مشيدة في الشمال الغربي للمدينة وفي سور من الآجور علوه 5 أمتار وسمكه 30 أو 40 سنتمترا. توجد بجوار كل أبواب المدينة بعض المدافع التي يحاول وجودها بعث الرعب. تطوان مدينة شاسعة لكن أحياءها الهامشية قليلة السكان وجزئيا في حالة خراب. بالمدينة كثير من المساجد ولكن ليس بها بنايات ملفتة للنظر باستثناء البرج الرئيسي للمشوار. ينتعش الحي التجاري خاصة يوم الأربعاء ؛ وهو السوق الأسبوعي. يوجد بالمدينة ملاح كبير أجمل وأحسن مبنى رأيته في المغرب يقدر سكان المدينة ما بين 20.000 و25.000 نسمة.


ظهر جبال بني حسان الشمالي

من بينهم 600 يهودي تقريبا. حاكم المدينة قايد معين مباشرة من طرف السلطان. تشمل سلطة هذا القائد المنطقة الواقعة بين البحر والقبائل المستقلة بالريف من جهة وعمالات طنجة والعرائش من جهة أخرى. جوار المدينة كثير الخصوبة ويتوفر على بساتين شاسعة مشهورة في جميع شمال المغرب. تُصدر فواكهها إلى كل من مدينتي القصر الكبير وفاس.

وادي نهر تطوان ؛ بعدما يضيق قبالة المدينة حتى تختنق ؛ يتسع جدا بعد المدينة مباشرة.

5 وفي نفس الوقت ينخفض علو الجبال المحيطة بالمدينة حتى تصير تلالا بعد أن كانت عالية جدا إلى هنا. من هنا حتى البحر، ليس الوادي إلا حقل شاسع من القمح تتخلله ضيع وبساتين.

اقمت 10 أيام بتطوان. لم تكن هذه الإقامة الطويلة ضمن مشاريعي بل العكس ؛ كانت رغبتي أن أذهب إلى مدينة فاس في أقرب وقت ممكن. لكنني كنت قررتُ الذهاب إليها عن طريق معين من قبل يمر عبر أراضي الأخماس وبني زروال وبني حامد [nbp]. كان هذا الطريق على الشكل التالي : تطوان —

شفشاون

بني حزمر ــ بني حسان ــ الأخماس ــ بني زروال ــ بني حامد ــ رَهُونة ــ شراكَه ــ فاس. إذن مباشرة بعد وصولي بدأت أبحث عن مرشد يسير بي في هذا الاتجاه ؛ إلا أنني وجدت صعوبات للعثور على مثل هذا المرشد لكون القبائل التي كنت أريد اختراق أراضيها كانت غير آمنة، وإذن مثلث حواجز صعبة أمام تحقيق مشروعي إضافة إلى كونها كانت معروفة باللصوصية. تتحاشى القوافل قطع أراضي هذه القبائل مع كثير من الاحتياط ولا يتجرأ سعاة البريد على عبورها إذ كانوا يُجرّدون من رسائلهم ومن ثيابهم وكان حتى حفظة القرآن لا يغامرون بالمرور عبرها إلا شريطة أن يكونوا شبه عراة. باختصار ؛ بعد 8 أيام ؛ ورغم البحث والاقتراح ؛ لم أجد بعدُ مَن يقبل مرافقتي. في هذه الظروف قمت بمحاولة أخيرة : توجهتُ إلى شرفاء ؛ إلى أولياء من صالحي تطوان عسى أن يكون لهم من الجاه أو يكون لهم من الأصدقاء في هذه المناطق ما يمكنني من اختراقها تحت حمايتهم ؛ لكن حيثما توجهت كان الجواب سلبياً. إلا أنه كان يقال لي إن ما هو مستحيل انطلاقا من هنا سيصبح سَهْلا بعد مغادرة فاس. يوجد هناك أشخاص يهون عليهم مساعدتي على السفر بين هذه القبائل. هذا الكلام الأخير ؛ والذي توصّلتُ ؛ في نهاية المطاف ؛ إلى أنه الحقيقة ؛ دفعني إلى عدم تشبثي ببرنامجي أكثر ــ اتباع المسار المخطط له أعلاه ــ فقررت السفر إلى فاس سالكاً الطريق العادي مروراً بالقصر. قبل الشروع في السفر ؛ خصصتُ يومين لجولة في الشاون ؛ مدينة صغيرة توجد في الريف على بعد 50 كليومتراً جنوب تطوان.

3 ــ جولة في الشاون

خرجتُ 2 يوليوز من تطوان في الساعة 8 صباحاً ورفيقي الوحيد دليل مسلم. من هنا إلى الشاون كان علينا أن نقطع أراضي 3 قبائل هي بني حزمر وبني حسن والأخماس. القبيلتان الأوليان خاضعتان للسلطة المركزية فيمكن السفر عبرهما في أمان. بخلاف الأخيرة : علينا أخذ احتياطاتنا عند اقترابنا منها.

على طول الطريق المَشيُ سهل. نحن دائما في منطقة جبلية ؛ إذن كثير من الصعود والنزول ؛ منطقة تكثر فيها الصخور على العموم ولكن ليس هناك ممر

ذو صعوبة بتاتاً. في البداية، عند أسفل وادي محَجْرة ، المنطقة ذات مظهر متوحش ؛ النهر متعمّق بين حافتين عاليتين. تغطيهما الأحراش من الآس والخلنج والدوم وخاصة الضرْوُ بكثرة. انطلاقا من هاتين الحافتين ؛ في اتجاه الغرب ؛ لا ترى العينُ إلا متوناً طويلة مُشجرة الواحدة تِلْوَ الأخرى ؛ وفي اتجاه الشرق لا ترى إلا الحاجزَ الصخريَ العاليَ الذي يعمم جبل بني حسان. ينتصب هذا الجبلُ مستقيما فوق رؤوسنا. لا يوجد بينه وبين الضرو إلا قطعة أرض ضيقة مزروعة. أما النهر فإنه سيل ذو مياه خضراء متدفقة. لكن يتغير المشهد بعد شيء من الزمن. تتسع رُقعة المزروعات وترعى قطعان البهائم في الأحراش ويصادف المرء بعض القرى. نتابع السير دائما. يتخذ اسما آخر : وجود نخلة منعزلة على ضفته ؛ جعلته يُسمَّى واد النخلة. في هذه اللحظة يحدث تغير تام : ينمحي الدوم والضرو ؛ تصير السفوح كروية الشكل وتصبح أضلاعاً لينة إلى حد ما وتغطيها المزروعات. يظهر جبل بني حسان بمنظر ساحر : تتدرج حقول القمح على جانبه تكسوه ؛ انطلاقا من الصخور التي تتوجه حتى نهاية الوادي ؛ غطاء ذهبيا : تلمع ، وسط حقول القمح ؛ آلاف القرى المحاطة بالحدائق التي ما هي إلا حياة وثروة وطراوة.

ص 6

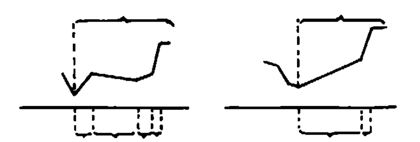
تنبعُ عيون من جميع الجهات وفي كل لحظة نعبُر جداول تتدفق على شكل شلالات بين الخنجار والدّفلى وأشجار التين والكروم التي تنبتُ من تلقاء نفسها على الضفاف. لم أرَ في أي مكان آخر مشهداً أكثر مَسَرَّة ولا مظهَرَ غِنىً ولا أرضاً أكثرَ عطاءً ولا أناساً أكثرَ اجتهاداً في التحصيل مثلما هم عليه هنا.

لا تتغيّر المشاهد من هنا إلى الشاون : يتغير إسم الأودية لكن نجد نفس الثروة في كل مكان بل وتزداد كلما تقدمنا سيرا. وصلتُ إلى وادي أرْزاز. الآن تَنْتَشِر القرى بدون انقطاع. نسير على طريق تحيط به أشجار الورود المُزْهِرة. الطريق محاد دائماً للبساتين. نسير تحت ظلال أشجار الرّمّان والتّين والمشمش والعنب التي تغطي عراجينها الأشجار المجاورة لها. الجداول بكثرةٍ إلى حدّ أننا نكاد نسير دائما في الماء. في هذه الظروف وصلتُ إلى مكان قريب من الرافد حيثُ تنتهي بلاد المخزن مع مغادرة أراضي بني حسان : انطلاقاً من هنا تبدأ أراضي الأخماس ؛ وهي بلاد السِّيبة لا يمكننا أن نسير عبرها بمُفردِنا إلى أبعد من هنا. زد على هذا أن الساعة هي السابعة مساء ؛ لذا توقفنا في قرية جميلة حيث استضافنا الأهالي.

هنا، تختلف المساكن جدّا عن الأكواخ التي تراها العين قرب مدينة تطوان. هذه المساكن دورٌ بعضها من المُقدار وبعضها الآخر من الآجر. كل هذه المساكن حسنة الإنجاز ومسقوفة إما بالقش أو بالقرميد وليست لها سطوح. يوجد قرب المنزل حقل من الأعشاب وتحيط به أسوار قصيرة وتظلله أشجار تين عتيقة : إلى هنا ؛ وكل مساء ؛ ترجع قطعان الماشية التي ترعى خلال النهار في الجبال.
7 تجري في أزقة القرية جداول حاملة الماء أمام كل باب. كل شيء نظيف وطريّ ومبتسم.

كان هناك مارة بالطريق طيلة اليوم وكان بالحقول جماعات من الفلاحين. وكما قلتُ سابقا أكثرية المزروعات من القمح ؛ إلا أن هناك أيضاً الشعير ، وهنا وهناك بعض حقول الذرة. جَدْوَلاَنِ مُهِمَّان : واد تطوان «ضفاف من طين ؛ تقريبا عمودية ؛ علوها 4 إلى 5 م. ؛ سرير اتساعه 12 م. ؛ مياه جارية عمقها 50 إلى 60 سم ؛ قعر الوادي من رمال» وواد محجرة (هذه حاله في السافلة : ضفاف غيرُ واضحة المعالم ؛ مياه خضراء ؛ اتساعه 6 إلى 8 م.، 30 إلى 40 سم عمقا ؛ متَعرّجا في سرير أوسع من حصى ؛ تيار أسرع).

جبل بني حسان كتلة لافتة للنظر إلى أبعد حدّ : يتخذ السفح الغربي منه الشكل التالي [أي مظهر حرف ألف الإغريقي] وفي منطقته الجنوبية هذا الشكل [أي مظهر حرف باء الإغريقي] ؛





والقمم الأكثرُ علوا والتي تعطينا الخرائط البحرية قيمة ارتفاعاتها ؛ 1410م. ؛ 2210م. ؛ 1818م. ؛ لا يمكِن رؤيتها من داخل الأودية. يُتَوَّجُ جبل بني حسان من هذا الجانب جدار شاهق من صخور رمادية ذات أعرافٍ مستقيمة تعطيه

المظهر الأكثر غرابة : كما لو كانت مجموعة من صخور جبل طارق المجاور موضوعة فوق مَرْق من الجبال، وهي الوضعية التي سينتج عنها شيء كهذا [أي مظهر حرف ياء الاغريقية]. يبدو لي العرف الأعلى من هذا الجدار على ارتفاعات متجانسة تقريبا يمكن أن تتأرجح بين 1200 و1500م. تظهر للنظر في هذا المجال بعض الغلات الزراعية في مكانين أو ثلاثة أمكنة توحي بوجود هضبة.

3 يوليوز

على الساعة 3 و30 دقيقة صباحا بدأنا السير. يصاحبنا شاب من القرية التي قضينا فيها الليلة. منحنا أبو الشاب عنايته مُقابِلَ أجرة ضئيلة ؛ وأعطانا الشاب ليقوم مقام الزطاط [nbp]. إن الشاب غير مُسَلَّح كما هو حال جميع الناس الذين صادفناهم من تطوان إلى الشاون.

ص 8 قطعنا أوّلا المنحدرات الأخيرة لجبل بني حسان ثم سرنا في قعر الوادي الذي يَمْتدّ أمام أعيُننا ودخلنا بعد لحظة وجيزة بلاد الأخماس. إنه دائما نفس الرخاء ونفس الغِنى : يدحرج واد لحْشايَش مياهه الهادئة تحت ظلال أشجار زيتون طاعنة القِدَم وتكسو وَادِيه حقول ناضرة من القمح حيثُ تعملُ بانشراح جماعة من الحصادة، لا نجِد الدوم من جديد إلا في المنحدرات الأولى لجبل مَزْجَل الذي هو امتداد لجبل بني حسان. هذه المنحدرات مفرطة الوعورةِ هنا إلى حد أنها غير قابلة للحرث حتى وإن كانت هذه الحالة لا تدوم إلا قليلا : عند تخطّي أول حافة تصبح الأضلاع أكثر ليونة. دخلتُ مدينة الشاون بين الحقول الذهبية بعد قطع جداول لا تحصى.

لا تبدو **مدينة الشاون**، الموغلة داخل إحدى ثنايا الجبل، إلا في آخر لحظة. تسلقنا كل المستويات الأولى للسلسلة الجبلية ووصلنا إلى الحاجز الصخري الذي يُتوّجها وَسَايَرْنا بصعوبة قدَمَه وَسَطَ تيْهٍ من قِطع هائلةٍ من الأعبل، حيث حُفِرَت مغارات عميقة : فجأة تنتهي هذه المتاهة. ترسم الصخور زاوية : على بعد 100 م. من هنا تظهر المدينة متكئة على جبال ذات سفوح مستقيمة من جهة وتحيط بها بساتين خضراء دائما من جهة أخرى. كانت الساعة 6 عندما وصلت إلى المدينة. في هذه الآونة كانت أشعة الشمس الأولى بدأت فقط في إضفاء ألوان ذهبية على قمم المآذن ؛ تاركة في الظلام الكتل الدّاكنة للقمم الجبلية العالية المشرفة

عليها : كان مظهر المدينة خلاباً. قصبتها القديمة ذات المظهر الفِيُودالي ؛ منازلها المغطاة بالقرميد ؛ جداولها المتدحرجة من جميع الجهات، كل هذا يجعل المرء يتخيل نفسه أمام نهر الرّيْن بدل إحدى قرى الريف الأكثر تعصباً. الشاون ؛ ذات السّاكنة التي تشتمل على عدد كبير من الشرفاء [nbp] مشهورة فعلا بعدم تسامحها. لازال يحكي الناس فيما بينهم ما لقيه ذلك الإسباني السّيّء الحظ من عذاب. الذي أراد ؛ قبل 20 سنة خلتْ ؛ أن يدخل المدينة. وحتى اليهود الذين 9 يُسْمَحُ بوجودهم معرضون لأقبح المعاملات. يعيش هؤلاء اليهود متجمعين في ملاحهم ولا يمكنهم مغادرته دون أن يُهاجموا بالحجارة. عبر طول أراضي الأخماس لم يمرّ أحد بجواري دون أن يُحَيِّيَني بسبّةٍ «الله يحرق بوك آليهودي» (ها : هذه لفظة واردة في النص الفرنسي بصيغتها العربية) أو بشتمة مماثلة. يسكن بالمدينة 3000 أو 4000 نسمة ضمنها نحو 10 عائلات يهودية.

السوق بالشاون يوم الأحد. إنها مدينة غيرُ مسوّرة ؛ يرتفع خلفها الحاجزُ الصخري العالي الذي يعمم جبل مزْجلْ ؛ وأمامها تنطلق حدائق رائعة تنتشر على ابط الجبل محتلة مجالا ساشعا. ما تنتجه هذه الحدائق مشهور في كل شمال المغرب وخاصة أعنابها. كما أن المدينة مشهورة بجودة مياهها.

خلال هذا الجزء الأول من سفري صادفتُ كثيرا من الناس أثناء الطريق الذي كان دائما سهلاً : فقط عقبة واحدة وعرة بعض الشيء ولم يكن هناك وَلَوْ ممر واحد ذو صعوبة. تربة طينية ؛ قليل من الفتاتات الصخرية. اخترقتُ جدولين مهمين : واد أرْزاز (جوانب طينية علوها مترْ واحدْ ؛ ماء صاف وجار عمقه 60 سم. ؛ سرير من الدماليك اتساعه 8 م.) وواد لحْشايش (مجرى من حصيم مليء بالماء اتساعه 10 م.، ماء صافي وجاري عمقه 60 سم). جبل مزْجَل ؛ مُماثِل جبل بني حسان، ما هو إلا استمرار لهذا الأخير تحت اسم آخر ويُشاهدُ مسترسلا بعيداً في الجنوب، حاملا هذ المرة اسم جبل الأخماس.

حوالي الساعة 7 صباحا غادرت الشاون لأسير من جديد في اتجاه تطوان. لا جديد يُذكر. أتلذذ بهذه الكمية العجيبة من الماء الجاري التي يصادفها المرء على طول الطريق : لم أرَ في أي مكان آخر، اللهم في الأودية العليا بسويسرا، عدداً أكبر من الينابيع والجداول الصغيرة والكبيرة، كلها ملأى ماء عذبا وصافيا، يحسن الناس الانتفاع من كل هذه الخيرات، ليس هناك قطعة أرض قابلة للاستغلال

لم تُزرعْ : تشاهد حقولا مُعَلقة في أماكن تبدو ممتنعة المنال. خلال سيري صادفت حاجا [nbp 2] سائرا في نفس اتجاهنا. لما علم أنني أجنبي حيّاني باللغة الفرنسية وتجاذبنا أطراف الحديث.

ص 10 كنت لاحظتُ، مند وقت، وهذا أمر لم انته من معاينته فيما بعد، أن الحُجَّاج، بصفة عامة، أكثر أدبا وبشاشة من باقي المسلمين. إنه من غير الصواب أن نتخيّل في بعض الأحيان، أنهم يرجعون من الحج وهم أكثر تَزَمتاً وأقلّ تسامحا مما كانوا عليه قبل حجّهم. بل يحدث العكس : يجعلهم سفرهم الطويل على اتصال بالغربيين فَيُرِيهِمْ سفر كهذا أولا أن ليس هؤلاء الغربيون بالوحوش المخيفة التي وُصِفَتْ لهم فيُفاجأ هؤلاء الحجاج ويعترفون بالجميل لمّا لَمْ يجدوا لَدَيْنَا أي عداء نحوهم، ثم تجعلهم سفننا البخارية وسككنا الحديدية يُعجبون بنا عند رجوعهم من الحج : ليست ذكرى الكعبة التي تسكن عقلهم بل ذِكرى عجائب البلدان النصرانية وذكرى الاسكندرية وتونس والجزائر. في كثير من الأحيان، وبدل أن يزيد الحج في تزمتهم فإنه يُحضِّرهم ويُفَتِّح عقولهم.

مهما كانت سرعتنا في السير فإنه لم يكن من الممكن الوصول إلى تطوان في نفس اليوم. قضينا الليلة في إحدى قرى بني حسان واستأنفنا سيرنا الغد جد مبكر، في الساعة 6 كنا في مدينة تطوان.

بني حسان، الذين كنتُ أسير في أراضيهم خلال الجزء الأكبر من هذه الجولة، من جنس ومن لغة تمازيغت وينعتُون بالقبائل [nbp]. جميع أراضي الكتلة الجبلية التي تحمل اسمهم ملك لهم. تبدو هذه القبيلة غنية وعديدة الأفراد إذا ما اعتبرنا عدد وأهمية القرى وخصوبة الأرض والزراعات الغنية التي توجد بها والناس الذين نصادفهم خلال الطريق، إنها قبيلة جد ورعة إذا ما اعتبرنا نسبة الحجاج فيها.

ص 11 وعدد الأضرحة والزوايا وإذا ما اعتبرنا المسافات الشاسعة التي يفرضها علي تغيير الطريق المباشر، عبر الحقول، كل مرة كنا نقترب فيها من أحد هذه الأماكن الموقرة خشية تدنيسها من جراء وجود يهودي.

اللباس عند هذه القبيلة، كما هو الشأن عند قبيلة الأخماس، كالتالي : بالنسبة للناس ذوي يُسر، سروال ضيق ينحصر فوق الركبتين، قميص قصير بدون أكمام من صوف أبيض، يصل إلى منتصف الفخذ وأخيرا جلباب داكن وبلْغَة صفراء

[nbp] وطربوش أحمر، ويُحْذفُ هذا الأخير في كثير من الأحيان : اعتاد سكان المغرب في جميع أنحاء البلاد على ترك الرأس عاريا مهما كانت حرارة الشمس وهذا رغم كون اكثريتهم يحلقون شعر رؤوسهم. وليس للفقراء إلا قميص من صوف أبيض وجلباب أو سلهام من نفس الثوب ولا شيء على الرأس أو تلفه قطعة نسيج بيضاء أو حمراء تاركة الجُمْجُمة عارية. الأرجل عارية أو بها نعل. هنا يحلق قليل من الناس شعرهم على الطريقة الأوربية، وإن وُجِدتْ هذه الحالة فهي حالة استثناء إذ يُكتفي بترك الشعر قصيراً. لا شيء خاص يذكر بالنسبة للباس النساء : يلبسن ما يُلْبَسُ في التل الجزائري وهو دائما من الصوف والقطن الأبيض. لا تلبس النساء حجابا، وللعمل في الحقول يلففن حول ساقيْهن قطعة سميكة من الجلد الأشقر معقودة في الأمام بإبزيم : شيء يُشبه اللفافة التي كان يلبسها لائرت Laërte عندما كان يشتغل في حديقته.

الرجال، على العموم، جد جميلين وخاصة ذوو بأس، النساء بشعات المنظر وعاديات الملامح. ورغم أن تمزيغت هي اللغة المتداولة بينهم فأكثر أفراد قبيلة بني حسان يستعملون اللغة العربية لكن يضيفون إليها عدة تعابير دخيلة وهذه حال أداة حرف د التي يجعلونها تسبق الأسماء في حالة الإضافة : فهم يقولون «واد د نّخلة»، «جبل د الأخماس»... من جهة أخرى، يوجد هذا الاستعمال لحرف د في المغرب بأجمعه وله نفس المعنى لحرف الإضافة de في لغتنا الفرنسية. ولكن لا يوجد في المغرب أي مكان آخر يُسْتعمل فيه هذا الحرف بكثير من الإسراف إلا في أحواز تطوان.

4 ـــ من تطوان إلى فاس

4 يوليوز

خلال هذا اليوم الأول من السير أكتفي بالالتحاق بالفندق الذي كنت مررتُ أمامه سابقا ما بين طنجة وتطوان : سبق لي وصف الطريق فلن أتحدث عنها. اتفقت مع بغّال مسلم على الثمن لإيصالي إلى فاس : سرت هذا الصباح بمعيته. قافلتنا غيرُ وافرة الأفراد : كل ما يكونها 10 بهائم حمل والبغّال وابنه وخادم إضافة إلى مردوشي.

ص 12 وأنا. ليس هناك ما يُقلق البال خلال الطريق الذي نسلك من هنا إلى فاس، : سنكون دائما في بلاد المخزن وفي أرض مأهولة فلا داعي إلى خفر. الفندق حيث قضينا الليلة مكان مُسَوّر، مربع الشكل، بداخله سقيفة، يستقر المسافرون في هذا الملجأ وتبقى الحيوانات وسط الحظيرة. يتقاضى صاحب المكان أجرة ضئيلة مقابل إيواء البشر والبهائم، إضافة إلى هذا فإنه يبيع الشعير والتبن لإطعام البهائم. المؤسسات من هذا النوع قليلة في البوادي بالمغرب وكثيرة جدا بالحواضر : في المدن يعلو السقيفة طابق تصطفّ فيه بيوت صغيرة ذات أقفال تكرى للأجانب، هذه هي النُزُل الوحيدة الموجودة لإيواء العابرين. يبدو الفندق حيث نزلنا كثير الزبناء. يوجد به عند المساء حوالي 50 مسافرا والساحة ملأى : تتزاحم فيه خيول وحمير وبغال وجمال دون نظام مع قطعان الأبقار والأغنام.

5 يوليوز

في 4 صباحا، غادرنا الفندق. تعززت القافلة بثلاثة أشخاص : رجل مسافر إلى فاس وبيده قفص فيه طيور الكناري. يقوم بهذا السفر قصد بيع هذه الطيور. إنه يؤمل ربحاً قيمته 30 فرنكا تقريبا. وثاني الأشخاص المنضافين إلينا كانت امرأة وطفلتها الصغيرة. كانتا ذاهبتين لستُ أدري إلى أين. تقع الطريق اليوم في منطقتين جدّ متباينتين : أوجد، خلال الجزء الأول من اليوم، في منطقة جبلية، كثيرة الأمطار، مشجرة في كثير من الأحيان ؛ إنها المنحدرات الأخيرة للجانب الغربي لجبال الريف. ثم حوالي الظهر، بعد ما اخترقنا فجّا ذا جوانب صخرية ووعرة، نفدتُ إلى سهل شاسع ذي تموجات لينة حيث مشيت حتى المأوى. هذا السهل الذي تغطيه، تارة، حقول القمح والذرة، وتارة أخرى تكسوه المراعي وتارة أخرى تنتشر فيه نوارة نبيلة [nbp]. يمتدّ هذا السهل على مد البصر في اتجاه الغرب والجنوب وفي اتجاه الشمال والشرق. تحده سلسلة طويلة من مرتفعات مائلة إلى الزرقة يميّز المرء على جوانبها قرى بيضاء وبقع البساتين الداكنة. تمثل المنطقة الجديدة حيث أوجد وحيث سأستمر حتى نهر سبو وتشكل اختلافا كبيرا بالمقارنة مع المنطقة التي أغادرها : هناك ما كان المرء يرى إلا المداشر، هنا لا يرى تقريبا إلا الخيام، هناك مجموعة من الحدائق هنا لا يرى ولو شجرة واحدة، هناك الماء الجاري بكل الجداول والأنهار، كلها كانت تحيط بها الدفلى، هنا كثير من المجاري جافة أو ما ببعضها إلا ماء عفن والدفلى قد اندثرتْ. لكن، ودون أن

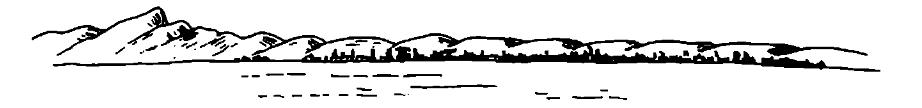
تكون مبتسمة مثل المنطقة الأولى، فإنها لا زالت بلدا غنيا : التربة، طينية في كل مكان، قابلة كلها للزراعة، تُغطي حيزاً منها بعض الحقول الغنية من قمح وشعير وذرة في بعض الأحيان، دالة على خصوبتها. زد على هذا توفرها على الأنهار المتعددة وكون الماء غير منعدم ولو أن الفصل فصل صيف حتى وإن لم تكن بها تلك المياه الندية والعذبة التي كنتُ أتلذذ بها قرب تطوان.

س 13

توقفنا عن السير في الساعة 4 مساء في إحدى قرى بداوة [nbp]، في مكان تقام به سوق أسبوعية هو سوق أربعاء بداوة. خلال هذا اليوم، ما صادفت خلال السير إلا ممراً صعبا واحدا : كان ذلك عند جوار الفج المذكور أعلاه. من بين مجاري المياه المخترقة للمنطقة ثلاثة مجار لها بعض الأهمية. إنها واد لحريشة «أصواح وعرة، علوها ما بين 2 إلى 3م.، عرض السرير 6م.، ماء صافي عمقه 50 سم، يسيل في سرير من جلمود خشن، تيار سريع» ؛ واد الخروب «أصواح طينية وعرة ؛ 32م. علوا 5,2م. اتساعا ؛ ماء صافي وجاري عمقه 50 سم ؛ سرير من حصيم» ؛ واد عيشه «6م. اتساعا، ماء عمقه 50–60 سم. ؛ تيار ضئيل». بصفة عامة ؛ أعداد قليلة من البشر في الطريق ولكن في بعض الأماكن كان كثير من العمال في الحقول. في كل مكان ؛ انطلاقا من تطوان حتى فاس، الناس في حصاد. في كثير من الأحيان ؛ القرى التي صادفتها في طريقي كانت كبيرة الحجم إلا أنها كانت ذات مظهر بائس : الخيام ؛ صغيرة ورديئة الصنع يفصل بين أطرافها وبين الأرض 80 سم [nbp]، الشيء الذي يترتب عنه وجود فراغ غير محكم الأقفال موصد بفاصل من نوارة هبيله، هذا مع العلم إن كان كل السكن ليس من الخيام ؛ إذ في كثير من الأحيان تختلط هذه الأخيرة مع أعشاش نوارة هبيله. تتجمع الخيام والأعشاش بدون انتظام ؛ في شكل مجمَّع يذكّر بالدوار في معناه الأصلي. وهذه حال جميع التجمعات السكنية من تطوان حتى فاس.

6 يوليوز

المغادرة في الساعة 5 صباحا، تابعتُ السير طوال النهار عبر الجبل المتموج الموصوف البارحة. لا يتغير فيه أي شيء : نفس المشهد، نفس الناس، نفس الأفق،



القصر الكبير وبساتينه / جبل صرصر

فقط، ابتداء من الساعة 11 بدا لي جبل صرصر. تبدو قمته الضخمة نحو الشرق على الارتفاعات التي ترى من هذا الجانب، وتقع مدينة القصر الكبير في وسط السهل. دخلنا المدينة في الساعة الرابعة مساء.

ص 14 عدد المسافرين اليوم أكثر مما كانوا عليه البارحة على طول الطريق. مجرى الماء الرئيسي الذي اخترقناه هو واد المخازن «أحواض طينية، 4، أو 5م. علوا، 10 إلى 12م. عرضا ؛ ماء جار نقي، 50 سم عمقا».

هذا المساء، وقع حادث ضمن القافلة عند دخولنا المدينة : أخبرنا الرجل ذو الكناري بزواجه أثناء الطريق. تعرف على مشاركتنا في الطريق «المرأة التي كانت معنا في القافلة» فأعجبته فعرض عليها الزواج فقبلت عرضه وسيتزوجان في مدينة القصر. ستباع طيور الكناري بأي ثمن كان وسيمول محصول هذه الصفقة المهر ومصروفات العرس.

7 يوليوز

اليوم يوم سبت. يلزمني ألا أبرح مكاني خلال 24 ساعة. ضمن جميع الهموم التي فرضتها علي وضعيتي كيهودي لا أعرف هما واحدا منها يقترب من هذا الهم المتمثل في إضاعة 52 يوما في السنة. بعض يهود المغرب متفقون على أن التوقف يوم السبت يكون المبدأ الأكثر إعجابا من بين مبادىء ديانتهم ؛ أما أنا فلم أجد فيها أي شيء أكثر قساوة. يريد المرء أن يتابع السير فلا يستطيع ذلك. يكون المرء على سفر فيجب عليه الاستقرار. ولا ضرر في هذا لو كان من الممكن الاستفادة من هذا التأخير لتسجيل ملاحظاتي إلا أن هذا الأمر يكون تقريبا دائما مستحيلا. هل يوجد المرء وحده ؟ عليه أن يُرْتِج بابه ويردم الثقاب وإذ ذاك فقط يمكنه العمل. لكن ما أصعب أن يجد المرء نفسه وحيدا هذا اليوم ! ويجب ألا تفاجأ وأنت تحرر إذ ذاك قد يفشى سرك وسيعلمُ الآخرون أنك لستَ يهوديا. هل رأيتم يوما في المغرب يهوديا يكتب يوم السبت ؟ إنه محظور كما هو الأمر بالنسبة

للسفر وإشعال النار وعد الدراهم والتذاكر في أشياء تجارية وأشياء أخرى لا تحصى. وكل هذه التعاليم الدينية مراعاة وباهتمام كبير من طرف يهود المغرب !

بالنسبة ليهود المغرب تتمثل الديانة كلها في هذا : الأوامر الأخلاقية ؟ إنهم ينكرونها ؛ وما الوصايا العشر إلا خرافات قديمة صالحة في أحسن الأحوال للأطفال. وأما فيما يرجع إلى الصلوات الثلاث اليومية والأذكار التي تجب قراءتها قبل وبعد وجبات الأكل ؛ واحترام السبت والأعياد فلا شيء في الدنيا ؛ حسب ظني، يمكنه أن يجعلهم يتأخرون عنها. ذوو إيمان جد قوي فإنهم يوفون بشعائرهم الدينية إزاء الرب ويسترجعون ما ضاع منهم على حساب البشر.

إلا أنني في هذا الظرف لستُ في حاجة أن يُرثى لحالي كثيرا : سأغتنم الفرصة لزيارة المدينة. لقد استحقت هذه الأخيرة في الماضي اسم القصر الكبير، إلا أنها اليوم جد سيئة البناء وذات مساكن غير مطلاة بالجير [nbp] ليست لا كبيرة ولا محصنة الشيء الذي يضفي عليها مظهر الوسخ والحزن. إنها أقبح مدينة رأيتها في المغرب. ينقصها الماء فيضطر الناس إلى جلبه من نهر اللوكس في قِرَبٍ على بعد نصف ساعة سير.

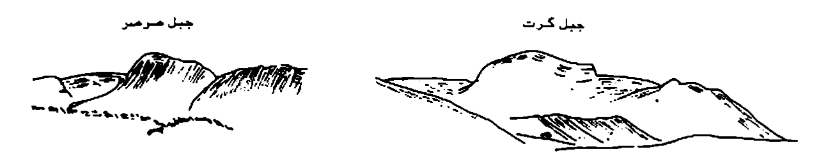
يقدر السكان بـ 5000 أو 6000 نسمة منهم ما يقارب 1000 يهودي.
15 كان هؤلاء فيما مضى مجمّعين في ملاح. وبما أن هذا الأخير أصبح ضيقا فإنه يسمح لهم اليوم بالسكن في أي مكان من جهات المدينة. رغم هذا التساهل يبقى من الصعب على اليهودي أن يجد مسكنا : وجدت كل أنواع الصعوبات للحصول على غرفة ؛ وأي غرفة ! لم أظن يوما أن كمية من العنكبوت والفئران مثل هذه الموجودة في هذه الغرفة كان في إمكانها أن تتجمع في مجال ضيق مثل هذا ! أما فيما يرجع إلى التحصينات القديمة فلا يجد المرء لها إلا قليلا من الأثر : يتمثل كل ما بقي منها في بعض أجزاء الأسوار المتهدمة من تراب مدكوك والقائمة هنا وهناك بجوار المدينة. أحد الأشياء التي يلاحظها المرء بكثرة في هذا المكان الأعداد التي لا تحصى من اللقالق إذ لا يوجد منزل بدون عش لهذه الطيور. أظن أن عددها يقارب عدد سكان المدينة. مدينة القصر مقر إقامة حاكم، خليفة عامل العرائش [nbp].

توجد بقرب المدينة بساتين شاسعة لاحظت بها مغارس غنية من البرتقال يهتم

بها بعناية ومسقاة عن طريق النواعير. لكن هذه البساتين تبقى حالات استثنائية : على العموم. اتساع هذه الحدائق أكثر من ازدهارها. تنتج قليلا من الفواكه وأكثر ما يُستهلك من الفواكه يأتي من طنجة أو تطوان.

8 يوليوز

الذهاب في الساعة 5 صباحا. أسير في نفس السهل : الطريق كما كانت عليه قبل البارحة شمال مدينة القصر وستكون أيضا كما كانت خلال هذا اليوم كله. ما هناك إلا فارق واحد : تختفي مجموعة القمم التي كانت تجاور السهل لتحل



محلها الكتل الضخمة لجبل صرصر وجبل كَرْتْ. في الساعة الثالثة بعد الزوال وصلنا إلى شَمّاخة، وهي قرية صغيرة حيث علينا أن نقضي الليل.

لم أعبر اليوم إلا نهرا واحدا إلا أنه مهم : إنه واد اللوكس «أصواح من طين مستقيمة، 7 إلى 8م. ماء جار، 60–70سم عمقا، 20–25م اتساعا، مجرى من الحصيم».

القافلة التي تعبر هذه المناطق تواصل السير دائما، أفرادها أكثر عددا مما كانت عليه عند الانطلاقة. يلتحق بها خلال السير جميع المسافرين الفرادى الذين نصادفهم والذين يسيرون في نفس الاتجاه. ينضاف إليهم في كل نزالة بعض الأشخاص الذين يغتنمون فرصة السفر جماعة، إذ يقول الناس «لعْماره مليحة» أي «الجماعة مفيدة» ذلك أن الجماعة أمن وفي كثير من الأحيان اقتصاد. بعد أن كنا خمسة في بداية السفر ها نحن الآن اثنا عشر وسنكون خمسة عشر أو عشرين عند وصولنا إلى فاس.

ص 16



الذهاب على 5 صباحا، أسير في نفس سهل الأيام السابقة حتى المأوى.

مظهر المنطقة يتغير بعض الشيء. بدأ يتغير حوالي الساعة 9 والنصف، حدود أولاد عيسى. إلى هنا كان نفس السهل ذي التموجات الخفيفة. تتابع هِضاب الارتفاع تخترقها أودية غير عميقة. انطلاقا من هنا تتعمق التجاعيد وتتجسم التضاريس. إلا أن تموجات الميدان لازالت ضعيفة ويمكن اعتبار المنطقة من هنا إلى واد سبو جزءا من تلك التي دخلت فيها يوم 5 يوليوز. لكن ؛ من عدة جوانب، إنها تُعلن عن المنطقة التي سنجدها على الضفة اليسرى للنهر : فمند الآن تغطي البساتين سفوح الأودية، ومنذ الآن تظهر على الأضلاع مزارع الزيتون والكروم والتين ومنذ الآن تتوج القرى التلال. إضافة إلى هذا، فإن نوارة هبيلة هذه النبتة الغريبة والتي تغطي جانبا من السهل الذي انتهي من اختراقه، صارت نادرة وبالعكس، بدأ العناب البري يتجلى، منذ أن دخلت بلاد أولاد عيسى فإني أرى منه هنا وهناك ادغالا في البادية.

نصادف أناسا أكثر عددا من البارحة وتبدو المنطقة أكثر سكانا وثروة. حوالي الساعة 3 والنصف وصلنا إلى وادي نهر سبو. أقل اتساعا مما هو عليه في واد ورغة فإنه أوضح المعالم كما هي عليه بالنسبة لنهر سبو. يحد قعره، عند كل جهة، حافة مزدوجة ذات انحدار جد وعر. هذا القعر رملي في بعض أجزائه. يجد فيه المسافر المزروعات وفي وسطه يسيل نهر سبو، راسما منعرجات كثيرة. متوسط عرضه 60م وعمقه مترا واحدا، يسيل بين صوحين من تراب علوهما 3–4م، مياهه أقل صفاء مما هي عليه مياه واد ورغة لكن تياره أسرع إلى أبعد حد. لقطع النهر، اغتنمنا ممرا حيث يصير النهر ذا عرض أكبر وينقسم إلى ثلاثة فروع. خلال اليومين الأولين وجدت عمقه يقدر بـ 50 سم. وخلال اليوم الثالث كان قدر عمقه 70سم. وكان استاع النهر 50م. وكان السرير من دماليك غليظة.

توقفنا في دوار، على الضفة اليسرى للنهر، على مقربة كبيرة من صخر منعزل اسمه الحجرة الشريفة التي اعطي اسمها لهذا المكان. هنا أيضا حصل مرافقي على صيد وافر. من نهر ورغة إلى نهر سبو لم اقطع إلا جداول.

11 يوليوز

الذهاب في الساعة 5 صباحا. وصلنا إلى وسط كتلة جَبْجَبْ نفسه بعدما ارتفعنا درجات درجات، مخترقين مجموعة اضلاع قطعتها أخاديد عميقة ما. قمنا

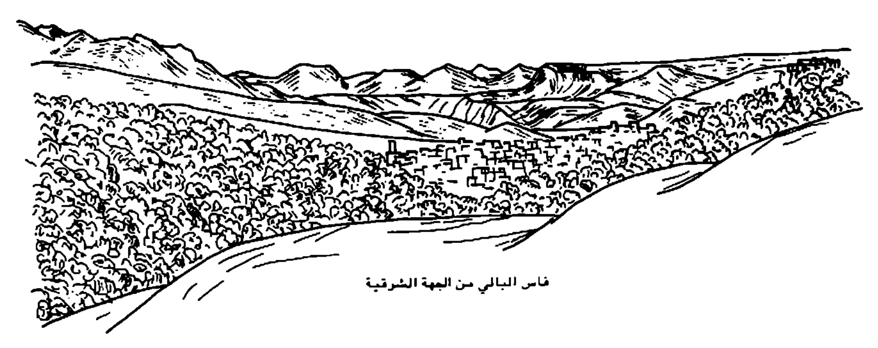
بتسلق هذا الجبل : يبقى السطح مُترِباً لكن الطريق ؛ ذو انحدار وعر، يصبح صعبا. يعوض جمال المشهد تعب الطريق : لا يرى المرء حوله إلا مزارع كروم وزيتون شاسعة ممتدة على سفح الجبل ومتوّجة قمته، ثم بين فينة وأخرى، يلمح البصر في اتجاه اليمين القمة العالية لجبل طغات، أو، في البُعد، شبح جبل زرهون الرمادي. بلغت الفج الواقع تقريباً على مستوى قمم الكتلة الجبلية عند الظهر.

ص 18



من هنا يتمتع المرء بمنظر عجيب : على اليمين جبلا تغات وزرهون وعلى اليسار الضلع الصخري لجبل زلاغ، وفي الأمام، راسمة حدود الأفق على طول امتداده، مجموعة غير واضحة المعالم لجبال بعيدة تشرفُ عليها القمة العليا لجبل غياتة والأعراف المغطاة بالثلوج لجبل بني وَرَاين : وسط هذا الحزام الشامخ عند قدم جبل جبجبْ نفسه، تَطلِعُ فاس، بارزة مثل جزيرة بيضاء وسط بحر بساتينها الداكن.

النزول من الفج سهل. في الساعة الثانية وصلتُ إلى باب الساكَمة ودخلت مدينة مولاي إدريس العتيقة.


فاس البالي من الجهة الشرقية

خلال هذا اليوم ما فتئت جمهرة من المسافرين تجوب الطريق : من الحجرة الشريفة إلى فاس، المنطقة في منتهى الغنى يتخللها زراعات وقرى وبساتين ومزارع كروم وزيتون. بعض الشعاب مشجرة. قليل من الأماكن غير محروثة ويغطي الأماكن الباقية العُناب البري والدوم. اندثرت نوارة لهبيلة تماما. قليل من الماء

الجاري لكن كثير من العيون والآبار. على الساعة 7 والنصف مررت وسط أربعاء أولاد جمعة. كانت به حركة تجارية رغم الوقت المبكر. كان بالسوق 300 أو 400 شخص، يأتي الناس إلى السوق من كل صوب وحدب.

5 ـــ إقامة بفاس

19 خلال مروري بطنجة أعطاني السيد بن شيمول، ذو الاسم المعروف في فرنسا عن طريق الخدمات المهمة التي، منذ أكثر من قرن، ما فتئ يقدمها لبلادنا، رسالة لأحد التجار الرئيسيين بفاس، السيد سمَوْءل بن شمعون. لما وصلت إلى مدينة فاس طلبتُ مباشرة أن أصل إلى منزل هذا الأخير فاستقبلني أحسن استقبال. خلال هذا طلبتُ منه فوراً مساعدتي للالتحاق بمنطقة تادلة فوعدني أن يحقق رغبتي وعرض علي الضيافة بحرارة كبيرة إلى حد أنني لم أتوَانَ في قبولها. زد على هذا أني كنتُ قررتُ ألا أقضي إلا وقتا قليلا بفاس : هذه المدينة قد سبق وصفها في عدة مؤلفات بكثير من التفاصيل وبطريقة أحسن مما يمكن أن أقدر عليها. لم يكن علي أن أدرس فاس بل على العكس كنتُ أتحَرَّقُ على مغادرتها لأصل إلى الأراضي المجهولة. إذن تضرعتُ إلى السيد بنشيمول كي يُعجل بذهابي إلى منطقة تادلة. كنتُ أرغب في الذهاب إليها سالكا الطريق عبر الكتلة غير المكتشفة التي توجد فيها قبيلتا زمور الشلح وزيان.

ما كنتُ أرغب فيه لم يكن بالأمر الهين كما كنتُ ظننته : أولا لم نحصل إلى على المعلومات الأقل تشجيعا. كانت الطريق الذي كنتُ أنوي سلوكها غير صالحة ولا أحد كان يستعملها أبدا. ثم كانت قبيلتا زمور الشلح وزيان متوحشتين إلى حد كان من المستحيل على المرء أن يسافر عبر أراضيها فكان من الواجب عدم التفكير في اتباع طريق كهذه.

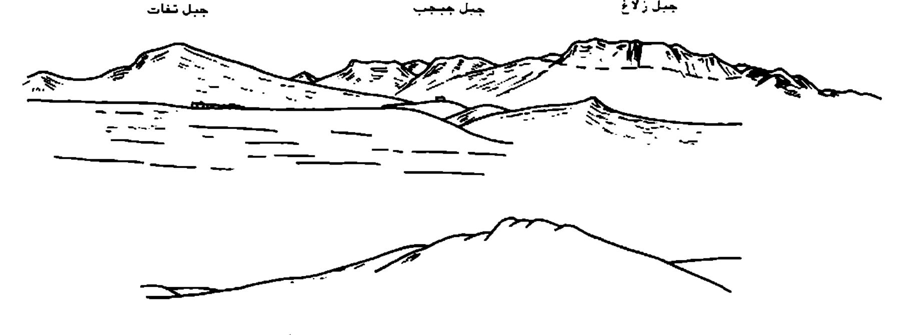
ومن جهة أخرى ألا توجد طريق أخرى تكون أكثر أمنا بقدر ما هذه الأخيرة غير آمنة ؟ إنها الطريق المعتادة والتي تمر عبر الرباط والدار البيضاء. عبثا حاولنا أن نبحث ؛ أن نسأل الناس ؛ أن نتزود في هذا الموضوع فكان هذا كل ما تمكنا من الحصول عليه. بعد ثمانية أيام كان علينا أن نعترف أن لا أمل في الحصول

على جادّتنا انطلاقا من فاس. في هذا الظرف قام مضيفي بآخر محاولة فكتب إلى أحد أصدقائه في مكناس متوسلا إياه أن يتابع في هذه المدينة الاتصالات التي لم تنجح إلا قليلا إلى حد الآن في فاس. فكان الجواب سريعا : كان يوجد بمكناس رجل محترم من الشرفاء. كان هذا الشريف يعرف الطريق الذي انشده وكان قد سلكه هو نفسه عدة مرات. ومن حسن الطالع أن كان هذا الشريف يفكر في الذهاب إلى مدينة أبي الجعد خلال الأيام المقبلة. إذن سيكون في إمكاني أن أسافر معه. وعد الشريف بتسهيل مروري في أي مكان إلا أنه لن يسافر إلا في نهاية شهر رمضان مع العلم أن رمضان لم يكن إلا في أيامه الأولى. كان صعبا علي أن أتوقف شهرا في فاس لكن من جهة أخرى كانت الفرصة المتاحة فريدة من نوعها. كان علينا إما أن ننتظر أو أن نكتفي باتباع الطريق العادي. لم أتردد وقبلت اللحظة اقتراح الشريف. أما مقامي بفاس فسأبذل جهدي لاستغلاله على أنفع وجه ممكن ؛ سأغتنمه لزيارة تازة وصفرو.

لا يمكنني القول كم من الحماس أظهر السيد بنسمحون خلال هذه المفاوضات. إنه هو الذي قام بجميع التدخلات والأبحاث حتى الفترة الأخيرة من مقامي بفاس. حتى الآونة الأخيرة حيث أتّخِذ قرار رحيلي.

ترك أشغاله وأهمل مصالحه وأوْقف نفسه ليتَكلّف بكل قدراته بما طلبتُ منه. فأظهر في كل المناسبات ذكاء ونشاطا ورزانة لم أجد لها مثيلا في المغرب بين أبناء ديانته.

يقدر مجموع سكان فاس بـ 70 000 نسمة من بينهم 3000 يهودي : حسب ظني ليست هذه الأرقام بعيدة عن الحقيقة. تقوم فاس بتجارة ذات أهمية : إنها نقطة التقاء السلع الأوربية القادمة من طنجة من جهة ومن جهة أخرى جلود



جبل تغات (منظر مأخوذ من ملاح مدينة فاس)

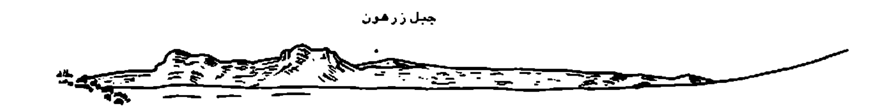


جبل البهاليل (منظر ماخوذ من مدينة فاس)

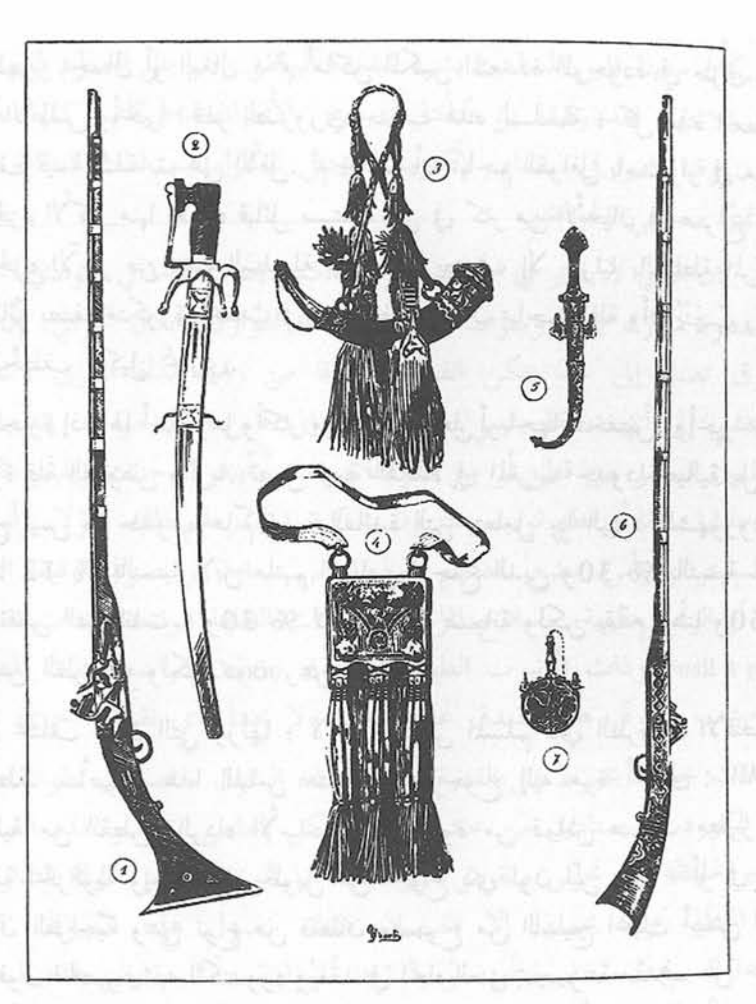
20 تافيلالت ؛ وصوف وشمع العسل وجلود ماعز أيت يوسي وبني ورين وفي بعض الأحيان حتى ريش نعام السودان. تصدر الصوف والجلود وشمع العسل بكميات كبيرة إلى أروبا وتبقى أجمل الجلود بفاس حيث تصنع من طرف عمال مهرة وتستعمل لصنع تلك البلاغي والأرائك والأحزمة مواد الزينة هذه التي يأتي الناس من جميع نقط مغرب الشمال لشرائها من فاس (qdn) الأشياء الأوربية الواردة على المدينة متنوعة قطائف قياطين مزركشة بالذهب والفضة المصنوعة في مدينة ليون الفرنسية سكر، عود ثقاب وشمع مارسيليا ؛ أحجار كريمة مستقدمة من باريز ؛ مرجان من مدينة جنوة الإيطالية.

21 أنسجة قطنية ؛ مركان شن هندية. أزر ؛ ورق، سكاكين ؛ إبر، سكر وشاي من انجلترا ؛ أواني زجاجية وفخار من فرنسا وانجلترا. يبقى جزء من هذه البضاعات بفاس، يشمل هذا كل ما هو قياطين وأحجار كريمة وسكاكين وأما الباقي، أي الجزء الأكثر من الكثير من المواد السالفة الذكر ؛ فيستعمل لتزويد أسواق منتشرة من فاس إلى تافيلالت.

جبل زرهون



يرسل تجار العاصمة الكبار أعوانهم إلى أسواق الحياينة وبني مكَيلد لبيع ثياب قطنية وبلاغي إضافة إلى هذا فلهم مراسلون منتشرون من صفرو إلى الرتب يبعثون إليهم بالسكر والشاي والثياب القطنية والتي تباع انطلاقا من هنا عند بني وراين وأيت يوسي وأيت سغروشن وفي جميع قبائل ملوية العليا وواد زيز من جهة أخرى القوافل القادمة من تافلالت محملة بالجلود والتمر تغادر مدينة فاس محملة بالثياب القطنية والسكر والشاي وثياب غنية من قماش صوف وبلاغي جميلة ؛ كل هذه المواد التي اشتهرت بها فاس وأيضا بضاعة زهيدة مشتملة على عطور وورق وإبر وعود ثقاب وزجاج وفخار وتموين فاس ليس فقط جزءا من المغرب الأوسط من



1 - بندقية مستعملة في شمال الأطلس الكبير
2 - سيف
3 - قرن لخزن البارود والرصاص. مستعمل في أحواض أم الربيع وسوس ودرعة
4 - جراب للبارود مستعمل في حوض زيز وعند أيت سدرات
5 - خنجر معقوف
6 - بندقية مستعملة في جنوب الأطلس الكبير
7 - علبة بارود مستعملة في الساحل المغربي

المواد السالفة الذكر ولكن تمون أيضا الجزء الأكبر من الصحراء الشرقية أي كل الأقاليم العاصمة لمنطقة واد زيز.

قد تكون تجارة جد واسعة مثل هذه أصل ثروات هائلة في بلد آخر غير المغرب لكن هنا عدة أسباب تقلل من الأرباح : أولا أثمان النقل المرتفعة والذي يكون على ظهور الجمال أو البغال ؛ ثم أماكن المكس المتعددة الموجودة في طرق شمال جبال الأطلس وأخيرا الخفر الضروري جنوب هذه السلسلة ؛ كل هذه المعطيات تضاعف قيمة النفقات على الأقل. ثم يحدث أن تهاجم القوافل باستمرار في منطقة مّا. الجزء الأكبر منها تعمرُه قبائل مستقلة هي في كثر من الأحيان في صراع بينها، بينما الجزء الآخر من هذه السلسلة الجبلية لا يعترف إلا جزئيا بالسلطة المركزية وهو ثائرٌ بصفة متكررة. يحدث في هذه الظروف أن تهاجم قافلة وأن يُنْهَبَ ركب وأن يُخْطف وكيل تجاري.

ص 22 التجارة إذن لها أخطارها وأكثر من سبب يجعل أرباحها تنخفض. وأخيرا تعوق التجارة قلة القروض والربا. تصل قيمة الفائدة في المغرب حدودا خيالية بل على الأصح ليس لها حدود. هاكم نسبة الفائدة التي يتعامل بها اليهود المشهورون في فاس : 12 % بالنسبة لابن ملتهم الضامن إرجاع الدين و30 % بالنسبة لمسلم يقدم نفس الضمانات ؛ و30 % لامرئ أقل ضمانة ولكن يقدّم رهنا و60 % في نفس الظروف ولكن دون رهن [nbp].

في مختلف المدن التي زرتُها ؛ لا يتغير لباس المسلم ذي الظروف الاقتصادية المتوسطة. سأصف هذا اللباس هنا دون الرجوع إليه مرة أخرى : الملابس
ص 23 الداخلية من القطن. الرداء الأساسي إما كسوة من قماش صوف مطرّز على الطريقة الجزائرية وإما قفطان طويل من الجوخ ذي لون ليّن جدا ؛ أو في أكثر الأحيان الفراجيّة وهي نوع من قفطان مصنوع من النسيج المحبك أبيض اللون مخاط فوق الخصر يشبه الكَندوره ويُعقَد في اتجاه العنق بمجموعة صَدف من حرير. على الرأس عمامة واسعة من نسيج ناعم جدا من القطن الأبيض ويكسو الثياب الآنفة الذكر حائك رقيق من صوف بيضاء. لا تلبس الجوارب أبدا وإنما هناك مجرد بلاغي صفر بالمغرب لون البلاغي من الأهمية بمكان. فاللون الأصفر مخصص للمسلمين والأحمر للنساء والأسود لليهود. هذه قاعدة صارمة ومطبقة حتى في البوادي النائية. قليلا ما يلبس الحضريون البرنوس. ليس البرنوس عنصرا من

الملابس العادية ولا يلبس إلا عندما يشتد البرد. يُعَوّض التجار وأفراد الشريحة الاجتماعية الوسطى البزّة الجزائرية المكونة من القفطان والفرجية بالجلباب المصنوع من الصوف أو القماش الأزرق الداكن. لا يُلبس الحائك مع الجلباب. أما بالنسبة للفقراء فما لهم إلا قميص وجلباب خشِنْ.

لسكان مدينة فاس المسلمين بشرة شديدة البياض وهم على العموم ذوو جمال كبير. ملامحهم جد رقيقة بل مُتأنثة في بعض الأحيان وحركاتهم كلها نعُومة. يقضون وقتا كبيرا في الحمام. لأكثريتهم وحتى للفقراء منهم تلك النظافة الهائلة التي تميزُ مسلمي الحواضر.

إن كان الزي لا يتغير في الحواضر فإن العكس يحدث تماما في البوادي. خلال كل خطوة سأراه يتغير وسوف أشير إلى هذه الفوارق خلال تجوالي. إن هذه الفوارق تصل إلى حدّ يمكن القول انطلاقا من رؤية بذْلة المغربي وسلاحه الشخصي إلى أي منطقة ينتمي. من تطوان إلى فاس الزّيّ موَحّد. إنه بالنسبة للمسلمين قميص من قطن أو من صوف وجلباب أبيض وحائك ويلبس الفقراء منهم جلبابا ملونا أو قطع ثوب يستترون بها كيفما تيَسّر لهم ذلك. هؤلاء وأولائك أكثرهم عراة الرأس. يضع بعضهم حول الرأس عمامة من صوف رقيقة النسيج تاركا أم الرأس عارية. وسلاح المرء بندقية ذات الطلقة الواحدة وذات القداحة Fusil à pierre وذات الأنبوب الطويل والقندق Canon الواسع المثلث المصنوع من خشب مسودّ. هذا القندق عادي جدا ولا يحمل أي نقوش أخرى سوى

ص 24

ترصيعات خفيفة بخيوط من الفضة. تصنع هذه البنادق خاصة في تطوان. تحمل غبرة البارود في صناديق من خشب على شكل إجاص. تكسو هذه الصناديق مسامير غليظة من نحاس ونقوش مزركشة. أما السيوف فهي قليلة التداول في هذه المنطقة ولا يحملها إلا الفرسان فقط. نصول هذه السيوف قصيرة (70–80سم) ؛ مستقيمة أو مقوّسة شيئا ما ولينة جدا. مقابض هذه السيوف من Cor أو خشب وبها واقيات ومسامير الضبط Broches de réglage من حديد، غمد من خشب مغطى بالجلد وغطاء من نحاس. هذا النوع من السيوف هو الوحيد المتداول في المغرب. وأخيرا ؛ هنا وكما هو الأمر في مناطق أخرى ؛ يحمل جميع الناس الخنجر خارج المدينة. حتى في حالة السلم يُستعمل الخنجر كموسى عند الحاجة. يوجد بالمغرب نموذجان من الخناجر ؛ أحدهما قصير وذو نصل مقوّس

وهو الوحيد المستعمل في منطقة الأطلس الكبير وجنوب هذه السلسلة ؛ والآخر أكثر طولا وذو نصل مبسط يستعمل في الشمال حيثُ يُصادف المرء بعض الأحيان أيضا، ولكن بندرة الخنجر المعقوف. إسراج الخيول في المغرب هي كما في الجزائر إلا أن غطاء السروج من قماش أحمر بدل أن يكون من الجلد ؛ **واللباب** Poitrails واللجام مزركشة بخيوط من حرير موحد اللون، هذا الأخير أحمر عادة.

يسيّر مدينة فاس وإقليمها ثلاثة باشوات يحكم كل واحد منهم جزءا من المدينة وعددا من القبائل المتاخمة لها [nbp]. لا توجد في بلاد المخزن أبدا أداة إدارية ممتدة على مناطق شاسعة. ولا توجد أبدا عدة قبائل مهمة أو عدة مدن من ثمة سلطة مسير إداري واحد. لكل قبيلة ذات أهمية بشرية عدد ؛ لكل حاضرة ؛ لكل إقليم قايد معين مباشرة من طرف السلطان ولا يخضع إلا لسلطة هذا الأخير. يضاف إلى هذا ؛ كما هو الحال في العواصم مثل فاس ومراكش وفي القبائل الكبرى مثل حاحا والشاوية فإن السلطة موزعة بين عدة عمال يحملون لقب باشا في مدن الإقامة الامبراطورية مراكش وفاس ومكناس ولقب قايد في باقي الحالات الأخرى. هذا التفتيت الأقصى الغاية منه تجنب الشيء. هم السلطان الدائم أن يسهر على ألا يصبح أي كان في مملكته غنيا جدا وألا يكون له نفوذ كبير : إذا يكفي حدث ضئيل لقلب عرشه المتداعي

6 ــ السفر إلى تازة

هناك طريقان رئيسيان للتوجه إلى تازة. يسير أحدهما في اتجاه واد إيناون عبر قبائل الحياينة وغياثه. هذا الطريق هو الأقصر إلا أنه لا يُستعمل أبدا. ويخترق الطريق الآخر أراضي قبائل الحياينة وتسول ومكناسة متفاديا أكثر ما يمكن بلاد غياثة فلا يدخله المسافر إلا عند مدخل تازة. هذا الطريق هو المستعمل عادة. قبائل الحياينة وتسول ومكناسة بلاد المخزن لكنها لا تخضع للسلطة المركزية إلا جزئيا. هذه المناطق قليلة الآمان. تعبرها القوافل دون خفر لكن قليلا ما يسافر فيها الأجانب دون خفر. أما غياثة التي تقع تازة فوق أراضيهم فهم خارجون

عن السلطة المركزية إضافة إلى كونهم مشهورين بعنفهم ولصوصيتهم. لا يمكن للمرء أن يسير في أراضيهم ولو خطوة واحدة دون عناية أحد أفراد القبيلة. وفي هذه الحالة يجب على المرء أن يختار رجلا قويا وآمنا ويجب أن يكون هذا الأخير شخصا من أفراد القبيلة ؛ الأمر الذي ليس بالهَيِّن خاصة بالنسبة للأجنبي بالنسبة إلىّ سأسافر في ظروف أكثر مُلاءمة. لا يملك السلطان في هذه الجهات أي نفوذ. هناك رجل واحد قوي : إنه سيدي الرامي [nbp] مقدّم زاوية مولاي إدريس دفين مدينة فاس. نفوذ سيدي الرامي شاسع لدى قبيلتي الحياينة وغياثة ويمتد أبعد بكثير عبر أراضي قبائل أخرى تخضع جميع بلاد الريف من غمارة إلى بني يزناسن وكل القبائل الموجودة بين فاس وتازة والبحر المتوسط لأتفه إرادة أو أمره، فإن كانت لهذه القبائل حاجات بفاس يجب قضاؤها فإنه هو الذي يتكلف بها وإن رغب السلطان في أمر عند إحدى هذه القبائل فإن السلطان يتوجه إلى سيدي الرامي.

ص 26 إذن سأذهب تحت رعاية هذه الحماية القوية. أعطاني سيدي الرامي ؛ استجابة لتوسل السيد بن سمحون ؛ أحد عبيده الأوفياء ليقودني إلى تازة. سنسلك أقرب الطرق ؛ هذا الذي لا يتجرأ أي امرئ أن يتبعه : هل هناك ممر يصعب سلوكه تحت وقاية مثل هذه التي اتمتع بها ؟

يمكن للمرء أن يسافر بنفس السهولة وبنفس الاطمئنان اللذين أشعر بهما وأنا ذاهب إلى تازة بواسطة عناية سيدي الرامي من فاس إلى شفشاون عبر الطريق الذي كان صعبا إلى حد بعيد في الاتجاه المعاكس وهو الطريق الذي كنت وددت سلوكه : إذن ما قيل لي في تطوان كان صحيحا.

29 يوليوز

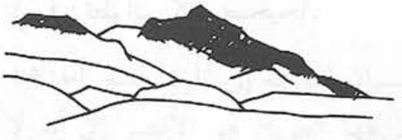
في الساعة الثامنة صباحا كنت بباب فاس حيث كان ينتظرني فارس أسود رائع : بدأنا السفر. بعد عبورنا نهر سبو بواسطة قنطرة ذات 8 أقواس بدأنا مباشرة تسلّق السفح الأيمن للوادي. هذا السفح متن ذو انحدارات صعبة شيئا ما وذو تربة صفراء وعارية. لا يوجد أثر للغطاء النباتي اللهمَّ ؛ هنا وهناك ؛ بعض المزروعات القليلة والضعيفة. ومن جهة ثانية فإن المنطقة ملساء المظهر ؛ دون صخور ؛ والطريق جيد وسهل. إسم هذه العقبة عُنْق الجمل، وهي الصعوبة

الوحيدة أثناء الطريق بين فاس وتازة. كانت هذه العقبة حاجزا هينا قطعناه على مقربة من القمة ونزلنا بعد ذلك عبر سفحه الشرقي. إنه يشبه السفح الآخر لكن انحداره أهون.



تمتد عند قدمه هضبة ذات تربة صلبة وهي أرض بها كثير من الحجارة العارية في بعض جهاتها. يكسوها في أغلب الأحيان الدوم والعُنّاب وتُقطعها مجموعة من الأودية المتوازية في بعض الأحيان. سرنا في هذا المجال إلى أن وصلنا إلى واد إناوَنْ. في هذه النقطة يصل متوسط عمق النهر ما بين 20سم و70سم تقريبا. تسيل مياهه ؛ صافية وزرقاء ؛ في قعر من الحصيم وسط سرير عرضه 50م لا تغمر المياه منه إلا النصف ويكسو النصف الباقي دَغل من الدفلى والطرفاء. تحد هذا السرير أحواض طينية علوها 2–3م ليس تيار نهر إناون منتظما كتيار نهر سبو : تارة مياهه عميقة شيئا ما ؛ في هذه الحالة يكون تياره ضئيلا ؛ وتارة مياهه قليلة سأعبُره عدة مرات من هنا إلى تازة.





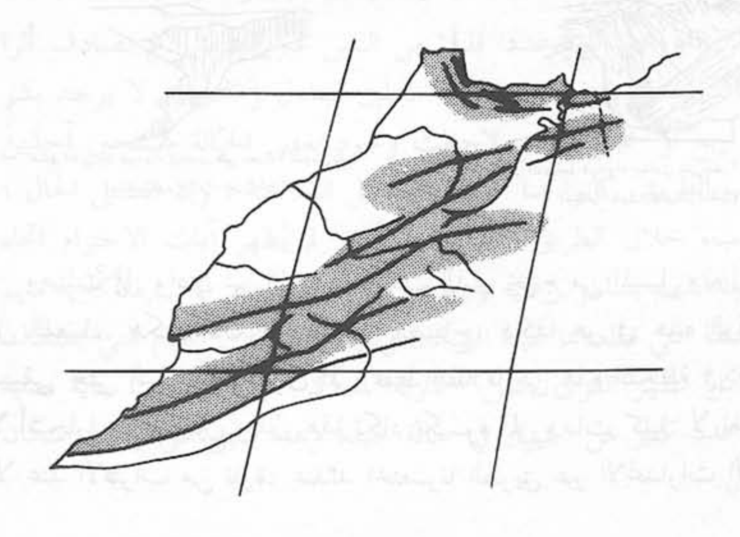
ص 27 توغلنا في هذا الوادي وسرنا فيه حتى المساء. القعر ؛ من تربة جيدة ؛ غير مزروع في البداية. تكسو هذا القعر ؛ فيما بعد وجزئيا ؛ الحقول والبساتين وبقع من الأشجار. إن جوانب النهر ؛ حافات من تراب داكن اللون ؛ أبيض أو رمادي شمالا ؛ غير مزروعة على مسافات طويلة. تكون تارة عارية وأخرى يكسوها الدوم وبدَتْ لنا فقط عند المساء بعض المغاريس على منحدرات هذه الابط. توقفنا عن

السير على الساعة 5 في هذه اللحظة نوجد على الضفة اليسرى لنهر اناون ؛ عند قرية صغيرة حيث سنقضي الليل. يصل في هذا المكان عرض النهر 15م ؛ وعمقه 50سم تقريبا. الحقول التي نراها في الوادي تنتج القمح والشعير والذرة وتنتج البساتين البطيخ الأصفر والأحمر والقرَع والبصل والأشجار أشجار زيتون وتين.

يصل عرض نهر سبو عند القنطرة حيث قطعناه 35م. وعمقه 80سم يسيل وسط مجرى نصفه من حما Vase ونصفه الآخر من الحصيم. عرض الفرشة المائية من 60 إلى 80سم تيار في منتهى السرعة. مياه صفراء محملة بكثير من الطين. شيّدت القنطرة على مقطع يتقلص عرض النهر بين الارتفاع والانخفاض فيصير أكثر عمقا. تحتل المزروعات جزءا من قعر الوادي ويحتل القصب الجزء الآخر. انطلاقا من عقبة الجمل ؛ يرى المرء على مسافة بعيدة المنطقة الواقعة شمال اناون. إنها ؛ في البداية مساحة واسعة من تلال رمادية شديدة التقطيع ؛ ثم تتدرج بعيدا في مؤخرة المشهد مجموعة من سلاسل جبلية مكونة من صخور.

30 يوليوز

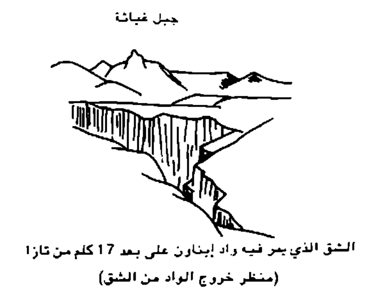
المغادرة في الساعة 5 صباحا. نتابع سيرنا في اتجاه أعالي نهر إناون. قعر الوادي كما كان عليه البارحة، يرتفع السفح الأيمن بعض الشيء دون أن تتغير بنيته : كلس أو غضار Glaise، تتغير طبيعة السفح الأيمن كلية. بعد قليل من الزمن تنمحي المزروعات وتكثر الحجارة الحادة وتصبح المنحدرات وعرة. يرتفع علو القمم



وتكسوها الأشجار وأخيرا يتصل السفح بسلسلة عالية صخرية من الجبال ومشجوجرة. تنتصب القمة الشامخة لجبل غياثة وسط هذه الجبال [nbp].

في الساعة 11 وصلت إلى أحد العوارض التضاريسية الأكثر إثارة. أمامي الوادي مُغلق بمجموعة مسترسلة من التلال ؛ وهي صلة الوصل بين مرتفعات 28 الضفة اليمنى. وجبال غياثة، هذه التلال قليلة الارتفاع ويتوسطها فج بدل أن يفتح النهر ممرا لنفسه عبر هذا الحاجز الهَيّن فإنه يمر بعيدا في اتجاه الجنوب عبر مسيل ضيق عميق ذي جوانب عالية صخرية محفور عموديا في جانب جبل غياثة.

29 الحواشي العليا لهذه الثغرة ــ التي ما لها من اتساع إلا عرض النهر ؛ وجدرانها تكاد تكون ذات نفس التقارب عند القعر وفي القمة ــ يفوق علوها بكثير قمة السلسلة الجبلية التي تحد الوادي. يقطع الطريق هذه السلسلة متتبعا خطا هو نفسه متميز : على كلا سفحي الوادي يسير المرء في قعر شعبة صغيرة Ravine يحُدُّ خط سليلها بكل دقة النقطة حيث اتصلت الكتلتان لإنشاء العرمة يَسار هذا الخط المنطقة كلها كلسية. ما هي إلا أضلاع مائلة إلى البياض على مد البصر. ويمين هذا الخط المنطقة كلها أحجار ما هي إلا قطع هائلة من الحث تنتهي بالامتزاج بقطع جبل غياثة.

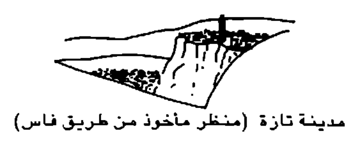


الشق الذي يمر فيه واد إيناون على بعد 17 كلم من تازا
(منظر خروج الواد من الشق)


الشق الذي يمر فيه واد إيناون على بعد 17 كلم من تازا
(منظر دخول الواد من الشق)

وصلت إلى وادي نهر إناون في الوقت الذي يخرج من المسيل ويبرز من جديد إلى الفضاء. هكذا كان الوادي هذا الصباح. هكذا هو في هذه الوقفة وهكذا سيبقى حتى النهاية. ولن يرى المرء فقط انطلاقا من هذه اللحظة في هذا الوادي لا أشجارا ولا بساتين وبدل هذا تكاد تكسوه المزروعات كليا. لا نغادر الوادي إلا عند الاقتراب من تازة. عندئذ اختصرنا الطريق عبر الانحدارات الأولى لجبال

غياثة تربة خشة وينابيع متعددة وغابات زيتون وتين وعدة بساتين ودواوير على الساعة 3 و30 دقيقة وصلنا إلى فجّ فبدت لنا تازة.



مدينة تازة (منظر مأخوذ من طريق فاس)

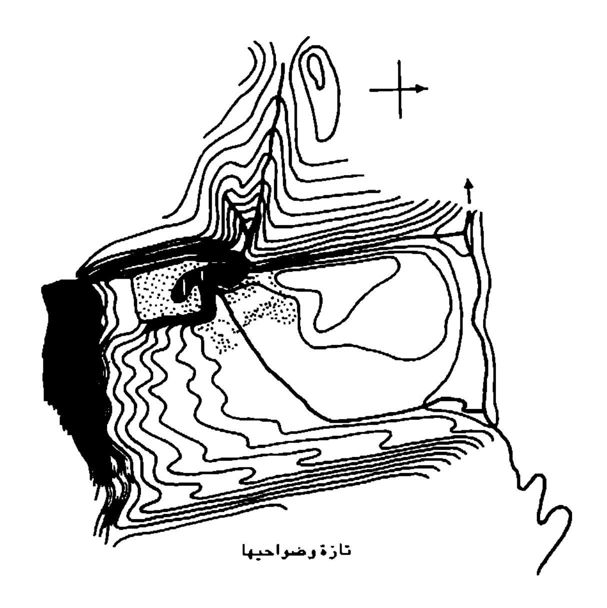
ينفصل عن الجبل جرف عال من صخور سوداء. يتقدم هذا الجبل في السهل كما يتقدم الرأس وسط المحيط. وفي قمة الجرف توجد المدينة، تشرف عليها مئذنة عتيقة وعند أقدامها بساتين شاسعة : هذا هو المظهر الذي يتجلى فيه هذا المكان. بعد قليل سندخل البساتين، هذه الحدائق الغناء التي لا تكاد تضاهيها إلا أجمل حدائق المغرب. إنها تغطي الجانب الأيسر وقعر شعبة واد تازة تحت ظلال أشجار ضاربة في القدم تتعلق بها عراجين الكروم. قطعنا هذا السيل وتسلقنا وسط الصخور، الطريق الوعر والصعب الذي يوصل إلى المدينة في الساعة 3 و30 دقيقة وصلت باب السور الأول للمدينة : خلعت نعلي ودخلتها.

ص 30 نهر إناون في الوقت الذي تركته ؛ على مسيرة ساعة ونصف من تازة لا يتعدى عرضه 5 –6م و30سم تقريبا من العمق وكان عرضه لم يَزَلْ بعد 8م. في سافلة المسيل الذي يخترفه، عند النقطة التي يغادر فيه هذا المسيل ؛ ما واد تازة إلا سيل تنحدر مياهه على شكل شلالات ؛ في مجرى صخري. هذه المياه غاية في الصفاء. عرض الواد 2م يعبر بواسطة عقد جسر بناؤه في حالة سيئة جدا.

صادفنا من فاس إلى تازة عددا قليلا من الناس عبر الطريق. لم نصادف أثرا للقوافل. وكان المسافرون فرسانا قليليين حاملين البنادق والخناجر. لا يوجد بشر في الحقول. أربع أو خمس مرات لاحظتُ وجود بعض الخيّالة مسلحين آخذين مواقعهم قرب الطريق. كانوا هنا لحماية المحاصيل الفلاحية ؛ وإن اقتضى الحال ؛ لنهب الأجانب، خلال الطريق ؛ لم يوجد أحد لم يُظهر آيات الاحترام اتجاه مرشدي كانوا كلهم يسلمون عليه ويتجادبون معه الحديث. كانت الأكثرية منهم تقبل يده المنطقة التي قطعناها قليلة السكان وسيئة الاستغلال الخيام التي نصادف جد جميلة لكن مظهر القرى بائس. أكثرية المساكن نوائل وليست بناية صلبة في الدواوير عدد كبير من الخيول في حالة جيدة وهذا دليل على وجود سكان يحبون النضال.

مدينـــة تـــازة

تقع المدينة على صخر، على ارتفاع 83 مترا فوق مجرى واد تازة وعلى ارتفاع 130 متر فوق نهر إناون. تتكئ المدينة على سلسلة جبلية عالية وتحيط بها هوات شمالا وغربا وحافة جد وعرة في الشمال الشرقي. ليست المدينة سهلة الاتصال إلا من جانب واحد أي الجانب الجنوبي الشرقي. الهضبة حيث المدينة ذات انحدار طفيف في اتجاه الشرق من جهة وفي اتجاه الغرب من جهة ثانية. تحيط بتازة أسوار مزدوجة في عدة أماكن. كانت هذه التحصينات ؛ فيما مضى أكثر أهمية مما هي عليه الآن كما تشهد بذلك الآثار المنتشرة بجوار المدينة. ليست للأسوار الحالية



تازة وضواحيها

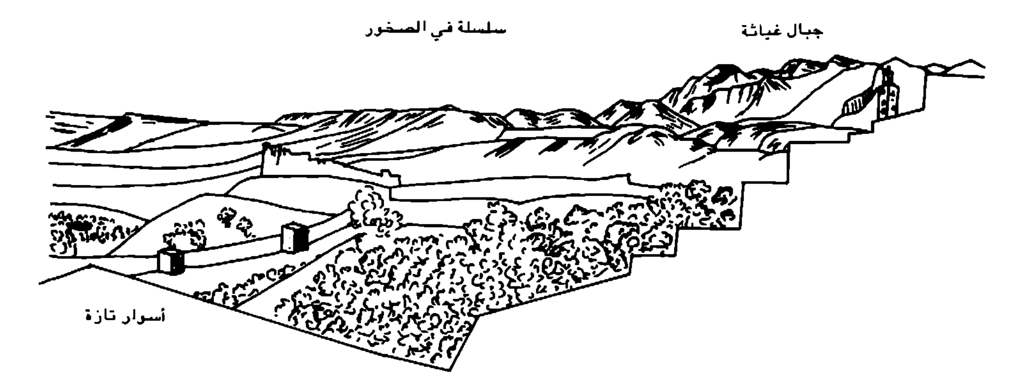
أية قيمة عسكرية. إنها من الطين المجفف وهي رقيقة وقديمة جدا.

31 إن هذه الأسوار ذات علو ضئيل وهذا شيء نادر. تحتل البساتين جميع المنطقة التي يحيط بها الجزء الجنوبي من السور ويوجد من ورائها سور ثاني ثم تبدأ المدينة فقط ؛ وحتى داخل الأسوار لا تحتل بنايات كل المجال إذ تغطي المزروعات بعض أجزاء الهضبة في اتجاه الشرق والغرب.

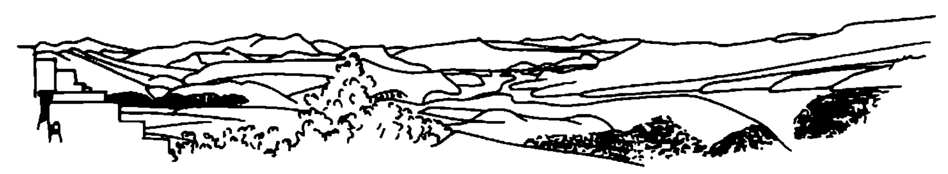
يقدر سكان المدينة ب 000 3 أو 000 4 نسمة من ضمنهم 200 يهودي يعيشون في مساحة ضيقة جدا داخل ملاح صغير جدا. بالمدينة مساجد. اثنان

منها كبيران واثنان صغيران وبالمدينة أيضا فندق أو ثلاثة فنادق واسعة في موقع جيد إلا أنها خالية ومتداعية للسقوط.

بني نصف المدينة بالحجارة والنصف الآخر بالآجر. طليت الدور باللون الأحمر الباهت الشيء الذي يكسوها لونا حزينا كسائر الدور ذات سطوح كما هو الحال في جميع المدن التي شاهدتها بالمغرب باستثناء مدينتي القصر والشاون. لأكثرية المنازل خزان ماؤه عذب بارد إلا أن هذا الماء لا يكفي لسد حاجيات السكان وخاصة حاجيات الحيوانات فيبحث الناس عن الماء عند السيل تعويضا للنقص الحاصل. تحيط بتازة حدائق غناء من جميع الجهات. يسقي هذه الحدائق ماء واد تازة من جهة ومياه عدد من المسيلات النازلة من الجبل من جهة أخرى. تكون هذه الحدائق غابة كثيفة من الأشجار المثمرة ذات قامات غير عادية ربما



لا يوجد لها مثيل بالمغرب. تغطي هذه الحدائق الهضبة المحيطة بكل جوانب المدينة وتتزاحم الأشجار حتى الحافة الوعرة التي تحد المدينة من الغرب. وهنا عند اتصال الأشجار في أسفل الأسوار ترتفع أغصان الأشجار العالية فوق سطح المنازل.



مجرى واد إيناون شمال شرق تازة

سكان المدينة

32 يسهر السلطان مبدئيا على تازة إلا أنها عمليا تحت سلطة قبيلة غياثة القوية، الأمر الذي يجعل منها أشد المدن بؤسا على وجه الأرض. للمخزن قايد وحوالي مائة مخزني بالمدينة [nbp] يعيشون داخل المشور من حيث لا يَتَجرؤون على الخروج خوفا من أهل غياثة. سلطة القايد منعدمة ليس فقط خارج أسوار المدينة بل وداخل المدينة نفسها : تنحصر وظائف القايد في الفصل بين المتخاصمين إليه من المسلمين الحضريين واليهود فيما يقع بينهم من منازعات. أما فيما يخص أهل غياثة الذين تقع مدينة تازة داخل محيطهم فإنهم يعاملون هذه المدينة معاملة الأراضي المحتلة ؛ فيسلبون عنوة كل ما يروقهم ؛ ويسفكون ساعتها دماء من لا يمتثل لأوامرهم عن طيب خاطر. وخارج الأسوار يفرض أهل غياثة على المدينة حصارا مستمرا. لا أحد من سكان المدينة يتجرأ على مغادرة المدينة دون مرافقة أحد أفراد القبيلة. قد يتعرض للسطو أو لسوء المعاملة وربما القتل كل من يغامر بالخروج من المدينة دون زطاط ولو على بعد 100 متر إلى حد أن السكان لا يقوَوْن على الذهاب بمُفردهم لملء جرّاتهم ماء من واد تازة. هكذا يصبح لغياثة احتكار الماء الذي يأتون به إلى المدينة مقابل أجرة. المدينة مكتظة بأفراد قبيلة غياثة داخل الأسوار. يشاهد المرء باستمرار عددا كبيرا منهم متسكعين في الأزقة وعددا كبيرا منهم جالسين إما أمام الأبواب أو داخل الدور أو فوق السطوح. يُتعرّف المرء على أهل غياثة بسيوفهم أو بنادقهم التي لا تفارقهم. يستقرون حيث ما طاب لهم ويرغمون الناس على تقديم الأكل لهم إن وقع بصرهم على شيء أخذوه وانصرفوا إلى حال سبيلهم. ويوم السوق ؛ حيث يكثر عددهم بالمقارنة مع الأيام العادية ؛ لا يتجرأ أحد على المرور بالأزقة ومعه بهيمة حمل مخافة أن تؤخذ منه عنوة. إضافة إلى هذا ؛ من وقت لآخر ؛ فإن غياثة يخضعون المدينة إلى نهب عام ؛ وهكذا وبمجرد أن يملك أحد سكان المدينة بعض النقود فإنه يسارع إلى إرسالها إلى مكان آمن ؛ إما إلى فاس أو إلى قصبة مكناسة. إنه لمَشهَد غريب هذا الذي نراه من خلال هؤلاء الناس وهو يتجولون عبر المدينة ؛ مسلحين ؛ ويتصرفون داخلها طيلة السنة مثلما يتصرفون مع مدينة عدوة يوم الهجوم على هذه الأخيرة. إنه من الصعب التعبير عن الخوف الذي يعيش فيه سكان هذه المدينة من جراء تصرفات أفراد قبيلة غياثة، لذلك لا يحلم سكان المدينة إلا بشيء واحد ؛

ألا وهو قدوم الفرنسيين(!) كم من مرة سمعت المسلمين يقولون بأعلى أصواتهم : متى سيأتي الفرنسيون ؟ متى سيخلصوننا أخيرا من أهل غياثة ؟ متى سنعيش في أمان كما هو حال سكان تلمسان ؟ ويتمنون أن يكون هذا اليوم قريبا حدوث هذه اليوم ما فيه شك بالنسبة إليهم. وفي هذا الصدد فإنهم يتقاسمون الرأي العام السائد بين جزء كبير من سكان المغرب الشرقي وتقريبا جميع أفراد الفئة العليا لسكان الامبراطورية : سيعيش المغرب الأقصى ؛ في مستقبل غير بعيد ؛ نفس المصير الذي عاشته الجزائر وتونس وسيقع في قبضة فرنسا(!).

ص 33

تجارة تازة منعدمة، ثمن السلع الأوربية أضعاف ما هي عليه في فاس وهذه نتيجة طبيعية لصعوبة المواصلات. واحسرتاه هذه الحدائق الجميلة نفسها حيث كان علي باي يشتهي سماع نواح الحمام والترغلة أصبحت بالنسبة للسكان مصدر همّ ونكد مُر : فهي خضراء كما كانت أيام البديع، تهمس فيها نفس الجداول، والعنادل لازالت تغني بها لكن أهل قبيلة غياثة استَوْلوا عليها بأجمعها.

غيـــاثـــة

غياثة قبيلة أمازيغية كبيرة مستقلة تحتل الجانب الشمالي للكتلة الجبلية العليا وتحمل أعلى قممها اسم القبيلة. تمتدّ القبيلة حتى نهر إناون. تحيط بها قبيلة هوارة شرقا ومكناسة وتسُول شمالا والحيايْنَة غربا وبني ورايْنْ جنوبا. تنقسم القبيلة إلى 6 فخدات كالتالي :

1 ــ أهل الدولة : منتشرون بالجبل، في اتجاه نهر ملوية ؛

2 ــ بني بويَحْمَد : منتشرون بالجبل، غرب أهل الدولة ؛

3 ــ بني بوقَيْطون : منتشرون بالجبل، غرب بني بويحمد وشرق تازة ؛

4 ــ بني وَجّان : منتشرون بالجبل، غرب تازة وبني بوقيطون ؛

5 ــ أهل الواد : منتشرون بالجبل، على جوانب واد الخل [nbp] غرب بني وجان وجنوب شرق زاوية سيدي عبد الرحمان ؛

6 ــ أهل الطاهر : منتشرون بالجبل، غرب أهل الواد وجنوب غرب زاوية سيدي عبد الرحمان.

هكذا يتجلى لنا أن أهل غياثة أصلا سكان جبال. الجزء من منطقتهم الموجود بالسهل قليل العمران وقليل الاستغلال في نفس الوقت رغم خصوبته، ومن ناحية أخرى فإنه ضيق إذا قارناه بالكتلة الجبلية الخشنة التي تُكون الجزء الأكبر من أراضيهم. هناك توجد قراهم وحقولهم في هضاب عليا، أو في أودية عميقة تكاد تكون مستحيلة المنال. إن هذه الأودية، حسب ما يقال، في منتهى الخصوبة، بها أشجار زيتون ظليلة ومعبر كثير. تحتوي جوانب الجبل، حسب ما يقال، على معادن مختلفة من فضة وحديد ورصاص. هذا المعدن الأخير هو الوحيد الذي تُعرَفُ طريقة إخراجه وتحويله : إذ إن إنتاج رصاص البنادق والبارود هي الصناعة الرئيسية في القبيلة 80 عائلة تتعاطى هذه الصناعة.

أظن أنه في استطاعة غياثة تجهيز 3000 راجل و200 فارس. إنها قبيلة مُحِبَّة للحرب وحريصة على استقلالها. عشائرها الست في عراك دائم فيما بينها إلا أنها تَتَّحِد دائما ضد وجه أعداء القبيلة. منذ قرابة 7 سنوات خلت أراد السلطان مولاي الحسن إخضاعها لسلطته فزحف عليها على رأس محلّة فهُزمت جيوشه وقتِلَ فرسه في الاشتباك وفرّ راجلا، بعد عناء كبير، من ساحة المعركة [nbp] ومنْذئد لم يحاول أن يثأر لهذه الهزيمة.

غياثة ذوو ورَع ضئيل ويقال في حقهم إنه ليس لهم لا إله ولا سلطان ولا يعرفون إلا البارود، فسارت هذه القولة سير المثل. لكننا عاينا النفوذ الكبير الذي لسيدي إدريس عليهم، ولازال لديهم احترام، على درجات مختلفة ؛ لثلاثة أو أربعة شرفاء من أمثال مولاي عبد الرحمان ومولاي عبد السلام اللذين سنزور زواياهما عند رجوعنا من هذا السفر.

لا ينتخب أهل غياثة لا شيخا ولا رئيسا من أي نوع كان. إنها الدولة الديمقراطية في عنفوانها : كل لصالحه اعتمادا على بندقيته. لكن، وهنا كما هو الحال في جميع الجهات، يتمتع بعض الناس بنفوذ خاص نتيجة ثروتهم وشجاعتهم الشخصية. في أيامنا الحالية، الشخص الأكثر اعتبارا بين غياثة رجل اسمه بلْخصيرْ ويسكن قرية نَقرت.

غياثة أمازيغ «شلحة» عرقا، وتمازيغت هي لغتهم اليومية لكن عددا كبيرا منهم يتكلم اللغة العربية نظرا لجوارهم لعدة قبائل عربية مثل الحياينة وأولاد الحاج، إلخ...

أهل غياثة ذوو قامات طويلة جدا. لا يختلف زيُّهم عما عايناه انطلاقا من تطوان حتى فاس اللهم فيما يرجع إلى زينة الرأس : رؤوسهم جميعا عارية ويحيط بها فتيل من وَبَر الإبل أو القطن الأبيض. لا يتجولون إلا مسلحين، حاملين خناجر أو بنادق، يشبه شكل هذه الأخيرة شكل البنادق الآنفة الوصف إلا أنها أخشن، ولبعض أفراد القبيلة بنادق أوربية الصنع ذات كَبْسولة الإشعال.

لا تتحجب نساؤهم بتاتا. يرى المرء عددا كبيرا منهن يوم السوق : طويلات القامة ولابسات الجُبّة فوق الركبة وباديات ذات مظهر عسكري إلى حد أنه لولا غياب الأسلحة واللحية لظنهم المرء ذكروا.

يستهلك غياثة كثيرا من الكيف. إضافة إلى هذا فلهم عادة قليلا ما شاهدتها في مكان آخر : جميعهم، رجالا ونساء، يستنشقون التبغ. إن كانت عادة تدخين الكيف [nbp] منتشرة في جميع أنحاء المغرب، على درجات مختلفة فإن عادة تدخين التبغ قليلة الانتشار في أنحاء البلاد ولا توجد إلا عند بعض أفراد قبائل الصحراء. ص 35
أما استنشاق التبغ فإنه أقل انتشارا بكثير : جدّ عادٍ في المدن فلم أعاينه عند أبناء المدينة إلا عند قبيلة غياثة وعند أولاد الحاج في منطقة ميسور.

6 غشت

أغادر مدينة تازة اليوم، هذه المدينة السعيدة المزدهرة إلى حد أن علي باي وجدها، منذ 80 سنة مضت، ألطف مدن المغرب، وهي المدينة التي حوّلتها الفوضى الآن إلى أبأس هذه المدن. لا أتوفر، عند رجوعي منها، على حمايتي القوية التي تمتعت بها خلال المجيء. لهذا السبب سأسلك طريقا آخر، وهذه هي التشكيلة التي آخترت : آخترت فارسين من غياثة كزطاطة سيوصلاني إلى زاوية مولاي عبد الرحمان ؛ ومن هناك سأطلب من الشريف إيصالي إلى ثلاثاء الحيانة. غدا يوم سوق الثلاثاء وسوف أجد هناك عدة قوافل ذاهبة إلى فاس : فما علي إلا أن ألتحق بإحداها.

الذهاب في الساعة 7 صباحا. يصاحبني، إضافة إلى الزطاطين، يهودي من تازة، وهذا التصرف احتياط لازم لضمان وفاء الخفر. وصلنا إلى الزاوية في الساعة 11 و30 دقيقة. هنا، كما هو الحال في أكبر جزء من المغرب، يطلق لفظ زاوية على مسكن أي شريف أو مرابط له شيء من النفوذ. وهذه حالة الزاوية التي

وصلنا إليها الآن : لا وجود لتعليم ولا لإخوان ولا لهيئة حفظة القرآن ولكن توجد عائلة شرفاء محترمة من طرف القبائل المجاورة تعيش على الهدايا المنتظمة الوصول تقريبا. تقدم القبائل هذه الهدايا وعند الاقتضاء، تذهب عائلة الشرفاء للبحث عنها بنفسها.

هنا سأقضي الليلة، غدا عند الصباح، سيقودني أحد أبناء أخ مولاي عبد الرحمان إلى الثلاثاء، القرية حيث أوجد، رغم تسميتها الضخمة، ذات مظهر في منتهى البؤس : منازل ذات جدران قصيرة من الطين المجفف أو الحجارة العارية ولها سطوح خشنة محملة بالتراب. في قرى غياثة المساكن ذات سطوح، خلافا للحيانة ونفس الحالة تشاهد بين فاس وطنجة حيث يرى المرء سطوحا من سيقان الزرع في كل مكان. ص 36

7 غشت

أسافر في الساعة 4 صباحا مخفورا بزطاطي الشريف الشاب وإثنين من خدمه. يخترق الطريق الذي نسلكه منطقة جبلية لكن دون تضاريس مهمة. تلال كلسية : قليل من الحجارة، الأودية والمنخفضات الخفيفة مستغلة وتغطي الأشواك ما تبقى من المساحة في الساعة 5 وصلنا حدود قبيلة غياثة. عند هذه النقطة أخبر الشريف مردوشي أنه لن يسير أبعد من هنا قبل أدائنا له ثمن الخفر. كان الثمن المتفق عليه من قبل ريالين فاداهما له مردوشي.

...أعطني ريالين آخرين

... لكن ....

... اسكت وقدم الريالين ؛

... هاك

... الآن أعط نصف ريال لكل من خدمي

... لكن ...

... اسكت وقدم الريالات الآن سيقودك أحد خدامي إلى السوق

... كيف ؟ ألا تقودنا أنت بنفسك بعد كل ما أعطيتك ؟

... أن أرافق يهودا قبيحين أمثالكم ؟ هذا لأمك.

عند هذه الكلمات عاد الشاب على أعقابه. حمدنا الله حيث إنه ترك لنا أحد خدمه بعد أن تخلى عنا. هذا الخادم وَفِيّ على الأقل وقد أوصلنا إلى سوق الثلاثاء اخترقنا كتلة جبلية جد مرتفعة ــ اسمها جبل أولاد بوزيان ــ للوصول إلى هذا السوق يوجد السوق على هضبة ؛ عند قدم السفح الغربي للكتلة الجبلية السالفة الذكر، وصلنا إلى السوق في الساعة 9 صباحا.

جبل بني وراين

كانت المنطقة كلسية إلى حد هنا. تتكون المزروعات من القمح والشعير والذرة. كانت القطع غير المزروعة عارية في بعض الأحيان وتارة ينتشر فيها الدوم والأشواك في كثير من الأحيان. خلال جزء من الطريق كنتُ ألمح جبل بني وراين في البعد، عن يميني. إنه كما رأيته من جَبْجَبْ : تلمع على جوانبه نفس الألسنة من الثلج.

كانت بالسوق حركة لما وصلنا إليه. كان به 500 أو 600 شخص. كل الناس مسلحون : الخنجر في الجانب والبندقية على الكتف. يبيع الناس الحبوب وحيوانات النقل والبهائم والثياب القطنية والأحذية والزيت والسكر والشاي وكانت أيضا، تنْحُر في عين المكان الثيران والخرفان والماعز. كانت تُجْزَرُ الذبائح وتُفصّل حينها. يبدأ إخلاء السوق حوالي الساعة 10 و30 دقيقة فيأخذ كل طريق قريته أو دواره. عثرت على قافلة صغيرة ذاهبة إلى فاس سأسافر صحبتها في الساعة الواحدة.

نسير طيلة الزوال في مكان صعب ماهي إلا التلال الكلسية والعتيق والشعُبُ ؛ كما كانت خلال هذا الصباح أضلاع طويلة لكن قليلا ما كانت وعرة ولم تكن أبدا صعبة الاختراق. يميز المرء، خلال جزء كبير من الطريق، مجرى نهر إناون وجبل غياثة ؛ ويرى أيضا جبل بني وراين في البداية، وعند المساء بدا جبلا زلاغ وتغات. قليل من الحقول. نمشي وسط مساحات غير مزروعة تغطيها الدوم والعنّاب والأشواك. هذه النباتات، عادة ذات حيوية، توجد هنا ذابلة ومصفرة من جراء الشمس : هذه المرة الأولى التي أراها على هذه الحال وسوف تكون أيضا المرة الأخيرة، توقفنا عند قرية في الساعة 6 و30 دقيقة حيث سنقضي الليل. ص 37

كان هناك عدد كبير من الناس في الطريق، خلال الصباح، ونفس الشيء بعد الزوال حتى الساعة 2 و30 دقيقة. كانوا ذاهبين إلى السوق أو كانوا راجعين منه : لم نلق ولو شخصا واحدا انطلاقا من الساعة 2 و30 دقيقة و لم نعبر اليوم أي مجرى ماء ذي أهمية. ما واد ملول إلا جدول ضخم لم يكن عرض مياهه إلا 3م تقريبا وعمقها من 20 إلى 30 سم عند المنطقة التي قطعناه فيها.

8 غشت

الذهاب في الساعة 4 نزلنا نحو وادي نهر إناون. بعدما قطعنا واديه دلفنا إلى الهضبة التي تكون الجانب الأيسر للوادي. وجدنا هنا الطريق من جديد الذي كنا سلكناه عند المجيء سنتبع هذا الطريق حتى بلوغ فاس حيث وصلنا وقت الظهر.

7 ــ جولة في صفرو

الطريق من فاس إلى صفرو آمنة في هذا الوقت ولا يكون الأمر دائما هكذا. القبائل المجاورة لفاس تكون تارة خاضعة للسلطة وتارة تكون ثائرة عليها. تكون طريق صفرو ومكناس دون مشاكل تارة وخطيرة تارة أخرى حسب الظرف السائد. في الوقت الحالي يسير المرء في كلتا الطريقين دون أدنى مجازفة Risque.

20 غشت

مغادرة مدينة فاس في الساعة 5 صباحا. خلال الجزء الأول من المسير أقطع الجزء الشرقي لمنطقة السايس : سهل مستوي السطح دون أي تموج. أرض صلبة جد صخرية يكسوها الدوم. حوالي الساعة 8 يتغير المشهد : إنها نهاية منطقة السايس والانطلاقة في منطقة ضئيلة التضاريس : تلال منخفضة جدا ذات انخفاضات خفيفة تعزل أودية ضعيفة العمق بعضها عن البعض الآخر ؛ تربة غالبا كثيرة الحجارة وصخرية في بعض الأحيان. تربة مائلة إلى الحمرة. انطلاقا من هنا يرى المرء عددا كبيرا من الينابيع والجداول مياهها جارية وصافية وتحيط بها الدفلى في الساعة 9 أمر على مستوى قرية كبيرة جدا : أنها البهاليل [nbp]. تسمى القرية بهذه الإسم لادعاء ساكنيها انحدارهم من المسيحيين حسب ما يقال

في حقهم. مهما كان أصل هذه القرية فإن وضعها الحالي مزدهر : منازلها جيدة البناء ومجيرة وتمتد حولها ؛ على مسافة بساتين جميلة وواسعة فتكون ــ إضافة



حقول صفرو وجبل أيت يوسي

إلى حدائق صفرو وزرهون ــ هذا الحزام الغني الذي يحيط بفاس ويمدها بالمواد الفلاحية المختلفة. من هنا يرى المرء حدائق صفرو التي تمتد على شكل كتلة داكنة عند أقدامنا. منحدر خفيف يوصل إلى صفرو. توجد المدينة وسط هذه الكتلة الداكنة. لكن لا نكتشف المدينة إلا عند وصولنا إلى أبوابها نظرا لكونها مخبأة وسط الأشجار الكبيرة.

دخلت الحدائق في الساعة 9 و30 دقيقة. إنها حدائق شاسعة وعجيبة ما رأيت مثلها إلا في المغرب. أشجار كبيرة متلبدة تنشر أوراقها الكثيفة فوق الأرض ظلا سميكا وطراوة عذبة. في هذه الحدائق تحمل جميع الأغصان الفواكه والسطح دائم الاخضرار وتسيل فيها وتهمس بها ينابيع عديدة. الشاون ؛ تازة، صفرو، فشتالة ؛ بني ملال ؛ دمنات كل هذه أسماء تذكرني بهذه الأماكن الساحرة ؛ تتساوي كلها في الجمال لكن أشهرها هي صفرو. وصلت إلى المدينة في الساعة 10 تحيط بالمدينة أسوار كبيرة بيضاء. المدينة ذات مظهر نظيف وبشوش. يستدعي مظهر النظافة السائدة في المدينة انتباه المرء عندما يتجول داخلها : لا نجد هذا المظهر في أي مدينة أخرى بالمغرب. لا يرى المرء في أي مكان آخر من البلاد إلا آثار التقهقر : بصفرو كل شيء مزدهر ويشير إلى التقدم. لا وجود لأطلال ولا لخرائب ولا لبنايات مهجورة بل الكل مستغل. في كل جهة منازل جميلة من عدة طوابق مظهرها الخارجي حديث ونظيف. أكثرية المنازل بنيت من الآجر ومجيرة. تتسلق الدوالي المغروسة في أفنية الدور جدران المساكن فتكون العرائش على سطوح هذه المنازل.

يعبر وسط المدينة جدول صغير عرضه ما بين 2م إلى 3م وعمقه ما بين 20 إلى 30سم فيه مياه صافية وتيار سريع جدا. تمكن 3 أو 4 قناطر من عبور هذا الواد.

سكان صفرو 3000 نسمة تقريبا ضمنها 1000 يهودي. بالمدينة مسجدان وزاوية حيث عدد من المؤمنين منحدرين من سلالات سيدي الحسن اليوسي [nbp] كما تلاحظ كثرة العمائم الخضر رمز الانتماء إلى الزاوية الدرقاوية.

ص 39 تتكون ثروة صفرو من عدة مصادر من ضمنها :

1 ـــ التجارة مع القبائل المجاورة للمدينة مثل آيت يوسي وبني وراين... تبيع صفرو لهذه القبائل المنتوجات الأوربية وتشتري منها الجلود وخاصة كميات كبيرة من الصوف. تباع هذه الصوف ـــ وخاصة صوف بني وراين التي هي الأكثر جودة، تغسل وتنظف بصفرو حيث يشغل هذا النشاط جزءا كبيرا من السكان ـــ في فاس وتُصَدَّر، في بعض الأحيان، مباشرة إلى مرسيليا.

2 ـــ مرور قوافل تافيلالت والتجارة التي تقوم بها مع قصابي الشرفاء والجنوب.

3 ـــ حدائق المدينة إذ تصدر صفرو كميات هائلة من الفواكه ومن الزيتون والليمون والكرز إلخ... العنب وافر إلى حد أنه يُصنع منه خمر جيد ثمن الهكتولتر منه 10 فرنكات.

4 ـــ العوارض والأخشاب التي تتلقاها المدينة من جبل آيت يوسي والتي تصدرها إلى مدن الشمال هذه العوارض والأخشاب كلها من الأرز. يوفر كل جدع شجرة 4 أو 5 حمولة بهيمة من العوارض. ينبت هذا الأرز في أراضي آيت يوسي. تملك قبائل أخرى مجاورة لصفرو مثل بني مكيلد [nbp] من الأرز غابات كبيرة إلا أنها تستغلها قليلا.

لا تقع مدينة صفرو على أرض أي قبيلة. يسير أمور المدينة قايد خاص بها، وهي تابعة لإقليم فاس : هنا تنتهي عمالة فاس، وعند النقطة التي تتوقف فيها حدائق صفرو في اتجاه الجنوب تبدأ أراضي آيت يوسي.

21 غشت

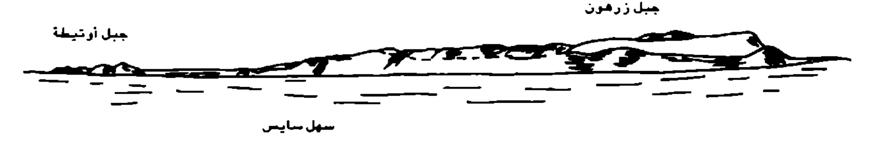
رجعت إلى فاس مُروراً بنفس الطريق الذي سلكته عند الذهاب صادفت اليوم في الطريق، مثل البارحة، كثيرا من المارة : سائقي حمير وجمال وراء قوافل الفواكه والألواح، مسافرين فرادى ذاهبين إلى صفرو، قوافل ذاهبة إلى الصحراء، لا يحمل أي أحد من هؤلاء المارين أي سلاح ولا تلبس النساء الخُمُر.

8 ــ من فاس إلى مكناس

ذهبت من فاس يوم 28 غشت في الساعة 5 صباحا ووصلت خلال نفس اليوم إلى مكناس حوالي الساعة 4 و30 دقيقة مساء. يمتد بين هاتين المدينتين سهل شاسع : إنه سهل ياسي. يمتد هذا السهل على مد البصر في اتجاه الغرب وتحدّه شمالا جبال وطيطة وزرهون وتغات وزلاغ، وشرقا يحده الجانب الأيمن لوادي سبو وجنوبا تحده جبال البهاليل وبني مطير. ينقسم هذا السهل إلى جُزْئَين ذوي ارتفاعين مختلفين : جزء أدنى حيث تقع مدينة فاس وجزء أعلى حيث تقع مدينة مكناس. يتصل هذان الجزءان بعضهما البعض بواسطة حافة خفيفة موجودة تقريبا في منتصف الطريق بين المدينتين. لا تتغير معالم سايس على طول امتداده : أرض مستوية السطح جدا يُغطيها بعض الدوم، ولا يوجد أدنى أثر للزراعة رغم كون التربة مروية جدا.

ص 40 يخترق المرء، بالإضافة إلى عدد كبير من الجداول المهمة ذات ماء جار، 4 أودية هي على التوالي : واد نزَا «معبر بواسطة قنطرة ذات 5 عُقَدٍ، 12م اتساعا، 3−5سم عمقا، ماء صافي، تيار سريع»، واد المهدومة «10م عرضا، 40−50سم عمقا، ماء صافي، تيار سريع»، واد الجديدة (8م اتساعا، 30−40سم عمقا، ماء صافي وجاري»، واد وسلين «8م اتساعا، 30−40سم عمقا، ماء صاف وجار».

على طول الطريق كنا نرى جبل زرهون إما أمامنا أو عن يميننا هذه الكتلة الجبلية، دون أشجار إلا التي في حدائقها، هي ذات خصوبة خارقة للعادة، تغطي منحدراتها البساتين والمزروعات ونفس الأمر بالنسبة للهضبة التي تعلوه، زرهون مشهور بأشجار زيتونه وعنبه وبرتقاله وفواكه من كل صنف وبه سكان كثيرون



جدا. من الطريق يميز المرء على جوانب جبل زرهون عن اليمين وفي الامام أشجار الحدائق، والناحية خصبة جدا وكذلك المنعرجات والهضاب التي تتوجها وتكسوها البساتين والمزارع وهي مشهورة بالزيتون والعنب والبرتقال وجميع أنواع

الفواكه. سكانها كثيرون جدا. ومن الطريق نلاحظ الكتل البيضاء لعدد كثير من القرى يقال إنها تحتوي على منازل تباهي منازل فاس في الجمال.

قضيتُ هنا بعض الأيام، في انتظار سيدي عمر ـــ الشريف الذي عليه أن يقودني إلى بَجْعد ـــ حتى يهيءَ عُدة سفره. يجب ـــ إضافة إلى هذا، وهو شيء ألزَم بالنسبة إلي وإلى الشريف ـــ البحث عن الزّطّاطة الذين سيَحموننا عبر أراضي كَروان وزمور الشلّح حيث يتحتم علينا السير منذ اليوم. هاتان القبيلتان غيرُ خاضعتين للسلطة المركزية. تبتدئ بلاد السيبة ـــ المنطقة غير المقيدة بقوانين المخزن ـــ عند أبواب مكناس، وسيعبره الطريق حتى تادلة، وتادلة نفسها جزء من بلاد السيبة هذه. نغادر إذن لمدة طويلة الأراضي الخاضعة للسلطان أو بلاد المَخزنْ، منطقة حزينة حيث السلطة المركزية تفرض على الناس مبالغ باهضة لتوفير أمن لا توفره لهم، وحيث لا يعرف الأغنياء والفقراء الراحة بين تصرفات القايد والسّرّاق، وحيث السلطة المركزية لا تحمي أحدا، بل تهدد أملاك الجميع، وحيث الدولة تأخذ الأموال دون أن تقوم أبدا بنفقة لصالح البلاد، وحيث العدالة تباع وحيث الظلم يُشتَري، وحيث العمل لا يُفيد، يضاف إلى هذا كله الرّبا والسجن لعدم تسديد الديون : ذلكم هو بلاد المخزن. يعمل المرء بالنهار ويجب القيام بالحراسة ليلا : ان غفل المرء دقيقة نهب المغيرون البهائم والمحاصيل. يفرض المغيرون سيطرتهم على البادية مادام الظلام مخيما : يجب توزيع الحراس ولا يتجرأ المرء على مغادرة القرية أو مجموعة الخيام، ويبقى الناس دائما في احتراس ويقظة. بعد كثير من الجهد والعناية، وبعد جمع الغلات ونقل المحاصيل الفلاحية إلى المنازل **A-t-on sauvé les moissons, les a-t-on rentrées,** تبقى دائما الحاجة إلى إبعادها عن متناول القايد. يسرع المرء إلى إخفاء المحصول ويشتكي من الفاقة ويظهر عدم رضاه عن غلة الموسم. إلا أن مرسولي القايد يسهرون : لقد شاهدوكم تذهبون إلى السوق دون شراء الحبوب فإذن لديكم الحبوب حينئذ بلغ إخباركم، وذات يوم ينزل بالقرية قرابة 20 مخزنيا فيقتحمون المسكن ويأخذون القمح وأشياء أخرى. إن كان لكم بهائم وخَدَم أخذوا الكل في نفس الوقت : وهكذا تمسون فقراء بعدما كنتم أغنياء. إلا أن على المرء أن يعيش وإذن لابد من تهيئ أعمال الموسم الفلاحي المقبل. في هذه الظروف ما لك إلا ملجأ واحد : إنه اليهودي. إن كان مستقيم التعامل فسيقرضك بفائدة 60 في المائة وإلا فبفائدة أعلى فتكون هذه بداية النهاية.

41

بمناسبة سنة الجفاف الأولى يتم حجز الأراضي والسجن ويأتي الإفلاس. هذه هي القصة التي تُسْمَعُ في كل مكان وفي أي منزل يحل المرء يسمع هذه القصة. يحمي القايد اليهودي ويرشي هذا الأخير القايد ويُبْقِي المخزن على القايد في منصبه. يقدم القايد كل سنة إتاوات خيالية للمخزن ويرسل إليه هدايا ثمينة بدون انقطاع وفي الأخير لا يجمع القايد الأموال إلا لسيده، ذالك أنه، طال الزمن أو قصر، كل ما يملكه القايد سَيَسْتَوْلِي عليه المخزن، إما خلال حياة القايد أو عند موته. لهذا يسود بين جميع سكان البلاد حزن ووهَن في العزيمة عميقان : يكره الناس القايد ويخشونه... لهذا كم شاهدت من المغاربة، راجعين من الجزائر، يحسدون جيرانهم على ما هي عليه وضعيتهم : ما أعذب أن يعيش المرء في سلام ! سواء ملك الكثير أو القيل ما أعذب أن يستفيد مما يملك دون خوف ! الطرق الآمنة، السكك الحديدية ؛ التجارة دون مشاكل، احترام الملكية، سِلْم وعدالة للجميع : هذا ما رأوه وراء الحدود الجزائرية المغربية، كم قد يصير بلدهم، البائس إلى حد ما رغم أنه الغنى إلى حد ما، سعيدا في مثل هذه الظروف !

II

من مكناس إلى قصبة بني ملال

1 ــ من مكناس إلى بجعد

27 غشت 1883

ص 42 وأخيرا أغادر مكناس. خرجنا ونحن أكثر عدداً مما كنت أفكر. أراد كثير من الناس الاستفادة من سفرنا صُحبة الشريف، فالتحق بنا أولا 6 أو 7 مسلمون فقراء متوجهون إلى تادلة، ثم يهوديان من بجعد عائدين إلى موطنهم. إضافة إلى هذا، سرنا حتى ثلاثاء زمور، مع قافلة يقارب عدد أفرادها 50 شخصاً، ذاهبين إلى السوق المذكور. هكذا صار عددنا يقارب 65 : يحمينا كلنا زطاط واحد ؛ إنه رجل من زمور اسمه مولاي الزاير.

خرجنا من مكناس عند الساعة 11 صباحاً ووصلنا حوالي الساعة 5 و 30 دقيقة مساءً إلى دوار صغير حيث سنقضي الليل. ليس بالميدان أي صعوبة خلال السير. في البداية، كنا على هضبة فيها كثير من المزروعات، وكثير من التلال، ثم انتقلنا إلى ميدان وعر دون تضاريس مهمة، منطقة تتوصل بأمطار غزيرة، قليلة الاستغلال الزراعي، يكسوها ضرو ذو قامة جد عالية والعنب والحلفاء : إنها بلاد زمور الشلح، كانت قبيلة كَروان تملك هذه الهضبة ؛ القبيلتان من جنس تمزيغت «شلوح» وخارجتان عن طاعة السلطة المركزية. لن نحتاج إلى وقت طويل للوقوف على هذه الوضعية. لكَروان مع المسافرين عبر أراضيهم نظام تعامل بعض القبائل المتاخمة لبلاد المخزن : لا تنهب كَروان المارّين ولا توفر لهم عناية، ولكن عند كل دوار يمر به المسافرون يُوقفهم سكان الدوار ويجب أداء فريضة تعسفية وهذا ما يُسمى زطاطة : تقف وسط الطريق جماعة من الفرسان أو الرّجّالة وتطلب، شاهرة السلاح، دفع زطاطة. كان علينا أن نتعامل، خلال ساعتين، مع هذا النوع من الوفود. إنهم البشر الوحيد الذين التقينا بهم في طريقنا.

من الدوار الذي نقيم فيه لا نرى صوب كل الجهات إلا الجبال : في الجنوب، الحافة العالية المكونة للسفح الأيسر لواد بهت، وفي كل مكان آخر تتابع لِمُثن يكسوها الدوم والأحراش، جملة، إنه بلد جد وعر تلكم كتلة زمور الشلح.

28 غشت.

43 الذهاب على الساعة 3 و 30 دقيقة صباحاً، عبرنا، بعد وقت قصير من مغادرتنا مكان نومنا، واد بهت «أصواح منخفضة ذات انحدار ضعيف، ماء صاف عمقه 50 سم، تيار سريع جداً، مجرى من حميم» ثم سرنا في صعود طويل، سهل السير لكن مستقيم شيئا ما، أوصلنا السير فيه إلى الهضبة حيث يوجد السوق. خلال صعودنا العقبة كنا إما في غابة من الضرو أو في حقول من الدوم. صيد وافر : سُلح، حمام، أرانب في الهضبة ؛ ندخل منطقة شديدة التباين، مأهولة ومزدهرة بقدر ما كانت الأولى خالية وموحشة : سطح تكسوه المزروعات، عدد كبير من الجداول وسط الحقول، أعداد من الدواوير ذات المظهر الغني تحيط بها حدائق طرية. تقع الثلاثاء وسط هذه البادية الغنية، ذات الثروة الشائعة التي جعلت منطقة زمور تسمى دكالة الغرب : وصلنا إلى الثلاثاء على الساعة 7 صباحاً.

قضينا الجزء الأكبر من اليوم في السوق : إنه كثير الرواج، به أكثر من 30 خيمة تاجر. السلع المعروضة هي نفسها التي عاينتها في سوق الحياينة لكن يجب إضافة كميات من الفواكه الشهية، خاصة الأعناب القادمة من دواوير المنطقة.

حوالي الساعة 4 تركنا مولاي الزاير وقافلة التجار وبدأنا السير تحت عناية رجل من المنطقة. توقفنا على الساعة 6. لقد وصلنا إلى دوار حامينا. عند مغادرتنا السوق، سرنا أولا على الهضبة، حيث يقام السوق، ثم عند وصولنا إلى جانب حافتها الجنوبية بدأنا ننزل : انطلاقا من هنا لا أثر للمزروعات ولكن، منحدر يكسوه الضرو ؛ شبيه بمنحدر هذا الصباح. كان السطح دائما مُترباً منذ خروجنا من مكناس.

29 غشت.

علينا، عند خروجنا من هنا، أن نخترق منطقة خطيرة جداً. نحتاج لعبورها إلى خفر مكون من 6 أو 8 أشخاص. لا يمكننا اليوم الحصول على خفر بهذه

الأهمية، فالخيام خالية إذ جميع الناس بالسوق، سوق أربعاء زمور الذي يقام بالمنطقة : علينا الانتظار إلى الغد لمتابعة السير.

الدوار الذي نوجد فيه غني : خيام كبيرة وجميلة، وبجوار أكثرها فرس أو أفراس للركوب، داخل كل خيمة نساء ينسجن لفليج، والتليس والبرنس وترحلت «وهي أغطية متعددة الألوان أو يفتلن الحصر من الدوم التي تُطرز فيما بعد بظفائر من صوف ذات ألوان زاهية. تكوّن هذه الحصائر المُزيّنة، بالإضافة إلى الترحال ؛ الانتاج المُمَيّز لقبائل زمور وزيان وبني مكَليد. يتميز زمور، وهذا أيضا شأن زيان الذين سنقطع أراضيهم، عن باقي القبائل الأخرى التي عاينتها في المغرب، بلباسهم البدائي : يرتدي الرجال والنساء قليلا من الثياب، وملابسهم كالتالي :

ص 44

بالنسبة للرجال الأغنياء لا قميص ولا سروال وإنما فقط فرجيّة عادية عليها برنس : أما الفقراء فمالهم إلا البرنس : خلال السير يطوون هذا السلهام ويضعونه فوق كتفهم ثم يمشون عُراة. يضع الأغنياء فوق رؤوسهم إما عمامة من قطن أبيض أو زيفا أبيض وأحمر والفقراء عُراة الرأس. يحلق جميع الرجال رؤوسهم، ولكنهم، وهذا شيء لم أشاهده أيضا إلا هنا : يحتفظون، وهذا فوق كل أذن، بخصلة طويلة شبيهة بنواظر اليهود. لزمور خصلتا شعر وليس لزيان إلا خصلة واحدة : إنه الفرق الوحيد بين القبيلتين فيما يرجع إلى الزي. هذه الخصلة، بالنسبة للشباب المهتمين بزينتهم، موضع اهتمامات كبيرة : إنهم يمشطونها ويدهنونها ويصففونها ويجعلون منها ظفيرة صغيرة، ويوجد نفس التصرف، كما قيل لي، عند قبائل الشاوية.

لباس النساء أيضا من أبسط ما يكون : مجرد قطعة ثوب مستطيلة، من القطن وفي غالب الأحيان من الصوف، تجمع طرفيها خياطة رأسية. هناك 3 طرق لارتداء هذه القطعة : 1. إما عن طريق إمساكها بمشابك «وهي أقراط كبيرة من فضة أو ما يسمى لخلال» أو باستعمال مجرد عُقد فوق كل كتف، 2. وإما رفع الجانب الأعلى للثوب وربطه فوق النهدين فيبقى الكتفان وأعلى العنق عاريين، 3. وإما ترك الجزء الأسفل من الثوب ينزل فيبقى الجسم عارياً إلى الحزام. في كل الحالات الثلاثة يُمسك الثوب عند الخصر بقطعة من الثوب جد قصيرة لا يتعدى الركبتين بتاتاً. يتم اللباس على الطريقة الأولى بمناسبة الزيارة وعلى الطريقة الثانية للعمل

خارج الخيمة وعلى الطريقة الثالثة للعمل داخل الخيمة. تحيط النساء رؤوسهن تقريباً بقطع من ثوب ولا يستعملن الحجاب أبدا.

الذهاب على الساعة 5 صباحا. يصاحبنا خفر من 6 فرسان و 4 راجلين. مباشرة بعد قطع واد اورجليم الذي يمر قرب دوارنا، دخلنا في منطقة شاسعة، خالية في هذه الفترة ولكن مستعملة في فصل الربيع من طرف قطعان زمور، تسمى هذه المنطقة تافودَيْث : إنها سلسلة متوالية من أضلاع وهضاب ترتفع تدريجيا وتحُدّها شعاب متعددة. في بداية الأمر كل المنطقة مشجّرة : ضرو، خروب، صنوبر متعدد الأنواع يكوّن دغلا كثيفا. بعد قليل من السير يقل عدد الأشجار تاركة الأعراف والأجزاء العليا من التضاريس عارية وتلتجئ الأشجار في قعر الشعاب والمنحدرات الأولى لجوانبها. كلما تقدمنا في السير، كلما زاد الارتفاع، كلما أصبحت جذوع الأشجار نادرة. السطح تربي ومائل إلى الاصفرار، عارٍ في هذه اللحظة من عبورنا المنطقة فإنه تكسوها أيام الربيع مراعي غنية.

على الساعة 10 وصلنا إلى فج : تنتهي هنا منطقة تافوديت. ننزل بواسطة طريق صخري وعر إلى منطقة جديدة : منطقة وعرة، سطح تنتشر فوقه جلاميد الأردواز وبه أشجار كبيرة وجداول تسيل في كل اتجاه. هكذا، تحت ظل الضرو وأشجار زيتون ضاربة في القدم، مشينا حتى الساعة الواحدة بعد الزوال. في هذه اللحظة لمحنا دواراً وهو أول آثار عناصر بشرية تبدو لنا منذ الانطلاقة : توقفنا فيه وهنا سنقضي الليلة. هذه الخيام ملك شخصية كبيرة جدا اسمه مولاي المهدي، شريف عميق التقدير عند زيان وذو نفوذ كبير على الجزء الأكبر من هذه القبيلة. أوجد هنا داخل منطقة جبلية وتوجد القرية وسط شعبة ضيقة، في جميع الاتجاهات تنتصب فوق رأسي قمم عالية وعرة ذات منحدرات صخرية ومشجرة. يقال ان النمور كثيرة في هذه المنطقة المتوحشة.

لم أعبر هذا اليوم إلا نهراً واحداً ذا أهمية نسبية هو واد أرجليم ؛ إلا أنه كان جافاً «مجرى من حصيم عرضه 25 سم، جاف». خلال السير لم نصادف أي إنسان، اللهم إلا جماعة تقارب 20 فرداً من زيان التحقوا بنا في تافوديت وتبعونا حتى حدود قبيلتهم : كانوا فقراء، أكثرهم ما لهم إلا برنس، والرأس عارٍ وفي الأيدي سيف كبير من خشب : بدوٌ سريعو الغضب، في كل لحظة كانوا يتنازعون

فيما بينهم ويتبادلون ضربات سيف قاسية، وكان في عراكهم كثير من الاحتدام إلى أن ترتب عن نزاعاتهم هذه نقل اثنين من بينهم مُلطخين بالدماء ملفوفين في برنسيهما.

31 غشت

نوجد هنا في أرض زيان، تخلينا عن زطاطات زمور المصاحبين لنا، لم نكن راضين عنهم : البارحة، أثناء الطريق، لما لاحظوا أننا في منطقة خالية، أخبرونا أنهم لن يسيروا معنا أكثر من هذا إذا لم نزد في قيمة الثمن المتفق عليه في البداية، فكان لزاما علينا أن نخضع لرغباتهم. يكفي اليوم رجل واحد لخفرنا : وإنه لا يحمل أي سلاح.

المغادرة على 5 صباحا. نمشي في بلد كثير الجبال. تتوالى شعاب عميقة وحافات وعرة وطرق في كثير من الأحيان وعرة، حتى إنه ذات مرة كان السير في الدرب النازل سريعاً إلى حد أننا اضطررنا إلى التوقف. سطح صخري منتفش بجلاميد الأردواز وتكسوه الأشجار تماماً، الأشجار باسقة، ملتفة، مكونة غابة كثيفة، كثير من المياه الجارية تحيط بها الدفلى والتوت وفي بعض الأحيان العناب. هذه المنطقة، تارة صاعدة وتارة أخرى نازلة، نمشي بصعوبة ومهل حتى الساعة 8 و 30 دقيقة. في هذه اللحظة، وأخيراً بعد تسلق منحدر، وجدنا أنفسنا أخيراً في قمة الكتلة الجبلية العالية التي ابتدأت عند واد بهت. تتوج هذه الكتلة، هضبة انطلقنا نسير عبرها، سطحها رمل صلب وعار تنتشر فوقه قطع صغيرة من الأردواز متفرقة. هذه الهضبة، جرداء هنا ؛ يكسوها نبات مخضر بعد الأمطار الربيعية ويرويها عدد كبير من المجاري الصافية. توقفنا هاهنا، وسط هذه الهضبة، هي هضبة أولماس، وضعنا رحالنا في هذه الهضبة على 9 و 30 دقيقة، عند دوار أيت عُمر. بجوار الدوار عدة خيام وعدة قطعان منتشرة على حواشيه، ضمن هذه القطعان لاحظت إبلاً، وهي الأولى التي أصادف منذ مغادرتي مكناس.

ص 46

مروراً اليوم بعزيب «عجيب في الأصلي» مولاي الفضيل صادفنا فخذة قبيلة في سفر : كانت الثيران المحملة بالخيام والأمتعة تسير وسط الركب، على شكل صفّ طويل، وكانت النساء وراءها تحثها على السير ؛ كان الأطفال وراء الأمهات وكان الأصغر منهم سناً، ثلاثة أو ربعة جاثمين على ظهور البغال. كانت تسير

الأغنام والماعز في أحد جوانب القافلة يسوقها بعض الرعاة. يكوّن الرجال الراكبون الخيول طليعة ومؤخرة الركب ويحرسون جوانبه. كانت القطعان متعددة وخاصة كان هناك أعداد كبيرة من الثيران.

فاتح شتنبر.

اليوم يوم سبت، إذن يجب علينا أن نقضي النهار بدوار أيت عمر. هذا الدوار شبيه، من كل الجوانب، بالدوار الذي وقفت عند زمور. نفس مظهر الثرى، نفس ثرى الخيام، نفس أعداد الخيول. ليست زيان بالقبيلة الفقيرة رغم أن أفرادها لا يفلحون الأرض إلا قليلاً، وإذا كانت أراضيهم قليلة المحاصيل الفلاحية فإنها تغذّي قطعاناً وافرة الأعداد من الماعز والأغنام والإبل والخيول وخاصة قطعان الثيران ذات القامة اللافتة للنظر : لا يوجد بالمغرب كثير من الحيوانات ذات القرنين كهذه إلا في قبيلة زيان : هذه الحالة مصدر تجارة مهمة وأرباح معتبرة. يوجد هنا دائما متعاملو دور مكناس التجارية مهتمين بشراء الجلود وكذلك الحيوانات الحيّة التي ترسل إلى طنجة في نهاية المطاف.

زيان قبيلة رُحّل ومن عشيرة تمازيغت «شلح». إنها قبيلة متعددة الأفراد، وهي الأكثر قوة من بين التي توجد شمال سلسلة جبال الأطلس. يحد محطاتهم محطات كل من قبائل زعير وزمور الشلح، بني مكَيلد وإشقرن وتادلة. تتكون القبيلة من 4 فخذات :

47 «1. بني حسوسن ويخيمون بجوار مولاي بوعزة، في إمكانهم تجهيز 3000 فرس ؛

2. أيت حركات ويخيمون بجوار خنيفرة، في إمكانهم تجهيز 3000 فرس ؛

3. حَبّارن ويخيمون بجوار بني زمور، في إمكانهم تجهيز 1000 فرس ؛

4. أيت سيدي علي أوبراهيم يخيمون بجوار بني مكَيلد، في إمكانهم تجهيز 8000 فرس ؛

إذا تجمعت هذه القبائل الأربعة قد يكون في إمكانهم تجهيز 18000 فارس.

قبيلة زيان ؛ كما هو حال جيرانها، خارجة عن طاعة المخزن. في الحقيقة ان للسلطان لديهم قايداً: إلا أنه الوحيد الذي يتوهم أنه قايد ويعترف بأن هناك سلطانا. ولن يخطر بباله يوما أن يطلب من أفراد القبيلة التي يحكمها قيرطا ضريبة

أو حتى الجندي الواحد. إنه لحظ سعيد أن يُسمح له بالعيش في هدوء. سنجد في كثير من الأحيان، بين القبائل الأقل خضوعاً للمخزن، قوادا من هذا النوع ؛ يتغاضى السكان عن وجودهم بطيبة قلب كبيرة ولا مبالاة : يعرف جميع السكان أن ليس في إمكان هؤلاء القواد وليس في إمكان رئيسهم أن يصبحوا مصدر مضايقة لهم. الشخص ذو النفوذ عند زيان هو الشريف الذي تحدثت عنه سابقا ؛ أي مولاي الفضيل. يوجد عزيبه الذي مررت به داخل محاط القبيلة ؛ ليس بعيدا عن حدود زمور الشلح وبني مكَيلد : للشريف نفوذ كبير على أقسام هذه القبائل الثلاث المجاورة لسكناه، لكن لا يوجد أي منها كلها في قبضته إذ تمتد أراضي زيان بعيداً جداً في اتجاه الجنوب الشرقي، وفي هذه الجهات لا يعترف زيان كثيراً بنفوذه. في هذه المنطقة ؛ لعائلة أخرى من الشرفاء نفوذ، لكن أقل مما لمولاي الفضيل. إنها عائلة العمرانيين، أصلها من فاس وأنها تتوزع بين عدة أماكن وتُعدّ حلفاء لها كثيرين بين زيان.

يولي السلطان اهتماما كبيرا للبحث عن صداقة هذه العائلات ذات النفوذ والتي انطلاقا من جبالها الصعبة الاتصال ؛ يمكنها أن تلقي بجماعات من المهاجمين على بلاد المخزن، ومن بين هذه العائلات الشريفة من هي قوية إلى حد أن حقدها للمخزن يمكن أن يقلب عرشه وأن حسن ارادتها يمكنه أن يثبت هذا الأخير. لذا فإن السلطان لا يتخلى عما يُمهّد لعقد صداقة مع هذه القبائل، وليس هناك من وسائل لا يستعملها للتأكد من صداقتهم : هدايا، تشريفات، للقبائل المعنية كل ما تريده، عارضاً عليها تحالفات مع عائلته : وهكذا فإنه زوّج إحدى أخواته إلى سيدي محمد العمراني، شيخ هذه العائلة. إن السلطان أيضا في أحسن العلاقات مع مولاي الفضيل. يمكن للسلطان بفضل هذه السياسة، مهما كان زيان خارجين عن طاعة المخزن، أن يحصل، في بعض الحالات، على مؤازرتهم له بسلاحهم : هكذا، هذه السنة، خلال حركة السلطان ضد تادلة وزعير، قدم مولاي الفضيل مساعدات على شكل فرقة جد قوية.

ص 48

زيان، كما هو الشأن بالنسبة لزمور الشلح، يتكلمون تامزيغت لكن اللغة العربية منتشرة جدا بينهم : على كل من هم في مستوى اجتماعي عال أن يتكلم العربية ؛ حتى النساء والأطفال، ووحدهم الرعاة وسوقة الناس يجهلون استعمال هذه اللغة.

2 شتنبر

المغادرة على الساعة 6 صباحاً. يقوم مقام زطاط فارس واحد من أيت عمر. وصلنا أولا إلى الجانب الجنوبي لهضبة أولماس ثم بدأ الطريق المنحدر : إنه طويل وشاق، إلى حد أنه يجب النزول من على ظهر البهائم. ماهي إلا صخور متراكمة وجرف وهوات. القمم عارية وكلها صخرية ؛ تنبت بعض الأشجار في قعر الشعاب وعلى منحدراتها الأولى. نحتاج إلى ساعتين ونصف الساعة للوصول إلى قدم الحدور الذي نسير فيه. بعد هذا وجدنا سيلا صغيرا تظلله أشجار الضرو والضروب والصنوبر، بعدما تتبعنا مجراه خلال بعض الوقت تركناه عن شمالنا وتوغلنا داخل هضبة وعرة تتخللها شِعاب، على الساعة 11 صارت التضاريس أقل بروزاً والمسيلات «ج. مسيل» أقل عمقا، بعد قليل وجدنا أنفسنا وسط هضبة شاسعة حيث سنسير حتى المساء : إنها محجرة شديدة التموجات وذات سطح عار، لا نبات آخر بها إلا العُنّب الطبيعي، إلا أنه، حسب ما يقال، تكسوها الأعشاب خلال الربيع : بها ماء كثير من عيون وجداول.

توقفنا عن السير على الساعة 3 : لقد وصلنا إلى دوار أيت مولود حيث سنقضي الليلة. يتركني هنا الشريف السيد عمر، عند مغادرته أوصى بي كثيراً الشخص الرئيسي بالدوار، استضافني هذا الأخير وتكلف بتوفير زطاط.

قطعت قبل الوصول بقليل إلى هنا، وادي كسكسو «سرير من حصى عرضه 15م، نصف مملوء ماء، قليل الجريان عمقه 60 سم» يسيل في شعب صغير أصواحه صخرية ووعرة، يسير في مسيل وسط السهل : يصب وادي كسكسو في واد كَرو فيُكون اتصال هذين الوادين نهر أبي رقراق. لم نصادف اليوم أي إنسيّ خلال الطريق. كما كان الأمر خلال الأيام السابقة، كل ما هو صخور كان يتكون من الأردواز وبها شيء من الحجارة البيضاء. انطلاقا من الفج الذي نزلنا عبره، منطقة تافوديايت حتى قمة جبل حصاية، يبدأ سهل تادلة، لا يُصادف إلا نوعان من الصخور.

3 شتنبر.

أوجد هنا قرب نهاية حدود زيان، على مسافة قليلة جداً تبدأ تادلة : لا يمكنني أن أتابع السير بعيدا دون زطاط من أهالي هذا البلد، قضيت اليوم بحثا عن زطاط ولن اتمكن من الذهاب إلا غدا.

4 شتنبر

ص 49

بدأت السير على الساعة 5 صباحا، صحبة فارس من بني زمور، قبيلة تادلة الأكثر قربا من المكان الذي نوجد فيه، سوف لن أسير اليوم مسافة أبعد من التي تفصلنا عن خيمة زطاطي الموجودة في دوار أيت المعطي : وصلنا إلى الدوار على الساعة 8 صباحا. إلى حد ههنا لازلنا في نفس هضبة ميدان البارحة إلا أن مظاهر سطحها تتغير : تزداد تموجاتها ويكسوها عدد كبير من الضرو في اتجاه المرتفعات، يبقى السطح صخرياً.

تادلة، حيث أوجد اليوم، ليست قبيلة وإنما هي بُقعة تسكنها عدة قبائل يتميّز بعضها عن بعض. تحدها شمالا، أراضي زيان وزعير وشرقا أراضي زيان وإشقرن، وجنوبا أراضي أيت سري وأيت عطّا أملو وأيت بوزيد وأيت عتاب، وغربا أراضي نتيفة، والسراغنة والشاوية.

تتكون تادلة، في الجنوب من سهل شاسع يسقيه نهر أم الربيع ويمتد هذا السهل إلى قدم الأطلس المتوسط ؛ وتتكون في الشمال من منطقة غير مستوية السطح وأقل اتساعاً.

عدد القبائل التي تعيش في تادلة، توجد 5 منها في الجزء الشمالي و 4 في الجزء الجنوبي. وتتوزع هذه القبائل هكذا ؛ انطلاقا من الشرق في اتجاه الغرب : في الشمال يوجد بني زمور، سماعله، بني خيران، ورديغة وبني مسكين، يوجد في الجنوب كل من قبائل قطّاية، بني معدن، بني عمير وبني موسى. لهذه القبائل المختلفة نفس القوة تقريبا : في إمكانها تجهيز 3000 فارس ؛ ما قيل لي. يتكلم بعض هذه القبائل اللغة العربية وأكثريتها ناطقة بالأمازيغية.

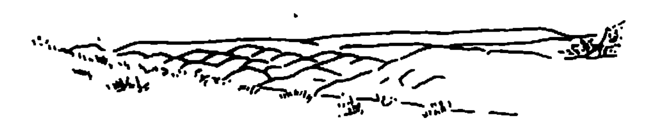
كل القبائل رحل لا تسكن إلا تحت الخيام. إنها غنية، تملك قطعان إبل وأغنام وافرة وعددا كبيرا من الخيول وتفلح الضفاف الغنية لنهر أم الربيع : إنها قبائل خارجة عن طاعة المخزن باستثناء واحدة منها هي قبيلة بني مسكين. تنتمي هذه الأخيرة إلى بلاد المخزن يسيرها قايد مستقر في قصبة تادلة، وباقي القبائل بلاد السيبة، لا تعترف إلا بسلطة واحدة هي سلطة سيدي بن داود الولي الصالح لبجّعد. يمتد نفوذ هذا الأخير حتى جزء من أراضي زيان، انطلاقا من دوار أيت ميلود، لم أسمع الكلام إلا عن «السيد».

انطلاقا من الآن، هناك ملاحظة يجب تسجيلها فيما يخص اللباس : دون أن يتغير تماما فإنها يقدم بعض الاختلافات مقارنة بما سبق : لم يعد الرجال يتركون الفتائل الطويلة التي تميز قبائل زمور الشلح وزيان والشاوية. تحتفظ النساء بنفس اللباس إلا أنهن لا يلبسنه إلا بطريقة واحدة : يشدُدنه بمشابك أو عُقد فوق الكتف. إضافة إلى هذا فإن الثوب يكسو الساقين حتى العرقوب. هذه البزة ؛ كما نراها هنا، هي لباس سائر نساء المغرب باستثناء سكان المدن الكبرى وعند زمور الشلح وزيان : في أي مكان آخر لم أر ولن أرى لباسا من أي نوع آخر. 50 يمكن أن يصنع اللباس من أنسجة مختلفة : إما من الصوف كما هو الحال هنا أو من القطن الأبيض أو من قماش لكن الشكل في جميع الجهات يبقى هو هو. في جميع الجهات أيضا لا تلبس النساء إلا هذه القطعة الوحيدة من النسيج : لا شيء آخر لا تحتها ولا فوقها، في بعض الأحيان خِمار صغير يغطي الرأس والنصف الأعلى من الجسم لا أكثر.

5 شتنبر

أذهب على الساعة 4 صباحا، صحبة زطاط البارحة. الميدان ذو صعوبات خفيفة، السطح صخري وعارٍ ما به إلا أشجار ضرو صغير وبعض العناب الطبيعي. بعد ساعتين من السير قطعنا وادي كَرو : إنه كما سبق القول، المجرى المائي الثاني الذي يكوّن نهر أبي رقراق لا زال هنا مجرد نهر قليل المياه ذي سرير من دملوك عرضه 12 م، ليس به ماء جار. توجد مستنقعات صغيرة بين مسافة وأخرى. انطلاقا من هنا نتسلق من منحدر جبل لا يصير وعراً بعض الشيء إلا

جبل حصاية



عند الاقتراب من القمة في اتجاه عُرف بجبل حصاية. خلال السير، اخترقنا سلاسل كثيرة من تلال منخفضة تكوِّن إبط الجبل. يبقى السطح كما كان في البداية حتى نهاية السير : وإنما تتقارب الأشجار كلما صعدنا.

في الساعة 10 و30 دقيقة وصلت إلى فج يمتدّ أمامي سهل شاسعْ أبيض وعاري. تسلقتُ في هذه اللحظة منحدرا عبارة عن حافة لهذا السهل : إنه سهل

تادلة يمتد السهل على مدّ البصر في اتجاه الشرق والغرب. في اتجاه الجنوب بعيدا ؛ تبرز جبال شاهقة عالية. تبدو رغم المسافة الفاصلة بينها وبين مكان المشاهدة ؛ أعرافها الداكنة فوق الأفق راسمة حدود السهل على طول امتداده. فهذه الجبال هي أولى السلسلات الجبلية الثلاث المكونة لنظام جبال الأطلس المغربي، على بُعد بضعة خطوات من الفج يوجد مكان مُحصّن : إنه قصر بني زمور. نتوقف اليوم هنا. في نفس الوقت ؛ دخلنا القصر وقافلة عديدة الأفراد مدججة بالسلاح كانت شاركتنا الطريق منذ واد كَرو.

لا يفصلنا من هنا عن بجعد إلا مسافة سير 3 ساعات، ورغم هذه فإنني لازلتُ بعيدا عن مُبتغاي. فبقدر الأخطار الماثلة في الطريق القصيرة التي بقي لي أن أقطعها توجد نفس الأخطار التي كانت تحدقُ بي خلال المسافة التي قطعتها حتى هذا اليوم. هنا لا «عناية» ولا زطاط : يُنْهبُ كل ما يعبر المنطقة. المنطقة خالية خاصة في هذا الفصل. تأتي جماعات من 30 إلى 60 فردا إلى السهل ؛ من جميع قبائل تادلا وفي بعض الأحيان حتى من إشقرن ؛ تأتي لتتربص بالمارين وتتأهب لتنقض على كل من يغامر بنفسه بالمرور بالمنطقة. القوافل ؛ وإن كان معها 50 بندقية ؛ لا تتجرأ على المخاطرة بعبور المنطقة. إلا أنه ؛ وسط هذا العديد من الأخطار هناك طريق للنجاة إن الذين لا يحترمون أي شيء يحترمون سيدي بن داود، وحيث لا تحمي الأسلحة قط من الهجوم فإن المظل المسالم لأحد أفراد العائلة الشريفة يكفي لإبعاد كل الأخطار. وهكذا ؛ إن أراد مسافر بمُفرده أو موكب كبير السفر إلى بجعد فما لهم إلا وسيلة واحدة : التوسل إلى سيدي بن داود أن يرسل إليهم أحد أبنائه أو أحفاده. يكلف هذا قليلا أو كثيرا من المال حسب عدد المسافرين وقيمة بضاعة القافلة. لنسارع بالقول أن صلحاء الزاوية لا يغالون. إنهم يستفيدون باعتدال كبير من هذا الامتياز ويشتكون من الظروف التي تؤمنه لهم. كان نفوذهم ؛ مهما بلغ من الأهمية ؛ عاجزا عن جعل حد لهذه الوضعية، وإنهم لا يستطيعون شيئا ضد هذا الشكل القديم للغازية ذي القيمة عند الرحل في كل مكان.

ص 51

وهكذا بعثت إلى سيدي بن داود رسالة التوصية التي لي عنده مع رجاء إرسال من يوصلني إلى المدينة. قام رسول بهذه المهمة. لم يذهب الرسول إلا بعد أن

تخلى تقريبا عن جيمع ثيابه، هذه هي الوسيلة الوحيدة للمرور في أمان في هذه الجهة.

قصر بني زمور مُسَوّر ومربع الشكل. أسواره عادية من المُقدار وعلوها 3 أمتار. تنتصب داخله دون نظام قرابة 30 خيمة صغيرة ذات مظهر بائس. السكان فقراء جدا ولا يعيشون إلا على بيع الخشب. يقطعون الأشجار في جبل خصاية ويبيعون الحطب لسكان بجعد الذين يأتون إلى القصبة لاقتنائه. لا يتوفر السكان على الماء داخل القصبة. كل يوم ؛ في وقت معلوم، أخذ جميع رجال القصبة بنادقهم ويذهبون جماعة لجلب الماء من آبار بعيدة يصعب تخيل حياة أبأس من حياة هؤلاء الناس. وإن السور الذي يحمي القصبة لا يرجع تاريخ إنجازه إلا إلى سنتين مضت : هذا الإنجاز من حسنات «السيد» كما يُسمَّى عموما سيدي بن داود.

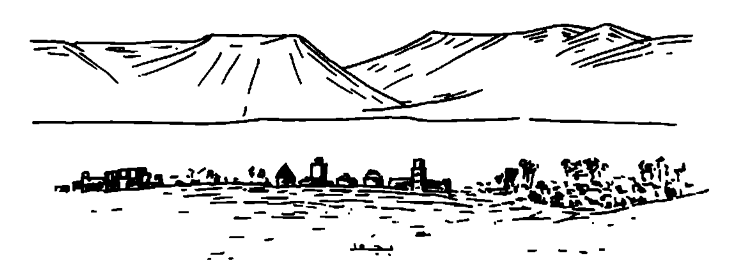
6 شتنبر.

عاد رسولي في 10 و30 دقيقة صباحا يرافقه أحد أحفاد سيدي بن داود إنه شاب جميل البشرة عمره 19 سنة تقريبا. قدم الشاب راكبا بغلته والمظلة في يده ووراءه عبد واحد. بدأنا السير مباشرة بعد وصوله.

من هنا إلى بجعد نسير في السهل الفسيح لتادلة. إنه سهل ذو تموجات خفيفة ؛ تارة عار وتارة أخرى تكسوه حقول هي في هذه الفترة من السنة حصيد «محصودة» وخالية، تنبث هنا وهناك بعض شجيرات العناب وأحراش هزيلة. سطح المنطقة مائل إلى البياض وصلب وصخري. دخلنا المدينة في 1 و30 دقيقة.

2 ــ إقامة في بجعد

52 «هنا لا سلطان ولا مخزن ؛ لا أحد آخر إلا الله وسيدي بن داود». تلخص هذه الكلمات التي وجَّهها إلي أحد المسلمين عند وصولي إلى المدينة حالة هذه الأخيرة. سيدي بن داود الحاكم الوحيد والسيد المُطلق في المدينة. سلطته نفود روحي تصير، عندما يحلو له ذالك ؛ سلطة زمنية نظرا لما تعطيه القبائل من قيمة لتبريكاته.



تمتد هذه السيادة داخل منطقة دائرة شعاعها يوم مشي على الأقدام يسرع الناس إلى بجعد من كل الجهات داخل هذا الشعاع بدون انقطاع لتقديم عدة هدايا : المدينة دائما مليئة بالزوار. يأتون بحثا عن تبريكات «السيد» ويحصلون على الرعايات المصاحبة لهذه التوسلات مقابل الهدايا. يكثر الزوار خصوصا يوم الخميس، وهو يوم السوق الأسبوعي، في الأسبوع الماضي بلغت الهدايا من القمح وحده حمولة 200 بعير وكانت في الأسبوع الماضي 400 حمولة بعير. إضافة إلى هذا كانت هناك هدايا من المال والأنعام والخيول. لا يؤدي الخواص وحدهم هذه الواجبات الورعة. تأتي القبائل المجاورة ؛ كل سنة ؛ الأولى تلو الأخرى ؛ فخدة بعد فخدة ؛ لتُحَصل جماعة على تبريكات «السيد» ولتقديم أتاواتِها. تقدم هذه الضريبة للسيد من طرف جميع قبائل تادلة وتقريبا من طرف كل قبائل الشاوية وبعض قبائل آيت سرّي وعدد صغير من إشقرن.

ما هو أصل هذه الحظوة التي يتمتع بها السيد ؟ ليس سيدي بن داود بتاتا رئيس تنظيم ديني ؛ وكذلك ليس شريفا، من حفدة النبي محمد. إلا أن أصله ليس أقل عظمة : إنه من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب. استقر أجداده بالمغرب منذ 3 قرون ونصف فحصلوا بسرعة نظرا لمزاياهم الأخلاقية وأيضا اعتبارا لأصلهم المعروف والشريف ؛ على التوقير والسلطة الذين يتمتع بهما سيدي بن داود في أيامنا هذه ومن جهة أخرى لا يوجد أي تنظيم ديني ولا إخوان ولا صلوات خاصة عند آل سيدي بن داود. ماهنا إلا رئيس عائلة كبيرة وموقرة ؛ سليل مجموعة كبيرة من المُغتبطين ؛ موضع رعايات خاصة من السماء استجابة لصلوات أجداده. يُوقر عبر شخص سيدي بن داود نسب شريف. في هذه الحياة الدنيا يؤمن الناس بدعواته التي تُخصِبُ الأرض وتجعل البهائم تتكاثر وتفتح للناس ؛ في الحياة الأخرى ؛ أبواب الجنة وتضمن لهم يوم الحساب الأخير، توسل عمر وجميع الأولياء المتأصّلين من سلالته.

ص 53

هذه شجرة سيدي بن داود منذ استقرار عائلته بالمغرب : سيدي حمو «قادم من الشرق»، سيدي زاري بن سيدي حمو، سيدي بلقاسم بن زاري «سكن قصبة تادلة حيث يوجد ضريحه»، سيدي مَحمد الشرقي، بن سيدي بلقاسم «هو مؤسس مدينة بجعد في المكان الذي لم يكن فيه إذ ذاك إلا بعض الأشجار»، سيدي عبد القادر بن سيدي مَحمد الشرقي، سيدي عبد القادر بن سيدي عبد القادر، سيدي المعطي بن سيدي عبد القادر، سيدي صالح بن سيدي المعطي، سيدي المعطي بن سيدي صالح، سيدي العربي بن سيدي المعطي، سيدي بن داود بن سيدي العربي.

منذ تأسيس بجعد من طرف سيدي محمد بن الشركي وهذه المدينة لم تفتأ تكون مقر سلالته [nbp]. عمر شيخهم الحالي سيدي بن داود بن سيدي العربي قرابة 90 عاما ؛ ورغم تقدم سنه فإنه يتمتع بكامل قواه. إنه مسن جميل ؛ ذو وجه شاحب ولحية طويلة بيضاء وللملامحه تعبيرُ ليونةٍ وطيبوبة نادرتين. يتحرك بصعوبة لكنه يتجول كل يوم راكبا بغلته.

54 لا يوجد في أي منزل إلا ويحيط بجواره أكثر من مائة شخص جالسين القرفصاء عند الجدار منتظرين خروجه ليُقبلوا ركاب بهيمته أو أهداب حائكه. إنه ليس موقراً من طرف مريديه فقط ولكنه أيضا يتمتع بحب عميق من طرفهم، يُمجّد الكل عدله وطيبوبته وإحسانه.

عائلة سيدي بن داود كثيرة الأفراد : قيل لي إن له 30 ولدا على الأقل أمهاتهم حرائر أو مما ملكت أيمان السيد. اسم ابنه البكر سيدي الحاج العربي : إنه يوجد في هذه الفترة ضمن حاشية السلطان. واسم ثاني أبنائه هو عمر. عمر هذا الأخير بين 55 و60 سنة. عُرف عنه أنه ذكي جدا وذو ثقافة عالية. علاوة على سلالته المباشرة ؛ لسيدي بن داود عدد كبير من الإخوة وأبناء الإخوة. باستثناء اليهود وبعض العمال التقليديين ؛ لا يَعمُرُ المدينة إلا أقاربُ مباشرون له أو من ينتمي إلى عائلته وعبيدهم ومأجورُوهم. يتمتع جميع افراد عائلة سيدي بن داود بما يتمتع به هو نفسه من وَقارٍ ؛ وهذا بدرجة أرفع كلما كانوا قريبين إليه عن طريق البُنُوَّة.

من سيخلف سيدي بن داود ؟ لا يعرفُ هذا أحد : ليس هناك نظام يضبط تسلسل الإرث. كل ولي من عائلة شرفاء بجعد ؛ عند الشعور بدنو أجل موته ؛

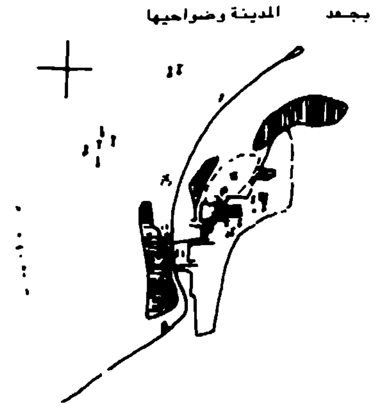
يختار أحد أولاده وبإعطائه رضاه يجعله وارث الحضوة الإلهية التي تغمر بدون انقطاع رئيس آل عمر. ومن وقع عليه الاختيار يرث عن أبيه كلتا الثروتين الروحية والزمانية. لا شيء يُمَكِّن ؛ مُسْبقاً ؛ من التنبؤ بمن سيستحق هذا الاختيار إذ ليس نظام الذكورة محترما أبدا فيما يرجع إلى خلافة المتوفى : فسيدي بن داود كان أصغر أبناء سيدي العربي.

للسيد علاقات طيبة مع السلطان : لم يُشهِر سيدي بن داود ولا أجداده عداوة لحكومة الشرفاء قط رغم قوتهم. يرسل مولاي الحسن كل سنة هدايا ثمينة إلى بجعد. في المقابل ؛ كلما ذهب مولاي الحسن من فاس إلى مراكش رافقه السيد أو أحد أبنائه انطلاقا من الدار البيضاء حتى نهر أم الربيع أو واد العبيد : حاليا يوجد الحاج العربي بحاشية السلطان.

لا حاجة إلى القول أن الزاوية غنية إذ تسجل كل سنة توافد هدايا عظيمة عليها نقدا أو عينا. هذه الهدايا اتاوات عادية تقدمها المناطق المجاورة أو هبات من طرف زوار فرادى قادمين من مناطق بعيدة أو هدايا أرسلها من فاس ومراكش أعيان المملكة. لسيدي بن داود ثروة كبيرة. ويستفيد باقي أفراد عائلته من تبرعات مريدي الزاوية كما يتقاسمونها لورعهم كل حسب مكانته داخل العائلة. لبعض هؤلاء الأفراد غنى كبير وآخرون منهم أقل ثروة مما هم عليه الأولون إلا أن الجميع لا يعيش إلا على التبرعات التي يتوصلون بها.

ليس صلحاء بجعد متعصبين وغير متسامحين وذوي تفكير ضيق. ذهب جلهم إلى مكة. يعني هذا أنهم تخلّوا عن أفكار الجهال من سكان المغرب الطائشة حول قوة وامتداد الديانة الإسلامية وأحكامهم المسبقة المُضحكة في حق الأوربيين. جميع أفراد العائلة على علم بالقراءة والكتابة وبعضهم علماء. للسيد خزانة غنية لكن قليلا ما يرجع إليها. يستفيد الشرفاء من الخيرات التي وهبهم الله فيقضون حياتهم في حلاوة الأمور الحلال ؛ ومع ذلك فالله يبارك لهم في كل شيء. لم أرَ في أي مكان آخر المُوَلّدين أكثر عددا مما هم عليه في بجعد. ص 55

موقع بجعد، وسط تموجات سهل شاسع صخري وأبيض، موضع حزين. ماء قليل وقليل من الحدائق. قد لا يستحق هذا المكان اسم المدينة لولا أهميتها كمركز ديني ولولا الميزة التي تصبغها عليها مساجدها وقبابها الكبيرة ومنازل الصلحاء الغنية : ليس بها أكثر من 1700 نسمة ضمنها 200 يهودي.



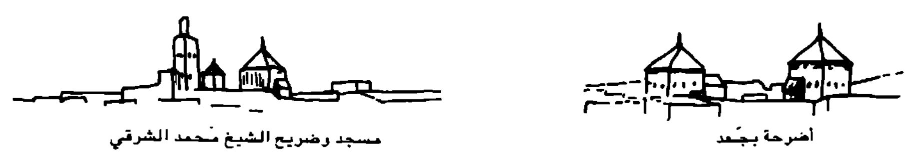
المدينة أشد اتساعا من عدد سكانها، لكن المنازل متفرقة وتتوزع بين الحدائق غربا والخرائب واكمات كبيرة من الأزبال شرقا. بُنيتْ منازل الأغنياء ـــ أي دور أبناء وأقرباء «السيد» ـــ بحجارة مُبلّطة بطريقة خشنة. لهذه المنازل مدخل فخم وأقواس من آجور وقلة من جدرانها الخارجية مُطلى بالجير. إلا أن داخل المنازل مزين مثلما هي عليه دور مدينة فاس : زليج على الأرض ؛ زجاج بالنوافد ؛ سقوف من روافد صغيرة مصبوغة ؛ محاريب [nbp] ذات نقوش منحوتة. بُنيت الدور الفقيرة ـــ أي أكثر عدد منازل المدينة ـــ من المقدار. جميع منازل بجعد ذات سطوح. المدينة غير مُسورة لكن هناك أبواب ـــ أو على الأقل بوّابات عند مدخل الأزقة الرئيسية. يسكن الجزء الغربي من المدينة أفراد العائلة المباشرة للسيد ولهذا يحمل هذا الحي اسم الزاوية. يسكن الأهل الأقل قرابة من الشرفاء الأحياء الأخرى. اليهود مقصون في الشمال الشرقي من المدينة. بالمدينة مسجدان كبيران وبجوارهما أضرحة جمعت رُفات أجداد سيدي بن داود. إنها صوامع ذات شكل مربع ؛ عالية وسميكة يعلوها قرميد أخضر.

لا وجود لحي تجاري خاص بهذه المعاملات : يقوم في نفس موضع السوق الأسبوعي سوق للتجارة العادية. يُرى في هذا الموضع عَدد من الأكواخ مصطفة من مقدار أو من حجارة دون لحام. عمق الكوخ الواحد منها متران وعلوه متر واحد ونصف متر. يأتي هنا كل صباح العمال التقليديون والتجار لعرض 56 بضاعاتهم ويعيدونها إلى منازلهم في المساء. لا يتوفر جميعهم حتى على وقاء دائم من تقلبات الجو إذ بينهم من يفضل مجرد أكواخ من أوراق الأشجار. يقام السوق الأسبوعي يوم الخميس. تتردد عليه جميع قبائل الضواحي. توجد بهذا السوق

أكثرية المنتوجات الأوربية التي تباع في فاس ومكناس باستثناء البترول والسكاكين وأقلام الرصاص. لكن هذه الأشياء متوفرة بكثرة عند الشرفاء الذين يستقدمونها من الدار البيضاء.

تتم بواسطة مرسى الدار البيضاء جميع تجارة بجعد. تأتي من هنا المنسوجات القطنية والشاي والأرز والبقالة والعطور والملابس الرفيعة في المقابل ؛ ترسل إلى الدار البيضاء الجلود والصوف وشمع العسل. تفصل بين الدار البيضاء وبجعد 4 أيام سير على الأقدام منها يومان عبر بلاد السيبة حيث لا يسافر المرء إلا تحت حراسة قريب للسيد. لا توجد أية علاقات تجارية مع مراكش بسبب صعوبة المواصلات : الطريق خطيرة جدا بين المدينتين إذ يحتاج إلى 8 أيام لقطع المسافة الفاصلة بينهما. توضح هذه المدة إلى أي حد يجب التحول عن الطريق العادي واتخاذ زطاط جديد في كثير من الأحيان.

لا تتوفر بجعد على الماء بكيفية مُرضية رغم مرور جدول ماء بها إذا هذا الماء غير شروب ولا يصلح إلا لإرواء البهائم وسقي البساتين. لبعض العائلات صهاريج لحفظ الماء لكن الجزء الأكبر من المدينة لا يُمَوَّن إلا عن طريق مجموعة 6 أو



أضرحة بجعد — مسجد وضريح الشيخ محمد الشرقي

7 آبار موجودة على بعد كيلومتر واحد في اتجاه الغرب. لا تسمحُ كمية قليلة من الماء مثل هذه بوجود كثير من الحدائق فعلا. هذه الأخيرة قليلة العدد ولذا تعطى لها عناية كبيرة. تنمو في هذه الحدائق نفس الأشجار التي تنبت في حدائق مكناس من رمان وتين وزيتون وكروم. تحت ظلال هذه الأشجار تنتج بقوليات المنطقة من قرعة وبطيخ ودلاح وقرع وفلفلة.

زي الحضريين ببجعد نفس الزي بفاس وزي ريفيي المنطقة سبق وصفه عند الحديث عن بني زمور. إلا أنني لاحظت خاصية تهم تادلة ترتبط بالسلاح الشخصي. هذه الخاصية لم تكن أثارت انتباهي عند أيت المعطي. يتعلق الأمر ؛

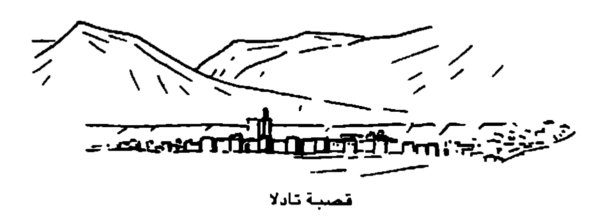


ضواحي بجعد

انطلاقا من بجعد ؛ بتداول الحربة. يحمل جميع رجال تادلة عادة حربة طويلة معلقة إلى حمالة السيف وتعوض هذه الحربة السيف والخنجر المستعملين في مناطق أخرى.

3 ـــ من بجعد إلى قصبة تادلة

57 تأكدت ؛ قبل مغادرة بجعد من توفير خفر أحد أحفاد سيدي بن داود خلال طول المدة التي سأقيم فيها بتادلة، سأذهب أولا إلى تادلة تحت هذه الحماية وبعدها سأتوجه إلى قصبة بني ملال.



قصبة تادلا

17 شتنبر.

الذهاب من بجعد في 3 و30 دقيقة توجد المنطقة في نفس السهل الكبير لتادلة ذي التموجات الخفيفة وحيث سبق لي المرور به. أما فيما يخص حالة السطح فإنه يتغير بعض الشيء : صخري خلال الثلث الأول من الطريق ومحجوجر في الثلث الثاني وأخيرا ثراب ممزوج بالحصى الصغيرة.

المزروعات ؛ نادرة في البداية، تكثر كلما تقدمت في السير، ما لا تحتله المزروعات من سطح المنطقة هو إما عاري في هذا الفصل من السنة أو منتشر فيه عناب قليل ولكن تكسوه مراعي رائعة خلال فصل الربيع كما قيل لي. صيد وافر : أزْعَجَ مُرورُنا عددا كبيرا من الأرانب وفرخ الحجل ؛ كما هناك الظبي ؛ حسبما يبدو.

على 7 صباحا وصلت إلى قصبة تادلة.

كان المكان خاليا قبل قرار مولاي إسماعيل بتشييد قصبة به كما أكد لي بعضهم هذا : لم تكن به أية قرية. والقرية التي نراها اليوم قد تعود إلى أيام حكم هذا

السلطان. إنه هو الذي أسس القصبة والمسجد وهو الذي انجز القنطرة على نهر أم الربيع، إنها قنطرة ذات 10 عقود : أكبر قنطرة في العالم حسب أقوال سكان المنطقة.

شيدت قصبة تادلة على الضفة اليمنى للنهر الذي يسيل عند قدم أسوارها مباشرة. يصل عرض المياه هنا 30 إلى 40م التيار سريع والعمق خطير. لا يمكن اختراق النهر إلا بواسطة مقاطع قليلة. ماعدا نقط العبور هذه فيجب على المرء العوْمُ وهذا حتى في فصل الصيف. المياه منحبسة بين أصواح النهر تارة بنسبة 1/1 وتارة أخرى بنسبة 2/1 يصل علو هذه الأصواح ما بين 12 و15م فوق المستوى العادي للمياه في كثير من الأحيان، الصوح الأيسر للنهر أعلى من الصوح الأيمن : الأصواح في بعض الأحيان صخرية وفي هذه الحالة يكون سرير النهر صخريا لكن تكون الأصواح في كثير من الأحيان خليط من التراب والحصيم.

القصبة ذاتها في حالة جيدة. إنها من أحسن بكثير ما رأيت في المغرب في ميدان التحصينات. هذه مكوناتها :

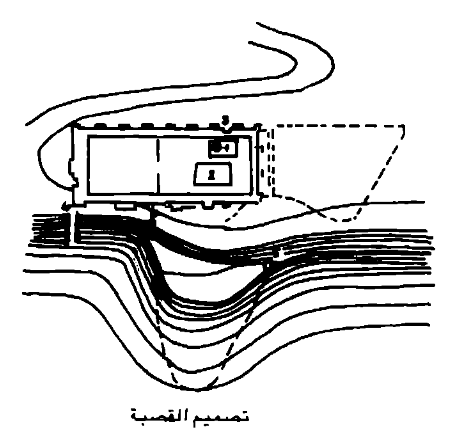
ص 58 (1) نطاق خارجي من أسوار بُنيت من المقدار. سمك السور الواحد منها 1,20م وعلوه من 10 إلى 12م هذا النطاق ذو شرفات على طول امتداده وبه درجة على طول مرامي السهام وتحصنه أبراج سميكة ؛

(2) نطاق داخلي يفصله عن الأول ممر عرضه من 6 إلى 8م سور هذا النطاق من مقدار وسمكه 1,5م ويكاد يكون علوه نفس علو السور الأول ولكن ليس به مرامي سهام. هذان النطاقان في حالة جيدة. لا توجد بالسور الأول ثغرات لرمي السهام وما بالثاني إلا ثغرة واحدة واسعة فعلا : إنها تطل على ساحة فتقسم هذه الأخيرة إلى شطرين.

يوجد شرق القصبة المسجد ودار المخزن [nbp] وتوجد غربها المنازل : كل هذه البنايات في حالة خراب وتبدو مهجورة. لما زرت هذا الحصن لم أر إلا شخصا واحدا داخله : إنه رجل فقير بائس كان جالسا أمام باب دار المخزن. كانت سُبحته تتدلى بين أصابعه وكان يُرتلُها بطريقة كئيبة إلى حدّ أنه أثر في. منْ هو هذا الناسك الذي يعيش في الوحدة والصلاة ؟ مِنْ أين له هذا الوجه الحزين ؟ أمُذنِبٌ تائب كان يكفر عن أخطاء غير معروفة ؟ هل كان مرابطا صالحا

باكيا فساد القوم ؟ لا ؛ إنه القايد هذا الرجل الحزين لا يجرؤ على الخروج من قصبته : وحالما يخرج يتبعه الصياح.

إذا كانت القصبة غير مأهولة فإن لها ربضين مأهولين. يوجد الربض الأول على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع. مساكنه من مقدار وتعمره العائلات الغنية وهنا يقطن أيضا اليهود. ويتكون الربض الآخر ؛ على الضفة اليسرى للنهر، من خيام وأكواخ من أغصان الأشجار : إنه حي الفقراء.



تصميم القصبة

قصبة تادلة أقل سكانا من بجعد : بها 1200 أو 1100 نسمة تقريبا من ضمنهم 100 أو 120 يهودي. لا ماء غير نهر أم الربيع. ماء صافي وصالح للاستهلاك ولو أن ذوقه ملح بعض الشيء. تحتوي كل هذه المنطقة على الملح بكثرة : أمام عيني قطع جميلة من الملح طول الواحدة منه متر واحد وعرضها 60 سم. وسمكها من 15 إلى 20 سم قريب من هنا ؛ في منطقة بني موسى ؛ يُستخرج هذا الملح [nbp].

59 لا توجد حدائق بقصبة تادلة. ليس بها لا شجرة ولا فاكهة ولا أثر لعشب أخضر. إنها حالة منفردة في المغرب. لم أر في المغرب لا في مدنه ولا في قراه ولا في غيرها مكانا آخر مأهولا لا يتوفر عل حدائق صغيرة أو كبيرة.

4 ــ من قصبة تادلة إلى قصبة بني ملال

19 شتنبر.

الذهاب في 6 صباحا. اعبر نهر أم الربيع عند مقطع موجود قرب المقبرة وأسير مباشرة في اتجاه السلسلة الجبلية العالية المنتصبة في الجنوب. إنها أولى الأضلاع الجبلية الثلاثة التي يتكون منها الأطلس المغربي : هذا هو الضلع الذي نسميه الأطلس المتوسط. ليس له قط اسم متداول بين الأهالي. يسمى الجزء الذي أراه من هنا ؛ في الغرب جبل بني ملال وفي الشرق هو نفسه يحمل اسم جبل امهاوَش. إبط الجبل صخرية تارة وترابية تارة أخرى وأكبر جزء من سطحها تكسوه الأشجار : منحدرات جد وعرة منذ القدم ؛ أجراف واردة بكثرة. في الغابات الواسعة صيد وافر : الحجل والقواع والخنازير والقرود ؛ كما يوجد في هذه الغابات السبع والنمر. تلك هي الكتل الأولى العالية لسلسلة الأطلس : جبال عالية ومتوحّشة ينتهي عند قدمها ؛ في نفس الوقت ؛ سهل وبلاد تادلة. هنا تبدأ منطقة آيت سري ؛ قبيلة أمازيغية قوية تمتد بقراها وخيامها عبر كل السلسلة التي توجد أمامي.

من مجرى نهر أم الربيع إلى سفح الجبل ليس هناك إلا سهل واسع مستوي السطح كالمِرْآة : لا تموج ولا أحجار ؛ التراب أبيض. تكسو هذا السطح بأجمعه حقول منبسطة على مد البصر، جداول ذات مياه صافية وجارية. تسقي هذه الحقول أعداد من القنوات. إنها مزروعات كَطاية إحدى قبائل تادلة. بعد ساعتين من السير. من ضمن دواويرهم دواوير واسعة ورائعة يتكون كل واحد منها من 50 خيمة. يفصل بين الدوار والدوار الآخر قرابة الكيلومتر الواحد : تكوّن هذه الدواوير صفين طويلين يمتدان متوازيين مع قدم السلسلة الجبلية وينتشران على شكل نقط سوداء حتى الأفق. ترعى ؛ بجوار هذه القرى الابل والثيران والضأن في شكل قطعان كثيرة.



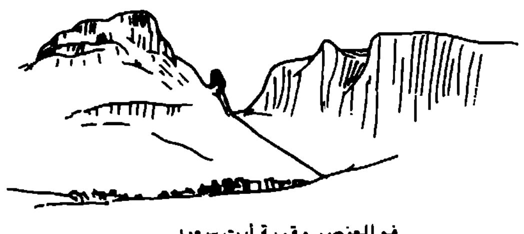
فشتالة

وصلنا في الساعة 9 ؛ عند قدم الجبال سنتبع قدم الجبال هذا حتى مأوانا. البُقعة غناء لا يمر وقت لا نخترق خلاله مجرى مائيا ولا يمر وقت لا نصادف خلاله قرية أو بساتين. أولا ؛ إنه واد دَرْنة الذي قطعناه وسط حدائق تكَزيرت ؛ البلدة التي نتركها عن يميننا ؛ ثم فشتالة والقصبة الشهيرة التي تحمل هذا الاسم ؛ ذات الأهمية فيما مضى والمتخلى عنها حاليا وأخيرا وادْ فم العَنْصَرْ وبه آيت سعيد.

60 توقفنا بعض اللحظات عند فشتالة : لم يبق من القصبة المشيدة من طرف مولاي إسماعيل على نفس نمط قصبة تادلة إلا أطلال ضخمة تتكئ على هذه الأطلال القرية الحالية ؛ ليس بها أكثر من 250 أو 300 نسمة

لا ينتمي هؤلاء إلى أي قبيلة. هذا المكان مركز منفصل. إنه زاوية رؤساؤها الحاليون الأخوان سيدي محمد الشريف وسيدي حسن. هما سيدا هذا المكان المطلقان. تقع فشتالة في المنحدرات الأولى للجبل بين أضلاع تظللها أشجار اللوز ؛ عند قدم صخرات كبيرة حيث عدد من الجداول طافرة على شكل شلالات راسمة خطوط فضية ؛ وسط حدائق عجيبة شبيهة بحدائق تازة وصفرو.

توجد آيت سعيد على مسافة قليلة بعض الشيء من هنا. وصلنا إليها عند الظهيرة : هنا ينتهي سيرنا خلال هذا اليوم. مجاري المياه التي قطعتها خلال اليوم هي التالية : نهر أم الربيع «90م عرضا، 90سم عمقا» واد درنه «سيل صاخب، مياهه صافية خضراء تسيل وسط قطع صخرية منتشرة في الوادي. في المقطع حيث عبرته كان له 25م عرضا. و70سم عمقا، إلا أن عرضه العادي ليس إلا 15

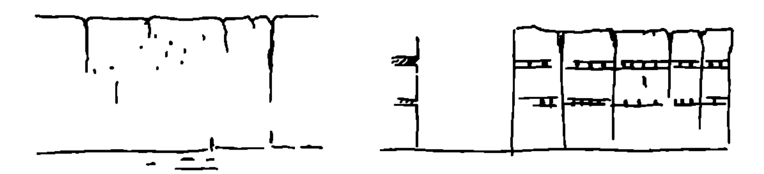


فم العنصر وقرية أيت سعيد

أو 20م» ؛ واد فشتالة «مجرى مائي كبير ؛ 2م عرضا 40سم عمقا ؛ نازل من الجبل عبر شلالات» ؛ واد فم العنصر «3م عرضا 40سم عمقا ؛ ينطلق 100 م تقريبا من عالية قرية أيت سعيد». صادفت اليوم عددا كبيرا من الناس خلال الطريق.

أيت سعيد قرية ضخمة عدد سكانها من 300 إلى 400 نسمة. إنها أضخم قرى الفخدة التي تحمل هذا الاسم. توجد القرية عند أسفل الجبل عند مخرج شعب عميق اسمه فم العنصر حيث تتدفق 6 ينابيع ؛ أصل سيل بديع ؛ عند قدم صخرات هائلة. هذه الصخرات تطل على القرية مكوّنة جدرانا عمودية ذات علو عجيب : في اتجاه أعلى الصخرات تبدو فتحات فاغرة لمغارات متماثلة تقريبا تجثو في إبط هذه الصخرات. أي عمال صنعوا هذه الدور العجيبة إلى أي جنس كان ينتمي هؤلاء الذين كانوا يتسلقون هذه الجدران الملساء للصخر بواسطة مسالك مجهولة ؟ «لاشك كانوا مسيحيين مادام ليس هناك أي شيء مستحيلا على المسيحيين». لايقدر ؛ في أيامنا هذه أي أحد أن يصل هذه المغارات. وويل لمَنْ قد يحاول الصعود إلى هذه الخلْوات السرية : هناك أرواح تمنع الدخول إليها وقد ترمي بالشخص الجسور إلى قعر الوادي.

ص 61 انطلاقا من هنا سنصادف في كثير من الأحيان مغارات من هذا النوع وسأشير إليها كلما وُجِدتْ. إنها كثيرة في هذا الجزء من الأطلس الذي سأسير فيه : نادرا ما تجد في هذا الجزء من الأطلس قرية ليس بجوارها مغارة. توجد مجمل هذه المغارات في مناطق صعبة الوصول. إنها نوعان : تنفتح مغارات النوع الأول على سطح الصخر بدون انتظام فلا ترى العين إلا عددا من الثقب الداكنة المحفورة صُدفة والمتباعدة عن جاراتها. وعكس الأولى، نوع المغارات الثانية محفور في نفس



الخط : قبالة الفتحات ؛ يرى المرء، على طول الحاجز الصخري، ممرا منحوتا في الصخر يربط بين المغارات. ويغلق عادة هذا الممر حاجز خارجي. وتربط قناطر صغيرة من الحجارة بين المغارات عندما توجد شقق فيتعذر المرور من أحدهما إلى أخرى. في كثير من الأحيان صفوف متشابهة من هذه المغارات تتدرج مثنى أو ثلاث ؛ على نفس الحاجز الصخري. تحف هذه المغارات بعض الأودية على امتداد مسافة كبيرة. يستعمل القليل من هذه المغارات لخزن الحبوب أو لإيواء قطعان الماشية.

زرت بعض هذه المغارات : لقد أثارت انتباهي بعمقها وعلوها ؛ إلا أنها تقريبا كلها صعبة المنال. لذا فإن الخرافات الأكثر غرابة تسري حولها : تبدو هذه المساكن الخارقة للعادة أمورا عجيبة بقدر ما تبدو السفن البخارية أو السكك الحديدية عجيبة بالنسبة لسكان هذه المناطق. تنسب هذه المساكن الخارقة للعادة إلى نفس المنجزين الذين سبق ذكرهم : إلى مسيحيي الأزمنة القديمة والذين طردهم المسلمون لما غزوا بلاد المغرب. والناس واثقون مما يقولونه في هذا الموضع : يذكرون أسماء الملوك أصحاب هذه الانجازات ويتذكرون على الخصوص أسماء الملكات اللواتي ملكن هذه الحصون المعلقة. ترك هؤلاء المسيحيون كنوزهم خلال فرارهم ولهذا لا يوجد أحد من بين الأهالي لا يشك أن المغارات مليئة بهذه الكنوز. وفعلا فقد شاهدوها. لقد رأى بأم عينيه مرابط مسلم في هذا المكان ويهودي في مكان آخر بعد أن تسلل كل واحد منهما بين الصخور وتوغل في المغارات العميقة فوقفا على كميات من الذهب لكن لا أحد منهما تمكن من لمسها : تارة كانت العفاريت تحرسها وتارة أخرى كانت تحرسها ناقة من حجر مُتدحْرجة ومحركة عينيها المخيفتين. كانت العفاريت أو الناقة تحافظان على كميات الذهب. وفي مكان آخر كان المرء يستشف كميات الذهب هذه بين صخرتين كانتا تغلقان من تلقاء نفسها على كل من كان يريد اختراق الممر. لقد ذكِر لي مكانْ على نهر درعة ــ واسمه أمَزْرُ ــ حيثُ السكان مقتنعون بوجود ثروات هائلة في مغارات المناطق المجاورة إلى حد أنهم وضعوا حراسا حتى لا تسرق.

اليوم ؛ أثناء طريقي، لاحظت على سفوح الأطلس عددا كبيرا من بنايات ــ شبيهة بقصبات صغيرة أو بقصور ــ كانت منعزلة أو مشرفة على القرى : هذه البنايات تعرف بتِغْرَمْت [nbp]. شكلها العادي مربع وبها برج في كل زاوية. يصل علو الأسوار المبنية من المقدار ما بين 10 و12م تستعمل هذه القصور كمخازن للحبوب والمحصولات الأخرى. هنا تملك قرية وكل فخدة تغرمت أو عدة تغرمتن حيث كل ساكن يضع ؛ في أمان ثروته ومدّخراته في مكان خاص به ويملك مفتاحه. يضمن أمن المخزونات حراس مكلفون بكل واحدة من هذه التغرمتن. ص 62

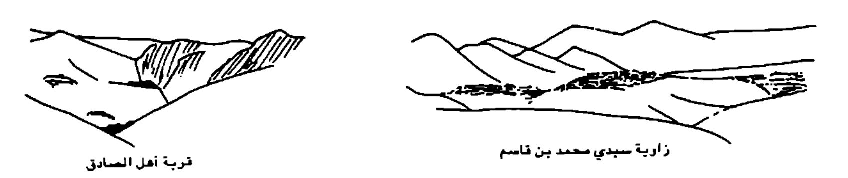
هذه القصور ــ المخازن والتي رأيتها لأول مرة هنا بالمغرب من التقاليد العامة المعمول بها في منطقة واسعة من البلاد : أولا في سلسلة الأطلس الكبير والمتوسط

كلا السفحين ؛ من قصابي الشرفاء وانطلاقا من آيت يوسي إلى تيزي ــ ن ــ لِكَلاوي ؛ ثم على مجاري نهرَي درعة وزيز بأجمعها وداخل المنطقة الموجودة بين هذين النهرين. تسود طريقة أخرى لخزن الحبوب شرق تيزي ــ ن ــ لكَلاوي ودرعة ويجري بها العمل أيضا في الجزء الغربي من الأطلس والصحراء، من نهر درعة حتى المحيط الأطلسي. إنها طريقة الحصون أكَدير [nbp]. هنا ليست القرية التي تجمع حبوبها في حصن أو عدة حصون بل القبيلة التي تخزن محاصيلها في قرية أو عدد من القرى. تحمل هذه القرى اسم إكَودار. في اتجاه تَازناخت سأرى اكودار تَحُل مَحَل تغرمت. في المنطقة الأولى ؛ أيام الفتن ؛ كان في إمكان كل كَفر أن يقاوم الهجوم بمفرده بينما في المنطقة الثانية فتكون كل حياة القبيلة مرتبطة بنقطة أو نقطتين. في المنطقة الأولى كنت أشاهد كل يوم الاقتتال يدور بين قرية وأخرى أما في المنطقة الثانية فلا يحدث الشجار إلا بين الفخدات.

20 شتنبر

الذهاب في الساعة 10 صباحا. لازال الطريق محاديا لسفح الجبل : سطح ترابي تنتشر فيه بعض الحجارة. يسارا الأطلس صخري تكسوه الأشجار ويمينا سهل تادلة كبحر ممتد على طول البصر. تكسو السهل المزروعات إلى أبعد ما يمكن أن يميز النظر. وصلت عند الظهر إلى قصبة بني ملال حيث توقفت.

ص 63 قصبة بني ملال ؛ والتي تحمل أيضا اسم قصبة بلكوش ؛ مدينة صغيرة عدد سكانها 3000 نسمة تقريبا من بينهم 300 يهودي. بُنِيت القصبة قريبة من قدم الجبل ؛ على منحدر لين يصل الجبل بالسهل. تكسو هذا المنحدر حدائق رائعة.



قرية أهل الصادق — زاوية سيدي محمد بن قاسم

في اتجاه الشمال تمتد هذه الحدائق بعيدا وتنحصر فجأة عند جرف صخري منتصب على بعد كيلومتر واحد من المدينة. عند قدم هذا الجدار تنبع من داخل الصخر العيون التي تسقي قصبة بني ملال. وُزّعت مياه هذه العيون ــ وهي ذات نقاوة مدهشة وغزارة قصوى ــ إلى 6 قنوات. يكوِّن كل واحد من هذه

القنوات جدولا عرضه 2م وعمقه 30 سم. توزع هذه المياه على كل دار وكل بقعة صغيرة بواسطة عدد كبير من القنوات الصغيرة التي تجري في جميع الاتجاهات. تضيع هذه المياه في حدائق المدينة وسهل تادلة دون أن تصل إلى نهر أم الربيع عند مَقرنِهما الطبيعي رغم كوّن الحجم الاجمالي ضخما. وهذه نفس الوضعية بالنسبة لمختلف مجاري المياه التي قطعتها أمس بعد واد درنة. تُحْبَس مياه هذه المجاري عند خروجها من الجبل قصد استغلالها في السقي ؛ فلا يبقى بهذه المجاري ماء عند وصولها إلى السهل. تمتلئ مجاريها ماء فقط خلال فصل الشتاء فتتصل هذه الجداول بوديان فم العنصر ودرنه وبني ملال وأم الربيع.

بنايات قصبة تادلة من المقدار كما هي حال كل البنايات التي شاهدتها ابتداء من 17 شتنبر. للدور طابق واحد كما هي عليه في بجعد وقصبة تادلة. لا توجد مئذنة بالمدينة نفسها ولكن هناك مئذنة وسط الحدائق بزاوية سيدي محمد بن قاسم. الأثر الوحيد اللافت للأنظار هو قصبة عتيقة ذات أسوار عالية وسميكة لكن في طريق الخراب رغم أنها رُمّمت من طرف السلطان مولاي سليمان حسب ما يقال. يوجد سوق وسط البلدة يشبه سوق بجعد. مصدر لمنتوجات الأوربية التي تباع في هذا السوق إما من الدار البيضاء أو بالأحرى من مراكش. كل 15 يوما تأتي قافلة مكونة من 21 جملا من هذه العاصمة. لا تحتاج هذه القافلة إلا إلى 4 أيام لقطع المسافة الفاصلة بين المدينتين ؛ على عكس طريق الدار البيضاء الطويل. يمر هذا الطريق عبر بجعد. مظهر المدينة نظيف وغني. بها أزقة واسعة ومنازل جديدة حسنة الإنجاز. مصدر رفاهية المدينة حدائقها الوساعة التي تصدر فواكهها بعيدا. حدائق بني ملال ذات ثروة عجيبة كما هي عليه الحدائق المنتشرة في نفس الموقع عند قدم الأطلس : نجد هنا من جديد في تَاكزيرت وفشتالة وقصبة بني ملال وفي دمنات ما كانت عليه الأمور في الشمال في كل من الشاون وتازة وصفرو. فواكه الأماكن الثلاثة الأولى وأيضا مجموعة أماكن أخرى موجودة أكثر شرقا منطقة تادلة بما تنتجه من فواكه ولا يستهلك سكان بجعد أنفسهم إلا من هذه الفواكه. تتكون هذه الأخيرة من العنب والتين والرمان والخوخ والليمون والزيتون ؛ كلها تلفت النظر سواء من حيث الجودة أو من حيث الكم.

يقيم هنا قائدان. إنهما قائدان للذكرى **In partibus** مثل قواد زيان وقصبة

تادلة. إلا أنه كان للسلطان في هذا المكان ؛ في زمان غير بعيد ؛ أنصار جد كثيرين.

وقع حادث كنت لاحظته في مناطق خارجة عن طاعة المخزن وخاصة في المناطق التي كانت غنية وتتعاطى للتجارة، جزء من السكان اعتبارا للعراقيل التي تضعها الفوضى في وجه ازدهار المنطقة واعتبارا للنهب المتوقع للأراضيهم نتيجة



زاوية سيدي محمد بن قاسم

الحروب مع القبائل المجاورة وملاحظة كم كانت التجارة صعبة نتيجة قلة الطرق ؛ كان هذا الجزء من السكان أخذ يتشوق إلى نظام جديد وكان يتمنى الانضمام إلى بلاد المخزن. هذه الأفكار كانت منذ بعض الوقت أفكار ثلث سكان قصبة بني ملال. وكان باقي السكان الآخرين لازالوا متشبثين باستقلالهم ورافضين كل فكرة استسلام إلى المخزن. هاجم منذ 5 أشهر تقريبا مولاي الحسن تادلة. تابع أعماله الحربية حتى وصل أمام قصبة بني ملال : عند اقترابه من المدينة تخلى عن المدينة كل من كان معارضا وتراجع إلى الجبل. بقي حزب السلطان في مكانه فأرسل وفدا ليؤكد للسلطان إخلاص سكان القصبة. كان جواب السلطان أن فرض 50000 فرنك على سكان بني ملال : فأدى الحاضرون عن الغائبين. لا فائدة للقول بأنه لا يوجد بالقصبة حزب موالي للمخزن. قلت أعلاه أنه في أجزاء



قصبة بني ملال

أخرى من المغرب كنتُ وجدت قبائل مستعدة لاستبدال استقلالها مقابل منافع إدارة منظمة، هكذا في عام 1882 كانت عدة قبائل من سوس العالي استسلمت للسلطان من تلقاء نفسها، لكن في كل مكان كانت الخاتمة تتغير : لايلبث المرء أن يتحقق إن ليس المخزن إلا الحكومة التي يحلم بها الناس ؛ إذ لا يوفر الانضمام

إلى بلاد المخزن أمنا أكثر مما كانت عليه الأمور في الوقت السابق حيث يبقى النهاب أكثر عددا من أي وقت مضى وأخيرا ما يُخربه اغتصاب القواد في المنطقة خلال سنة واحدة يكون أكثر ضررا مما قد تفعله 10 سنوات من الحرب. لا خَير يعوض هذه الآلام الأخيرة ؛ لذا فهذه الحالة لا تدوم إذ ينتفض الناس ويأخذون استقلالهم من جديد بعد سنتين أو ثلاث سنوات من الصبر وفي كثير من الأحيان خلال أقل من هذه المدة بعدما يلاحظون ألا فائدة ترجى من الوضعية الجديدة.

5 ـــ حركة السلطان في تادلة سنة 1883

قبل مغادرة منطقة تادلة سألخص بعض المعلومات التي حصلت عليها حول حركة مولاي الحسن في هذه البقعة من التراب المغربي.

يقود السلطان جيشا كل سنة أو سنتين ويذهب ليحارب في جزء من المغرب : غاية هذه الحركات، تارة إعادة فخدات قبائل إلى طاعته، وتارة أخرى فرض ضرائب حرب على قبائل قوية جدا فيتعذر إخضاعها لسلطته ولكنها في نفس الوقت شديدة الضعف أو التفرقة إلى حد أنها لا تتمكن من منعه اجتياح أراضيها مؤقتا. ما ينجزه الآن في تادلة هو حملة من هذا النوع ؛ أي مجرد عملية مالية. لا تتغير الطريقة التي يتبعها في هذه الحال : يتقدم خطوة خطوة ؛ من قبيلة إلى قبيلة ؛ عارضا على كل منها عند وصوله إليها الاختيار بين أمرين : نهب المنطقة أو الافتداء مقابل قدر من المال. ضمن هذا البديل ؛ واختيارا للأقل ضررا بين شرين ؛ يقررُ المعنيون بالأمر شراء السلم بالثمن المطلوب في كثير من الأحيان. وهذا ما يتمناه السلطان إلا أنه في بعض الأحيان يعاني خيبة آمال كبيرة. يلقى مقاومة في بعض الأمكنة ؛ وتكون لهذه المقاومة بعض النجاح ؛ كما كان الأمر عند قبيلة غياثة. في تادلة اختير حل ثالث فكان مصدر أمَرّ خيبة أمل للسلطان : عند اقترابه من تادلة اكتفت القبائل وكلها رحل، بجمع خيامها وابتعدت من جبل أيت سري ؛ إلى جبال زيان ؛ حيث أصبحت في مأمن من أعماله وبقي السلطان وحيدا مع جيشه متجولا وسط السهل الخالي فكانت حركته هذه كارثة. لم يتمكن إلا من جمع بعض النقود لدى القصبات الصغيرة المنتشرة على مسافات

طويلة داخل المنطقة : مدخول نقدي ضعيف لانتشار كبير من الجنود. «متاعب من دون ربح» هكذا وصف السكان هذه الغزوة.

هذا مسار مولاي الحسن خلال هذه الحركة : انطلق من مراكش في الخريف الأخير. وصل أولا إلى زاوية سيدي ساسي ثم وصل على التوالي إلى القنطرة «على واد ساسي. أحد روافد تانسفت» فمولاي بوعزة احمر التراب فواد تاساوت الذي عبره، فواد العبيد الذي قطعه عند مشرع بوعقبة. وكانت هذه العملية الأخيرة شاقة إذ دام العبور 3 أيام وسقطت خلاله 3 مدافع في عمق النهر ولم يتمكن من إخراجها من الماء إلا بمشقة كبيرة. عند وصوله إلى هذا الواد كان السلطان طلب من ولد شلايضي ؛ القايد In partibus لبني موسى إن كان المشرع سهل العبور ولا يمثل أخطارا. كان جواب القايد نعم وكان الأمر عكس ذلك : كان حجم المياه جد مرتفع فجلد مولاي الحسن القايد في الحين لسوء إطلاعه على الأمور. من هنا توبع السير إلى دار ولد سِذْوينْ «مقر قايد آخر على بني موسى الذين يسيِّر أمورهم 3 قواد» ثم إلى سيدي سليمان «داخل سهل تادلة : بالمكان قبة وعين إلا أنه خالي من السكان» ثم قصر بني ملال «بلدة على ساعتي سير غرب قصبة بني ملال ؛ في موضع مماثل لقصبة بني ملال ؛ عند قدم الأطلس ؛ به منابع جميلة ؛ 2000 نسمة» ثم إلى قصبة ملال فإلى سغمغ «قصبة جد قديمة ؛ خالية من السكان وهي في طريق الخراب ؛ توجد داخل السهل بين فشتالة وأيت سعيد ؛ على مقربة شمال الطريق الذي اتبعته. تنتمي القصبة إلى أيت سعيد» ثم إلى غَرم العلم «قصبة قديمة غير مسكونة ناتئة في السهل أمام جبل امهاوش موطن أيت ورا». كان السلطان خلال هذا الزحف اتبع الطريق الذي سرت فيه أنا بنفسي ؛ محاديا قدم الأطلس بين آيت سري وتادلة. من هنا انتقل إلى قصبة تادلة ثم إلى زاوية آيت لغوادي «عند سَمكتْ ؛ فخدة من «قطاية» ثم إلى ززْوان «بين بني زمور وزيان ؛ على بعد 7 ساعات سيرا من بجعد في اتجاه مولاي بوعزة» ثم إلى سيدي بوعبيد «زاوية ببني زمور» ثم إلى سيدي محمد مبارك «ببني زمور» ثم إلى مزكَدِه «ببني زمور» ثم إلى بئر لكسا «ببني زمور» ثم إلى الحَاشِيَة «الحدود بين بني زمور والسماعلة». لقي السلطان مقاومة عند رجوعه من السماعلة من طرف البراكسة : رفضت هذه الفخدة الابتعاد عند اقتراب الحركة منها وامتنعت عن أداء أية مساهمة مالية. انتظرت القبيلة السلطان مستعدة للقتال فهاجمها

ص 66

السلطان فقتل البراكسة 500 رجل من جيش السلطان لكنهم هُزموا في النهاية فأخذت قصبتهم وهدمت أسوارها وقُطع فيها 50 رأسا وأخذ 200 سجينا.

من هنا انتقلت الحركة إلى أولاد فنان «فخدة من السماعلة» فإلى بني خيران في أراضي هذه القبيلة بدأ مولاي الحسن بأخذ زاوية أولاد سيدي بو عمران وهي للشرفاء الذين يحملون هذا اللقب. أولاد سيدي بوعمران شرفاء ذوو تأثير عظيم على فخدة بني خيران حيث يقيمون بين ظهران فخدة أولاد بوغادي. هؤلاء الآخرون أصحاب ثروة كبيرة. كان أن عراهم السلطان؛ ثم خرّب أراضي أولاد قطيطه «فرع من أولاد بوغادي» وأراضي بني منصور «فخدة من بني خيران». كان السلطان عند بني منصور حوالي يوم 10 غشت غادرهم ليسير إلى مرْسْ لبيوض على الحدود بين بني خيران وزعير. آنفا ؛ في ماسة ؛ هنا وجد السلطان وحدات من جيش مملكة فاس التي انضمت إليه فضخّمت عدد أفراد جيشه. من مرس لبيوض دخل السلطان إلى بلاد زعير وتالمغت : هنا تنتهي الأخبار التي تمكنت من توفيرها.

كان مع السلطان 000 10 فرس و000 10 راجل. كانت الجنود ضمن هذه الأعداد النظامية «العسكر» والمخازنية لا تمثل شيئا كبيرا. كانوا ربما 000 5 أو 6000 رَجُل والباقي كان وحدات القبائل الطائعة لمملكة مراكش. هل كان الأمر يتعلق بإجراء تجربة من هذا النوع ؟

67 إن كان السلطان يوجد بمراكش فإنه يستدعي قواد المنطقة المجاورة كلا مع ما يمكن أن يجمعه من رجال فيكون تجمعهم هذا فيلقا يصاحب السلطان حتى وصوله إلى عاصمة أخرى ؛ فاس أو مكناس. هنا تنتهي خدمة هذه الوحدات فيعود كل واحد من أفرادها إلى أهله. عكس هذا ؛ لو كنا في فاس فإن فخذات المغرب الشمالي الطائعة هي التي قد تكون الجيش المصاحب للسلطان، لا يمكن للفيالق المتجمعة هكذا أن تكون قوية جدا ذلك أن القبائل الأكثر قوة لا تقدم ولو رجلا واحدا لكونها عاصية أو مستقلة وهذه حالة اشقرن وزعير وزمور الشلحة وبني مكيلد وبني مطير بالنسبة لوسط المغرب فقط إضافة إلى هذه القبائل السالفة الذكر كل قبائل تادلا باستثناء بني مسكين. هذه الأسماء ليست فقط أسماء القبائل الأكثر عددا ولكن المحاربة الأكثر للمنطقة. لم يبق إذن للحكومة إلا سكان شواطئ البحر وهي مجموعة بشرية توفر جنودا دون المستوى في هذه الظروف ؛

كيف يمكن لمولاي الحسن أن يخرب أراضي قبائل قوية مثل تادلة وزعير دون عاقبة ؟ هذه الحالة ناتجة عن عدم الاتحاد بين القبائل السائد في كل مكان ليس فقط بين مختلف القبائل ولكن أيضا بين فخدات كل قبيلة منها : تصل النزاعات والمنافسات والحقد إلى حد أن لا شيء ؛ وحتى المنفعة العامة ؛ يمكن أن يوحد مختلف المجموعات البشرية صوت شريف أو مرابط موقر من طرف الجميع قد يمكنه أن يُنجز ؛ مؤقتا ؛ هذه المعجزة : لقد صمت هذا الصوت منذ سنين عدة بفضل حسن سياسة السلطان.

III

من قصبة بني ملال إلى تِيكَرت

1 ــ من قصبة بني ملال إلى واويزغت

ص 68   25 شتنبر 1883.

كان الذهاب في الساعة 6 صباحا، يصاحبني 3 زطاطه، أحدهم من قبيلة بني ملال واثنان من قبائل أيت عطًّا أُمالو. توجد واويزغت التي أتوجه إليها عند السفح الجنوبي للأطلس المتوسط الذي يفصل تادلة عن مجرى واد العبيد والذي انطلاقا من تاكزيرت ؛ حاديت أسفل سفحه الجنوبي. على أن اخترق هذه السلسلة المنحدرات عامة صعبة ؛ وعندما تصبح لينة فتصير صالحة للاستغلال تكسوها الحقول وتظهر المساكن في الجوار. لكن مثل هذه القطع المستغلة نادرة إذ جميع المنحدرات وعرة ومشجوجرة تقريبا ؛ وباستثناء الأماكن المجتثة وهي على شكل فجوات متنافرة على فترات طويلة ؛ تغطي إبط الكتلة الجبلية غابة كثيفة يحتل فيها الضرو والخروب والصنوبر المكانة الأولى. يصل علو هذه الأشجار 5 حتى 6م. نصف السطح تراب والنصف الآخر صخور. لا تبدو هذه الصخور أبدا على شكل قاعدة مسترسلة ولكن تبرز على شكل كتل منعزلة ناتئة من الأرض بين الأشجار. تسقي كلا السفحين أعداد من المجاري المائية، الطريق دائما داخل الجبل ؛ شاق في كل مكان وجد صعب في نقطتين : أولا عند الخروج من قصبة بني ملال في الممر المسمى عقبة الخروب ؛ ثم عند الاقتراب من تيزي واويزغت الذي تسبقه طلعة جد وعرة في الساعة 1 زوالا وصلت إلى واويزغت.

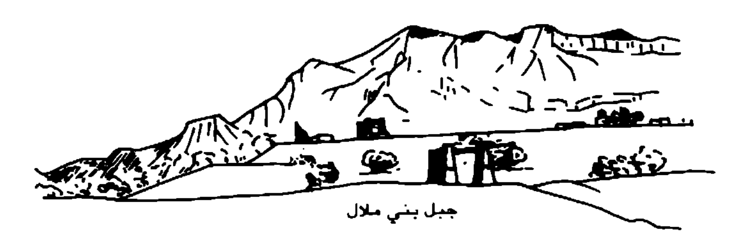
اليوم لا توجد مجاري مياه خلال الطريق. كان قليل من الناس خلال السير. كانت المساكن المصادفة ذات مظهر بائس. كانت تارة منازل صغيرة علوها متران ؛ بنيت من مقدار ؛ ذات سطح ؛ جلها في منتصف المنحدر ؛ جزء من هذه المساكن مدفون في الأرض. وكانت تارة أخرى مجرد أكواخ من أغصان

الأشجار ؛ وبعض الدواوير التي شاهدتها لم تكن إلا من أكواخ منتظمة على شكل دائري : لاوجود لخيمة أصيلة.

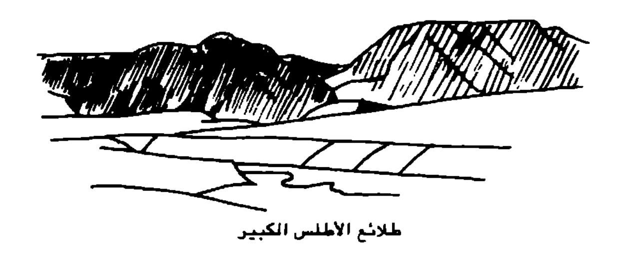
2 ــ الإقامة في واويزغت

69 منذ الخروج من قصبة بني ملال دخلت أراضي آيت عطّا دامالو حيث توجد واويزغت لا يوجد أي قاسم مشترك بينهم وبين آيت عطّا لمنطقة درعة وبين البرابر (Les Beraber). أيت عطّا دامالو هذه قبيلة أمازيغية صغيرة «شلحة» ؛ مستقلة ؛ تحدها تادلة شمالاً وواد العبيد جنوبا وآيت سري شرقا وآيت بوزيد غربا. يستقر آيت مساط على الضفة الأخرى لواد العبيد. في إمكان آيت عطّا دامالو تجهيز 800 راجل و150 فارس. الخيول قليلة الأعداد في هذه البقعة وعكس هذا يربي الناس عددا كبيرا من البغال. آيت عطّا دامالو قليلو الغنى رغم أنه لا ينقص بلادهم أي شيء لتصبح مزدهرة مليئة بالأشجار والمراعي والتربة غنية في المنحدرات المنتظمة وفي الأودية وفي سهل واويزغت، توجد حدائق ومزروعات مزدهرة يوجد الماء بكثرة في كل مكان. وتوجد بالمنطقة معادن الحديد والنحاس والفضة حسب ما يقال. لكن لا يعرف السكان بتاتا طريقة استخراج هذه المعادن ولا هم يهتمون بأعمال الحقول وقطعانهم القليلة العدد : لهم الضآن والماعز وبعض الأبقار. وكل هذه المواشي من جنس دون المستوى. لهذا فالقبيلة قبيلة نُهاب وجزء كبير من أفرادها لا يعيش إلا على مردود الزطاطه والسرقة والاغتصاب المتنوع.

توجد واويزغت عند قدم جبل بني ملال عند مدخل سهل صغير يخترقه واد العبيد. أينما يحول المرء البصر فإنه لا يرى إلا جبالا عالية ساجنة الوادي داخل حزام ضيق. شيدت البُليدة على ضفتي مجرى مائي يحمل اسم القرية. تتكون



جبل بني ملال



طلائع الأطلس الكبير

واويزغت من 3 مجموعات سكنية جد متباعدة بعضها عن البعض داخل البساتين. إحدى هذه المجموعات السكنية الثلاثة زاوية. إنها مقر عائلة مرابطين رئيسها الحالي هو سيدي محمد ولد محمد.

ص 70

تشاهد في البساتين بعض أجزاء أسوار سميكة وهي بقايا قصبة بناها ؛ فيما مضى ؛ مولاي إسماعيل المساكن من المقدار وذات طبقة سفلى عادية يغطيها سطح.



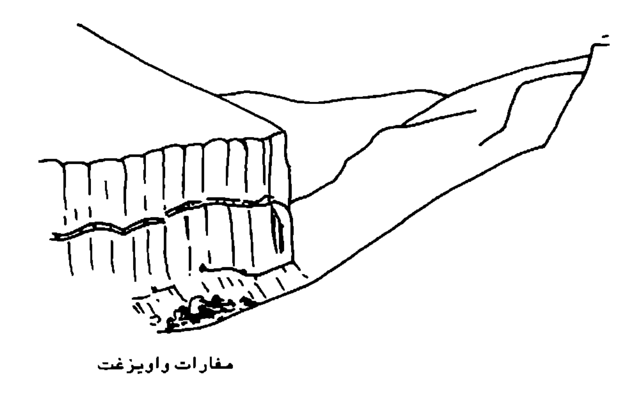
وادي واويزغت

ينتصب وسط هذه الدور عدد كبير من ثغرمتن وتوجد نفس الظاهرة في البادية المجاورة. أشجار الحدائق أشجار زيتون وخوخ وتين وتشتمل الخُضَر على الفلفل



واويزغت

والبصل والقرعة. تحتوي واويزغت على 800 أو 1000 ساكن ضمنها 100 أو 150 يهوديا. رغم ضعف عدد سكانها فلواويزغت قيمة حقيقية. أولا بسبب سوقها الذي يقام يوم الجمعة ويتردد عليه كثير من الناس. ثانيا وخاصة بسبب موقعها الذي يجعل منها إحدى أبواب الأطلس الكبير ومفترق عدة طرق. تفتح 3 ممرات رئيسية في الأطلس الكبير بين حوضي أم الربيع ودرعة :



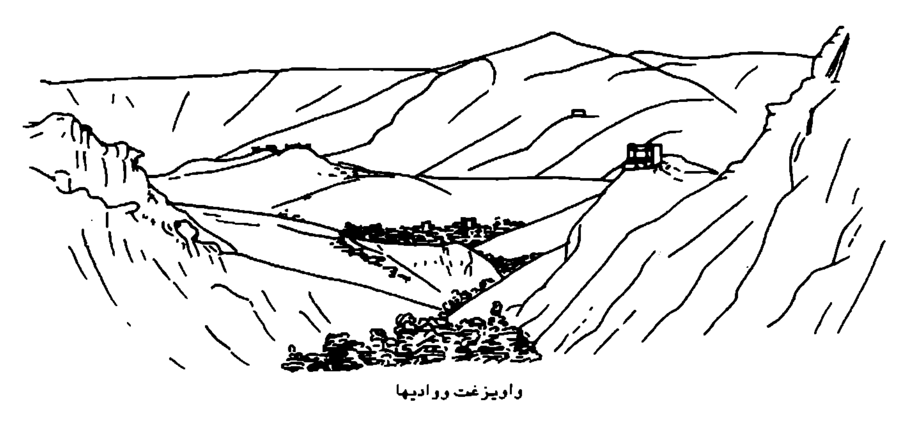
مغارات واويزغت

غربا : توصل إحدى هذه الطرق من زاوية سيدي رحال إلى تلوات ؛

وسطا : يوصل ثاني هذه الطرق من دمنات إلى هسكورة ؛

قبالة واويزغت : يُوصل الطريق الأخير إلى أُوسِّكِسْ. هذا هو الطريق الذي تبعته القوافل القادمة من مراكش والمتوجهة إما إلى الوادي الأعلى لنهر دادس أو إلى تُدغة أو فركله. لا توجد شرق هذا الفج فجاج أخرى مستعملة داخل السلسلة الجبلية حتى قرب قصابي الشرفاء.

اللباس هنا هو نفسه كما كان في تادلة ؛ لكن النساء ؛ مثلما كانت عليه سابقا نساء بني ملال ؛ يستعملن الحِنَّة باسراف : وهذا استثناء إذ لا تستعمل المغربيات الحنة بكثرة.



واويزغت وواديها

في وادي واويزغت ؛ على مسافة 3 كيلومترات في علو القرية ؛ توجد عدة مغارات ساكني الكهوف مثل التي وصفت أعلاه.

اسمع الناس يتحدثون عن سفر رجل مسيحي كان مرتديا زي مسلم قد عَبَر سوس وتازروالت ومنطقة واد نون منذ 3 سنوات ونصف سنة خلت. ثم توجه إلى تندوف ومنها انطلق إلى السوادن. حدثني الناس في تطوان وفي فاس عن الدكتور لانز ؛ لم يكن في هذا أي شيء مدهش لكن كان من الغريب أن تكون شهرته وصلت إلى هنا ؛ في هذه النقطة النائية من الأطلس ؛ البعيدة إلى حد كبيرة عن ميدان استكشافاته ؟

ص 71

3 — من واويزغت إلى نتيفة

20 شتنبر.

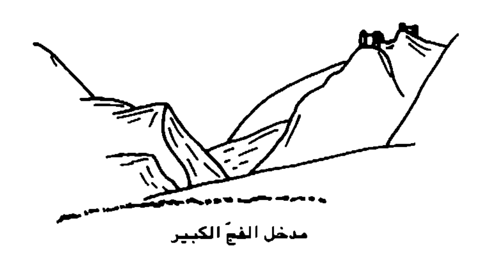
الذهاب من واويزغت في الساعة 6 صباحا ذهبت أولا إلى سوق أحد آيت بوزيد الذي يقام هذا اليوم. وصلت إليه في الساعة 7 و30 دقيقة. يحادي السوق الطريق الذي يوصل إليه التُّخْمَ الشمالي للسهل وسط أراضي تارة صخرية وغير مزروعة وتارة ترابية وتكسوها حقول القمح.

اليوم يوم سوق. السوق مليء بالحركة والنشاط، لا يوجد به أقل من 600 شخص دائما، إنه غدو ورواح دائم، إلا أن المواد المعروضة للبيع ليست ذات تنوع كبير، يرى المرء فيه خاصة الفواكه والخضر يُحضرها أهل آيت بوزيد ويشتريها أهل آيت عطّا ؛ ثم المواشي من ضأن وماعز وأبقار تختلف أسعارها من 30 إلى 40 فرنك للبهيمة الواحدة والحبوب والجلود والصوف. يعرض يهود واويزغت للبيع البلاغي والحلي والدجاج والثياب القطنية بينما يعرض بعض الباعة المسلمين الذين يتنقلون بين الأسواق ؛ الشاي والسكر وعود الكبريت. لكن هنا ليس الأمر المهم هو التجارة بل إنه «لعبة الخيل».

على كل فارس من أيت بوزيد أن يحضر كل يوم أحد ليشارك في هذه اللعبة. كل من تغيب يُعاقب بغرامة قيمتها 10 فرنكات. هذه طريقة مباشرة للتمرين الفروسي : يتجمع المتبارون زمرا وعددهم 10 أو 20 فارسا. تأخذ بالتتابع كل واحدة من هذه المجموعات عملية السباق. يشحن المشاركون البندقيات ويطلقون النار ثم يتوقفون ويشهرون السلاح تاركين المجال للمجموعة الأخرى ثم يملؤون البندقيات بالبارود في انتظار إعادة الكَرَّة عندما يأتي دورهم.

غادرت السوق في الساعة 4 تحت رعاية خفر زطاط من أيت بوزيد الذين أوجد الآن في أراضيهم. وما زلتُ أحادي الحد الشمالي للسهل ؛ فوق تربة شبيهة بتربة هذا الصباح. تبدو الجبال المحيطة بالسهل جد مأهولة : يستشف المرء المزروعات في كل مكان حيث المنحدرات ليست جد صعبة وعددا كبيرا من تغرمت تنتصب على إبط هذه المنحدرات. في الساعة 5 وصلت إلى نهاية السهل وفي نفس الوقت وصلت إلى جوانب واد العبيد.

واد العبيد هذا نهر رائع ذو تيار عنيف ويصابيب [مفرده يصبوب Chutes] متعددة. مياه النهر خضراء وصافية تحتل ثلث المجرى. عرض النهر 60م. ليس له أصواح. نصف المجرى تِقن Vase ونصفها الآخر حصيم. تنتشر داخل المجرى جلاميد صخرية كبيرة ويمتلئ كله ماء خلال فصل الشتاء. في هذه الفترة يجري النهر بعنف خارق يصل 4 أو 5 مرات ما هو علي الآن. لا يمكن قطع النهر خلال فصول السنة إلا في مقاطع جد قليلة. اتبع مجراه انطلاقا من هنا ؛ سائرا تارة بجوار ضفافه وتارة أخرى في وسط منحدر إبْطِهِ حسب وعورة التضاريس. يغوص نهر العبيد ؛ عند خروجه من السهل ؛ في مضيق عميق أسفل قعره يساوي اتساع قعر النهر فقط جوانب المضيق جدران من الحث يصل علوها في بعض الجهات إلى أكثر من 100م. في الأعلى تنتصب كتل السلسلة الجبلية من تراب وصخور حيث يصب النهر عند ممره بشدة. صفوح الجدارين غالبا صعبة ومستقيمة. وهي مائلة في بعض الأحيان بنسبة 1/2 وعادة تكون مائلة بنسبة 1/1 ونادرا ما تكون مائلة بنسبة 1/2. إنه يُسايِر المرء الوادي بمشقة كبيرة وقليلا ما يمكنه السير في قعر الوادي الذي تحتله المياه تارة الطريق ملتو عبر الجبل فوق



مدخل الفجّ الكبير

حواجز المضيق، وتارة منحوت في إبطه ويشرف على النهر. إنها ممرات صعبة إلى أبعد حد ما رأيت أصعب منها أبدا. لكن يقطعها المسافر رغم هذا بسرعة كبيرة

تيگرت - وادي يونيل

حسب هواه. لا تتعب العين من مشاهدة هذا المجرى المائي الواسع التي تتدحرج أطغامه [مفرده طغْمْ (Flot/s) السيلية بين جدارين هائلين من الصخور عند سفح هذه الجبال الداكنة في هذه المنطقة المتوحشة حيث الآثار الإنسانية الوحيدة هي تِغرمت واحدة على قمة الصخرة. توجد دار زطاطي عند مدخل هذا اللصب (Défilé) الطويل. إنها دار إبراهيم. توقفنا عندها في الساعة 5 و30 دقيقة مساءً. قليلا من الزمن قبل وصولنا رأيت رافدا يصب في الضفة اليسرى لنهر العبيد : إنه واد آيت مسّات، إنه جميل وذو مياه خضراء وتيار متدفق عرضه بين 12 و15 م. إنه قادم من الجنوب عبر خانق ضيق.

أيت بوزيد حيث أنا الآن، من أصل أمازيغي (شلوح) ومستقل. تحتل أراضيهم. وكلها جبال جزءا من الأطلس المتوسط تحده تادلة شمالا ونهر العبيد جنوبا وأيت عطّا أمالو شرقا وأيت عتاب وأيت عياط غربا، يمكنهم تجهيز قرابة 1000 راجل و300 فارس. هذه القبيلة مشهورة بغناها. وفعلا طيلة وجودي في هذه الأراضي استحسنت دائما مظاهر ذكاء السكان ونشاطهم. لم تبدُ لي في أي مكان من المغرب أناس مهتمون بالمزروعات أحسن مما مهتمون بها هنا والطرق مزروعة كما هي عليه في هذه المنطقة أكثر الوعرة. جميع أجزاء السطح التي أمكن استغلالها مغروسة : هنا الحبوب ؛ هناك الخضر وفي مكان آخر أشجار الزيتون ؛ على شكل درجات وتمنع مجموعة أسوار شيدت قصد منع انهيار التربة. لا يمكن استعمال المحراث على هذه المنحدرات الصلبة : تنجز جميع الأعمال بالمعول. تحيط طفاف [مفرد طف Bourrelet] من حجر بأكثرية الطرق وفي بعض الأماكن نحتت الطرق في الصخر وتعاضدها حاملات [Des consoles] وبنيت القناطر لعبور الشقق. ما للدور إلا طابق واحد لكنها جميلة البناء ؛ من حجارة غير مهيأة يشد بعضها البعض بالملاط التِغرمتن كثيرة العدد وفسيحة. شيد بعضها في قمم جلاميد وعرة وتبدو بعيدة المنال. هذه البنايات دليل على سكان نشطين ومنتجين. لآيت بوزيد تصرف خاص لا نجده في مكان آخر إلا بعيدا في اتجاه الغرب عند قبيلة واحدة وهي قبيلة حاحة : إنه تشتت السكن، دارا دارا، كل عائلة وسط مزروعاتها، بدل التجمع على شكل قرى. لا يصادف المرء أي قرية في منطقتهم : لا ترى إلا دور منعزلة منتشرة بلا نظام في إبط الجبل.

يشعر المرء هنا بتغير طفيف فيما يتعلق بالسلاح : هنا لا توجد الحراب ويحمل

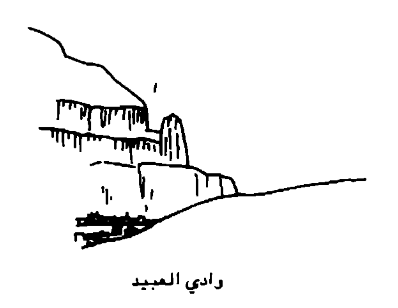
جميع الناس السيوف. تتغير ؛ إضافة إلى هذا، بعض جزئياته طويلا وضيقا بعد إن كان قصيرا ومتسعا عند البندقية : يصبح القندق (Crosse) قبائل أخرى. كانت هناك البندقية متواضعة المظهر فأصبحت هنا مغطاة بالنقوش وبترصيعات من عظم ومعادن. هذان النموذجان من البنادق هما الوحيدان الموجودان بالمغرب. النوع الأول من هذه البنادق عام التداول شمال سلسلة الأطلس. لكننا نجده أيضا في هذه السلسلة وفي الصحراء في بعض الأحيان إلا أن هذا التداول يبقى نادراً.

النوع الثاني من هذه البنادق هو السائد التداول في جميع أنحاء البلاد.

تمازيغت هي اللهجة السائدة لدى القبائل التي عبرت أراضيها انطلاقا من مكناس. لكن يتكلم جميع أفراد الأسر الأمازيغية الغنية اللغة العربية انطلاقا من هنا حتى قصبة بني ملال. تغير الأمر منذ وصولي الأطلس. هنا لازال عدد كبير من الناس يستعملون اللغة العربية إلا أن النساء يجهلنها تماما.

فاتح أكتوبر

الذهاب في الساعة 5 صباحا. هكذا كان وادي نهر العبيد البارحة، وهكذا هو اليوم : كل الجبال العالية التي يخترقها الوادي تكسوها الأشجار ـــ باستثناء الأماكن المحروثة ـــ من زيتون بري وصنوبر يتداخل أحيانا ضمنها الضرو والخروب. يضيق قعر الخانق في بعض الأحيان إلى حد أنه لا يتعدى 30م عرضا وأحيانا ينفرج بعض الشيء حتى يصل إلى 100م عرضا. في هذه الأماكن ؛ الأكثر ترددا كلما تقدمنا سيرا، تكسو الدفلى جوانب الوادي. ينخفض علو جدران الوادي وتتقوس السفوح **Les parois de la vallée et s'inclinent** وتنبت بعض الأشجار بين الصخور. يمثل الخانق ـــ حتى النقطة التي يخرج منها النهر من الأطلس ـــ المظهر التالي : مجموعة مضايق تجمع بينها لُصَبٌ ؛ هذه الأخيرة تنفرج شيئا فشيئا كلما انحدرنا بعد أن كانت متجمعة في البداية ؛ هذا في نفس الوقت الذي تصبح فيه السفوح أقل صعوبة. في هذه المناطق ؛ بعد ساعة ونصف من السير انخفض علو الجدار الصخري. وشيئا من الزمن فيما بعد ؛ يفسح هذا الجدار الصخري المجال للتربة فتصل الغابة حتى جوار الماء. انطلاقا من الساعة 8 و30 دقيقة كان عرض النهر العادي 100م. كانت أشجار الرجراج والزيتون تكسو قعر الوادي. تصبح السفوح الصخرية منخفضة جدا أو تعوضها حافات من طين من1/1 ؛ تعِن على الحافات بعض المساكن تحيط بها بساتين تقلص من



وادي العبيد

جديد بعض الممرات الضيقة من عرض الوادي في بعض الأحيان ؛ لكن من كل واحدة من هذه الاختناقات يخرج الوادي في مساحة متسعة في الساعة 9 و30 دقيقة كان عرض الوادي 150م وكانت تكسوه الحدائق وكان الإبط من 1/1 أو من 1/2 وكانت تنتؤ المساكن في الوادي من كل مكان. يبقى الوادي على هذا الحال حتى أيت أوقدير حيث وصلت على الساعة 10 و30 صباحا.

خلال الطريق عبرت نهر العبيد عدة مرات. كانت المرة الأولى في الساعة 6 «25م عرضا ؛ 70سم عمقا» والأخرى كانت حوالي الساعة 10 و15 «40م عمقا، 50سم عمقا» لم يتغير مظهر المياه في أي مكان، كانت صافية، خضرا، مندفعة. تسيل في مجرى من جلاميد غليظة في كل مكان. كان النهر دون أصواح ؛ والقطع الصخرية التي كانت منتشرة في المجرى في البداية لم تعد توجد في الجزء الأخير منه. منذ الساعة 8 و30 دقيقة كانت الضفاف ملأى بعدد كبير من الآلات المستعملة لعبور النهر وقت الشتاء عندما تكون المياه كثيرة فلا يمكن قطع النهر بواسطة المعابر.

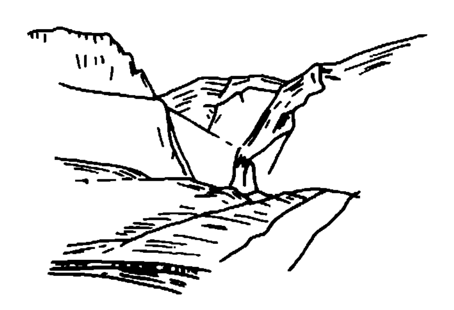
تتكون هذه الآلات من ركيزتين قويتين من بناء موضوعتين كل واحدة منهما على جانب من النهر وأحكمت في وسطها جذوع أشجار غليظة بها الحبال المستعملة للعبور، قعر الوادي في كل مكان من تراب بوزيد وواد العبيد جنوبا وغربا. في استطاعة أيت أوقدير تجهيز 1200 راجل و300 فارس يُقام سوقان داخل أراضيهم هما سوق أحد أيت عتاب وسوق أربعاء إقدسن وهو اسم أحد فخذاتهم التي تستقر صوب شمال غرب المكان حيث أوجد.

أيت أوقدير قرية كبيرة على المنحدرات الأولى للإبط الأيمن لواد العبيد في كوع Coude للنهر ؛ جوار هذا المركز هي الجزء الأكثر تعميرا لأراضي آيت عتاب.

توجد بالقرب منها ؛ على مسافة قصيرة ؛ عدة مجموعات سكنية أخرى ضمنها الحَدْ حيث يقام السوق. في الواجهة الأخرى تنتصب في الإبط الأيسر مجموعة من المساكن وتغرمتن على شكل مدرج وسط أشجار الزيتون. هذه البنايات من المقدار كما هو الشأن بالنسبة لجميع بنايات القبيلة. العدد العام لسكان هذه التجمعات السكنية المختلفة قد يصل إلى 2000 نسمة ضمنها 200 يهودي متوزعين داخل ملاحين. تحيط بكل قرية أشجار مثمرة وتحتل حدائق كبيرة قعر الوادي حيث لا تشيد أبدا البنايات خشية الفيضانات.

4 أكتوبر

الذهاب في الساعة 5 صباحا. يرافقني رجل من آيت عتاب كزطاط. على بعد مسافة ما من هنا يغوص واد العبيد من جديد في خانق عميق ويبقى حبيسا فيه حتى قرية طابْيَه حيث يغادر الأطلس ليدخل في السهل. اتبعت طريقا يمر على مسافة من النهر فوق هضبة صغيرة تكسوها المزروعات وتنتشر فيها أشجار اللوز. تنتصب الاتغرمتن في جميع الاتجاهات وترعى قطعان كبيرة في المنحدرات.



خانق مخرج وادي العبيد

في الساعة 10 رجعت إلى جوانب واد العبيد في المكان نفسه حيث خارجا من الجبل عبر ثغرة طبيعية يرتمي النهر في السهل. عبرت النهر ووصلت قرية طابيه الصغيرة على الضفة اليسرى. أوجد الآن في بلاد المخزن لأول مرة منذ مغادرتي مدينة مكناس. دخلت أراضي نتيفة عند عبور النهر وهي قبيلة خاضعة لسلطة المخزن. هنا لا حاجة إلى زطاط أو خفر : يسافر المرء بمفرده وفي أمان [Nbp].

تابعت السير من جديد مباشرة مع مرشد عادي أخذته من طابيه. سرت دائما قرب الجبل تاركا نهر العبيد يأخذ مجراه في اتجاه الشمال. إنه دائما مشتت في

76 الأطلس المتوسط ؛ على طول سفحه عبر توالي هضاب سفلى وأضلاع لينة. الهضاب ذات تربة رملية وبها مراعيٍ وبعض المزروعات. المدودات Coteaux صخرية [Nbp] وعارية في جزئها الأعلى ؛ ترابية وكثيرة القرى والحدائق عند قدمها. حوالي الساعة الثالثة وصلت إلى بليدة ستكون مبيتي : إنها جمعة نتيفه.

كان خلال هذا اليوم مسافرون جدد كثيرون. لا مجرى مائي آخر غير نهر العبيد. كان عرضه 30م وكان عمقه 70سم. حيث عبرته دائما نفس السرير من الدماليك ونفس الماء الصافي والأخضر ونفس التيار الصاخب. الصخور التي يجري عند قدمها بعد خروجه من الأطلس هي الحث كما هي عليه جميع صخور واديه انطلاقا من النقطة حيث دخلت الوادي.

لا تحمل جمعة انتيفه هذا الاسم بسبب السوق إذ يقام سوقها يوم الأحد. تتكون القرية من 3 مجموعات سكنية موزعة على ضفتي جدول وتجمع بنيها وتحيط بها حدائق هي غابة حقيقية من الزيتون. الساكنة قرابة 1500 نسمة ضمنها 200 يهودي. يقوم هذا المحل بتجارة نشيطة مع بْزُو ودمنات من جهة ومع قبائل الجنوب من جهة أخرى. غير بعيد من هنا توجد دار قايد نتيفه. يحد منطقة حكم هذا العامل السراغنة ونهر العبيد شمالا ونهر العبيد وآيت مساط شرقا ؛ أيت بوكَماز وأيت بووُلّي جنوباً وإقليم السراغنة غربا. وتضم هذه المنطقة ؛ إضافة إلى نتيفه ؛ بزو شمالا وآيت بوحرازن في الجنوب الشرقي.

4 ــ من انتيفة إلى زاوية سيدي رحال

5 أكتوبر

الذهاب في الساعة 5 صباحا. نحن في بلاد المخزن ؛ صحبة قافلة مكونة من 5 أو 6 أشخاص فلا حاجة إلى خفر بتاتا. من هنا حتى الوصول إلى دمنات ؛ سوف أسير دائما في المنحدرات الأولى للأطلس مع الاقتراب دائما من قدم هذه السلسلة الجبلية. خلال المسير ؛ سوف انتقل ــ أولا من جمعة نتيفه إلى نهر تساوت ثم من تساوت إلى دمنات ــ من الأطلس الصغير إلى الأطلس الكبير دون أن أشعر بالتغير الناتج عن هذا الانتقال. في الجزء الأول من المسير، المنطقة

وعرة، السطح محجوجر، في بعض الأحيان صخري، في كثير منها عار يكسوه الدوم في بعض الأحيان أو مشجوجر. في تساوت قليل من الماء لكن تنتصب عدة قرى عند ابط الهدودات وفي قعر الشعب وفي القمم وتحيط بهذه القرى غابات من شجر الزيتون وسياجات من الصبار. عموما منطقة ذات مظهر حزين لكن جد مأهولة. في الساعة 9 وصلت إلى جانب نهر تساوت ـــ تساوت الفوقية ـــ والمسماة أيضا الواد الأخضر ـــ واد أخضر. الاسم مطابق للمسمى : يسيل النهر وسط غطاء نباتي رائع تحت ظلال أشجار زيتون، وسط وادي تكسوه الحقول والبساتين. انطلاقا من تساوت، ادخل منطقة جديدة، عوارض تضاريس لينة، سطح مترب، عدد كبير من مجاري المياه، عدد كبير من القرى، في كل لحظة بساتين شاسعة ذات غطاء نباتي بهي وأشجار ضاربة في القدم. وصلت إلى دمنات عبر هذا البلد الجميل. دخلت المدينة في الساعة 12 و30 دقيقة.

عدد كبير من الناس على طول النهار. لم أصادف بتاتا مجاري مياه ذات قيمة إلا نهر تساوت : كان عرضه 15م. وعمقه 80سم. مياه صافية، تيار سريع، سرير نهر من حصيم، أصواح من تراب ذات انحدار منتظم، علوها ما بين 1 متر و1,5م.

6 و7 أكتوبر

أقمت في دمنات. هذه المدينة مقر قايد يسيّر إقليم دمنات الذي تحده قبائل السراغنة شمالا، وانتيفه وأيت بو ولّي شرقا والمنحدرات العليا للأطلس الكبير جنوبا وقبيلة زمران غربا.

يحيط بدمنات حزام مستطيل الشكل من أسوار مُسَنَّنة تجهزها دَكَّة رمي الرصاص وتحصنها بأبراج. وكل هذه التحصينات في حالة جيدة : ليس بها لا ثغرات ولا أجزاء مُخَرَّبة. للمدينة 3 بوابات للقصبة حزامها الخارجي وتحميها خنادق. هذه الأخيرة هي الوحيدة التي شاهدتها في المغرب. عرض هذه الخنادق ما بين 7 و8م. وعمق من 4 إلى 5م. ويملؤها جزئيا الماء. وسط هذا المَحْرز (Ce réduit) شيد المسجد الكبير ودار القايد. شيدت جميع بنايات المدينة ـــ الأسوار والقصبة والمساجد والمساكن ـــ من المقدار لا توجد بناية مطلاة بالجير باستثناء دار القايد والمئذنة المجاورة لها. لون باقي بنايات المدينة أسمر داكن ـــ هذا

اللون الذي يميز مساكن بجعد. تحتل المنازل 2/3 مساحة المدينة داخل الأسوار. المنازل في حالة جيدة وإن كانت رديئة التشييد. تحتل المزروعات جزءا من ثلث مجال المدينة غير المبني وساحة السوق الجزء الآخر المتبقي منه. لاتوجد بتاتا لا أرض بور ولا أطلال : مجمل القول إن مظهر المدينة مظهر ثراء. سكان دمنات 3000 نسمة تقريبا ضمنها 1000 يهوي ليس لهم ملاح بل يسكنون بين المسلمين الذين يعاملونهم بطيبوبة استثنائية :

دمنات وصفرو هما الناحيتان الوحيدتان في المغرب حيث يسعد اليهود أكثر من غيرهما. وهناك مقارنات أخرى بين هاتين المدينتين التي تثير نقط تشابهها الانتباه : نفس الموضع عند قدم الأطلس، على أبواب الصحراء سكان متساوون من العدد مكونون بطريقة متشابهة، ثراء يكاد يتساوي، نفس نوع التجارة، لكتا الفئتين سجايا هادئة ومهذبة. نفس الحزام الأخضر من حدائق رائعة وشاسعة : باختصار، إن مثل صفرو لفاس كمثل دمنات لمراكش.

تجارة دمنات كالتالي : تقصدها قبائل الأطلس والصحراء «منطقة دادس وتدغه» لتتزود من المواد الأوربية ومن المواد المصنوعة بالمدن المغربية من أنسجة قطنية وسكر وشاي وعطور ومجوهرات وبلغات. كما تقتني هذه القبائل أيضا الحبوب ولكن بكمية قليلة. وتحمل هذه القبائل إلى دمنات، في المقابل، الجلود والصوف والتمور التي يتاجر بها السكان مع مراكش. كوّنت هذه التجارة المزدهرة فيما مضى مصدر ثروة دمنات : منذ 4 أو 5 سنوات هذه التجارة في تراجع. ارسل السلطان خلال هذه الفترة أمينا طماعا إلى حد أن التجارة لم تعد ممكنة : أصبح على كل ما كان يعبر أبواب المدينة، مهما كانت مصادر البضاعة، أداء ضريبة تعسفية مرتفعة إلى حد أنه سرعان ما هجرت القبائل المجاورة والقوافل هذا السوق وتحولت كلها إلى مراكش حيث تتاجر الآن.

تحيط بدمنات بساتين جذابة من كل الجهات وهي من أوسع بساتين المغرب. تنتشر وسط هذه البساتين مجموعة من قرى تكاد تتماس بعضها البعض فتكوّن ما يشبه ضواحي المدينة. هذه البساتين مشهورة خارج المنطقة : خصوبتها واتساعها وذوق فواكهها وكثرتها وعنبها الجيد ذات شهرة خارقة.

توجد بساتين أخرى جد مشهورة عبرناها عند مجيئنا إلى دمنات : تكاد تكون

هذه البساتين ملاصقة لبساتين دمنات. إنها بساتين آيت أوعَوْدَنُس : تذكر هذه البساتين بنموذج محزن لعمل (Rapacité) السلطان. حالة البؤس التي عليها رعاياه. كانت هذه الحدائق ؛ ملكية شاسعة وعجيبة. إنها غابة أشجار زيتون قديمة وأشجار فواكه عتيقة تسقى من سواقي متعددة. كانت حتى بضع سنوات خلت، في ملك رجل معروف بثروته ورخائه اسمه علي وُلْحسوب. لازالت دار هذا الرجل الثري الواسعة منتصبة على قمة ربوة مشرفة على هذه الحدائق. اقلقت السلطان هذه الثروة الضخمة وهذا التفاخر وهذه السلطة. وهكذا، ذات ليلة، أخذ السلطان بغتة هذا الرجل، ألقي القبض عليه ونقل عنوة ـــ إما طمعا في هذا الملك أو خوفا من تأثير النفوذ المتنامي لرجل بهذه الدرجة. ثم ألقي بالرجل في السجن بجزيرة مُكادور. صودرت أملاكه في نفس الوقت وألحِقتْ بممتلكات التاج. فيما بعد لقد علمت في مكادور ـــ حيث كان يعرف هذا السجين بالدمناتي ـــ إن البائس ابن علي قد استعاد حريته مقابل تخليه عن جميع ممتلكاته، بعد عدة سنوات من السجن. إلا أنه لم يتمتع بهذه الحرية : لقد مات عند مغادرته السجن عند باب مكادور.

8 أكتوبر

الذهاب في الساعة 8 و30 دقيقة. من هنا حتى زاوية سيدي رحال حتى أسير دائما في بلاد المخزن. المنطقة آمنة. يكفيني مرشد واحد. تحادي الطريق دائما حاشية سهل شاسع ممتد عند قدم الأطلس الكبير. سطح المنطقة ترابي ومستوي وعلى اليسار المنحدرات الأولى للأطلس الكبير وهي جد ليّنة، عارية في جزء منها أو يكسوها الدوم ومشجوجرة في جزء آخر ولا تبدو للمرء القمم انطلاقا من أي مكان حيث وجد. عن اليمين لا ترى العين إلا سهلا شاسعا منتشرا على مد البصر في اتجاه الغرب وتحده شرقا الكتل البعيدة والرمادية للأطلس المتوسط وشمالا تلال الرحامنة البعيدة والتي تفصل حوضي نهري أم الربيع وتانسيفت. تغطي المراعي السهل حتى قرية تساوت التحتية وتنتشر فيه عدة قرى داخل حقول الزيتون على شكل نقط داكنة. تكون هذه المساحات المليئة بقطعان الماشية واحات الاخضرار المتعددة ومشهد هناء ووفرة جمال. يتراجع عدد أشجار الزيتون انطلاقا من تساوت وعما قليل تنمحي من الشهد وفي نفس الوقت تحل المراعي محل المزروعات. في الساعة 6 وصلتُ إلى زاوية سيدي رحال. على بُعد، داخل الدائرة

الملتهبة للشمس المتأهبة للغروب يبدو البُرج العالي لجامع الكتبية — مسجد مراكش.

كان طيلة النهار كله عدد كثير من الناس في الطريق. مجرى مائي واحد مهم : إنه واد تساوت السفلى «مياه صافية وجارية عرضها 20م وعمقها من 40 إلى 30سم، تجري بين صوحين صخريين داخل سرير من الحصى 3 مرات أوسع، الأصواح تارة من 1/1 وتارة أخرى 1/2.

زاوية **سيدي رحال** بلدة صغيرة ضمن أراضي زمران تحيط بها أسوار من المقدار قصيرة وليست ذات طموحات دفاعية. سكان الزاوية 1000 نسمة تقريبا. تتوسط البليدة قبة جميلة حيث رفات سيدي رحال وزاوية حيث يعيش مرابطو ذُرّيّته. هؤلاء جد محترمين من طرف جميع القبائل المجاورة. يزورهم الناس من زمران والرحامنة والسراغنة ودمنات وحتى من مراكش ويقدمون لهم الهدايا. يوجد خارج مزار الزاوية، ملاح صغير على شكل ضاحية (Faubourg) حدائق قليلة.

5 — من زاوية سيدي رحال إلى تيكَرْت

80 9 أكتوبر.

ليست المنطقة جد آمنة حتى يمكن السير فيها دون زطاط وهذا رغم كونها بلاد المخزن، إلا أن رجلا واحدا يكفي للقيام بمهمة الخفر. وجدت بسهولة شخصا يرافقني في تنقلي. الذهاب في الساعة و30 دقيقة. يخرج مجرى مائي في هذا المكان نفسه من الأطلس الكبير : إنه واد ردات. ينبع هذا الواد من قمة السلسلة عند المنخفض المعروف باسم تيزي — ن — لكَلاوي وينساب في اتجاه متعامد للأعراف. هكذا يرسم هذا النهر طريقا قصيرا وسهلا لاختراق السلسلة الجبلية. دلفتُ إلى هذا الطريق وبقيت في هذا الحوض حتى تيزي — ن لكَلاوي متتبعا مجرى النهر خلال الجزء الأكبر من الطريق.

لا يتغير مظهر الوادي انطلاقا من سيدي رحال حتى جوار زَرقطان حيث تركت وادي نهر ردات. لا يتعدى عرض قعر الوادي 100م. بتاتا وفي كثير من الأحيان هو دون هذا الرقم. والإبط عادة حافات مشجوجرة من قيمة 1/1.

في بعض الأحيان هذه الحافات جدران صخرية تكاد تكون مستقيمة. لما تكون جوانب هذه الإبط أكثر استقامة يكون القعر أكثر اتساعا، وعندما تكون المنحدرات أكثر انتظاما يكون القعر أضيق. هنا تغطي هذا القعر الحصي، جلاميد صخرية يتكون منه مجرى النهر : إذ ذاك تنمو الدفلى والصنوبر بين الأحجار. في أماكن أخرى يوجد شيء من التربة، حيث توجد الحدائق وبها التين والزيتون. وتتكرر نفس الحالة على الإبط. هذه الأخيرة، من تراب وحث تكون في غالب الأحيان وعرة وتكسوها الغابات حيث يتداخل الضرو والتقي والطيدة وتسفت Où se mèlent les lentisques, les tiqqi, les teida et les teceft. لكننا نصادف في الأماكن القليلة حيث التضاريس أقل وعورة قرى وبجوارها مزروعات وبساتين. القرى مستطيلة الشكل : تتكون كل واحدة من عدة مجموعات سكنية منتشرة على طول الوادي. تنتشر المغروسات في أعلى الوادي على شكل ادراج وتحمي أسوار صغيرة التربة من الانزلاق. الحقول مزروعة بالشعير والذرة تظللها أشجار التين والرمان والزيتون والعنب وخاصة مجموعة كثيرة من أشجار الجوز : يظهر هنا الجوز لأول مرة. تتوفر هذه الشجرة بكثرة على سفح الأطلس ولم أرها لحد الآن في أماكن أخرى. هكذا يستمر وادي نهر ردات حتى قرب تاكَموت حيث سأترك الوادي. يتبع الطريق قعر الوادي تارة وتارة أخرى يَتَعَرَّج نحو إبطها. يكاد يكون الطريق مستقيما وشاقا في أي مكان وذا صعوبة فقط في قليل من الأماكن. اليوم قطعت شوطا قصيرا، وتوقفت قليلا عند انزل وهي قرية يسكنها 600 نسمة حيث قضيت الليل. كان وصولي إليها في الساعة 3 زوالا.

خلال السير ناس كثيرون على الطريق. كان لنهر ردات عند زاوية سيدي رحال 6م. من العرض و20سم من العمق. كانت المياه صافية وجارية وشيئا ما ملحة. كانت تجري وسط سرير حصوي عرضه 60م بين ضفاف ترابية علوها 1م. هذا النهر من روافد نهر تانسيفت ويصب فيه بعد سقي أراضي زمران واكَلاوة. ص 81

دخلت أراضي هذه القبيلة الأخيرة عند مغادرتي زاوية سيدي رحال. يسير أمور القبيلة قايد معين من طرف السلطان ومستقر في إمَوْنِنْ بِتَلْوَت. تمتد سلطة القايد الفعلية على أكَلاوة وبلاد ورزازات مسقط رأسه، وسلطته الاسمية تمتد إلى أيت زينب ونفوذه حتى تازناخت وبلاد مَزْكَيطه. من بين المناطق الثلاث أيت زينب وحدها تعتبر بلاد المخزن ؛ إذ هي الوحيدة التي توفر الجنود وتؤدي

الضرائب للمخزن. القبيلتان الأخريان من بلاد السيبة. يُطاع القايد من لدن سكان قبيلة تازناخت شريطة ألا يطلب منهم إلا أمورا عادية لا تكلف السكان شيئا كثيرا يمتنع هذا القايد عن طلب أشياء أخرى علما أنه سترفض. لا يتدخل بأي وجه من الوجوه في شؤونهم ونزاعاتهم أو في الحروب التي يقومون بها فيما بينهم. يمكن أن يقوم أناس من حاشيته ؛ من عبيد أو مخازنية، مقام الزطاط ويسافر المرء في أمان تحت حمايته. يختلف الأمر بالنسبة لقبيلة مزكطة : لا يعترف داخل هذه القبيلة حتى بسيادة السلطان الشكلية. كل ما يمكن أن يقوم به القايد هو صيانة علاقات صداقة مع رؤساء العائلتين الكبيرتين الجارتين : عائلة شيخ تازناخت وعائلة شيخ مزكطة. لا يمكن للقايد أن يلعب دور الزطاط عبر أراضي هاتين القبيلتين لكن قد تضمن توصياته استقبالا حسنا عندهم. انطلاقا من هنا لا يُعرف لا اسم القايد ولا اسم السلطان.

تجارة اكَلاوة نشيطة : تكاد تنحصر في تبادل حبوب مناطق الشمال مقابل تمور مناطق درعة. يعقد في القبيلة سوقان : سوق اثنين تلوَتْ وسوق خميس انْزلْ.

اكَلاوة أمازيغ لغة وسلالة وهذه حال جميع القبائل التي سأزورها في مناطق الأطلس الكبير والأطلس الصغير. من زاوية سيدي رحال إلى تِسنت ؛ لا وجود ولو لعربي واحد. يظهر هنا لأول مرة لباس طريف ذو استعمال عام عند اكَلاوة وفي منطقة درعة وفي حوض سوس وفي سلسلة الأطلس الصغير. هذا اللباس هو أخنيف. لنتخيل نوعا من برنوس قصير من صوف مصبوغة بالأسود وبه بقعة عريضة حمراء ذات شكل دائري محتلة جميع الجزء الأدنى من ظهر اللباس. هذا النوع من القمر الغريب الموضع جزء من نسيج البرنوس نفسه وحواشي هذا القمر مزينة بتوشيات ذات ألوان متنوعة. أسفل البرنوس مزخرف بهُدْب طويل ؛ وبغطاء الرأس شرابة (Gland) صوف أبيض. يرتدي هذا اللباس أكثرية الذكور ؛ أطفالا وشيوخا مسلمين ويهودا. يلتحف باقي سكان المنطقة حائكا من الصوف الأبيض. يُحتفظ بأم الرأس عاريا كما هو الحال في باقي أنحاء المغرب. لكن ؛ بدل 82 أن تكون قطعة الثوب التي تحيط بأم الرأس عادة ـــ سواء أكانت واسعة أم ضيقة ـــ من قطن أبيض فهي من صوف أسود. يلبس في كثير من الأحيان النعل بدل البلغة ولا تظهر السيوف إلا عند الفرسان. وهكذا تكون هذه الأسلحة قليلة التداول لكون الخيول قليلة العدد في الأطلس الكبير والأطلس الصغير. لم يعد

يُحمل البارود في الأوعية (Poires) بل أصبح يوضع في القرون. هذه الأخيرة إما قرون طبيعية ذات هيكل نحاسي أو ـــ كما هو الأمر في كثير من الأحيان ـــ معدن النحاس المنقوش ـــ وهي ذات أناقة. يُعلق بهذه القرون صرر [مف. صُرة Des sachets] من الجلد لحمل دخيرة الرصاص. هذا النموذج من القرون المتداول انطلاقا من المنحدرات الأولى للأطلس الكبير هو الوحيد المستعمل في هذه السلسلة الجبلية وفي باقي جميع أنحاء الجنوب المغربي. ليس هناك إلا استثناءان سنشير إليهما فيما بعد ـــ أحدها في اتجاه الشرق في حوض نهر زيز ؛ وثانيها في اتجاه الغرب ؛ على الساحل.

10 أكتوبر

من أنزل إلى تاكَموت سرت في وادي نهر ردات كما وصفته البارحة. ذهبت في الساعة 5 صباحا ووصلت في الساعة 11. مررت خلال الطريق قرب قنطرة ينسب ما بقي من بناياتها الأولي إلى النصارى وتنسب الأجزاء الأخرى إلى السلطان الأكحل : يذكر هذان الاسمان في المغرب عندما يتعلق الأمر بمُنشآت يُجهل منجزوها. شيدت هذه القنطرة ـــ التي بقي منها أقواس من الحجر ـــ عند نقطة التقاء طُرق مراكش وزاوية سيدي رحال. يبدو لي أن القنطرة من إنجاز إسلامي.



أدرار - نْ - إيغي وتيزي - نْ - تالوات

تتوزع عدة قرى على جانبي الطريق : أهم هذه القرى إفسفس «600 نسمة» وزرقَطن «700 نسمة». واد إفرْدَنْ ؛ المجرى المائي الوحيد الذي قطعت خلال السير، هو جدول عرضه 2م. وذو مياه ملحة كما هي حال جميع مياه المنطقة : منحدرات الجبل نفسها بيضاء من جراء وجود الملح في بعض الأماكن. خلال هذه الصبيحة لم تفتأ كتل عالية تنتصب فوق رأسي في جميع الجهات : في اتجاه الجنوب، وسط عُرْف (Crete) طويل أبصرت فتحة (Echancrure) تيزي ـــ ن ـــ

تَلْوات وعن يسارها أبصرت قمة أدرارن إر الوردية Adrar N'Iri المشرفة على جميع القمم الأخرى. أعداد من البشر على الطريق، كثير من الصيد، كميات هائلة من صغير الحجل : على طول الطريق رأيتها تجري بمحاذاتي ؛ قليلا ما تطير ولا تُرمى بالبارود : عندما يريد السكان اصطيادها فإنهم يرمونها فقط بالحجارة.

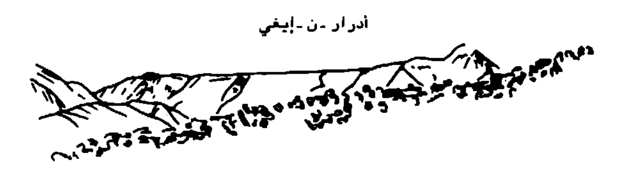
83   11—12 و13 أكتوبر

إقامة في تاكَموت بالقرية ويسكنها 800 أو 900 نسمة. تتوزع القرية، على جانب واد أدْرار — ن — إر، إلى عدة مجموعات سكنية منتشرة على المنحدرات الأولى للصوح الأيمن للوادي ؛ وسط مزروعات وحدائق. تحتل هذه الحدائق أيضا جزءا من قعر الوادي ذي 60م عرضا هنا.



جانب من المنطقة العليا لتاكموت ووادي أدرارْ -نْ -إيغي

تنتمي قرية تاكَموت إلى آيت ربُعْ. تتكون هذه الفخدة من كل ما هو مأهول على طول مجرى واد ادر ر — ن إر. تكون زرقطن فخذة أخرى وكذلك الأمر بالنسبة لأنزل قرى هذه الفخذات ذات مظهر بائس.



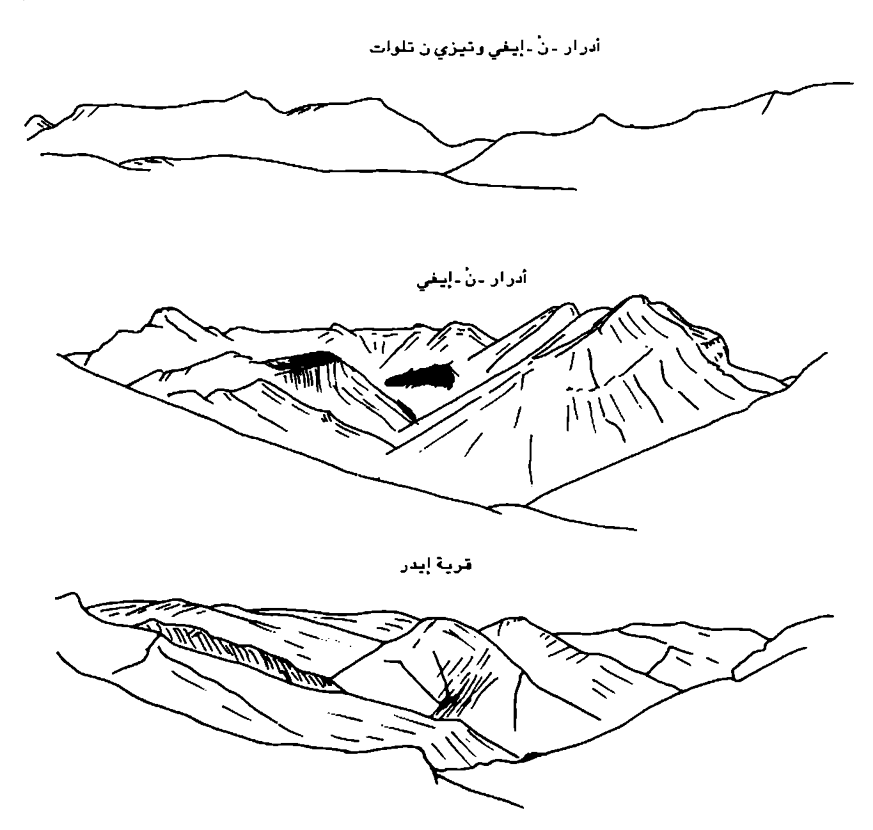
المساكن، من حجر وذات سطح، رديئة البناء، ما لها إلا طبقة سفلى، وهي في بعض الأحيان نصف مغمورة في الأرض.

14 أكتوبر

الذهاب في الساعة 6 صباحا تحت رعاية زطاط. يمكن تقسيم مسار اليوم إلى 4 أجزاء :

1 ــ من تاكَونيت إلى تِطلَه التحتية : طريق في غاية الصعوبة، عقبات جد مستقيمة بين الأحجار، منطقة خلاء، سطح ذو فتاتات صخرية تارة عاري وتارة مشجوجر ؛

2 ــ نجد من جديد، من تطله التحتية إلى تطله الفرقية ؛ واد ادرر ن إر والمسمى هنا باسم واد تطله. تتبعنا مجراه. تكثر القرى والمزروعات في المنحدرات الأولى وفي قعر الوادي، شعير وذرة تحت ظلال أشجار البُندق والرّجراج (Trembles). وخاصة أشجار الجوز. قعر الوادي ضيق : لا تمتد المزروعات اجمالا إلا على عرض 40م وسط هذه المزروعات ينساب الجدول ذو الجريان الدائم. ص 84



الإبط ذات انحدارات لينة عند القدم، وعرة في اتجاه القمة، صخرية في كل مكان. كلما تقدمنا سيرا ظهر السطح عارياً واصبحت الأشجار متباعدة.

3 ــ من تطله الفوقيه إلى فج تيزي ــ ن ــ تلوات، حيث اخترقت العرف الأعلى للأطلس الكبير : يجف الماء في الجدول وتنتهي المزروعات وتنمحي المساكن. خلاء من صخور ومن كل صوب ترتفع جبال عالية من الحث. لاشجرة ولا نباتا ولا أثر حياة نباتية : الكل صخور. الطريق جدّ وعر وجد مُتعِب حتى وإن لم يكن صعباً. نصعد رويدا نحو الفج الذي وصلنا إليه في الساعة 4 مساء : أصبحت على علو 2634م. فوق مستوى سطح البحر. يمتد منظر شاسع أمام عيني. إنني متأثر أولا بالمظهر الجبلي للمنطقة التي أقترب منها : ماهي إلا سلاسل 85 تتدرج الأولى تلو الأخرى حتى نهاية الأفق. إنني متأثر ثانية من مظهر هذه الجبال



منظر في اتجاه الجنوب مأخوذ من فجّ تلوات

الحزين والمقفر : الكل عراء. الكل صخور. لاحبة رمل أو مَدَرَة تراب (Une motte de terre). أضلاع طويلة صفراء. متون ذات لون أحمر داكن متتالية إلى



فجّ تلوات وقرية أيت بادّو

ما لا نهاية له، قِفار (Solitudes) صخرية شاسعة : هذا كل ما يميزه البصر عندما يتحول نحو الجنوب من أعْلى سلسلة جبال الأطلس الكبير ؛

4 ــ اليوم وجدت نفسي هنا في القسم الرابع من مساري والممتد من تيزي ــ ن ــ تلوات إلى أيت بادّو. بدأنا السير بانحدار صلب، إنه ممر خطير

كما يدل اسمه على هذا : تورزت ــ ن ــ إمَكْرَنْ أي تل الماكرين. ثم تنفذ إلى سهل تلوات، سطح مستوي، تربة جيدة تكسوها المزروعات. أتوقف عن السير في الساعة 6 و30 دقيقة قرب نهاية السهل الجنوبية عند قرية آيت بادو الصغيرة.

عدد قليل من المسافرين هذا اليوم. تلوات من فخدات اكَلاوة، تتكون من عدد غير مُحَدَّد من القرى منتشرة في سهل صغير وغني، إمَوْنِنْ، إحدى هذه القرى، هي مقر الأكَلاوي، قايد المنطقة [Nbp]. تنبىء المظاهر الخارجية للمساكن على الغنى، ليست أكواخ منطقة نهر ردات ولكن منازل شامخة وجيدة البناء. ليست الأشجار كثيرة بعْدُ لكن يرى المرء بعضها قرب المنازل. إنها الرجراج والتين والجوز كما توجد بعض الكروم «العنب». تسقي الأرض أعداد من المجاري المائية النازلة من الأطلس. مهما بدا هذا السهل الأخضر مرحا في حد ذاته فإنه يبقى محاطا من جميع الجهات بجبال عارية ومقفرة إلى حد أن مظهره يبعث علي الحزن.

ص 86

15 أكتوبر

الذهاب في الساعة 7 صباحا. عدت مرة ثانية إلى بلاد السيبة. ها أنا أوجد فيها لمدة طويلة. لا تشتمل البلاد على أخطار كبيرة : يكفي رجل واحد لتأمين الخفر.

انتهى اختراق سهل تلوت عند مغادرة آيت بادّو. ثم دخلنا المنطقة المقفرة التي يمكن أن يتخيلها المرء : كل شيء فيها من صخور، لا ترى فوق الرأس إلا جدرانا من حجارة وعند الأقدام لا ترى إلا شِعَبا ذات جدران من حث بدون ماء وبدون نبات. تغطي طبقة من الملح أسرة الأودية الجافة ولا يوجد مكان به أدنى أثر التربة أو النبات.

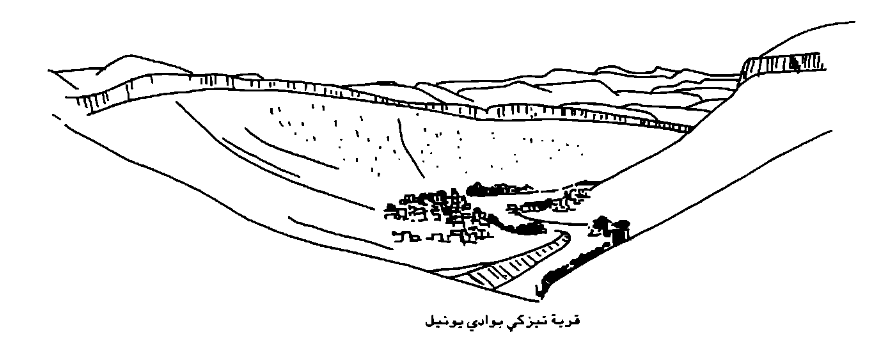
بعد مدة 3 ساعات من السير في هذه المنطقة الموحشة أنْفُد بغتة إلى واد يُكوِّن التباين المدهش بالمقارنة مع المنطقة الآنفة الذكر : نُحِت الوادي عموديا في الهضبة الصخرية الشاسعة التي تمتد بالجوار. يقدم الوادي مظهرا بقدر ما يبدو ضاحكا ومنشرحا تبدو القفار التي تحيط به كئيبة وحزينة. يجري في أسفل الوادي سيل تمتد فوق جوانبه حدائق ومزروعات باستمرار. بين أشجار التين والزيتون والجوز تنتصب أعداد من القرى ومجموعات من المساكن وتغرمتن : يسود الرخاء هنا

كل شيء إنها بداية نهر درعة، سأجد هذه البنايات الأنيقة والرائعة التي ستثير انتباهي من الآن على ضفتيه فقط وأيضا على ضفتي النهرين المكونين له. تغرمتن ذات البروج الرشيقة وذات السطوح المزينة بالشرفات وذات الحواجز المُفرَّغة، مساكن ذات جدران عالية تكسوها رسوم ونتوءات، قصور أسوارها من القاعدة إلى القمة ما هي إلا رسوم متعرجة وتنميقات. توجد مظاهر الهناء بحي السكن الأكثر فقرا في هذه البُقع الجميلة، قاعدة المساكن من حجارة مُملَّطة وباقي البنايات من المقدار. كل الأعمال منجزة بعناية ويبدو الكل جديدا. لا يوجد مسكن دون مَصريّة وطابق ثاني يتكون في كثير من الأحيان من سطح مغطى فوق الطابق الأول. في كل مكان أبواب جيدة الصنع، وصُفاق «ج. صَفْق : Volets» مَصُوغة ومزينة كما هي عليه في منازل المدن. غير أن قليلا من المنازل مُجيّرة : على فترات بعيدة ترى زاوية أو شرفات بعض تغرمتن طليت بالجير ولباقي المساكن لون الحث أو لون المقدار الأسمر ـــ الأحمر.

البساتين والمزروعات حظيت بعناية قصوى إلا أنها لا تُكَون إلا حزاما ضيقاً يصل عرضه إلى 60 م. في أوسع الأماكن ؛ هذا مع أن المساحات لا تزرع أبدا فوق سطح منبسط. تتدرج البساتين والمزروعات على ضفتي نهر إونل وتساند الأحجارُ الدرجات قصد حماية التربة من الانهيار.

عرض نهر إوْنِل 4م وتياره سريع جدا. مياهه صافية ومِلحة وتجري داخل سرير من الملح ذي لون أبيض في أجزائه غير المغمورة ماءً. تجري هذه المياه في سرير من حث عرضه 10م إبط الوادي جدران مستقيمة من الحث تنحتها، على طول امتدادها، مجموعات مسترسلة من المغارات. تسند المساكن والمزروعات ظهرها إلى هذه الجدران وحفر ـــ في إبْط هذه الأخيرة ـــ المسلك الذي أمر فيه ممر وعر لا يتعدى عرض الطريق 15م في أي نقطة منه : الجدار الصخري من جانب والهوة من جانب آخر. هذا هو الوادي، وتلك هي جميع أودية المناطق المجاورة حسب ما قيل لي : واد الملح وإمني وإرز كلها أخاديد ضيقة حيث تتجمع الحياة النباتية والبشرية وسط القفار الشاسعة من الحجارة التي تكون السفح الجنوبي للأطلس الكبير.

لم أفارق وادي واد إوْنِلْ إلى أن وصلت إلى الملجأ. خلال فترة زمنية قصيرة صعدت قمة الإبط الأيسر للسلسلة الجبلية : يمتد أمامي سهل صخري واسع على



قرية تيزكي بوادي يونيل

مد البصر. الصعتر هو النبات الوحيد الذي يوجد في هذا السهل والظباء هي الكائنات الوحيدة التي تعيش فيه. في الساعة 3 توقفت عند تِزْكي، القرية الرئيسية في المقاطعة والتي تحمل نفس الاسم.

قليل من المسافرين هذا اليوم خلال الطريق. عبرت مجريين مائيين : عصيف مَرْغَنْ والمسمى أيضا واد المِلح «مجرى عرضه 15م ؛ جاف» وواد إونِلْ «مياه عرضها 4م وعمقها 30سم، تيار سريع جدا».

16 و17 أكتوبر

إقامة في تزكي. أثارت انتباهي عند دخولي وادي أونل إحدى السمات المميزة لحوض نهر درعة ـــ أناقة المنشآت السكنية. لاحظت هنا خاصية أخرى أكثر أهمية :

ص 88 تتعلق هذه الخاصية بالعنصر البشري الذي يعمر المنطقة. لحد الآن لم ترعيني إلا أمَزِغَن بيضا ويسمون امزغن الشلحة. انطلاقا من الآن يتكون جزء كبير من السكان من أمزغن سود أو سمر : إنهم الحَراطين. وجدتهم في جميع جهات حوض نهر درعة بين أمزغن الشلحة وبنسب أكثر أهمية كلما تقدمت سيرا في اتجاه الجنوب. إنهم كثيرون في نفس وادي هذا النهر إلى حد أن لقب الدرعي الدّراوي مرادف للقب الحرطاني. كما يوجد الحراطين أيضا على روافد درعة بكثرة. يخيل للمرء أنهم تجمعوا في هذه الحوض وحده إذ لا وجود لهم في حوض نهر سوس وهم قليلو العدد في حوض نهر زيز.

ضمن هؤلاء الحراطين الأشكال البشرية الأكثر تنوعا لفصيلتهم. يرى المرء بينهم مَنْ قد يعتبرهم مِنْ زنجيي السودان والآخرين منهم لون الزنوج وسمات الأوربيين

أو شفاه الأولين الغليظة والأنف الأفطس مع بشرة بيضاء. يُنعتُ بعضهم بالحراطين ولا تثبت لدى الأجنبي عن هؤلاء الحراطين أي فوارق بينهم وبين أمزغن الشلحة. سُحُنات «ج. سحِنة» الأشخاص متنوعة إلى حد أنه يصعب تخصيص سمات مميزة لهذه السلالة : يمكن فقط القول أن لونها لون «بُن قاتم مخلوط بالحليب» وسمات شبه أوروبية هي التي يصادفها المرء في كثير من الأحيان. يعتبر الحراطين أنفسهم إمزغن من نفس درجة امزغن الشلحة. إنهم يشاركونهم التنظيم حسب القبائل وينتمون مثلهم إلى قبائل سَكتانة أو كَزوله العائلتين الكبيرتين اللتين تنتمي إليهما جميع القبائل الموجودة بين حوضي نهري سوس وحوض درعة وجزء من قبائل سهل سوس.

يعتبر أمزغن الشلحة أنفسهم أسمى من الحراطين رغم هذا التساوي السياسي ورغم الاشتراك في الأصل الذي يعترفون به لهم : للحراطين شعور الانتماء إلى الطبقة السفلى. إنهم يسعون للرفع من مكانتهم الاجتماعية عن طريق الزواج بنساء ذوات بشرة مفتوحة. يقول الناس : «هل يتحدث عن الزواج ؟ إذ ذاك يسأل مَنْ هو مِنْ أصل عربي : أهي ذات نسب ؟ ومن هو يسأل من هو أمازغي : أهي غنية ؟ ويسأل من هو حرطاني : أهي بيضاء البشرة ؟».

18 أكتوبر

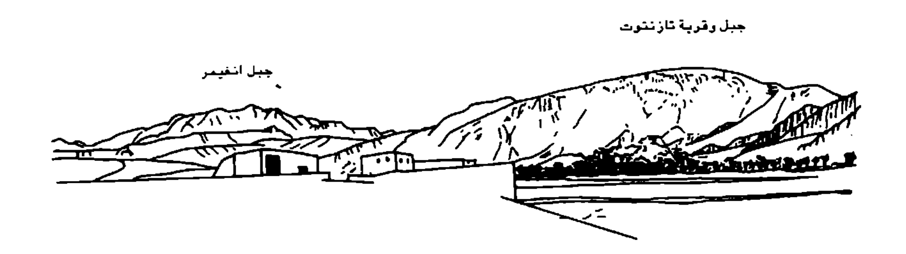
الذهاب في الساعة 10 و30 دقيقة. من تيركَى إلى تكرت يتبع المرء دائما مجرى واد إونل وفي جزء من الطريق يسير في سرير المجرى نفسه. عرض السرير هنا ما بين 15 إلى 20م، يجري الماء كتلة واحدة عرضها 5م وعمقها 30سم وتارة يتوزع الماء إلى عدة أدرُع وتارة يغمر السرير كله تقريبا فيكون إذ ذاك قليل العمق، الجريان غير منتظم لواد إونل من منبعه حتى اتصاله بواد إمني، مهما كانت قوته، من هنا حتى تكرت يمكن تقسيم مجرى الواد إلى قسمين، يبدأ القسم الأول انطلاقا من هنا حتى اتصاله بواد مرغن وينطلق القسم الثاني فيما بعد واد مرغن.

خلال الشطر الأول يبقى قعر الوادي كما كان عليه قبل تزكي : 60/50م عرضا. تكسو الوادي المزروعات ويظلله كثير من الأشجار. إبطا الوادي جد عاليين وهما من حث أحمر إلا أنهما ليسا جدرانا عمودية، ماعدا في أجزائهما

العليا حيث ترى المغارات. الأجزاء السفلى من 2/1 أولا ثم تصير من 1/1، ولم تسمح الإبط بمرور أي رافد انطلاقا من تِوْراسين حتى تزكَي. في هذه المنطقة الجديدة يسمح الابطان بمرور عدة روافد بين مجموعة انها نقط يتسع فيها الوادي وتمتد البساتين.

وصلت تمدخت في الساعة الواحدة والنصف.

تمدخت هي القرية التي يرتمي قبالتها عصيف مَرْغِن في واد إوِنِلْ. يتغير مظهر الوادي : يتسع قعره فيصبح 300م. عرضا تكسوه المزروعات. لا يوجد تشابه بتاتا بين هذه المزروعات التي نراها انطلاقا من هنا حتى تكَرت وبين مزروعات المناطق السابقة. إلى هنا كان عدد كبير من الأشجار يظلل الحقول ؛ من الآن سوف لا نصادف الأشجار بتاتا اللهم بجوار القرى وفي هذه الحالة فإن الأشجار قليلة العدد أو منعدمة. يجري النهر في سرير عرضه 40م. نصفه وحل ونصفه الآخر حميم. لا يحتل الماء من السرير إلا جزءا ضئيلا. يقل على الإبط شيئا فشيئا مع بقائه وعراً وخاصة الإبط الأيمن فإنه ينفخض تدريجيا وينمحي على بعد مسافة من تكَرت. يحتفظ الإبط الأيمن بعلو أدنى قيمته 150م. فوق مستوى الوادي إلا أن منحدراته تصير ناعمة أكثر فأكثر ويتغير لونه : لا يعود له لون الحث الوردي أو الأحمر Une teinte blanche لكن لون بين أبيض سيحتفظ به حتى قرب تكَرت. وهنا يتغير اللون من جديد فيصبح أسود ولامعا : انطلاقا من هنا تندثر المغارات.



قبالة تكَرت يمتد سهل مثلث الشكل حيث يتصل نهرا إونل وإمني : هذا السهل مستوى السطح جدا وذو تربة من وحل جاف، يُحرث خريفا وتغمره المياه شِتاء. في نهاية السهل يفسح المرور للنهر خانكَ «ها». ضيق نحتته المياه في صخور الجبال السوداء. مسافة ما في اتجاه العالية ؛ مشهد جديد يسرني النظر

إليه : إنها غابة نخيل تحيط بقرية تزنطط وهي غابة النخيل الأولى التي أراها : لا ريب أننا نقترب من الصحراء في الساعة 5 وصلت إلى تكرت، حيث توقفت.

قليل من المسافرين خلال الطريق رغم كون المنطقة مأهولة جدا. عبرت نهر أمني قبل الوصول هنا وكان عرضه 9م وعمقه 30سم لهذا النهر تيار ضعيف ويسيل في سرير من حصيم غليظ، عرضه 700م تقريبا حجم ماء هذا النهر أقل 90 أهمية مما هو عليه حجم ماء نهر إونل الذي يغدو بعد ساعتين من السير في اتجاه العالية، ذا تيار سريع جدا وله نفس العمق وعرضه 10م.

6 ــ إقامة في تكَرت

فيما يخص التنظيم السياسي، تكشف المناطق الموجودة جنوب الأطلس الكبير، ضمن المناطق المستقلة، عن اختلافات كبيرة مقارنة مع مناطق الشمال. توجد في مناطق الشمال وحدة اجتماعية متراصة هي القبيلة، وتوجد وضعية اجتماعية واحدة هي الدولة الديمقراطية ولا توجد علاقة توحد فيما بين القبائل. القبيلة عائلة كبيرة بتقسيماتها الطبيعية، خيمة أو دار، دوار أو قرية ؛ مجموعة عدة مراكز مأهولة وهكذا دواليك ويكون التقسيم أكبر كلما كان أفراد القبيلة أوفر عددا. كل مجوعة تحكم نفسها على حدة كما يحلو لها ذلك بواسطة مجموعة أشخاص حيث تكون ممثلة كل عائلة. تسمى هذه الهيئة الجماعة باللغة العربية وأنفلس باللغة الأمازغية. في كثير من الأحيان، لبعض الأشخاص الأسبقية داخل هذه الهيئة لكن دون أن يكون لهم لقب أو حق معترف به. تُحَل جميع مسائل القبيلة العادية حسب نفس المبدإ : تجمع القبيلة الصغيرة كل أفرادها للتداول، وتتشاور فخذات القبائل الكبيرة ــ مثل زيان وبني زمور والسماعلة حيث فخذات القاعدة هي نفسها متعددة الأفراد وفي كثير من الأحيان قليلة الالتحام فيما بينها ــ وتقرر في شؤونها بمعزل عن باقي القبائل، معتبرة الموقف المتخذ من طرف الأعضاء الآخرين أو غير معتبرة مواقفهم هذا، هناك عند بعض القبائل مثل آيت عتاب وآيت بوزيد قوانين [«قانون» في النص الأصلي] يلتزم السكان باحترامها ويُجبر الجمع العام للقبيلة على احترامها. هنا هذا أمر غير موجود عند أكثرية القبائل

ولا تهتم الجماعات بالحالات الخصوصية بتاتا، تبيح القبيلة كل شيء للأشخاص : إن وقعت خلافات بين عائلات أو بين فخذات فإن القبيلة تحل هذه النزاعات فيما بينها عن طريق البارود. تتصرف هنا العائلات أو الفخذات بكامل الحرية وفي إطار التقسيم اللامتناهي والتفرقة التامة وتتصرف هناك العائلات أو الفخذات بشيء أكثر من النظام والتنظيم : إنها دائماً الديمقراطية المطلقة. ما لمختلف القبائل علاقات أخرى غير الحروب والتحالفات التي تنشئها مؤقتا فيما بينها.

نجد جنوب الأطلس الكبير 3 وحدات اجتماعية : القبيلة، الدوار والمقاطعة. تربط بين هذه الوحدات الاجتماعية علاقتان هما الكنفِدِرالية والْمقطعِيّة (Vasselage) ونجد وضعيتين اجتماعيين هما التسيير بواسطة شيوخ وراثيين والتسيير المتعمد النظام الديمقراطي. توجد القبيلة عند الأمازغن وتوجد أيضا عند العرب. لا تتغير تقسيمات القبيلة الطبيعية في كل من الحالتين في جميع الأماكن : هذه حال قبائل زناكَة وآيت جلال وآيت سدرات والبرابر. وتوجد بجوار القبيلة قرى منعزلة ولا توجد أيّة علاقة بين هذه القرى. يسكن بعض هذه القرى خليط من أمازغن الشلحة والحراطين ويسكن بعضها الآخر أفراد قبال مختلفة السلالة ويسكن شرفاء ومرابطون بقرى أخرى. يوجد بين هذه القرى ما بقي منعزلا كما هو حال قصبة الجَوا وإلغْ، وتتحد أكثرية القرى على شكل جماعات فيما بينها لتقاوم هجومات القبائل المجاورة وتُكَوِّن، في نهاية الأمر، ما سنسميه المُقاطعات. هذه حال أربعاء المائة (Arba Mia) وتزكّي وواد نون وتِسّنت.

ص 91

تتحد القبائل والقرى المنعزلة والمقاطعات فيما بينها عن طريق نوعين من العلاقات. النوع الأول هو الكنفدرالية. تتكون هذه الأخيرة من مجموعة لعدد كبير من الوحدات السالفة الذكر ــ مهما كان نوعها ــ حتى تنشيء كتلة بشرية أكثر كثافة. هذه هي حال كنفدرالية دادس، وحال القبائل المتعددة والقصور المتحالفة مع آيت عامر، لا حاجة إلى القول بأن هذه الكنفدراليات خاضعة لتغيرات : تارة تتخلى عنها مجموعة من أفرادها وتارة أخرى تلتحق بها مجموعة أخرى.

والعلاقة الثانية التي تربط بين القبائل التي تحدثنا عنها سابقا هي نوع من المُقطعِيّة : تعلن قبائل ومقاطعات وضع نفسها تحت حماية شيخ قبيلة أو تحت حماية قبيلة أكثر قوة منها [Nbp] : في هذه الظروف، المُقطعون خاضعون لإتاوة

سنوية ويتعهد المُقطع له في المقابل، بضمان حرمة شخص وممتلكات مُقطعيه (Ses vassaux). لا تتعدى الواجبات المتبادلة بين المقطع والمقطع له هذا الحد : هكذا فإن تِسنّت وطاطا مقطعو إدا وبْلال وهؤلاء بدورهم مقطعو البرابر.

تعيش القبائل والمقاطعات والقرى البعض في إطار النظام المطلق التصرف والبعض الآخر في إطار النظام الديمقراطي. تحكم الأولى عائلات حيث السلطة العليا ولقب شيخ وإرثيات [Nbp]. هذه حال قبائل أيت عامر والزناكَة ومزكَيطه. ليست سلط هؤلاء الشيوخ ذات ثقل على رعاياهم الذين هم أفراد عائلات أكثر أو أقل قرابة لعدد كبير منهم فيكون على هؤلاء الشيوخ أن يداروا هؤلاء الحلفاء الطبيعيين. زد على هذا أنه من صالح هؤلاء الشيوخ ألا يضايقوا أي امرئ وهكذا فإنهم يتركون لهؤلاء الحلفاء الطبيعيين كثيرا من الحرية ولا يطالبونهم إلا بثلاثة أشياء : أداء إتاوة ضئيلة المساندة خلال الصراعات مع الآخرين وألا يتشاجروا كثيرا وألا يتناهبوا وألا يتسارقوا فيما بينهم : ذلك أن هذه التصرفات كلها أفعال مسموح بها فقط ضد الأجانب. وماعدا النقاط الثلاثة فإباحة مطلقة. هذا ما أسميه، في غياب تسمية أخرى، النظام المطلق التصرف في جنوب المغرب.

أما النظام الديمقراطي فإن القبائل أو المقاطعات التي تَبَنَّتْهُ تعْمَلُ به مع الاحتفاظ على جميع الفوارق الدقيقة الأكثر اختلافاً التي يمكن أن يتخدها عند البعض، مثل آيت إلّلَن وإبَرْققن يسود النظام الجاري به العمل شمال الأطلس الكبير : تُسَيَّر القبائل والفخدات والقرى عن طريق جماعة كل أفرادها ؛

في مكان آخر، مثل قصور تِسنْت وطاطا، تحتفظ الجماعة بالسيادة المطلقة بين أيديها وتفوْض السلطة التنفيذية إلى شيخ منتخب. في بعض الأحيان تبقى على هذا اللقب في نفس البيت خلال مدة طويلة وفي بعض الأحيان تنقله بدون توقف من بيت إلى بيت ؛

في بعض القبائل مثل إدا وبلال وأيت اومْربَط وأيت إسافن، تنقسم القبيلة إلى فخذات ترأسها عائلة حيث لقب الشيخ وراثي. تارة لهؤلاء الشيوخ كبيرة كما هو الأمر عند أيت اومربط وأيت إسافن، وتارة امتياز هؤلاء الشيوخ الوحيد هو رئاسة إخوانهم في المشاجرات القبلية.

وأخيرا هناك نظام خاص بالبرابر وآيت سدرات وآيت إمغْرن : إنه نظام «شيخ العام» «ها». أي اعتماد شيوخ يدوم حكمهم سنة واحدة. في هذا النظام تسير القبائل من طرف جماعات، لكن عند كل فخذة وفي كل مقاطعة تبقى السلطة التنفيذية في أيدي شيخ ينتخب على رأس كل سنة.

إذا وُجد في هذه المناطق تنظيم سياسي أكثر كمالا مما هو عليه في المناطق الشمالية فإنه يجب عدم الاستنتاج من هذه الحالة سيادة أكثر من النظام مما هي عليه الأمور في المناطق الأخرى : تَسير الإدارة الداخلية لكل قرية بطريقة منتظمة بما فيه الكفاية ولكن ليس أكثر، فالمشاجرات مستمرة بين القبيلة والقبيلة وبين الفخذة والفخذة وبين المقاطعة والمقاطعة وبين القرية والقرية. ثلاثة أسباب تفرز هذه المشاجرات : تحدث النزاعات بين المستقرين حول المياه والسواقي، وتحدث النزاعات بين الرحل بسبب النهب الجائر الذي يتعرض له المُقطعون (Les vasseaux) والذي يفرض أخذ الثأر له، وتحدث النزاعات بين المستقرين والرحل، فطمع هؤلاء يدفعهم إلى مهاجمة الأوائل وإلى تجريدهم من ممتلكاتهم. لم أكن في منطقة واحدة جنوب الأطلس الكبير دون أن أجد فيها العراك إما بين نفس أفراد القبيلة أو مع الجيران نتيجة الأسباب الثلاثة السابقة الذكر.

المناطق التي عبرتها انطلاقا من اكَلاوة وأساكة وتزكَي وأيت زينب، تنتمي الأولى إلى مقاطعات منعزلة والأخيرة إلى قبيلة صغيرة، يعترف الأولون والآخرون بسيادة السلطان. تنحصر مظاهر الخضوع التي يقدمونها له في إرسال هدية سنوية إلى الأكَلاوي تتراوح قيمتها من 50 إلى 200 فرنك بالإضافة إلى إرسال السّراق المقبوض عليهم إلى إمَوْننْ.

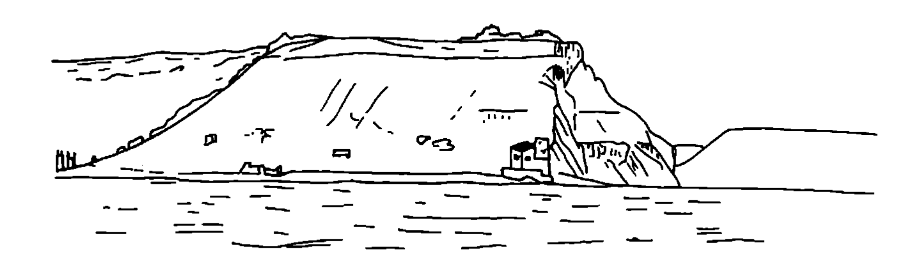
تسير قبيلتا أساكة وتزكَي من طرف جماعاتهما أو الأنفاليس ولأيت زينب شيخ وراثي، اسمه حاليا الشيخ محمد، ساكن تكَرت والذي لا يفرض سيطرته إلا عل الجزء من قبيلته الموجود شرق إمزوغن. لقد انضمت باقي فخذات القبيلة من إمزوغن وتدولة وتيزكزاون منذ وقت قصير إلى الزّنفي، شيخ تزنخت، تم هذا الانضمام دون إكراه فلم يعكر التفاهم الطيب السائد بين الشيخين.

ليست هنا تمزغت اللغة المتداولة العامة فقط بل إنها اللغة الوحيدة تقريبا، يكاد رجل واحد من بين 5 رجال وامرأة واحدة من بين 20 امرأة يعرفون اللغة العربية.

الملبس هو نفسه عند دخولي أراضي كَلاوه. لكن النساء اللواتي كن يلبسن قليلا من الحلي في الشمال لديهن هنا أعداد كبيرة منها : زد على هذا فإنهن يصبغن وجوههن. حتى هنا، كانت سُبحة من مصنوعات زجاجية تتخللها حبات المرجان وقطع نقدية حول العنق وسبحة أخرى في الشعر زينتهن الوحيدة. من الآن ستكسوهن قلادات ضخمة من العنبر والمرجان وأساور ومشابك «ج. مِشبك : Broches» وأكاليل (Diadèmes) وقُرُط (Pendants d'oreilles) وحُلي (Parures) أخرى كبيرة الحجم من الفضة.

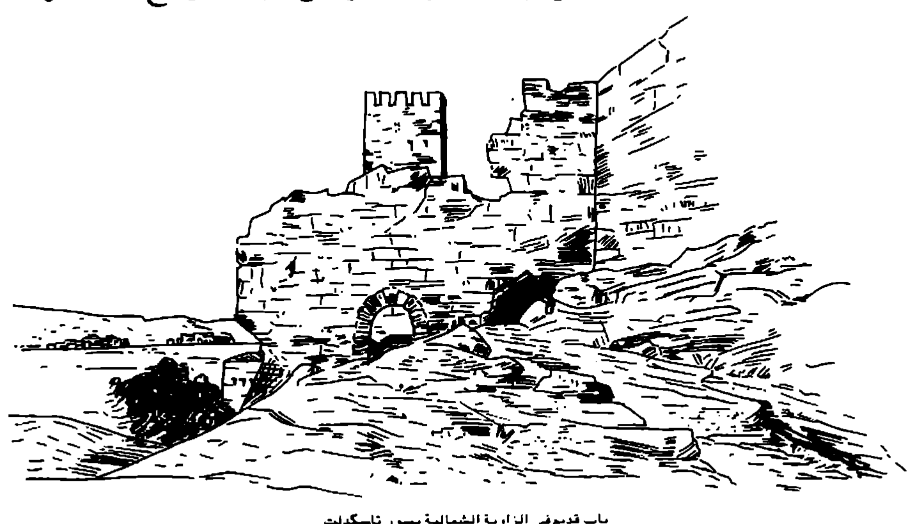
وجدنا الحليب والعسل بكثرة في الأطلس الكبير ونفس الشيء وجدناه هنا : بينما ستصبح هاتان المادتان نادرتين بعد هذه المنطقة. تنتهي إمكانية الحصول على الصابون جنوب تكَرت : حتى هنا كان الصابون يُصنع في جميع المناطق مهما كانت أهميتها. كانت صناعته من اختصاصات اليهود المربحة. لا يُنتج الصابون قط فيما وراء أراضي آيت زينب ولا يباع قط في الأسواق. تستعمل بعض العشوب لتنظيف الملابس ويبقى الغسيل المحصل عليه بهذه الطريقة دون المستوى.

أغتنم فرصة وجودي في تكَرت لزيارة آثار تَسَكَدَلْت المشهورة في المنطقة التي يروون عنها عدة أساطير تتكون هذه الآثار من سور يكاد يكون مربع الشكل كانت به أبراج من الحجارة على طول امتداده. كانت الجدران، وهي سميكة، ولاشك من الحجارة عند القاعدة ومن المقدار في الأجزاء العليا من السور. ما بقي من تسكَدلت شيء قليل : أنهار جزء من الجدران والباقي جد مدمر الأجزاء العليا، وتتساقط أجزاؤه كل يوم أكثر فأكثر. الجزء الجنوبي للآثار هو الأحسن محافظا عليه : ترى به 7 أو 8 أبراج لازال علوها بين 3 أو 4م. تتكدس داخل السور كوْمات من الحجارة لا توفر إلا شظايا دون أي شكل. بُنيت القلعة على شكل مدرج فوق ضِلع صخري انحداره 1/2 ويمتد على علو الضلع كلهج يتحول فجأة هذا الضلع في الجزء الشمالي من القلعة إلى جدار مستقيم حيث توجد أبواب عدة مغارات. قلعة قديمة وكهوف : هذا أكثر مما يحتاج إليه السكان حتى يروا فيها آثار مرور المسيحيين بالمنطقة. من جهة أخرى أليس التاريخ هنا ليبرهن على صحة هذا الرأي ؟ تاريخ مسجل في كتب لم يطلعوا عليها ولكن كتب محتواها في ذاكرة كل امرئ : فيما مضى، منذ عدة قرون مضت، 3 أميرات، بنات ملك



مسيحي، كن يحكمن هذه البقع إحداهن، دولة بنت وعد «Bent Ouâd» كانت تسكن قلعة تسكَدلت هذه ؛ وبنت أخرى اسمها زَلفه بنت وعد كانت تسكن قلعة أخرى مشابهة للقلعة الأولى على جوانب عصيف مرغن قرب تسايوت ؛ والبنت الثالثة واسمها ستوكة بنت وعد كانت تسكن قلعة أخرى مشابهة للقلعة الأولى عند تسككت على واد إمني.

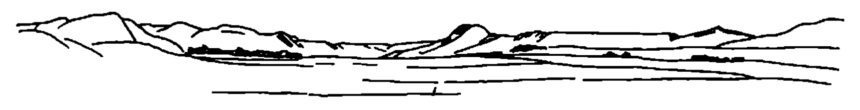
ص 94 تشاهد في هذ الأماكن الثلاثة أطلال متشابهة. وقد حارب المسلمون طويلا الأميرات المسيحيات الثلاث وانتهت المعارك بطردهن. إن الأرجح أن تكون



باب قديم في الزاوية الشمالية بسور تاسكدلت

القصبات الثلاث من أعمال نفس السلطان : وإنه ولاشك نفس السلطان الذي بني القنطرة على واد ردات السالفة الذكر.

خلال هذه الجولة مررت قرب مقرن نهري إرر وإمني : إنهما يجتمعان عند



سهل تلتقي فيه الأنهار . تونيت وإربغي وتيدبلي

سهل مثلث الشكل شبيه بسهل تكَرت : له نفس السطح الحماي المنخفض والمنبسط، تكسوه المزروعات وتغمره المياه شتاءً. سطح دون أشجار اللهم قرب القرى وحقول قمح وشعير وخاصة الذرة. تحرث الأرض بمحاريث ذات سكة من حديد تجرها الثيران وهؤلاء قليلو الأعداد إلى حد ما في المنطقة : تطبق نفس الملاحظة بالنسبة للأغنام والماعز. انطلاقا من تلوات ترى بعض الإبل. بواد امني، قبل المقرن، قليل من الماء : 1,5م و40سم. عمقا. يجري هذا الرقراق «filet d'eau» الضعيف وسط سرير من دماليك غليظة عرضه أكثر من 500م من ضفة إلى أخرى. في الأعلى، قبالة تسكَدلت، لنفس المجرى المائي 200م عرضا : إنه جاف ليس بسبب قلة المياه.

ولكن لكون السكان يحولون الماء لسقي غرسهم. وحتى إن لم أصادف الماء في النهر فإنني عبرت عدة سواقي واسعة حيث ينساب الماء بكثرة. لكل قبيلة ولكل قرية الحق في قسط معلوم من الماء تنظم اتفاقيات وقوانين توزيعه. تكون القنوات مصدر نزاعات ومشاجرات متكررة بين القرى والفخذات. تحل هذه النزاعات كما تحل جميع النزاعات هنا أي عن طريق أسماع صوت البارود : في هذه اللحظة أهل إمني وأهل توغَيّه في عداوة مع آيت زينب بسبب نفس الموضوع. قليلا ما تكون هذه المعارك دامية إذ تنحصر في كثير من الأحيان في تبادل طلقات النار على حدود أراضي المتنازعين.

أدرارنْ دْرَنْ وسيرُوَا

يقول سكان تكرت «تحاصر الجبال بلادنا من جميع الجهات». وفعلا في أي مكان يُلقي المرء بصره ترى العين إلا كتلا جبلية داكنة. في الجنوب وفي الشرق إنها إبط أنهار إونل من جهة، إمني وإدَرمي من جهة ثانية، وهذه الإبط حافة وعرة علوها 150–200م سبق وصف هذه الإبط في شمال وغرب الكتلة الجبلية.

إنها أعراف جد عالية أكثرها مكسو ثلجا وتائه في الغيوم. يميز المرء انطلاقا من تكَرت عدة قمم متميزة وعدة فجاج ضمنها جبل أنغمرْ، تيزي ــ ن ــ تلوات، نيزي ــ ن ــ تيشكا، تيزي ــ ن ــ تمَنث، جبل تيدلي، جبل سيروًا. تنتمي التضاريس الأولى إلى الأطلس الكبير والمعروف هنا تحت تسمية أدرار ــ ن ــ دْرن [Nbp]. أما سروا فإنه أعلى قمة لكتلة تنتصب بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير وتفصل بين حوضي نهري سوس ودرعة.

هذه بعض التفاصيل حول هذه النقط المختلفة :

جبل أنغمر : ينبع واد إونل من هذا الجبل ولهذا يسمى في بعض الأحيان بجبل إونل. يوجد في قمته مستنقع دائما مملوء ماء وهذا حتى خلال فصول الصيف المحرقة. لا يعرف أحد عمق هذا المستنقع. من نقطة أدنى من المستنقع تنبع عين إونل بين الصخور. هذا المستنقع موضوع تقديس من طرف مسلمي المناطق المجاورة. خلال اليوم الأول من كل سنة يصعد الناس إلى المستنقع للزيارة ويذبحون الشياه والماعز. هل تضرر الناس من الجفاف ؟ يجمع أهل إونل وأساكه وأيت زينب ويكتتبون بمساهمات قيمتها موزونة واحدة لكل شخص فيشترون الخرفان ويقدمونها قربانا بجوار المستنقع.

ص 96 تيزي ــ ن ــ تلوات : إنه الفج الذي اخترقت منه الأطلس الكبير، إنه جزء من تيزي ــ ن ــ الاكَلاوي : تطلق هذه التسمية على المنخفض العريض الذي يقابل هنا في أدرارن والذي يحده شرقا جبل انغمر وغربا جبل تيدلي. يحمل هذا الجزء من الكتلة الجبلية تيزي ــ ن ــ الاكَلاوي عموما. يحتوي هذا الجزء من الكتلة الجبلية على 3 فجج هي تلوات وتمنت.

تيزي ــ ن ــ تيشكا : يوصل هذا الفج من وادي عصيف مرغن إلى وادي نهر زَرْقطن مثلا. واد تيشكا الذي ينبع منه يرتمي في واد الملح عند أمرغن. الناس عن طريق تيشكا عندما يكون فج تلوات محاصرا بالثلوج ويكون فج تيشكا صالحاً للاستعمال بصفة استثنائية.

تيزي ــ ن ــ تمنت : يفتح هذا الفج الطريق إلى وادي نهر إمني عبر قبيلة وه. إنه طريق ثالث للوصول إلى مراكش. من بين هذه الطرق الثلاث الطريق الأقصر هي الطريق الثالث لكن الأسهل والأكثر استعمالا هي طريق تيزي ــ ن ــ تلوات. يرتمي تمنت النازل من الفج في واد إمني.

جبل تيدلي : هذا الجبل وكما هو شأن الجبال التي تحيط به، يكسوها الثلج. يأخذ إمني منبعه في إبطه. غرب جبل تيدلي تستمر الكتلة الجبلية مجموعة طويلة من أعراف مكسوة ثلجا وناطحة الغيوم.

جبل سروا : أعلى قمة الجبال المجاورة حسب قول السكان. إنه الجبل الوحيد الذي تكسو قمته الثلوج طول السنة. على القمم الأخرى المشاهدة من هنا تستمر الثلوج تارة حتى فصل الصيف وتارة أخرى تذوب قبل هذا الفصل إذا كانت السنة أكثر أو أقل حرارة. يوجد على منحدرات سروا فج يوصل من قبيلة آيت تَدْرارت إلى سهل سوس. حسب ما يقال تحتوي ابط الكتلة الجبلية على معادن لكن لا يعرف السكان الاستفادة منها.

تتساوى هذه الجبال من حيث انعدام الغطاء النباتي ومن حيث الصعوبة : لا توجد أشجار ولا توجد نباتات ولا يوجد شيء آخر غير الأحجار. لا توجد حيوانات متوحشة ولا توجد حيوانات قنص أخرى غير الظبي والأرويات [mouflons] [Nbp].

فجاج تيزي ــ ن ــ الاكَلاوي الثلاثة صالحة للاستعمال خلال طول السنة. لكن الثلوج تتساقط فيها بكميات كبيرة خلال فصل الشتاء : في هذه الظروف وعندما تكون القشرة الثلجية مفرطة السمك ينتظر المسافرون، للتمكن من العبور، في القرى الأكثر قربا من القمة ويستأنفون طريقهم عند أول انقشاع للشمس. ويتصرف المسافرون بنفس الطريقة بالنسبة للفجاج الموجودة في الاتجاه الشرقي والتي تربط الاتصال بدمنات وهسكورة وويزغت ومنطقة وُسِّكِسْ.

7 ــ بعض المعلومات حول الأطلس المغربي

97 نحن هنا في عمق سلسلة جبال الأطلس. لقد حان الوقت لإعطاء بعض التفاصيل حول الطريقة التي نفهم من خلالها النظام الجبلي المغربي.

تتكون جبال المغرب، بالنسبة إلينا، من كتلتين واضحتي المعالم تفصل بينهما ثغرة واسعة. هذه الكتل هي أولا كتلة الأطلس الذي يخترق المغرب عبر أكبر طوله من الجنوب ــ الغربي إلى الشمال ــ الشرقي، وثانية الكتلة الريفية التي

تبتدئ من Nemours بالجزائر، تحادي الشاطئ المتوسطي حتى مدينة سبتة والتي يشقها مضيق جبل طارق. ترسم هذه الكتلة منعرجا واسعا وتظهر من جديد في اسبانيا في سلسلة Nevada. هاتان الكتلتان الجبليتان ذات الخطوط المعقوفة منطلقتان تقريبا من نقطة مشتركة وتسيران في اتجاهات متشعبة تشبه أمواج تيار بحري قد ينقسم إلى ذراعين في اتجاه تلمسان، وقد يستمراهم الذراعين في متباعة السير العام للتيار الأصلي مع تغيير للاتجاه بعض الشيء نحو الغرب. أما الذراع الآخر، وهو الذراع الثانوي، فقد يندفع في اتجاه الغرب ثم قد يغير اتجاهه فجأة نحو الشمال ومن هنا يسير نحو الشرق. الخط الفاصل بين الكتلتين مرسوم بطريقة واضحة جدا : تفصل ثغرة واسعة الكتلتين انطلاقا من للامغنية إلى فاس. هذه الثغرة هي سهل أنكَاد الممتد حتى سهل ملوية. يسترسل نفس السهل تحت تسمية أخرى حتى نهر إناون ثم يستمر عبر وادي هذا النهر حتى قرابة فاس. انطلاقا من جوار هذه المدينة تصبح الثغرة أكثر انفراجا : إنه وادي نهر سبو الذي يزيد اتساعا حتى اتصال النهر بالمحيط الأطلسي.

لن نهتم بتاتاً بالكتلة الريفية والتي لا يوجد منها ضمن ميدان اهتمامنا إلا جزء صغير. زد على هذا أنها تبدو جيدة التمثيل على خريطة القبطان Beaudoin الذي كان جمع عددا مهما من المعلومات حول هذه المنطقة بالخصوص. إضافة إلى هذا فمنقولات «Les levés»ضباط أركان جيوشنا تشتمل على معلومات حول جزء من الكتلة الجبلية الممتدة من Nemours إلى سهل ملوية : يترتب عن هذا كله أن المنطقة معروفة بدقة.

أما بالنسبة لكتلة الأطلس فإننا اخترقناها مرتين بمجملها وقد تجولنا في بعض من أجزائها مع وقوفنا على بعض من التفاصيل. سنحاول وصف الكتلة كما تبدو لنا : ولنفسر أولا المفردات التي سنستعملها.

لقد تم تعميم اسم الأطلس ــ المطلق أصلا من طرف القدماء على القمم المكسوة بالثلوج التي تنتصب وسط المغرب، وفيما بعد من طرف بعض الكتاب اللاتينيين ــ للحديث عن كل الكتلة الجبلية التي تخترق المغرب العربي [Le Marreb].

فاحتفظ لهذه التسمية بهذا المعنى للدلالة على هذا الضهر الواسع الذي ينطلق

98 من موكَادور ومصب نهر درعة في المحيط الأطلسي وينتهي عند البحر المتوسط في رأس بون Cap Bon بعدما يكون قد اخترق المغرب والجزائر وتونس. لازال هذا الضهر يحمل في أيامنا اسم الأطلس عموما.

يمكن أن نميز داخل هذه التسمية العامة بين الأطلس المغربي والأطلس الجزائري والأطلس التونسي : هذا هو التقسيم الوحيد الذي يطبق على هذه السلسلة [Nbp]. أما ألفاظ الأطلس الكبير والأطلس الصغير فإنها تطبق فقط على بعض أجزاء سلسلة الأطلس المغربي. هذا ما كان يقصد به Ptolémée بطليمُوس الذي كان أول من استعمل هذه التعابير. كان يستعملها للحديث عن سلسلتين جبليتين واضحتي المعالم من هذه الكتلة سنتقيد جزئيا بمصطلحات بطليموس هاته فنخصص هذه الأسماء للحديث عن سلسلتي المغرب اللتين يبدو أن هذه التسمية تطبق عليها بصفة ملائمة جدا.

يتكون الأطلس المغربي من 3 سلاسل جبلية متوازية :

إحداها، عالية جدا، تكاد تكون دائما معممة بالثلوج وهي معروفة منذ زمن قديم تحت اسم الأطلس الكبير وسنحتفظ لها بهذا الاسم.

السلسلة الثانية، وهي جنوب السلسلة الأولى وذات اتجاه مواز للأولى إلا أنها أقل ارتفاعا منها : سنسميها الأطلس الصغير.

هاتان السلستان، وهما الكتلتان الوحيدتان اللتان يمكن مشاهدتهما من الشاطئ الأطلسي [Nbp. 2]، كانتا بدون شك السلسلتين اللتين تحدّث عنهما الناس لبطليموس — ولو أن بطليموس وضع إحدى السلسلتين مكان الأخرى في كتاباته، ولا تبتدئ السلسلة الثالثة إلا بعيدا عن السلسلتين السالفتي الذكر داخل البلاد فجهل وجودها : تقع هذه السلسلة الثالثة شمال الأطلس الكبير وهي أقل علوا من هذا الأخير و أكثر علوا من الأطلس الصغير : لهذا سنسميها الأطلس المتوسط — وهي تسمية مطابقة لعلوه.

هناك حاجة إلى إعطاء أسماء لهذه الكتل تكون أسماء مشتقة من لغتنا [الفرنسية] إذ لا توجد كتلة واحدة منها لها اسم لاتيني متداول بين المغاربة. في المغرب لكل قمة ولكل فج ولكل وادي اسم خاص به ولا وجود لاسم في أي مكان يدل على كتلة برمتها. هذه الوضعية سهلة التفسير : المغربي لا يسافر، لذا فهو يعرف

جبال منطقته ولا يعرف إلا هذه الجبال، ولا يعرف إن كانت تتصل بجبال أخرى ولا يبحث في هذه الوضعية. في ظروف مثل هذه تكفي الأسماء الخاصة ويمكن أن توجد هذه الأسماء وحدها فقط. يعطي للسلسلة الجبلية اسم واحد ذو دلالة عامة حتى وإن كانت السلسلة لا تحمل هذه التسمية إلا خلال جزء من امتدادها : فالأطلس الكبير يحمل اسم ادرار ـــ ن ـــ درن وهذا من منطقة حاحة إلى النهاية الغربية لتيزي ـــ ن ـــ الاكَلاوي ـــ هذا مع العلم أن هذه التسمية لا تطبق إلا على نصف السلسلة تقريبا. إذن لا يمكننا أن نستعمل هذه التسمية العامة لذا يتحتم علينا اعتماد أسماء اصطلاحية «Des noms de convention» لتعيين السلسلة برمتها.

سبق أن قلنا أن الأطلس المغربي يبدو مكونا أساسا من 3 سلاسل متوازية ذات الاتجاه التقريبي الذي قد يكون من الغرب ـــ الشمالي ـــ الغربي إلى الشرق ـــ الشمالي ـــ الشرقي. على التوالي، أطلقنا على هذه السلاسل الثلاثة اسم الأطلس الكبير والأطلس المتوسط والأطلس الصغير.

1. الأطلس الكبير :

مما لاشك فيه أنه ـــ ضمن السلسلات الجبلية الثلاث السالفة الذكر ـــ الجهة التي يجهل الجميع عنها الشيء القليل. يشاهد هذا الأطلس الكبير من مراكش كما زاره كثير من المسافرين. ولقد استكشف السيدان Hooker et Ball جزأه الغربي واخترقه السيد Lenz شمال تارودانت والسيدان Caille وRohlfs عند منابع نهر زيز وقطعناه نحن في 3 نقط : في اتجاه الوسط عند فج اكَلاوه، في نهايته الغربية بين أكَدير إغِرْ ومكَادور، وقطعناه ليس بعيدا عند النقطة حيث ينتهي في اتجاه الشرق قرابة قصابي الشرفاء. إضافة إلى هذا لقد حادينا سفحه على طول امتداده تقريبا : حادينا قدمه الشمالي من ميسور (منطقة ملوية) إلى قصابي الشرفاء وحادينا قدمه الجنوبي من واويزغت إلى سيدي رحال ومن أكدير إغر إلى قبائل المنابهة كما حادينا هذا القدم الجنوبي نفسه من حوض دادس إلى قصر السوق.

ص 99

الأطلس الكبير سلسلة جبلية طويلة مسترسلة لكن بها عدة فجاج «فج ببوان، تيزي ـــ ن ـــ تمنت، تيزي ـــ ن ـــ تيشكا، تيزي ـــ ن ـــ تمجوط إلخ... التي تؤدي إلى وادي نهر درعة، وتيزي ـــ ن ـــ تلغمت الذي يؤدي إلى وادي نهر زيز، وتيزي ـــ ن ـــ تَنْسَلْمْتْ الذي يؤدي إلى وادي نهر كَير. الارتفاعات

الأساسية هي 1250م «حسب لنز»، 3350م عند جبل تزه Teza «حسب هوكر»، 3470م عند جبل مِلَطسِينَ «حسب واشنطون»، 4، 3500م عند فج تَغرُتْ «حسب هوكر»، 2643م عند فج تلوات «عند النقطة حيث قطعته في أراضي اكَلاوه»، 2182م عند فج تلغمت حيث تخطيته قرب القصابي : أينما كنت رأيت قمة الأطلس الكبير يكسوها الثلج اللهم عند المنخفض الكبير لتيزي ـــ ن ـــ الاكلاوي إذا ما اعتبرنا الجزء الذي يكسوه الثلج فقد يكون الجزء الأعلى من السلسلة هو الجزء الموجود شمال دادس وتدغة وغريس وبلاد زيز. ضمن هذه المجموعة من التضاريس تشرف كتلة جبال العياشي، بكثير، على القمم الأخرى : هل جبل العياشي هو أعلى قمم الأطلس الكبير ؟ يبدو أنه كذلك، ولكن لا شيء يؤكد هذا الاستخلاص. يظهر الثلج، غربا، شرق فج ببوان، ويزول هذا الثلج منها، شرقا، عند المنحدرات الأخيرة لجبل العياشي : لا أثر للثلج بعد هذه الكتلة. ينخفظ علو الأطلس الكبير بسرعة من ببوان إلى المحيط الأطلسي. من وراء جبل العياشي، تنخفض الارتفاعات بصفة منتظمة ويلفظ الأطلس الكبير أنفاسه الأخيرة في منطقة الضهراء : في أي نقطة بكل تدقيق ؟ وعلى أية مسافة من جبل العياشي ؟ أننا لا نعرف جوابا لهذه الأسئلة. يبدو أن عرف La crtète الأطلس الكبير ضلع Une arète وليس هضبة. ليس لهذا العرف مظهر خط موحد الشكل إلا في نهايتها الشرقية والغربية حيث لا يوجد الثلج، وفي أي مكان آخر فإنه يتقطع إلى عدة تسنينات Dentelures. السفح الشمالي للأطلس الكبير مشجوجر عامة والسفح الجنوبي عاريز إنه مكون من صخور خالصة في أحواض الدرع هو زيز وكَير، وجزئيا مشجوجر في حوض نهر سوس. حسب ما يقال ؛ تشتمل الغابات على صيد وافر ولكن لا وجود لحيوانات مفترسة.

2. الأطلس المتوسط :

نجهل الكثير من هذه السلسلة. من فج تيزي ـــ ن ـــ تلغمت ظهر لنا جزء منه، إنه عرف طويل متماثل تكسوه الثلوج. ينمو علوه في نقطة ما ليكوّن قرناً Un pic ـــ جبل تاسوقت ـــ وينتهي فجأة بجرف عالي ـــ هو جبل أولاد علي ـــ أين تبتدئ هذه السلسلة ؟ وأين تنتهي ؟ لا يمكن إعطاء جواب مؤكد، بالنسبة إلينا تبتدئ هذه السلسلة شمال دمنات، عند ثغرة تساوت، حيث تختلط منخدراتها الأخيرة بمنحدرات الأطلس الكبير. سلسلة الأطلس المتوسط هي التي يخترقها نهر

10

العبيد عبر المضيق الذي يحفره هذا النهر. سلسلة الأطلس المتوسط هي التي تحد أيضا سهل تادلة جنوبا وهي التي تفصل بين حوضي أم الربيع والعبيد على طول امتداديهما، وهي التي قطعناها، ذهابا من قصبة بني ملال إلى ورززات. لم يكن علو السلسلة هنا، عند الفج، إلا 1520م — وقد يصل علو القمم 1900م.

ابتدأت السلسلة انطلاقا من دمنات ولازال علوها يزداد حتى جبل تاسوقت الذي يبدو أنه أعلى نقطة في السلسلة. أين تنتهي السلسلة ؟ هل تتوقف، فجأة — كما يبدو — عند جبل اولاد علي أم عند جبل ركَو ؟ لا نظن هذا. بالنسبة إلينا، أن الثغرة المفاجئة الموجودة شرق هذه الأطوار هي خانق شاسع شقه نهر ملوية عبر السلسلة. وقد تكوّن أطوار دبدو «1648م». الاستمرار الطبيعي لهذه السلسلة. وقد تنتهي هذه السلسلة مع هذه الأطوار عند هضبة الضهراء العليا. إذن قد يبتدئ الأطلس المتوسط شمال دمنات وقد تبلغ ذروته عند جبل تاسوقت. وتنتهي عند الضهراء حيث يلفظ الأطلس المتوسط أنفاسه الأخيرة كما كان الأمر بالنسبة للأطلس الكبير.

سفحا الأطلس المتوسط مشجوجران : من دمنات إلى دبدو ما هي إلا غابات شاسعة، وافرة القنص والحيوانات المتوحشة، إنها الغابات الوحيدة بالمغرب حيث يوجد الأسد [Nbp].

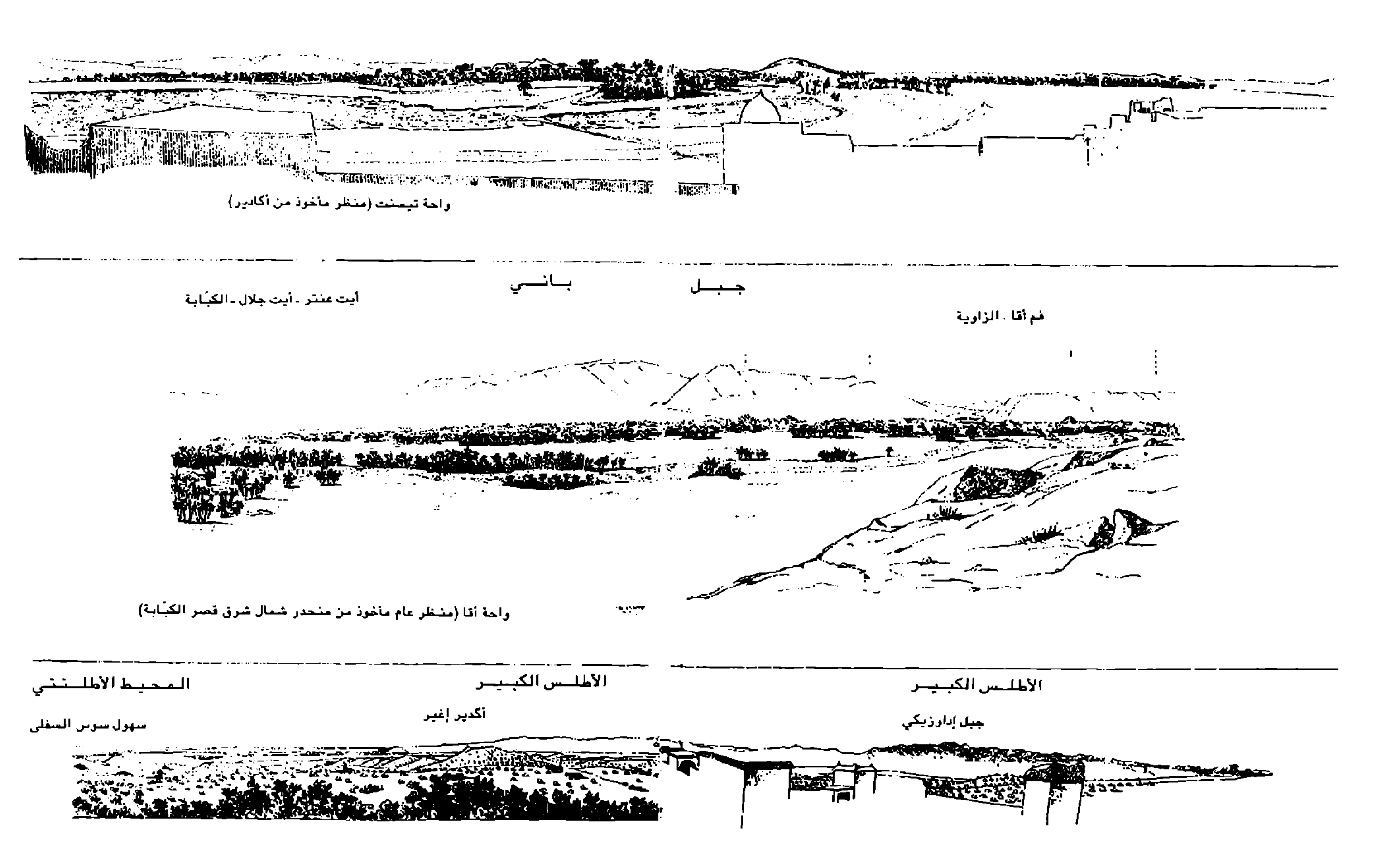
3. الأطلس الصغير :

إنها السلسلة الجبلية التي نعرف عنها الكثير بعد الأطلس الكبير. عبرها Dr. Lenz جنوب إلغ (1100م). لقد تعقب السيد لنز قدم السلسلة إلى خلال مدة طويلة. وأخيرا إنه كان أحد مواضيع بحثي الأساسية. لقد تعقبت الجنوب من تسنت إلى أقا وتعقبت قدمه الشمالي من أكَدِزْ إيغير إلى منابهة دادس إلى غريس. اخترقت الأطلس الصغير عند 6 نقاط مختلفة : عند فجاج إبرقفن هارون، أكني، تفرن، إغِل وإطب. كان علوه عند هذه النقط على التوالي، 1912، 2280، 1872، 1674، 2059، 1934، تمثل هذه الأرقام، مع اختلافات يسيرة، علو أعلى القمم — ذاك أن هضبة واسعة وذات تموجات خفيفة تتوج الأطلس المتوسط. هذه الهضبة. محجوجرة في الجزء الشرقي من السلسلة «الجزء الموجود شرق درعة والذي يحمل إسم صغرو» تقل به الأحجار في الجزء الأوسط

من السلسلة التي تكسوها مساحات كبيرة من الحلفاء، وفي اتجاه الغرب تملؤها مساحات شاسعة من تربة جيدة وتكسوها الحقول وأشجار اللوز وبها قرى تكوّن إحدى أغنى مناطق المغرب، السفح الجنوبي للأطلس الصغير عار ومحجوجر. السفح الشمالي هو في حوضي زيز ودرعة إلا أنه مشجوجر في حوض سوس، عند قدم السلسلة فقط باتجاه الشرق وبأجمعه في اتجاه الغرب. بالمنطقة قليل من القنص كما أنه لا توجد بها حيوانات مفترسة. لا يوفر علو السلسلة في أي مكان تغيرات مفاجئة. للقمة في أي مكان مضهر خط أفقي قرب دمنات : ميّزت فيه 10 بعض بقايا الثلج بجوار فج أزرر وفي صفرو تبدو بقايا خدود Sillons تكاد لا تظهر للعين. يبتدئ الأطلس الصغير بالقرب من المحيط الأطلسي [Nbp]. أين ينتهي ؟ لسنا نعرف. نفترض أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة في الهضاب العليا غرب نهر زيز : علو السلسلة في انخفاض مستمر من دادس إلى الغريس. من هذه النقطة الأخيرة نراه مستمرا في البعد وانخفاض علوه دائم، لا ترى السلسلة أبدا من قرب، لا يُرى إلا سهل شاسع ممتد حتى الأفق في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي. أخمن أن الأطلس الصغير يندثر قبل وصوله إلى جوانب نهر زيز. تستمر الهضاب حيث ينتهي الأطلس الصغير وراء هذا النهر وتسترسل حتى الجزائر.

هذه هي السلسلات الثلاث المكونة للجزء الأساسي لسلسلة الأطلس المغربي الجبلية. بعدها يمكن ذكر سلسلتين أخريين ثانويتين، اتجاهاتهما متوازية للسلسلات الثلاث الأولى : توجد أولى السلسلتين الأخريين الثانويتين — وهي جبل باني — جنوب الأطلس الصغير. وتوجد الأخرى في شمال الأطلس المتوسط — ويبدو أن هضبة أولماس وجبال غياثة أجزاء منها.

جبل باني حاجز ضيق من الصخر العاري، ضعيف العلو يصل 924م، في قسمه الأوسط. يبتدئ جبل باني عند المحيط الأطلسي — جنوب واد نون — ويستمر وراء نهر درعة الذي يخترقه عند مضيق فم تاقات ؛ في سافلة تامكَروت : أين ينتهي باني ؟ لا ندري. يلفظ باني ولا شك أنفاسه الأخيرة، مثله مثل الأطلس الصغير، بين نهري درعة وزيز اخترقنا عدة مرات جبل باني : حادينا سفحه خلال بعض الوقت ولدينا عدة معلومات حول الأجزاء التي لم نزرها منه. يمكن اعتبار الخصائص العامة لهذه السلسلة معروفة بشيء من التدقيق.



واحة تيمنت (منظر مأخوذ من أكادير)

واحة أقا (منظر عام مأخوذ من منحدر شمال شرق قصر الكبّابة)

ليس الأمر كذلك بالنسبة للسلسلة الثانوية الثانية والتي أظن أن أجزاء منها توجد في هضبة أولماس وجبل غياثة : يبدو أن أصل هذه السلسلة موجود بين ألماس والمحيط الأطلسي. قد تمر هذه السلسلة على مسافة ما جنوب صفرو وقد يخترقها نهر سبو عند مضيق وقد تصل حتى منطقة الملوية تحت تسمية جبل غياثة. قد يشق نهر ملوية عبر هذه المنطقة ممرا واسعا شمال سهل تافراتة. تستمر هذه السلسلة الثانوية الثانية حتى بعد هذا بدون انقطاع لتصل إلى منطقة تلمسان عبر أطوار مرج الشوم Mergeshoum وبني بوزكو وزكَاغة وبني سنوس. وقد تنطلق السلسلة غرب ألماس وقد يكون أحد أعلى قممها عند قمة غياثة ويستمر حتى الجزائر. تكسو الجزء الغربي منها، حتى منطقة ملوية، غابات واسعة وتعمرها الحيوانات المتوحشة وتكثر فيها الضباع. وللجهة الغربية من هذه السلسلة أيضا غابات ونفس الحيوانات البرية ولكن بأعداد أقل. أخترق هذه السلسلة عند أراضي أيت يوسي وعبرها السيد عند أراضي بني مكَيلد وقطعتُها شخصياً عند أراضي زيان. علو هذه السلسلة الثانية الثانوية 1290م. عند أولماس و1517م عند دوار سيدي عبد الله.

في هذه السلسلة الواسعة للأطلس المغربي، المكونة من 5 سلاسل متوازية ضمنها 3 سلسلات أساسية وسلسلتان ثانويتان نلاحظ وجود عرف رئيسي هو الأطلس الكبير، المشرف الأول على باقي التضاريس الأخرى. ينطلق من هذا الأطلس الكبير الجزء الأكبر من أنهار المغرب، مثل أنهار ملوية والعبيد وتانسيفت وسوس ودرعة وزيز ونهر كَير. بعد الأطلس الكبير يأتي الأطلس المتوسط. يحتل الثاني من حيث الارتفاعات. يخرج من ابطه نهران هما أم الربيع وسبو. يبقى الأطلس الصغير الأقل علواً ضمن السلسلات الثلاث الأساسية لا تنطلق منه إلا أودية صغيرة Des rivières، أما السلسلتان الثانويتان فلا يخرج منهما مجاري مياه عادية.

تكون هذه السلسلات الثلاث فيما بينها 3 سواقي حيث تسيل جنبا إلى جنب جميع أنهار المغرب :

يجري نهر أم الربيع ونهر سبو بين الأطلس المتوسط وسلسلة ولماس غياثة ؛

ويجري نهر العبيد ونهر ملوية بين الأطلس الكبير والأطلس المتوسط ؛

ويجري نهر سوس ونهر درعة العليا بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير ؛

ويجري نهر درعة — بعد أن يخترق كلا من الأطلس الصغير وجبل باني الأول تلو الآخر — عند نسخ هذا الأخير موازيا لاتجاه الأعراف.

داخل هذه السواقي ؛ تفصل بين الأنهار عند منابعها تارة سهول مستوية السطح — إلى حد أنه يحتاج إلى ميزان الضغط للحصول على خط مفترق المياه — وتارة أخرى تفصل بينها [الأنهار] كتل جبلية :

شمال الأطلس المتوسط، تفصل هضبة غير مستوية السطح Un plateau momtueux — يحمل اسم الفزاز — نهر سبو ونهر أم الربيع ؛

وتفصل الأطلس المتوسط عن الأطلس الكبير — بين نهري ملوية والعبيد — القِمَمُ العالية لجبل العياشي والهضاب العالية جدا التي تنسلخ منه.

بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير ؛ تفصل كتلة جبلية — يشرف عليها جبل سروا — نهر درعة عن نهر سوس ؛

ويفصل بين نهر درعة ونهر زيز سهل واسع ؛

وتمتد أيضا سهول من زيز إلى غير.

هذه هي الكتلة الأطلسية للمغرب، إنها تبدو لي هكذا على الأقل. لابد من عدة أسفار أخرى ومن كثير من الأبحاث لتحديد ماهيتها [طبيعتها] بالتدقيق. سلسلات الأطلس الكبير والصغير وباني معروفة نسبيا لكن كتلة الأطلس المتوسط وكتلة أولماس — غياثة معروفتان بطريقة أقل تأكيدا.

IV

من تيكيرت إلى تيسنت

1 ــ من تيكيرت إلى تازناخت

ص 103   25 أكتوبر 1883

الذهاب في الساعة 9 صباحا. ادخل مباشرة في قفار واسعة تمتد بين مجاري المياه الثلاثة لإدرمي وأيت تيكَدي أوُشّن تازناخت، تُزَرْكِشُها على فترات طويلة واحات صغيرة، ولا يتغير مظهرها في أي مكان : إنه مجال صخري وممرات جد صعبة تنعدم بها الحياة النباتية ولا توجد كائنات حية غير الظبي. السطح من صخور وحجارة : حث ذو المظهر الأسود واللامع الذي يبدو كما لو كان محروقا، كما لو صبغ بالقطران. تهيمن هذه الحجارة التي سأراها من هنا حتى تازناخت في جميع أنحاء الجنوب. سأجدها في السهول على شكل حجارات صغيرة سوداء ولامعة : إنه نوع من فِلس «Ecaille» تغطي السطح.

توجد هذه الحجارة اللامعة السوداء على شكلين في مناطق الجبال كما هو الأمر هنا : تكون تارة على شكل سلاليم درجاتها مسودة ومتقطعة ؛ وهي في هذه الحالة عبارة عن أكمة من حجارة سوداء متكدسة، وتكون تارة على شكل مصطبات طويلة متصلة وملساء، وهذه حالة القفار المتوحشة حيث أسير. إنها تجعل المرء يفكر في القفار السوداء التي وجدها، في جهة أخرى، **S. Paulinus** بجوار الأطلس الكبير. وصلتُ واحة إغلِسْ في الساعة 4 و30 دقيقة. سأقضي الليل بهذه الواحة.

لم تكن طريق اليوم من الطرق الأكثر أمنا : رافقني أخ الشيخ محمد، شيخ تازناخت، بمعية رجلين من أصحابه حتى وصولي إلى تاكَنْزلَتْ. هنا، تخلى عني أخ الشيخ موصيا بي شخصين من رجال هذا القصر : قادني هذان الأخيران إلى إغلس. لم نصادف إنسياً على طول الطريق. لم أصادف ولو مجرى مائيا واحدا خلال السير.

تاكَنزلت، حيث توقفتُ نصف ساعة، هو موضع Localité مستقل، يدبر شؤونه بنفسه لكنه يعترف بسيادة شيخ تيكيرت. يوجد به 50 مسكنا تقريبا. شيدت المساكن من مقدار المكان ومسور. توجد بجواره بساتين كبيرة وجميلة يحتل النخيل فيها المرتبة الأولى. وتوجد به أيضا أشجار الرمان والتين والرجراج وتنتشر المزروعات تحت ظلال الأشجار. توجد الواحة في واد عقيق Vallon ابطه الغربي في هذا المكان حاجز مستقيم وبه مداخل 10 كهوف لا يوجد ولو جدول ماء واحد ولا يوجد أي مصدر ماء آخر غير مياه ينبوع.

سبق أن قلنا إن تاكَنزلت مسورة بجدرانٍ. إنها خاصية أراها لأول مرة ويجب إثارة الانتباه إليها. إنها تبرزُ تغيراً في مظهر المداشر : حتى هنا كانت المداشر كلها غير مسورة، من الآن وفي اتجاه الجنوب، أكثرية المداشر محصنة. انطلاقا من يومنا هذا، علينا أن نقوم بتمييز يجب التأكيد عليه، نسمي قصرا كل مركز سكني محصن ونحتفظ بتسمية مدشر للمراكز السكنية غير المحصنة. تدافع عن القصور ــ تارة ــ جدران تلُفّ المساكن. في هذه الحالة، تكون الجدران عادة مجهزة بأبراج تدافع عن القصور، تارة أخرى، أسوار المساكن المتصلة بعضها بالبعض فلا تترك ممراً للدخول إلى القصر إلا عن طريق باب واحدة أو بابين ضيقين : تكوّن هذه الجدران نفسها في هذه الحالة سور القصر. مهما كان نوع النظام المعتمد فالقصور ــ جد ــ متجمعة في أصغر مجال ممكن، وضعية القصور هذه هي نقيض حالة المداشير.

إغلسن قصر جميل غني ومزدهر. ساكنته 500 نسمة تقريبا. إنه جيد البناء. لا توجد به خرائب ولا مساكن في حالة رديئة. جميع المنشآت حديثة الإنجاز، كل ما به نظيف وحسن الصيانة أسس المنازل من حجارة، هذه الأخيرة حجارة منحوتة في كثير من الأحيان ودائما مسومة بطريقة منتظمة. الجدران من مقدار وتتوج المسالك سطوح مستندة على أعمدة طويلة من خشب النخيل. توصل ميازب Gouttières محفورة على طول الحائط الماء إلى الخزانات. يحمي القصر سور مجهز بأبراج، وتغطي السور ناتئات Moulres ورسوم أنجزت بالجير. توجد على هذا الحال أيضا جميع بنايات القصر.

البساتين رائعة : هناك أشجار متنوعة كما هو الأمر في تاكَنزلت، إلا أن النخيل أكثر عددا. يغيب وجه الأرض تحت ظلال الأشجار وجه الأرض هذا مقسم

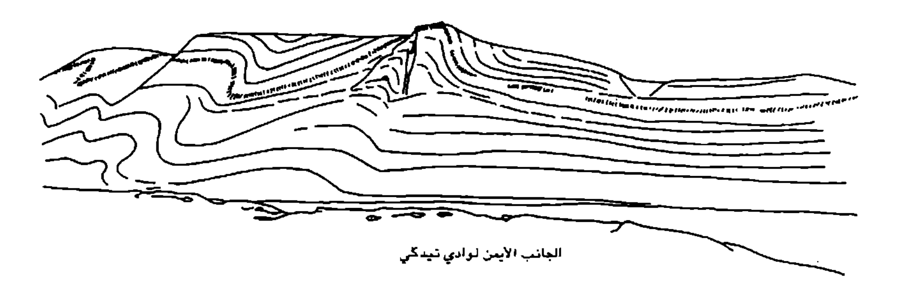
إلى قطع مربعة الشكل. تنبت الذرة والدخن Millet والخضر تحت ظلال الأشجار. تسقي عدة سواقي هذه المغروسات الغنية. وتوجد، إضافة إلى السواقي، هنا وهناك، أحواض مبنية مملوءة عن أخرها Bords ماء عذبا. هذه الحياة النباتية الوافرة، هذه الأشجار الرائعة التي تنشر ظلالا كثيفة فوق وجه أرض كله أخضر، هذه القنوات المتعددة، هذه السماء الباهرة، هذه الطبيعة الغنية والغناء والتي تجعل من هذه الإقامة دار النعيم Lieu de délices، وسط المنطقة الأكثر توحشا، كل ما تقدم ذكره أشياء سنجدها بنفس الوفرة في الواحات الأخرى، هذه هي أغلس، هكذا ستكون الأماكن حيث سنرى النخيل ينمو : في جميع هذه الأماكن نفس الطراوة ونفس السكينة ونفس الرخاء، إنها أماكن ساحرة حيث يبدو أنه لا يمكن أن يسكنها إلا السعداء.

على مسافة قليلة من أغلس يوجد قصر أصغر منه اسمه تَمَيُسَتَ. إنه أيضا محاط بالنخيل. يكوّن تميست مع أغلس مجموعة سكنية منعزلة ومستقلة والمعروفة عموما تحت اسم اغلس. سكان اغلس من سلالة تمزغت. إنهم خليط من بربر الشلحة والحراطين. تنتج كل من أغلس وتميست وتاكَنزلت تموراً ذات جودة ممتازة.

26 أكتوبر

الذهاب في الساعة 8 و30 دقيقة عند الانطلاقة، يتكون خفري من رجلين يحملان بندقيتين. يضاف إليهما مسلحان آخران عند البرج : هذان الزطاطان الجديدان ضروريان لحمايتي عبر أراضي تيكَدي أوشن، أسير حتى الساعة 10، في منطقة وعرة وخالية شبيهة بالتي وجدت بها البارحة. دخلت في الساعة 10 وادي نهر أيت تيكَدي أوشن : يحتل سرير هذا المجرى المائي كل القعر من الوادي الذي يقارب عرضه 60م السرير من ماء صافي وذي تيار سريع، عرضه 4م Filet d'eau من الرمال في وسطه رقارق والدفى، تارة متجمعة Tamarix وعمقه 15 سم تنبت على جانبي الوادي الطرفاء وتارة متفرقة ابط الوادي من صخور خالصة حث ذو مظهر أسود ولامع، علو هذه الإبط ما بين 80 و100م منحدراتها صعبة عند قدم الإبط ومستقيمة عند الاقتراب من القمة ولا تبدو عليها أي آثار للحياة النباتية. ادخل قعر هذا الوادي ولن أغادره إلا عند تَغنَنْتُ. لا يتغير الوادي من هنا حتى أصل إلى هناك وكل ما يحدث أن الماء يقل كلما تقدمنا سيرا، لا يوجد ماء في سرير الواد عند تفننت. تبقى الإبط كما كانت عليه عند

ص 105



الجانب الايمن لوادي تيدكي

البداية. ينمحي الإبط الأيسر عند تفننت ويسترسل الابط الأيمن على مد البصر. يحتفظ القعر بنفس العرض في جميع نقطه ويحتفظ أيضا بنفس المظهر. يتسع القعر وتكسوه المزروعات خلال فترة فقط على مقربة من مدشر البرج وعلى مقربة من تِسْلِتْ. من تفننت إلى تازناخت عبرت هضبة محجرة وخالية وهذه الهضبة هي نهاية الكتلة الممتدة بين مجاري مياه ادرمي وأيت تيكَدي أوشن وتازناخت. في الساعة 3 و30 دقيقة مساء وصلت قرية تازناخت الكبيرة.

قليل من المسافرين في طريقي، لم أصادف خلال النهار كله إلا 3 قوافل صغيرة، دخل أحد رؤساء إحداها في نقاش طويل مع رجال خفري : كان هذا الرئيس يريد نهبي وكان يقترح على رجال خفري لتحقيق فعلته مشاركته مقابل نصف الغنيمة : أليس هذا أنفع بالنسبة لرجال الخفر بدل الاستمرار في هذا العمل الحقير ألا وهو حماية يهودي ؟ رفض رجال الخفر عرض الرجل، إذ كان لرجال الخفر أفكار مسبقة حول هذا الرئيس. فلم يتراجع هذا الأخير عن استعمال أية كلمة ليعبر لهم أنه كان يجدهم أغبياء. إضافة إلى واد أيت تيكَدي أوشّن عبرت مجريي ماء آخرين هما اغلس «سرير من حصى عرضه 15م، جاف» وواد تازناخت «سرير نصفه من حصى ونصفه الآخر من الرمال، عرضه 50م جاف». وجدت عدة مراكز مأهولة عبر طريقي، يتكون تجَنْطط من مسكنين أو 3 مساكن حول قبة، وشيد البرج وهو قصر كبير وجميل على تل في موقع رائع تحيط به البساتين، ويتكون تِسلِت من مجموعة قصرين صغيرين شيدا على بعد 500م أحدهما عن الآخر وتحيط بهما الروضات Vergers، وتفننت وهو مدشر جميل من 40 كانون تقريبا. لم أر اليوم أشجار نخيل : لقد توارى النخيل مع إغلس. ولن أرى النخيل من الآن إلا بعد الوصول إلى السفح الجنوبي من الأطلس الصغير.

106

تنتمي كل من البرج وتسلت وتفننت إلى قبيلة أيت تيكَدي أوشّن، وهي قبيلة

مستقلة منعزلة، لا تعترف بسيادة أي أحد وغير منتمية إلى أي كنفدرالية. تنظيم أيت أوشن ديمقراطي.

2 ــ إقامة في تازناخت

يعرف مدشر تازناخت الكبير أيضا بأسماء تَزْنك وآيت وُزَنِف ودار الزِّنفي وخميس أيت عامر. هذا المدشر عاصمة دولة. تتكون هذه الأخيرة من عدة قبائل متجمعة تحت سلطة رئيس واحد دون أن تحمل جميع هذه القبائل اسما واحدا يطلق عليها عموماً. كانت تحمل فيما مضى اسم أكثرية القبائل والمقاطعات المجاورة لها من أيت تيكَدي أوشّن وأيت وبيال وأيت سليمان وتازناخت وتَسْلَه واغلس وتمّازن وقبائل أخرى هي فخدات لقبيلة أيت عمر الكبيرة والعتيقة، إلا أن هذا الاسم قد اندثر : حاليا لكل فرع من القبيلة اسمه الخاص به ولا يحمل أي اسم آخر غيره، واحتفظ فرع واحد فقط بالتسمية الأصلية جاعلا منه اسمه الخاص : إنه فرع القبيلة الموجود على جوانب واد تِمْجِجتْ.

كان أصل سلالة أيت عامر عائلة واحدة، حسب ما يروى، وهي العائلة التي اتخذ رؤساؤها لقب أيت وُزَنف. احتفظ هؤلاء بالصدارة التي كانت لهم في البداية : منذ زمن سحيق كان لهم أولوية السلطة. مهْدُ هذه العائلة العتيقة هو وادي نهر تازناخت ويسمى أيضا واد وزنف. ممثلو هذه العائلة حالياً هما الاخوان الشيخ حامد بن الشيخ محمد والشيخ عبد الواحد. يسير كلاهما منطقة نفوذهما بوئام. مقرهما مدشر تازناخت. تتكون مناطق نفوذهما الخاصة من أراضي تازناخت وأيت عماره وقبيلة أيت عامر. تعرف هذه المجموعة تحت تسمية أحد العناصر المكونة لها أو تحت اسم أحد رؤسائها : تسمى إما بلاد أيت عامر وإما بلاد تازناخت وإما بلاد الزنفي. ويتوفر السكان على 1200 بندقية. إضافة إلى هذا، انضم إلى سلطتهم بطريقة حبية كل من تمازن وأيت سمكَان وأيت توايا وجزء من أيت زينب «إمزُرن، تدُله، تيزكَزاون وتاسُلمانت» ومقاطعة آلوكَم وأيت أوحمِدي و4 قرى : تليت وتسله وبعض القصور المنعزلة.

لا تمثل سلطة الأخوين عبئا ثقيلا بالنسبة للخاضعين لسلطتهما : تتجسد هذه

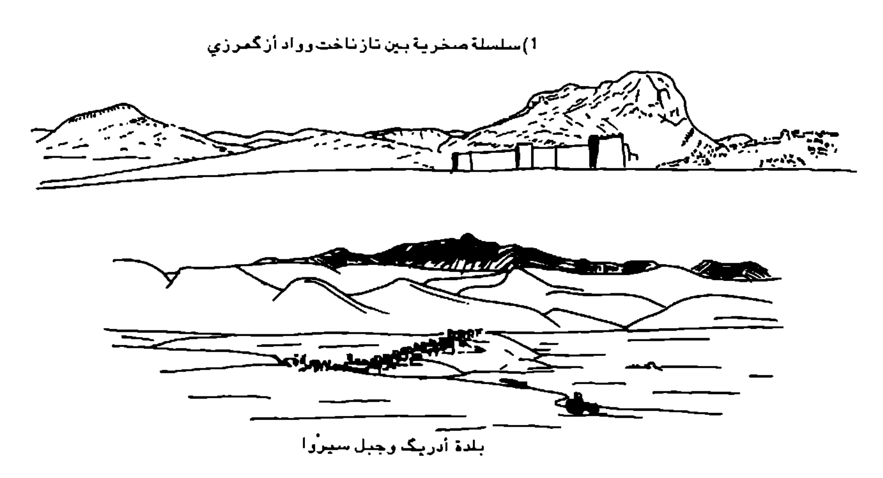
الأخيرة في المشاركة في العمليات العسكرية خلال النزاعات القبلية وفي اتاوة سنوية قدرها فرنكان لكل حامل بندقية، هذا كل ما يطالب به الشيخان السكان. ويبقى أن الكثير من المستحقين معفون من هذه الضرائب : البعض نظرا لقرابتهم من الشيخين، والآخرون اعتبارا لصفتهم مرابطين.

107

أهل الزنفي مستقلون، كما سبق القول. إنهم عادة على علاقات طيبة مع قايد تلوات، كان يزوره أحد الأخوين تقريبا خلال السنين الماضية وحتى السنة الحالية. كان يحمل له هدية قيمتها 500 أو 700 فرنك. هذه العلاقات الطيبة هي الآن على وشك الانتهاء : منذ بضعة أيام، تسلم الشيخ عبد الواحد، الذي يسير الأمور تقريبا بمفرده نظرا لتقدم السن بأخيه، تسلم رسايئل من مراكش بعث بها يهود من تازناخت هم حاليا بالمدينة المذكورة. تنصح هذا الرسائل الشيخ عبد الواحد بعدم الذهاب عند الاكَلاوي، كما جرت العادة؛ ذلك أن الاكلاوي توصل بأمر الزج بالشيخ عبد الواحد في السجن بمناسبة أول سفر له إلى إمَوْنِنْ. يبدو أن هذا الإشعار الطوعي لا ينتظر من ورائه أي طائل وأنه وارد من مصدر حسن الاطلاع. زد على هذا أنه لا يحتوي على أي شيء يُستغرب. ألم يحدث، ومراراً، أن قدم قواد مستقلون إلى مدن المخزن، وهم مطمئنون لصداقة السلطان، وكانوا في بعض الأحيان في ضيافته، فسجنوا في هذه المدن بغتَة واحتفظ بهم في السجن إلى أن أدوا فديات ضخمة ؟ كان يتعلق الأمر بمجرد عملية مالية. ويتعلق الأمر بنفس الشيء هنا : يريد مولاي الحسن أن يسجن الشيخ عبد الواحد : هل لضم مناطق الشيخ إلى بلاد المخزن ؟ لا يتعلق الأمر بتاتا بهذا الافتراض الأخير : يقصد مولاي الحسن انتزاع جزء من ثروات الشيخ التي يقال إنها هائلة. فالزنفي مشهور بالثروات التي يملكها والمخزونة تحت أرض منزله، حسب ما يقال : قد لا تكون هنا إلا أكمات من ذهب ومجوهرات وأسلحة عجيبة، يحسب الناس الزنفي اغني رجل في الامبراطورية. إنه مالك للمجوهرات العتيقة وأشياء ثمينة من كل الأصناف ويأتي بعد الزنفي الحسين ولد هاشم مرابط تزرولت وفي المرتبة الثالثة القايد الكندافي الشهير. إضافة إلى هذه الثروات، لشيوخ تازناخت أراضي فلاحية شاسعة داخل منطقة نفوذهم وعند قبيلة مزكَطه وعند قبيلة آيت زينب. إن في كل هذا ما يثير جشع مولاي الحسن المشهور. لكن هذه المرة الغدر الذي يفكر فيه مولاي الحسن لن تكون له نتيجة أخرى غير تحطيم آخر رباط بينه وبين آيت أزنف،

لا يمكن لمولاي الحسن التفكير في الهجوم عليهم علانية، فحتى في الفترة التي كانت العلاقات فيها على أحسن ما يرام مع تازناخت لم يتجرأ قايد تلوات على زيارتها. فكيف يمكن أن تجري الأمور اليوم ؟ قد يحتاج الأمر إلى السلطان وجميع جيوشه. زد على هذا فإن السلطان سيلاقي مقاومة جدية ذلك أنه تربط أيت وزنف وعائلة مزكَطة المستقلة عدة أحلاف : قد يجد شيخا تازناخت في هذه الأحلاف سندا قويا ولديهما سند آخر في شخص الأزدفي، الشيخ الوراثي لقبيلة زناكَة القوية. ولو أنها في شجار مع الأزدفي منذ عدة سنوات فإن آيت وزنف عرضت عليه السلم. وفعلا تحقق هذا السلم في الأيام الأخيرة. وقد متنت زيارة الأزدفي، والتي جرت خلال فترة مقامي بينهم نفسها، هذه المعاهدة : هي للأزدفي استقبال فخم وأصبح أعداء الأمس حلفاء. يقال إن الأخبار الواردة من مراكش ليست بعيدة عن هذا التصالح المفاجئ.

1) سلسلة صخرية بين تازناخت وواد أزكمرزي

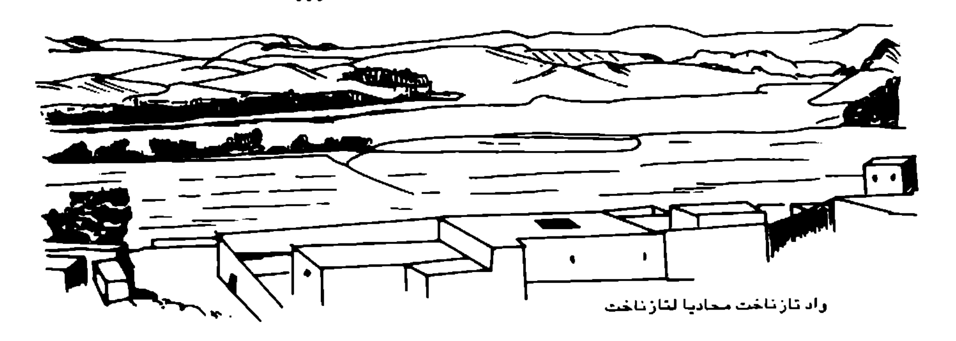


بلدة أدريگ وجبل سيرْوا

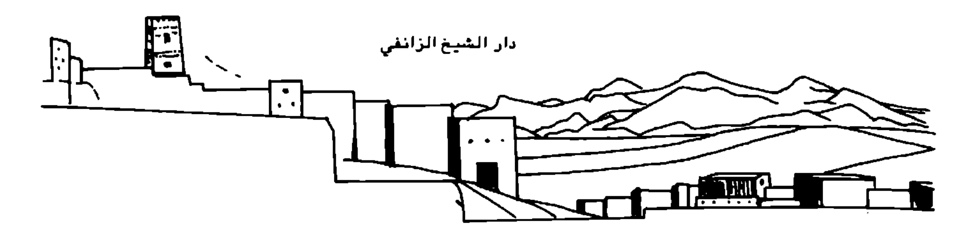
ص 108 **تازناخت** مدشر كبير بني في مكان حزين : تمتد شمالا، على طول البصر المناطق الخالية المحجرة التي يخترقها طريق تيكَرت، وتغلق الأفق شرقا وجنوبا كتلة وعرة من صخور سوداء ولامعة وهي الكتلة التي تستند إليها تازناخت، وفي اتجاه الغرب يصبح المنظر أقل كآبة، إذ يكتشف المرء من هذا الجانب جزءا من سهل زناكَة ومن ورائه قمة جبل سروه العالية البيضاء منتصبة على قمة من جبال رمادية. عند قدم تازناخت، يكاد يكون سرير المجرى المائي الذي يحمل نفس الإسم جافا دائما. هذه السنة، خلال وجودي في المنطقة، سالت فيه فرشة مائية من 10م

عرضا مدة 24 ساعة : كانت فرحة عامة والتنبؤ بمحصول زراعي جيد، ذلك أنه لم ير الماء في الوادي منذ 4 سنوات خلت، وعرفت المنطقة المجاعة.

بني المدشر على طول الضفة اليمنى للواد، أكثرية المساكن من مقدار ؛ مهدمة. ينتصب في اتجاه وسط المدشر مسكن الشيخ. إنه فسيح لكنه عادي ولا يذكر في شيء بالبنايات الأنيقة لواد إونل وإغلس : انمحى هذا النوع من البنايات كلما ابتعدنا عن درعة. مظهر تازناخت حزين، لا يرى المرء إلا دورا مهدمة جزئيا وقطعا من جدران متساقطة وتحتل الأضلاع 2/3 مساحة المدشر على الأقل. إنها نتيجة المجاعة : أدت 4 سنوات من الجفاف إلى هذه النتيجة. كانت تعيش هنا خلال السنوات الأربع الماضية 300 عائلة نصفها مسلمون ونصفها الآخر يهود. كانت تجارة مزدهرة تحمل الثروة إلى تازناخت. سوق الخميس مشهور عبر الصحراء كلها وكان موعد جميع القبائل المجاورة للقبيلة : كان الناس يقدمون إليه جماعات من سوس ودرعة وتلوات وحتى من أراضي إدا وبلال، منذ 4 سنوات لا ماء ولا محاصيل فلاحية. استنفدت مصادر المداخيل ونقصت المدخرات فأصبحت الحاجة إلى الهجرة حيث نزح نصف السكان عن المدشر. ينحصر اليوم عدد سكان المدشر في 80 عائلة مسلمة و55 عائلة يهودية. استقر التقهقر في أي مكان من المدشر فأصبحت التجارة منعدمة تقريبا، والسوق الذي كان فيما مضى كثير الحركة أصبح خاليا. إنه عوز الحبوب في القبائل المجاورة وخاصة قلة الحبوب عند قبيلة زناكة هو الذي تسبب في هذه الكارثة ذلك إنه لم تتمكن تازناخت في أي يوم من الأيام من الاكتفاء الذاتي. رأينا أن الأرض المجاورة لتازناخت صخرية إضافة إلى هذا فإنها قليلة الأمطار : يعيش المدشر على مياه الينابيع. هذا الماء جيد ولا يجف طول السنة إلا أنه إن كان يكفي لسد حاجيات



واد تازناخت محاديا لتازناخت



السكان اليومية العادية فإنه غير كاف لري استغلاليات المنطقة، لذا فالمزروعات قليلة. تمتد على طول الواد مزروعات نحيفة من ذرة وقرع وبصل ووسط هذه المزروعات بعض باقات من الرجراج متناثرة جدا، وهنا وهناك بعض أشجار التين والسفرجل. هذا كل ما يرى في تازناخت من نبات. المناخ جاف حسب ما قيل لي : إنه شديد الحرارة صيفا ومعتدل شتاء، ويسقط الثلج في بعض الأحيان إلا أنه يذوب عندما يلمس الأرض.

لتازناخت سوق مشهور. تعطيه وضعيته المحورية بين سوس ودرعة وتلوات أهمية كبرى. يحمل إليه أهل سوس كل يوم خميس زيوت منطقتهم وأهل درعة تمورهم وأهالي اكَلاوه حبوبهم. هنا يقع تبادل المنتوجات المختلفة. تحمل التمور في اتجاه الغرب والشمال وتأخذ الزيوت والحبوب طريق الجنوب والشرق. لسكان تازناخت علاقات دائمة مع المغرب. تتجه إليه قوافلها محملة بالجلود والجوز والثمور وتعود منه محملة بثياب من القطن والسكر والشاي وعود الثقاب إلخ... تخزَّن هذه البضائع وتعرض يوم السوق. تزدهر بالبليدة صناعة الخنفان «م. أخنيف». ص 110

تازناخت موطن الخنيف. يوفر نسجه وتطريزه الشغل لجميع ساكنة البليدة تقريبا. حاليا، تعرف تازناخت تراجع تجارتها رغم تباين مواد التبادل. لازالت القبائل المجاورة لها تأتي لتتزود عندها من المواد الأوربية الصنع ويحمل إليها أهل زناكَه دائما منتوجاتهم من الصوف والحبوب. لكن قوافل سوس ومزكَطه وكَلاوة، الكثيرة العدد فيما مضى، نادرة حاليا وذات أهمية ضعيفة. ولم يعد سكان واحات الجنوب يقصدون تازناخت بتاتا. لا يتعدى عدد من هم من قبائل مجاورة 60 شخصا في السوق في بعض الأوقات. وتنذر الزيت نفسها في تازناخت في كثير من الأوقات فيضطر السكان، للإنارة إلى إحراق الشحوم بمشقة أو إلى إضرام النار في قبضة من أعشاب جافة. حاليا، المنطقة فقيرة جدا. الخيول والبغال

نادرة وتعتبر من الرفاهيات. وما ليس بالمنطقة إلا قليل من الأبقار وليس بها جمال ولا توجد إلا بعض الحمير، وكذلك الشأن بالنسبة للأغنام والمعز.

فيما يخص النظام الغذائي، ادخل هنا في منطقة جديدة. حتى الآن، كان يتغذى الفقراء على دقيق الشعير ولكن كل ذي يسر كان يتغذى على دقيق القمح. انطلاقا من هنا لا يرى القمح بتاتا ولا يعرف جميع السكان إلا الشعير باستثناء الشيوخ، الشعير أساس الخبز وكسكس الأيام كلها والزميته التي «ص. 110» يحملها معه المسافر.

الملابس هي نفس الملابس التي توجد عند آيت زينب. لكن هنا لن أجد مثل هذه البرانيس إلا عند أفراد قبيلة مزكَيطة.

الساكنة شلحة وضمنها بعض الحراطين هؤلاء أقل عددا مما هم عليه في تيكَرت. لا يتكلم الناس إلا الأمازيغية : من بين 7 أشخاص قد لا نجد شخصا واحدا يعرف اللغة العربية ولا امرأة تتكلم هذه اللغة ولا يستعملها اليهود أنفسهم بينهم بصفة عادية.

3 ــ من تازناخت إلى تيسنت

فيما مضى، كان الذهاب من تازناخت إلى تيسنت أمرا هينا لما كان ناس إدا وبلال يأتون كل يوم خميس إلى هنا بمناسبة السوق. كان من الممكن كراء خدمات خفر من بينهم.

حاليا لا يمكن سلوك الطريق، حيث تعيث جماعات النهب من القبيلة، إلا تحت رعاية أفرادها أو صحبة أجانب يحترمهم إدا وبلال. اليوم لا علاقة لتازناخت مع الصحراء لذا فلا يمكن انتظار وصول أناس من إدا وبلال قصد الحصول على خدمات بعضهم خلال السفر. عليّ إذن أن أبحث عن رجل معروف ومحترم من طرف رجال الجنوب يوفر خدمات الزطاط. يتوفر الزنفي والأزدفي على هذه الشروط وقد يمكنهم إيصالي إلى مقصدي في أمان لكن نُصحتُ بعدم التوجه إلى هؤلاء السادات. قيل لي : إن وجدوكم فقيراً فلن يصاحبوكم بتاتا لأنهم لا يجدون في هذا مبتغاهم. وبالعكس إن ظنوكم غنيا أكلوكم. أنت وما معك خلال

الطريق لذلك يكون قبول العناية أكثر منفعة لهم. إنه لمن الطيش أن يوكل المرء أمره إلى الملوك «من هم أقوى منه» لأن وضعيتهم العالية تجعلهم أكثر مما ينبغي فوق الكل. لا يبالون إن اعتبروا أوفياء أو بدون أخلاق ! لذا يجب اعتماد زطاط قوي إلى حد ما حتى يجعل الآخرين يحترمون عنايته ولكن ليس قويا بالقدر الذي يجعله لا يفكر في الاحتفاظ بسمعة نقية.

بعد 15 يوما من البحث، وجدت رجلا يضيف إلى هذين الشرطين توفره على علاقات في الجنوب تمكنه من الذهاب إليه دون التعرض إلى كثير من الأخطار. إنه يحمل أيضا لقب شيخ. ليست بتاتا هذه التسمية هنا عبارة تدل على مسؤول مؤقت لمدشر أو لقصر. إنه لقب نادر ومحترم ووراثي ولا يمتلكه إلا رؤساء بعض العائلات وحدهم أمثال الزنفي والمزكَيطي وبن عثمان والأزدفي وأخيرا زطاطي — الشيخ محمد وعزيز ولد الشيخ لحسن. إلا أن هذا الأخير أمير دو مجد آفل، لذا يمكن الاطمئنان إليه. رئيس عائلة ذات سيادة من زناكَة، فإنه كان فيما مضي يتقاسم السلطة في هذه القبيلة مع الأزدفي.

وقعت نزاعات طويلة بين العائلتين المتخاصمتين انتهت بتقويض سمعة الشيخ محمد وعزيز : هُدم قصره واضطر الشيخ إلى البحث عن ملجإ خارج أراضيه. في هذه الظروف جاء ليستقر في تازناخت. إنه اليوم أحد رجال تازناخت الأكثر اعتبارا وقد اكتسب فيها سمعة وشجاعة كبيرة. هل هناك حملة للقتال ؟ فإنه يوجد دائما مع الشيخ عبد الواحد وفي الطليعة. كان لعائلته علاقات قديمة مع قبائل الجنوب وتربطه علاقات الدم بعدد كبير منها ولازال ينمي هذه العلاقات. كل هذا سيمكنه من الدفاع عني أحسن من أي شخص آخر. ذلكم هو الشخص الذي سيقودني : فما علي إلا أن أكون راضيا عنه.

12 نونبر :

الذهاب في الساعة 10 و30 دقيقة يخفرني الشيخ محمد، ممتطيا فرسا جميلا، واثنان من عبيده، بعدما طفنا بالكتلة الجبلية التي تتكئ عليها تازناخت عبر طريق محجر، دخلت في سهل شاسع يكوّن شماله أراضي أيت عامر واجزاؤه الوسطى والجنوبية أملاك زناكَة. شمالا، تحد هذا السهل المنحدرات الأولى للقفار Déserts الوعرة الممتدة بين وادي ادرمي وتازناخت، ويحده شرقا وغربا وجنوبا حدور

ص 112

من حث شبيه بالحدور الذي يكون الإبط الأيمن لواد أيت تيكَدي أوشّن : نفس التكوين الصخري، نفس المنحدر نفس العلو الذي يصل 80-100م. في اتجاه الجنوب، قمة هذا الحدور هي ذروة الأطلس الصغير نفسها، وفي اتجاه الغرب إنه الدرجة الأولى لجبل سروا والذي تشرف قمته العليا على المنطقة كلها [منطقة : في كثير من الأحيان استعملت كمرادف لمفهوم صُقعْ = Contrée]. في الشمال، يميز المرء بعيداً خطا طويلا أبيض اللون : إنه الأطلس الكبير. ليس على سطح السهل ولو تموج واحد. إنه مستوي كوجه المرآة. في البداية صخور تكسوها قشرة رقيقة من الرمال. كلما تقدمنا نحو الجنوب نلاحظ زيادة سمك هذه القشرة بسرعة. فيما وراء واد تمججت ما السطح إلا رمال يتخللها شيء من الحصى Gravier. تبدو المغروسات. انطلاقاً من واد تِوْيِّيْنْ يكاد يصادف المرء بعض الحجارة فقط من مكان إلى مكان آخر. تكسو المزروعات الأرض وتنتشر المداشر، وأخيراً، جنوب تازناخت، لاصخور على الإطلاق. كل ما هناك رمال خالصة ولا ترى إلا الحقول من جميع الجهات. بإيجاز : إنه سهل غني جدا. التربة ذات خصوبة مبهرة : جزء منها فقط مزروع وتتغذى جميع القبائل المجاورة من محصوله. السهل قابل للحرث بأجمعه ولا ينقص إلا الماء لتحقيق هذا العمل. هذه الأرض الجيدة لا تتوصل إلا بقليل ما الأمطار. بها أسرة عدد كبير من الجداول والأنهار إلا أن هذه الأسرة كلها تقريبا جافة : لابد من الماء لإخصاب الأرض. في الأجزاء غير المزروعة ينبت الصعتر فقط في هذا الفصل من السنة. عند مروري للمرة الثانية بالمنطقة خلال فصل الربيع سأجد نفس الأماكن تكسوها سبولت الفار. وأعشاب أخرى تصلح لتغذية القطعان. هذه حال السهل حيث أسير اليوم. كلما تقدمت سيرا صار مظهره بشوشا. انطلاقا من تَمدَوُزْكَزْ لا يرى في كل جهة إلا العمال في الحقول : لقد سقطت الأمطار خلال عدة أيام. إنها الغلة الجيدة المؤكدة هذه السنة ولذا كل يحرث الناس أكثر ما يستطيعونه ويبذرون على عجالة قصد الاستفادة من سنة الإزدهار هذه التي تأتي بعد 4 سنوات من المجاعة. في الساعة 4 وصلت إلى تمرفت، وهو مدشر كبير حيث سأقضي الليل.

لا يوجد مسافرون آخرون في الطريق غيرنا. قطعت نهرين : واد تمججت «عند النقطة حيث قطعته يسيل في منخفض عرضه كيلومتر واحد، علو المنخفض بضعة

أمتار فوق مستوى سطح السهل، سرير من حمإ Vase عرضه 30 ويتلوي وسطه متران من الماء الصافي والجاري» وواد أزكَمرزي «يسيل عند سافلة تمدوزكَز، في منخفض عرضه 300م. وبضعة أمتار عمقا، في عالية هذا المكان سرير النهر على مستوى السهل، عرضه 30م، قعر من رمال به متران من ماء جاري، ضفاف تحفها الطرفاء». مختلف الأماكن المأهولة التي صادفناها من أسرسه إلى تَمَرُفت هي مداشر من مقدار أبيض، اسمهم العائلي، إداو القايد، آتٍ من كون أحد أجدادهم، فيما مضى، كان قد حصل على لقب القايد من طرف أحد السلاطين. من هو هذا السلطان ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال. متى حدث ذلك ؟ لا علم لأحد بذلك أيضا. كل ما يعرف أنه منذ زمن سحيق وهذه العائلة تبسط سلطتها على زناكَة. تمتد سلطتها بعيدا وقد ارغمت عدة قبائل وعدة مقاطعات على الاعتراف بسلطتها. ومنطقة تلت Tlit خاضعة لها. وكانت هذه حال تسنت فيما مضى إلا أنه منذ 20 سنة مضت تحررت تيسنت من سلطة عائلة الأخوين عنوة. لا حاجة إلى القول إن زناكَة مستقلون وكل ما هو جنوب تازناخت مستقل استقلالا مطلقا. هاكم نكتة تعطيكم نظرة عن نوع علاقات الناس هنا بالمخزن. خلال أبريل 1884، لما كنت مارا للمرة الثانية في هذه النواحي، بين تيزي العين وتازناخت، صادفت الشيخ حدو الأزدفي راجعا من تازناخت حيث كان قضى بضعة أيام في زيارة عند الزنفي. كان زطاطي أحد عبيد سيدي حميد وعبد الرحمان مرابط أيت عمر مقدم زاوية سيدي عبد الله ومحند. أوقفنا فرسانُ حاشية الشيخ عند الفج مباشرة لما لحوا مردوشي وأنا، مطالبين بضريبة المرور زطاطة. كان سيدهم قد توقف وهو يشاهد الهرج المرج، هادئ الأعصاب. سألنا أحد رجال السيد عن مصدر مجيئنا

«ـــ من مراكش

ـــ ناس من مراكش، من رعايا السلطان ! صاح الشيخ. يا للمناسبة الطيبة ! يوجد بسجن بلاد المخزن 3 رجال من زناكَة وهؤلاء رهائن أتونا في الوقت المناسب ! خذوهم وسلسلوهم. سيبقون مكبلين حتى يردّ إلينا مولاي الحسن رعايانا».

لما سمع عبد المرابط هذا الكلام تناول لجام فرس الشيخ وأعلن له أنه ؛ سواء

كنا رعايا السلطان أم لم نكن رعاياه فإننا تحت رعاية سيده سيدي حامد وأنه نتيجة لهذا، لا أحد يستطيع أن يؤذينا. تغيرت الأوضاع عند سماع هذه الكلمات :

ــ إلحاق الأذى بمحميي سيدي حامد ! من فكر في هذا ؟

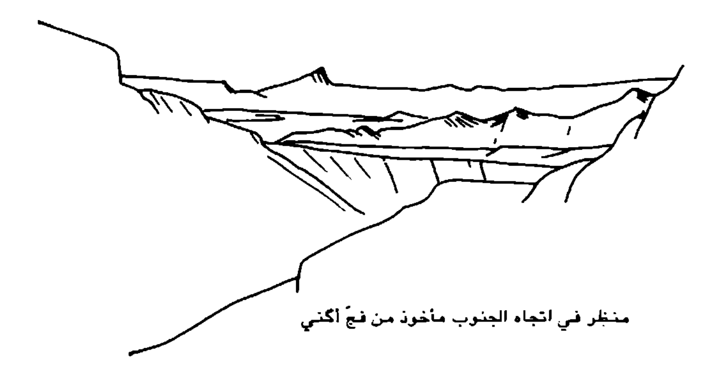
لم يتركونا أحرارا بل فسحوا لنا الطريق للمرور بدون طلب زطاطة. هكذا تظهر حظوة السلطان. إنه يعتبر كرب قبيلة بعيد قد يكون المرء معه في علاقات جد سيئة.

تملك زناكَة قرابة 1700 بندقية وقرابة 20 فارس. يقام على أراضيهم سوق واحد هو سوق أربعاء تاليوين.

13 نونبر

الذهاب في الساعة 7 صباحا. سرنا في البداية في نفس سهل البارحة وهو دائما مسترسل، خصب ومأهول في الساعة 9 و30 دقيقة وجدنا أنفسنا في نهايته الجنوبية عند قدم الحدور الذي يحده. تكون قمة الحدور هنا العرف الأعلى للأطلس الصغير. سنخترقه. ترتسم أمامنا ثغرة عميقة نصعد إليها عن طريق مطلع لين. في الساعة 10 و30 دقيقة وصلنا الفج، فج أكن، وخط ذري Ligne de faite الأطلس الصغير ينفتح شِعب أمام أعيننا ووسط تراكات صخور سوداء : يقفز بالقعر الضيق جدا ماء رقراق عن طريق شلالات عالية. إبط صعبة جدا في كثير من الأحيان على شكل عمودي لا أثر للتربة ولا للحياة النباتية. الكل من صخور، حث أسود لامع. لا ترى العين في اتجاه الجنوب إلا استرسالا غير منقطع لمتون سمراء، هي ابط الوادي الذي يبدأ ينبوعه هنا وأيضا السفح الجنوبي للأطلس الصغير، ثم، فيما وراءه، على بعد مسافة كبيرة، سهلا أبيض، وسلسلة أخيرة من الجبال حادة الأفق تشرف عليها شعفة جبل مائلة إلى الزرقة : إنه جبل باني وجبل تيمزوغ الذي توجد تسنت عند قدمه. بدأنا نهبط إلى سرير الشعب حيث تغوص أبصارنا، طريق صعب عبر صخور الإبط الأيمن : لا يمكن المشي إلا على الأقدام من الفج إلى مدشر أكَني، حيث وصلنا عند الظهر. عند أكَني يصل الدرب قعر الوادي. يتغير مظهر هذا الأخير عند سافلة هذه النقطة : كأن النهر يجري إلى هنا عبر شلالات وكأن انحدار سريره سريعا جدا وكانت الإبط وعرة وفي نفس الوقت ضيقة إلى حد أنني لما وصلت هنا رأيت الوادي لأول مرة منذ غادرت

الفج. انطلاقا من هنا، وعكس ما كانت عليه الأمور، لا توجد شلالات وستبقى الإبط عالية وعرة إلا أن قعر الوادي سيتكون من انحدار لين وسيصبح له بعض الاتساع.



منظر في اتجاه الجنوب مأخوذ من فجّ اكّني

ليس هذا هو التغيير الوحيد الذي كان ينتظرني : لمحت عند الاقتراب من اكَني الفنْزُعَات «م. فنزعة» Panaches الخضر للنخيل، منفصلة في الخلفية السوداء للصخر. تعود للظهور مرة ثانية هذه الفنزعات هنا : يكوّن عرف الأطلس الصغير، عند غرب درعة، النهاية الشمالية للنخيل : إذن أجد النخيل من جديد وسوف تبقى حاضرة في المشهد خلال مدة طويلة. توقفنا عند مدشر اكَني «ص. 115». إنه مجموعة أعشاش Huttes من صخور جافة حيث تعيش 10 أو 12 عائلات من الحراطين في بؤس. لقعر الوادي، مؤقتا، 80م عرضا تكسو هذا القعر المزروعات ويظلله النخيل. يسيل واد اكَنِي وسط الوادي. عرض الوادي 3م. ماء أخضر وجاريا. يعترف الناس بسلطة زناكَة. تنتهي هنا هذه السلطة.

في الساعة 3 و30 دقيقة استأنفنا السير. دخلنا القفار لنبقى فيها حتى نقترب من تيسنت. إننا الآن نسير في سرير النهر. يجف السرير مباشرة منذ مغادرة أكَني ويحتل كل قعر الوادي الذي يصل عرضه 40م تكسو هذا المجال قشرة من الحصى تجعل السير فيه شاقا. لا يوجد غطاء نباتي سوى العناب البري ذي قامة تتراوح ما بين 2 و3م والحبوب Heuboubs قامتها ما بين 1 و2م، نامية عند قدم الإبط. تبقى هذه الإبط كما هي عليه، دائما صخرية، سوداء، عالية ووعرة. نسير ببطء عبر هذا الممر الخالي، سالكين جميع التواءاته. بقي الوادي على هذه الحال خلال 3 ساعات طوال. انفرج الوادي بعض الشيء بعد هذه المدة الزمنية. في الساعة

7 انحدرت الإبط وانمحت : إنها نهاية الأطلس الصغير. لقد وصلت عند قدمه. يمت أمامي سهل شاسع : آه ذلك السهل الذي كان يتجلى للبصر من أعلى الفج. يطلق الناس على هذا السهل إسم الفيجه. إنه قفر واسع يمتد بين الأطلس الصغير وجبل باني. سطح من رمال تام الاستواء، يخده عدد كبير من الأنهار والجداول. ص 116 ليس به نباتات أخرى إلا أشجار السنط Gommiers طولها ما بين 2 و3م. تصبح هذه الأشجار منفرجة كلما ابتعدنا عن المجاري وتوغلنا نحو الجنوب بعد أن كانت كثيرة الأعداد عند قدم الأطلس الصغير وعلى طول مجاري المياه. أرى أشجار السنط هذه للمرة الأولى. كان الليل قد أسدل ظلامه لما دخلنا سهل الفيجة. كان الشيخ محمد قد قدر الأمور هكذا : تكون هذه القفار ـــ التي يجوبها بدون انقطاع قطاع الطريق من إدا وبلال وأولاد يحيى والبرابر ـــ ممرا من أكثر الممرات أخطارا : هل على المرء أن يمر بها ؟ تتخذ إذ ذاك الاحتياطات لاختراقه ليلا حتى يُتَمَكَّنَ من تفادي الكمائن التي ينصبها قطاع الطريق تحت جنح الظلام.

دلفنا إذن إلى هذا القفر، متوجهين مباشرة إلى قمة تيمْزُغ البارز، أسود، أمامنا، وصلنا إلى قدم جبل باني، عند واحة تنزيطه في 10 مساء، وبعد 3 ساعات من سباق سريع. لم يعد هنا أي خطر. نسير الهوينا بين مئات قنوات السقي، بين أشجار نخيل كبيرة ذات مظاهر عجيبة وكانت فنها تكسوها ظلا كثيفا Ses rameaux، وقد اكتسبت لوناً فضياً تحت أشعة القمر. وصلتُ إلى القصر في هذه الظروف. تجلى القصر لي برمته. تجلى بمساكنه من المقدار الأبيض المتدرجة عند قدم جدار الجبل اللامع ذي الصخور المصقولة اللامعة في هذه الليلة الجميلة. يرسل القمر اللامع نورا لطيفا وسط سماء دون غيوم. الهواء دافئ ولا يحركه هبوب الريح. في هذا الصمت العميق، وسط هذه الطبيعة الخلابة، وصلت إلى أول مبيتي في الصحراء. يفهم المرء، في خشوع ليال مثل هذه الليالي، اعتقاد العرب هذا في ليلة عجيبة، ليلة القدر «ها». التي تتفتح خلالها السماء فتنزل الملائكة إلى الأرض وتصير مياه البحر عذبة وكل ما في الطبيعة جامد ينحني ليعبد خالقه.

انطلاقا من تيزي اكَني، لم أصادف أنسيا واحدا خلال الطريق. عبرت بالقرب من تنزيطة عبرت أكَنِي «سرير عرض 20م–8م من الماء، يسيل النهر فوق مستوى سهل الفيجة 20م تقريبا، تحيط النخيل بالضفاف» وواد تنزيطة «40م عرضا،

قعر من رمال، ماء ملح، ما بالسرير إلا 40م ماء، الجزء الأكبر من الماء محول لإرواء المغروسات».

14 نونبر

تنزيطة قصر كبير يسكنه الحراطين. يسيّر شؤونه بنفسه Se gouverne à part ولا يحصى ضمن أي مقاطعة. إلا أنه يعترف بسيادة إدا وبلال كما هو الحال بالنسبة لجميع مراكز الجوار. عرض الوادي 100م، أو بالأحرى تعمق الوادي — الذي شيد بجانبه القصر — هو الذي يصل 100م يحده جنوبا جبل باني وشمالا سهل الفيجة ويوجد في سافلتها على بعد يتراوح ما بين 20 و25م يفصل القصر عن سهل الفيجة حافة تكاد تكون عمودية. قعر الوادي، من رمال بيضاء، مغروس بالنخيل.

ص 117

الذهاب من تنزيطة في الساعة 8 و30 دقيقة. اتبع قعر الوادي. يضيق قعر الوادي شيئا فشيئا ولا يصل عرضه قرب أقا أيت سيدي إلا 200م. لا يتغير مظهر الوادي إذا استثنينا هذا الحدث الأخير : فهو دائما رملي، دائما تحت ظلال النخيل، دائما يفصله عن سهل الفيجة حاجز مستقيم. يسجل تغير مفاجئ عند أقا أيت سيدي ينمحي النخيل ويضيف الوادي فجأة بحيث لا يصير عرضه إلا 40م، أي يوافق هذا العرض المكان حيث يسيل النهر، بينما يغور في نفس الوقت S'enfonce هذا الأخير في خانق. اسم هذا اللضب Défilé فم تسنت. إنه ينفتح في إبط جبل باني فاتحاً مجال المرور لمياه الأطلس الصغير وسهل الفيجة. عرض المرر 150م. إجمالا وينقسم إلى جزئين : الأول هضبة حيث يوجد الطريق،



والثاني أقل ارتفاعا من الأول L'autre, en contre bas du premier، عرضه 40م ويحتله سرير المجرى المائي. تفصل بين هذين الجزئين حافة من1/1 علوها 20–30م. الهضبة، الطريق، الحافة، ما الكل إلا أحجار، كما هي عليه إبط الجبل.

هذه الأخيرة وعرة ومكونة من هذه الضخرة السوداء واللامعة التي أجدها هنا في الجنوب في كثير من الأحيان.

جبل باني ضيق جدا. إنه عرف حاد، شفرة تنتأ من الأرض، رغم كوني عبرته في اتجاه مائل فإنه يتخطى بسرعة **Il est bientôt franchi**، وصلت النهاية الجنوبية للخانق خلال ربع ساعة من السير. هنا تتجلى أمامي واحة تسنت بأكملها. غابة شاسعة من النخيل. مساحة واسعة داكنة تلمع وسطها بقع القصور البيضاء. تحد في البعد تلال قليلة الارتفاع وحافات من الرمال الصفراء مروج الخضرة هذه «Océan de verdure». وعند قدمي يتقدم، بعظمة، النهر النابع من الخانق مليء بماء ازرق وصافي في اتجاه غابات النخيل **Bois de dattiers** حيث أراه يغور ويمنحي. يوجد قصر أكدير الكبير على ضفة النهر اليمنى، عند بداية المغروسات. دخلنا القصر في الساعة 10 صباحا.

خلال هذا السير القصير، عبرت أو رأيت عدة مجاري المياه، واد تنزيطه «سرير نصفه رمل ونصفه الآخر حصيم، عرضه 100م، 8م. ماء، حتى الاتصال بواد أجنن، و200م عرضا و20م ماء عند عالية هذه النقطة»، واد أجنن «لا أراه إلا من بعيد، يحفر واديه عموديا في رمال سهل الفيجة، تحت ظلال النخيل، يبدو شبيها بواد تنزيطه» واد قصبة الجَوَه «سرير نصفه صخور ونصفه الآخر رمل، 20م عرضا، 8م ماء صافيا وجاريا، إنه ماء شروب»، واد تسنت «السرير من رمال، عرضه حيث قطعته 40م، يحتل نصف السرير ماء صاف وجار وعمقه 70سم، هذا الماء مالح كما هو حال ماء واد تنزيطه الذي يكونه جزئيا».

V

إقامة في الصحراء

1 ــ تيسنت

ص 119 بدأت منطقة جديدة بالنسبة إلي عند الوصول إلى تيسنت يختلف كل ما فيها ــ السماء، المنتوجات، السكان، الأزياء ــ عما رأيته قبل هذا اليوم. حتى الآن كنت في أراض جبلية كان لها مناخ ومنتوجات جنوب أوروبا. كان السكان من سلالة الشلوح وكلهم تقريبا كانوا لابسين الصوف الأبيض. حدود هذه الأراضي جبل باني. تطأ قدم المرء عالما جديدا عندما يدخل إلى تسنت بعد المرور بهذه الأراضي. هنا، للمرة الأولى، يمتد البصر نحو الجنوب دون أن يعترضه جبل. الجهة جنوب جبل باني سهل شاسع، تارة أبيض وتارة أخرى رمادي، ناشر على مد البصر قفاره المحجوجرة. يحد هذا السهل خط من زرقه السماء عند الأفق ويفصل السهل عن السماء : إنه حافة الضفة اليسرى لدرعه. انطلاقا من هنا تبدأ الحمدة. ما لهذا السهل المُعَرَّض لحرارة محرقة من حياة نباتية إلا بعض أشجار السنط الداسية وما له تضاريس أخرى سوى مجموعة ضيقة من التلال الصخرية والمتقطعة الملتوية كأجزاء تعابين. توجد بجوار هذا الخلاء الكئيب الواحات وحياتها النباتية الباهرة وغابات نخيلها الدائم الاخضرار وقصورها المليئة رفاهية وثروة. يرى المرء ساكنة كثيرة من رجال ذوي وجوه سوداء : حراطين ذوي لون داكن جدا. يرى المرء هذه الساكنة عاملة في البساتين، أو ممددة بلا مبالاة تحت ظل الأسوار أو جالسة القرفصاء عند أبواب المساكن تتبادل الحديث وتدخن الغليون. أثار انتباهي أولا ملابسهم : كلهم لابسون ثياب قطن زرقاء. هذه الملابس من قماش السودان. أوجد في منطقة ذات مناخ جديد : ليس له فصل شتاء بتاتا. يتم زرع البذور في شهر دجنبر وتجمع الغلات في شهر مارس. ليس الجو باردا أبدا وفوق رأسي سماء دائمة الزرقة تمتد نقية بعناد وحيث لا تتطاير غيوم أبدا.

تيسنت إحدى الواحات الكبرى لصحراء المغرب. توجد في قعر وهدة جوانبها جبل باني من جهة ومن جهة أخرى حزام تلال صخرية عند الجنوب ورملية ص 120 عند الشرق والغرب. وسط هذه الدائرة يمتد سهل من رمال بيضاء : هنا توجد الواحة. إنها غابة من نخيل يخترقها نهر جميل وبها قصور بارزة عند حاشية المغارس.

بنهر تيسنت كثير من الماء خلال جميع فصول السنة. هذا الماء مالح. يفضل الناس شرب مياه الأمطار والتي تحفظ في حُفر بعض صخور الجوار. ليس للسكان صهاريج لحفظ مياه الأمطار. يحتوي النهر على كثير من الأسماك. يصطادون منها ما يصل طوله إلى 40سم. هذه الأسماك وهذه المياه الغنية هي مصدر عدة خرافات. لايشك الناس أن مصدر مياه النهر هو البحر. مرجع رأيهم هذا اعتقاد منتشر في البوادي المغربية. يقول هذا الاعتقاد أن مياه الأنهار والجداول والينابع التي تسيل على سطح الأرض من أصلين أساسيين :

مصدر البعض منها من ماء الغيوم. هذه مياه عذبة. يختزن جوهر Substance هذه المياه في باطن الأرض ؛

مصدر مياه البعض الآخر من هذه الأنهار والجداول والينابع — وهي ذات الماء الملح — من مياه البحر الذي يتسرب داخل باطن الأرض ؛

هناك أسرَّة أنهار لا تمتلئ ماء إلا خلال تساقط الأمطار. ليس هناك تردد حول أسباب تكوين أنهار هذه الحالة الأخيرة،

وتوجد أخيرا مجاري مياه من نوع رابع، وهي الأكثر غموضا، تسيل مجاري المياه هذه خلال السنة كلها، دون أن تعرف مصادرها — وهذا سواء سقط المطر أم لم يسقط : مصدر مياه هذه المجاري ليس لا الأرض ولا البحر ولا السماء ولكن هي من عند الله وحده.

يمر واد تيسنت وسط النخيل. ينمو النخيل على ضفاف الواد نفسها وتنشر ضلالها على مياهه. يوجد سرير النهر، الصخري في كل مكان تقريبا، على مستوى المغروسات وليس له أصواح. عرض النهر ما بين 100 و120م. تغطي ربع هذا العرض المياه التي تتوزع إلى عدة أدرع. عند عالية الواحة حجم المياه أكثر أهمية. عند مدخل النخيل، قبالة أكدير، يحجز المياه سد : يتكون عند هذه النقطة خزان طويل الشكل وعميق. تنطلق من هذاالخزان مجموعة سواقي لا تحصى لري كل بقعة أرض. ضمن الواحات المختلفة التي سأراها في المغرب لا توجد واحة واحدة يمكن مقارنتها مع واحة تسنت فيما يرجع إلى كميات المياه الجارية : عند كل خطوة نقطع قنوات صرف المياه. يصل عرض عدد كبير من هذه القنوات حتى 2م. ويتراوح عمقها ما بين 40–50سم.

ما سطح الواحة إلا رمال. غرست النخيل التي تكسوه متقاربة جدا. تفصل غابات النخيل عدة أسوار من مقدار إلى قطع لا متناهية. يوجد بين أشجار النخيل قليل من الأشجار من جنس آخر : نادرا ما ترى بعض أشجار التين. لا توجد مزروعات تحت ظلال النخيل : يحتفظ السكان بالماء كله لسقي هذه الشجرة الثمينة. لاتوجد حقول الحبوب إلا خارج النخيل، عند حدود الواحة. هنا تزرع الخضر والشعير في الرمال، ولاتزرع الا خلال سنوات الأمطار، عندما يخصب الأرض ماء السماء، وعندما يكون النهر أوفر ماء مما هو عليه خلال السنوات العادية موفرا هكذا أكثر مما تحتاج إليه النخيل من الماء فيُمَكِّنُ إذ ذاك النهر إرواء مساحة أكبر من الأرض.

التمور ثروة تيسنت ويرجع لها الفضل لكون تسنت أحد المراكز المزدهرة لجنوب المغرَب : حسب كلام مأثور، من بين الواحات الثلاث المشهورة في المنطقة، طاطا، وأقا وتيسنت، تفوز طاطا بالمرتبة الأولى فيما يخص عدد السكان وتفوز تسنت بالمرتبة الأولى فيما يخص عدد النخيل. تنتج تسنت تمورا من عدة أنواع : الجهل، بو إطوب، بوفكَوس، بوزكري وبوسواير [Nbp]. يحتل الجيهل الصدارة ضمن هذه الأنواع من التمور : التمور جيدة جدا في تيسنت بينما هي عادية في مناطق أخرى.

ص 121

عدد قصور تيسنت 5 : أكَدير «500 عائلة»، أيت أو إرن وتزنوت والزاوية وبوموسِي. أكَدير وبوموسي هما القصران الرئيسيان. في أيام الفتن يضع سكان قصور تسنت ممتلكاتهم داخل قصورهم. يكاد يعمر المرابطون وحدهم قصري بوموسي والزاوية. توجد زاوية سيدي علي وعبد الرحمان بقصر بوموسي. نفوذ هذه الزاوية كبير عند أولاد يحيى. يوجد في الزاوية ضريح سيدي عبد الله ومْحند. الزاوية موقرة جداً من طرف عدد كبير من البرابر بسبب وجود قبر هذا الولي وقبر ابنه سيدي محمد وبوبكر. يأتي الناس من جميع الجهات لزيارة أضرحة الأولياء الثلاثة ولتقديم التبرعات لأفراد سلالتهم. توجد أضرحة أخرى بتسنت كما هو حال ضريح مولاي اسماعيل، قبالة أكَدير. عدد مثل هذا من الأولياء، أموات أو أحياء، يدل على وجود ساكنة ورعة. فعلا أن حراطين تسنت أتقياء Dévots، وهذه حالة تكون تناقضا مع مسلمي الصقع الآخرين وخاصة مع هؤلاء العرب «الوثنين» كما يلقبون الرحل جيرانهم. في طاطا وأقا من جهة، وعند قبيلة زناكَة من جهة

ثانية، لا أحد يحج إلى مكة، لا أحد يعرف القراءة سوى عدد قليل من الأولياء، لا أحد يصلي بصفة دائمة، وكثير من الكسالى لا يعرفون الصلاة. العمل الديني الوحيد الذي ينجز هو إعطاء بعض النقود للزوايا. وفي هذه الحالة لا ترسل إليها النقود بتاتا : يجب على المرابطين أن يذهبوا أنفسهم لطلب «الزيارة» في كل دوار الرحل إن الأمر أسوأ عند إدا وبلال : حتى لو أن المرابطين قدموا إليهم فإنهم لا يعطونهم شيئا وإن كرر المرابطون طلباتهم فإنهم ينعتونهم بالكسالى ويردونهم على أعقابهم مستهزئين بهم. هل يحدثهم المرابطون عن الجهاد ؟ فإنهم يجيبونهم إنهم لا يذهبون إلا حيث يوجد ربح. أما فيما يخص القراءة والكتابة فلا واحد في القبيلة يعرف القراءة. وأما الصلاة فلم يفكروا فيها أبدا. على العكس، في تسنت، لا يوجد إلا قليل من ذوي شيء من اليسر لم يؤد مناسك الحج. أداء مناسك الحج طموح جميع سكان الواحة. يتطلب أداء مناسك الحج 1500/1000 فرنك. يمثل هذا الرقم كمية كبيرة من المال في البلد. يعمل الناس بدون انقطاع حتى يحصلوا عليه. هل توفر هذا القدر المطلوب من المال ؟ فإنك تراهم ذاهبين إلى طنجة ومن هناك إلى مكة. أعجوبة أكثر ندرة، إن بعض سكان الواحة يعرف القراءة. إنها المرة الأولى التي أرى فيها خارج المدن والزوايا مغاربة مثقفين : تكوّن تسنت أعجوبة وسط عالم الجهل العام. في إطار هذا الورع السائد بين سكان تسنت لا يمكن أن يسود في حق المرابطين إلا سخاء ووقار دون حدود : كثر عدد الرباطات والأولياء في كل مكان في أرض مواتية إلى هذا الحد.

في تيسنت، كما هو الأمر في أي مكان آخر جنوب جبل باني، أكثرية المباني من المقدار أو من الآجر المشوي تحت حرارة الشمس. في بعض الأحيان، في مساكن الفقراء، تبنى أجزاء السكن السفلى من الحجارة وتبنى جميع أجزاء منازل الأغنياء من المقدار. مادة البناء هذه هي الوحيدة ذات القيمة في هذه المنطقة. تستعمل عوارض النخيل لإنجاز هياكل المباني. للدور طابق سفلي وطابق علوي وسطح ولكل مسكن فناء داخلي. بعض البنايات النادرة مجيرة. الجير مخصص عموما للأضرحة. الأزقة ضيقة إلى حد أنه في أكثريتها لا يمكن للبغال أن تمر وهي محملة. أكثرية هذه الأزقة مغطاة.

ساكنة تيسنت، كما هي ساكنة جميع واحات جنوب جبل باني، خليط من الشلوح والحراطين. يكوّن الحراطين هنا 9/10 الساكنة وهذه نسب أقوى مما

هي عليه في جميع الأماكن. هكذا يكاد يأهل تيسنت الحراطين بأجمعها. وهكذا نجد في نفس الوقت، ولهذا السبب بدون شك، لون الحرطاني ادكن مما هم عليه في أي مكان آخر من المغرب. سنلاحظ، في جميع الأماكن، ان لون الحراطين يكون أكثر سوادا كلما كانوا كثيري العدد في نفس المكان، إن لونهم يكون أكثر انفتاحا كلما كان الشلوح الذين يختلطون معهم أكثر عددا.

الأزياء هي كالتالي : بدل القميص، تلبس قشابية من قطن أزرق «الخنت» [Nbp]. إنها قطعة توب طولها 2,5/2م وعرضها 1,5/1م. يوجد في وسطها شق طولي يمر عبره رأس لابسه، يقع طرفا قطعة التوب بطريقة طبيعية أحدهما إلى الأمام والآخر إلى الوراء. لا خياطة بتاتا بالتوب. يكتفي بعقد زوايا أطراف التوب بعضها ببعض في اتجاه أسفل قامة لابسها، يمينا وشمالا، ويبقى الجانب عاريا. في كثير من الأحيان، لا يملك المرء إلا قشابية واحدة ولبعض الأغنياء قشابيتان ثانيتها تكون من القطن «السخن». فوق هذا اللباس، يلتحف البعض الحائك من صوف بيضاء ويلبس البعض الآخر البرنوس. البرنوس في بعض الأحيان أبيض اللون وفي كثير من الأحيان أسمر اللون «الخيدوس». يلبس بعض الناس الخنف. يحاط الرأس بعمامة ضيقة من الخنت أو يبقى الرأس عاريا في كثير من الأحيان. تلبس بلاغي صفر في الأرجل وتوضع حول الذراع بعض الحروز وحول العنق فتيل من جلد حيث علقت 4 أشياء : غليون [Nbp] ذو محرق من خشب السودان الأسود ومخرز Poinçon لتنظيفه وملقط لأخذ جمرة النار وإشعال الغليون وأخيرا جراب صغير من جلد لحفظ التبغ. هذه الجراب، التي تسمى بيت، وجميعها من نفس النموذج، مستوردة من تنبكتو. تشتمل البزة على قطعة أخيرة، تكسو بالتناوب أجزاء مختلفة من الجسم : إنه السروال الصغير من الخنت ويصل حتى الركبتين. يملك الأغنياء وحدهم السروال الصغير. داخل القصور، يلبسونه كما يلبس عادة هذا اللباس. فإن خرجوا أو كان عليهم أن يتحركوا فإنهم يخلعونه، ادعاءً أنه يعيق الحركات ويلوونه حول الرأس كدعيمة للعمامة. هذه هي بزات المسلمين المستقرين وطرق لباسهم في واحات جنوب جبل باني ـــ ما بين درعه والساحل. تختلف بعض الشيء عن ملابس رجال نفس المنطقة وتبقى أقل تنوعا أيضا بلغة واحدة، دائما ملابس من الخنت، السروال الصغير اختياري، الحائك من الصوف البيضاء، برنوس من نفس اللون، لا شيء حول الرأس، عند بعض

ص 123

الطاعنين في السن وحدهم عمامة من خنت، حرز داخل علبة من معدن معلق إما حول العنق وإما حول الدرع والغليون ولوازمه : هذه هي بزتهم العادية C'est là leur costume uniforme يتميز إدا وبلال ضمن الرحل بطريقة تعاملهم مع شعر الرأس : كثير من أفراد قبيلة أدا وبلال يتركون شعرهم ينمو ويحتفظون بوفرة يصل طولها إلى 10، 15، 20سم بينما يحلقه المغاربة الآخرون الذين رأيتهم من قبل أو يتركونه قصيرا.

طريقة ارتداء الملابس متشابهة عند نساء الحراطين والشلحة والرحل. لا تختلف ملابس الحراطانيات عما هي عليه في باقي جهات المغرب : قطعة قماش وحيدة معقودة على الكتفين ومقبوضة عند الحزام. الثوب من الخنت بدل أن يكون من قطن أبيض أو من صوف كما سبق. حجاب صغير من الخنت يتمم البزة. تغطي الحرطانيات به وجوههن أمام الرجال أو عند حضور آبائهن : بعيدا عن هؤلاء فإنهم لا تستعملنه. يصبغن وجوههن قليلا ولا يوشمن بتاتا، عادة الوشم في المغرب غير معروفة تقريبا. يتحلين بأقراط كبيرة من فضة وإبزيمات من نفس المعدن وعدد كبير من القلادات يطغى فيها العنبر ممزوج بـ Mélé de mial وقطع نقدية من قيمة فرنك وفرنكين وحبات زجاج ومرجان، ثم تيجان Diadèmes من فضة ومرجان وأساوير من القرن وأخيرا بعض الخواتم من فضة. لحراطانيات عادة حافيات الأرجل، ويلبسن البلغة الحمراء التي تستعملها المغربيات عند الخروج من المنزل.

من بين رجال المنطقة، الشلوح والحراطين متوسطو القامة عادة، جميلو الطلعة، أقوياء جسمانيا، رشيقون وقبيحو الوجه. يكاد يكون جميع العرب قصيري القامة، نحفاء المظهر ولهم ملامح جميلة. يوجد عدد قليل من النساء الجميلات عند الشلحة وبالعكس يوجد عدد كبير من الحرطانيات جميلات. تمتاز الحرطانيات أيام شبابهن بعيون كبيرة كثيرة الحركة والتعبير وببشرة متفتحة وباسمة وحركات مرنة ولطيفة. أكثرية نساء القبائل الرحل ــ إدا وبلال، أولاد يحيى ــ جميلة وفي أي مكان ما من المغرب لم أر نماذج نساء أجمل إلا بينهن : لهن النبل والانسجام والملاحة وجلدهن ذو بياض ناصع ــ على الأقل جلد الوجه والأذرع ــ ذلك أن عادة ارتداء ملابس زرقاء إضافة إلى عدم الاغتسال أبدا تعطي أجسامهن فوارق Des tons داكنة ومائلة إلى الزرقة مغايرة للون الطبيعي لجلدهن.

في هذا الصقع، كما هو الأمر في بلاد السيبة بأجمعه، لا يتحرك الناس دون

أسلحة، مادام المرء داخل قصر أو دوار فهو لا يحمل إلا الخنجر. ويحمل البندقية بمجرد أن يغادر القصر أو الدوار ولو لأدنى جولة للمتسقرين والرحل البندقية والخنجر ذات الشفرة المعقوفة كسلاح فردي ويوضع البارود في وعاء من نحاس منقوش. أوعية البارود والخناجر موحدة النموذج وقد سبق وصفه. البنادق نوعان : إحداها ينتمي إلى النموذج المستعمل عند اكلاوة وتازناخت إلخ... والأخرى أسلحة ذات طلقتين من إنتاج أوربي. هذه البنادق بنادق صيد ذات القداحة، من إنتاج نهاية القرن الأخير أو الجزء الأول للقرن الحالي وهي مصدرة من السينغال. تستقدم من هذا البلد عبر البر بواسطة قوافل الساحل [Nbp]. يفضل الرحل هذه البنادق قرابة نصفهم مسلحون بها. توجد بعض البنادق عند المستقرين. يحمل الفرسان السيوف. عدد هؤلاء المحظوظين قليل. الخيول نادرة جدا في المنطقة : لا يملك الرحل أنفسهم خيولا. في القصور، حيث صعوبة تغذية الخيول قصوى : عدد الفرسان في تيسنت بأجمعها لا يصل 4 أو 3. ويبقى امتلاك الأبقار بذخا ليس أقل أهمية : بعض العائلات 15 المعتبرة الغنية جدا تملك وحدها الأبقار. ولا يصل عدد الأبقار 25 رأسا في تيسنت. والبغال أكثر ندرة من الخيول. توجد أيضا نحو 25 من الحمير وعدد ضئيل من الأغنام والماعز. تتغدى هذه الحيوانات على التبن وعلى العشب عندما يكون هذا ممكنا : هذا ليس أمرا عاديا. إضافة إلى هذا : تعطى للخيول والبغال تمور الدرجة الدنيئة «بسواير». في كثير من الأحيان، قصد التخلص من هذه المشاكل، يعقد سكان القصور تدابير مع الرحل فيوكلون إليهم أمر خيولهم وأغنامهم. يتكلف الرحل بتغدية البهائم فيستفيدون من هذه الحيوانات ويرجعونا إلى أهلها عند أول إشعار بهذه الرغبة وللرحل الجمال والأغنام والماعز وبعض الخيول في قصور هذه الناحية.

ص 125

تغذية السكان على الشكل التالي : عند الاستيقاظ في الصباح، يتناولون الحسو وحوالي الساعة 11 يتناولون العصيدة وفي المساء يتعشون على «الطعام» باللفت. الحسو نوع من حساء مركز يتكون من الماء وشيء من الدسم أو الزيت وحفنة من دقيق الشعير. يؤكل الحسو بالمعلقة [Nbp]. العصيدة خبر منقوع خاثر له كثافة الطعام. تصنع العصيدة من دقيق الشعير أو من دقيق الذرة مطهى مع شيء من الماء ويصب وسط العصيد شيء من الزيت أو من السمن المذاب. الطعام هو ما يعرف أيضا بالكسكس. يهيأ الطعام هنا من الشعير. ليس اللحم طعاما

عاديا ضمن الوجبات الغذائية اليومية ولايذوقه الأغنياء أنفسهم إلا نادرا. يعوض العدد القليل من السكن المحظوظين الذين يملكون بقرة حسو الصباح بجرة من لبن حامض يشربونه مع التمر. لا يغير وصول الضيوف الوجبة الغذائية العادية كثيرا : عند دخول الضيوف المسكن تقدم لهم سلة من التمور ويتم نفس الشيء قبل طعام المساء. إن كانت العائلة غنية وإن كان الاستقبال خص ناسا من ذوي مستوى تقدم لهم في الصباح تمور دافئة مع العسل بدل الحسو [Nbp2] إن وجد لبن يشرب حوالي الساعة 3 مع تناول تمور بواطوب أو بو فكوس ــ فيكون هذا لُمجة Un gouter. يهيأ الشاي مرتين في اليوم قبل وجبة الصباح وقبل وجبة المساء. ويقدم أخيرا اللحم مع الكسكس، الشاي هو القرم Friandise الأكبر في المغرب [Nbp3]. إنه المشروب الوحيد من هذا النوع : تناول القهوة مجهول باستثناء مراكش وفاس والمراسي. يتناول الناس القهوة في المدن قليلا. الشاي منتشر التناول في جميع أنحاء الامبراطورية ــ على عكس القهوة. الشاي في الصحراء وليمة مكلفة الثمن يمنحها لانفسهم القياد والشيوخ والمرابطون واليهود فقط.

سبق أن قدمنا وصف تغذية المسلمين المستقرين : لا تختلف تغذية الرحل منهم عن تغذية المستقرين منهم : لكن امتلاكهم قطعان مواشي يجعل الحليب ــ وخاصة حليب الناقة ــ يحتل مكانة كبيرة في تغذية هؤلاء الرحل : عندما يسافر المستقرون والرحل يأخذون معهم التمور كزاد وحيد مهما طال السفر [Nbp].

تيسنت مركز تجارة مهمة. تتاجر تسنت مع مراكش والصويرة وسوس. تصدر إلى هذه الأماكن التمور والجلود والصمغ Gomme وتتوصل عندعودة القافلة بالحبوب والزيت من سوس والمنتوجات الأوربية من مراكش والصويرة. تسنت مستودع كبير لهذه المواد التجارية الأخيرة ــ وخاصة قصر أكَدير حيث تتمركز تجارة الواحة وحيث يقام السوق كل يوم : تأتي إليها القبائل الشلحة المجاورة ورحل الجوار ــ إدا وبلال، أولاد يحيى، البرابر ــ للتموين بالتمور أولا ثم من الحبوب والزيت وأشياء من منتوجات أوربا كالخنت والسكر والشاي والإبر. جميع سكان أكدير ذوو مكانة اجتماعية. يتعاطون التجارة ولهم ثروتهم التي تبلغ 000 8 فرنك عندما يتعلق الأمر بأكثرهم غنى. تشكل هذه الثروة جزءا من النخيل «في تيسنت، قيمة نخلة جيدة الإنتاج تساوي 10 فرنكات» وجزءا آخر من دراهم مستثمرة في التجارة. ينجزون أنفسهم العماليات التجارية الأساسية ولا يتكلفون عناء

جزئيات البيع : يتوفر كل تاجر لهذه الخدمة على يهودي أجير — يعيش معه ويقوم بتوزيع المواد صباح مساء. يوجد قرابة 10 يهود على هذه الوضعية في أكَدير. لا يوجد بتاتا ملاح في تسنت : هؤلاء اليهود فرادي ويعيشون عند أرباب عملهم. بعضهم من طاطا وأقا والآخرون من زناكَة. يقوم في نفس الوقت واحد منهم أو اثنان بمهنة الصائغ. إن الصياغة تخصص اليهود بالمغرب وخاصة جنوب الأطلس.

تتوفر أكَدير على ما يميز الأسواق : تذبح البهائم في جميع أيام الأسبوع وتباع اللحوم بالتقسيط في كل الأوقات كما يباع الخبز الطري. سوق أكَدير هو سوق تسنت الوحيد. فيما مضى، إضافة إلى كل ما يوجد فيه في أيامنا هذه، كانت تأتي إليه مواد السودان بكثرة. كانت تأتي إليه بوفرة الجلود والأثواب وشموع العسل الأصفر والذهب من تنبكتو. حاليا لا أثر لهذه التجارة. إنه من الصدفة ومن الندرة أن يرى المرء مواد استوردت من بلاد السودان ويلاحظ نفس الشيء في طاطا وأقا، فيما مضى، قبل أن توجد تندوف، كانت هذه الواحات نقط وصول قوافل السودان. بعد مرور 30 سنة على تأسيس تندوف تقف جميع قوافل الجنوب عند هذا الموقع، ومن هنا تأخذ البضائع طريق مكَدور المباشر عبر الساحل وبلاد شتوكة : لم يعد شيء يمر لا بتيسنت ولا بطاطا ولا بأقا. يجب الذهاب إلى تيزوين حتى يمكن وجود مواد قادمة من بلاد السودان. انطلاقا من هنا يعرف الجميع اسم السودان وتنبكتو ويصادف بين الرحل عدد ما من الناس كانوا بالسودان وعدد كبير من الناس على اطلاع بتجارته وعاداته وضعيته. توجد بقصر اكَدير جماعة من الأجانب بدون انقطاع نتيجة التجارة المهمة النشيطة بأكَدير — أكثرهم من إدا وبلال — اتوا للاتجار : لهذا السبب وصفنا من الآن سحنة العرب الذين تُرى منهم أعداد تكاد تساوي أعداد الحراطين.

ص 127

واحة تيسنت تابعة لإدا وبلال. كل قصر من القصور الخمسة التي تتكون منها الواحة مستقل عن القصور الأخرى وله إدارته الخاصة وما له من علاقات إلا تلك التي يفرضها الجوار. في بعض الأحيان تنشأ بينهم بعض الخصومات : مسائل حول الماء في كثير من الأحيان. عادة تعيش هذه البليدات Localités في وفاق مع بعضها البعض وقد جمع دائما سكانها الخطر الذي يهددهم أجمعين. هذا الاتفاق هو سبب رخاء الواحة جزئيا. وقد وقاها هذا الاتفاق الويلات التي تعرفها بعض قصور طاطا.

تيسنت تابعة لإدا وبلال منذ وقت قصير. منذ 20 سنة مضت لم تكن خاضعة لهم ولكن كانت خاضعة لزناكَة. كان للأزديفي مسكن بأكَدير وكانت الواحة كلها تعترف بأولويته. أسرف زناكَة في سلطتهم واقترفوا عدة تجاوزات، ناهبين ممتلكات السكان وسافكين دماءهم لأتفه الأقوال. تعب هؤلاء من حالة أصبحت أصعب حالة تبعية. فاتصلوا بإدا وبلال وطلبوا منهم مساعدتهم ضد ظالميهم وفي المقابل أعلنوا أنفسهم تابعين لهم. فدخل الحماة الجدد في حرب مع زناكَة. إنهم طردوا زناكَة ـــ باتفاق مع أهل تيسنت المتمردين ـــ وأرغموهم على مغادرة الواحة وسهل الغيجه في نفس الوقت وأجلوهم حتى أكَني. منذ هذا الوقت وتيسنت تعيش تحت رعاية محرريها سيادة إدا وبلال هذه لا تنطوي على أي تدخل لا في الشؤون الداخلية ولا في الشؤون الخارجية للقصور، كل يسير أموره حسب هواه ولا تنطوي حتى على تكوين أحلاف. أن تكون لأهل تيسنت حروب إما فيما بينهم أو مع الأجانب عنهم فهذا لا يهم بتاتا إدا وبلال الواجبات المتبادلة هي تقديم إتاوة سنوية إلى حاميهم بالنسبة لسكان تيسنت متمثلة في حمولة 20 بعيرا وأن يمتنع إدا وبلال عن كل أعمال معادية ضد محمييهم. إن أرادت تيسنت أو جزءا منها مؤازرة إدا وبلال بمناسبة حملة أو حرب دفاعية فسيكون هذا مادة معاهدة خاصة. لم يحدث هذا الأمر منذ طرد زناكَة : لم يحاول هؤلاء الرجوع بتاتا. استقر الأمن بينهم : زناكَة الآن على علاقات طيبة في نفس الوقت مع أهل تسنت ومع سادات هؤلاء الآخرين.

سبق أن قلنا أن كل قصر من قصور تيسنت مستقل عن باقي القصور الأخرى : كل قصير يسير من طرف جماعة ساكينه التي تسلم السلطة التنفيذية إلى شيخ منتخب من بين أفرادها. مادام هذا الشيخ يرضي الأكثرية فإنه يحتفظ بلقبه. هل لم يعد يرضي الأكثرية ؟ يؤخذ منه هذا اللقب ويسلم إلى شخص آخر. في هذه القصور تكون الصدارة للعائلة الوفيرة الغنى بسبب وضعيتها الاجتماعية تكون هذه المكانة وقفا عليها : إن لتفوق شخص على باقي مواطنيه بسبب أخلاقه وثروته فإنه يبقى وبصفة عادية شيخا طول حياته. وفي حالة غياب من يفرض نفسه، يعين أحد أعيان البليدة شيخا للقصر ويبقى في هذا المنصب حتى اليوم الذي لم يعد يرضي مواطنيه. يحافظ الشيخ على شؤون القصر ويفرض احترام التقاليد داخله ويحمي مصالحه في الخارج. يتقدم الشيخ الركب خلال الصراعات المسلحة.

وتجتمع الجماعة الأنفليس وتقرر عندما يتعلق باتخاذ قرار مهم. تختلف درجة سلطة الشيخ جدا : للبعض منهم سلطة كبرى نظرا لصفاتهم الشخصية أو لقوة عائلتهم وليس هناك فرق كبير بين الشيوخ الذين لا يملكون هذه الميزات وباقي مواطنيهم. ففي بعض البليدات هناك نوع من مسكن مشترك. يميزه عامة برج، وهو ملك لجميع السكان ويعار لشيوخ بالتتابع. لا يسكنه الشيخ عادة بل يستقبل فيه الضيوف الممتازين ووفود القبائل الأجنبية عن القصور. بني مسكن في قصر أكَدير يشبه دار الأزديفي القديم. يعرف تحت اسم دار الزناكِي. لا يوجد بتاتاً بالقصر لا رجل صدارة ولا عائلة ذات صدارة : عين فيه شيخا رجل أكثر غنى. اسم هذا الأخير التهامي. إنه حرطاني. تيسنت هو المكان الوحيد الذي يحمل الحرطاني فيه لقب شيخ، لا يعطي هذا اللقب إلا لأشخاص من الشلوح في أي مكان آخر.

لم أجد قوانين مكتوبة في أي من القصور الأربعة التي زرتها. تتناقل العادات عن طريق الحديث المتواتر في جميع هذه القصور، وإحدى واجبات الشيخ إلزام الآخرين مراعاة هذه العادات، لاتختلف هذه العادات بالنسبة للمبادئ الأساسية وتتغير فيما يرجع إلى التفاصيل في كل بليدة. تتكون هذه العادات من أشياء قليلة العدد. سنتحدث عما يحدث عامة في حالات نزاع أو سرقة أو قتل. أولا يجب أن يعرف المرء أنه يوجد بجنوب المغرب عدد ما من القضاة. إنهم رجال معروفون بعدلهم. لقد سبق لهم أن تلقوا بعض الدروس إما في المنطقة أو خارجها واقترحوا نزولا عند إرادة سكان الجوار للقيام بوظيفة القاضي. وهكذا فإنهم في كثير من الأحيان يحملون لقب المرابطين إضافة إلى لقب القاضي، لكن ليس من الضروري أن يكون القاضي أولا مرابطا [Nbp].

إذا وقع لرجل نزاع مع أحد مواطنيه، إذ ذاك فإنه يقول لخصمه لنمثل أمام قاضي المكان الفلاني. في هذه الظروف يجب على الآخر أن يتبعه أمام هذا القاضي فيصدر القاضي حكما. وإذا لم يرض القاضي الخصم فإن للخصم الحق ــ عندما يمثل أمامه ــ ألا يقبله فيقول له : «لا توافقي كيفية حكمك فأرسلني إلى قاض آخر».

ص 129 وتنفذ هذه الإرادة فيُعين قاض آخر على إثر هذا الرفض من طرف أحد

المتقاضيين ــ وإن أعلن رجل في نزاع مع رجل آخر أنه لا يقبل أي قاض وإذا لم يمثل أمام عدالة القصر فإن المشتكي يتوجه إلى النفاليس التي تحكم على الخصم المعاند بغرامة كبيرة عندما يستمر في رفضه. هؤلاء القضاة ناس جهلة أميون لكن أكثريتهم منصفون وبعيدون عن الارتشاء : إنهم يصدرون أحكامهم حسب منطق العقل السليم أكثر من الرجوع إلى قواعد القانون الإسلامي.

إذا تعلق الأمر بسرقة. حالة ما تقع السرقة يعلن الشيخ عبر القصر أن غرامة قيمتها كذا ريال ستعاقب الشخص الذي سيوجد بحوزته، ابتداء من تاريخ محدد، إما الشيء المسروق أو السارق. تساوي قيمة الغرامة، بصفة عامة، 4 مرات قيمة الشيء المسروق. إن لم يظهر أثر للسرقة خلال الفترة الزمنية المحددة فإن الشيء المسروق يعتبر ضائعا إلى الأبد : ذلك أنه إما سرق من طرف رجل مسكين فهرب به أو أن الشيء المسروق قد أخفي عند رجل غني لن يعترف بإخفائه للسرقة ولن يرد شيئا. يمكن القيام بتفتيش بعض المنازل بطلب من الضحية. هذا الحق مرتفع الثمن، يؤدى تعويض يتراوح بين 30 و50 ريال لصاحب كل منزل فتش دون أن يوجد به الشيء المسروق. ويكون هذا التعويض على نفقة صاحب الشكوى. في هذه المنطقة الفقيرة، حيث لا تمس السرقة أشياء ذات قيمة كبرى، يتردد الناس إلى اللجوء إلى هذه الوسيلة لاسترجاع الشيء المسروق. لكن هناك تدقيقات إن كان الشخص المسروق فقيرا فلن يرى أبدا ما نهب منه. وإن كان رجلا غنيا وجريئا فسيقوم بالتفتيش عن السرقة بنفسه وإن وجد ملكه فسيأخذه بالعنف صحبة أهله وأصدقائه، في الحالة النادرة حيث يكتشف السارق بالوسائل النظامية فإنه يحكم عليه بإرجاع ما سرق ثم بغرامة يحددها النفاليس. يمكن أن تكون هذه العقوبة خفيفة جدا، غرامة تافهة أو تكون قاسية جدا كالإبعاد. يختلف الأمر حسب وضعية السارق واعتبارا إن كان ذا أهل أو بدون حماية. إن كان يشتغل عند رجل عظيم أو كان زبونا له، أو كان له أصدقاء، فلن يعاقب تقريبا وربما لن يعاقب بتاتا. وإن كان بائسا دون عضد فسيؤخذ منه القليل الذي يملك أو يلقى به عاريا خارج القصر.

يجب اعتبار نفس التفاضل في حالة القتل : إن قتل رجل غني، مقدام ومهاب، بائسا فسيكتفي بأداء الدية، كمية دراهم ضئيلة تختلف من مكان إلى مكان آخر. وإن كان القاتل غنيا جدا فلن تؤدى حتى الدية، من سيتجرأ على مطالبته

بهذه الدية ؟ تتكرر هذه الأنواع من القتل. الأنواع الأخرى من القتل نادرة ويترتب عنها النتائج الأخطر : إذا قتل رجل رجلا في مستواه الاجتماعي يثأر الأهل لقتيلهم مباشرة : ذلك أن الشرف يحرم عليهم أية مصالحة. يهجمون على القاتل وهذا الأخير يكون مسندا من ذويه فتنشب النار بين العائلتين وعما قليل تنتشر في القصر بأجمعه. بعد أن تدوم هذه النزاعات مدة ما، يوجد في بعض الأحيان رجل حكيم إلى حد ما وذو تأثير فيتمكن من إسماع كلام الصلح ومن الاصغاء إلى كلامه. كما أن الخوف قد يفرز تقاربا خشية استفادة بعض الجيران الممكنة من هذه الوضعية. في كثير من الأحيان إحدى الطائفتين المتخاصمتين تطلب مساعدة أجانب عن القبيلة ــ والأجانب هم الرحل ــ وإذ ذاك يصبح من غير الممكن تجنب الخراب. يهاجم الرحل حالة دخولهم القصر الطرفين المتنازعين بدون تمييز. يقوم الرحل بمذبحة عامة. ينهبون كل شيء. يهدمون المنازل ويعودون من حيث أتوا محملين بالغنيمة في الوقت الذي صار فيه القصر أكمة من الخراب. كان لأهل تسنت من الحكمة ما جعلهم لا يستعينون بالرحل في النزاعات التي تقع بينهم وقد كانت هذه النزاعات عادة قليلة. لم تكن حالة طاطا تشبه حالة تيسنت : ترى بينهم آثار 10 قرى خربها إدا وبلال الذين نودي عليهم كحلفاء خلال النزاعات القبلية عدة فترات سالفة.

ص 130

تكاد تمر الأحداث عند الرحل بنفس الطريقة التي تقع بها عند المقيمين : هنا أكثر من أي مكان آخر قانون الأقوى هو القانون الوحيد المحترم. لا تنشب بينهم بتاتا هذه النزاعات المتعددة الناتجة عن البيع والشراء وجوار الملكية التي تنشب بين سكان الواحات وبالعكس السرقات والقتل أكثر تكرارا بينهم.

إن كانت توجد تقاليد في القصور وبين القبائل المتنقلة تحمي كل فرد من تصرفات مواطنيه المضرة فلا شيء يحمي الأجنبي في كل مكان وكل شيء مباح في حقه : يمكن سرقته ونهبه وقتله لن يقوم أي بالدفاع عنه. وإن قاوم الأجنبي هجوم الاخرين عليه سيهجم عليه الكل. لن تكون لا تجارة ولا علاقات ممكنة لولا عرف خاص يعالج هذه الوضعية. هذا العرف ــ وهو من أعرق أعراف العصور السالفة والتي يوجد تقريبا في كل أنحاء المغرب وهو ما كان يسميه العرب القدامى الجيرة [Nbp] والمسمى هنا بالدبيحة.

الذبيحة عمل يضع المرء بواسطته نفسه تحت الحماية الأبدية لشخص أو لقبيلة.

إنها عناية مستمرة. لنعط مثلا : دخل رجل إلى قصر أو إلى مخيم رحل. وصل إليهما مع أحد أفراد البليدة أو القبيلة وكان رافقه كزطاط بعد أن منحه عنايته والمسماة أيضا المزراكَ [Nbp2]. إن كان الأجنبي مارا فقط فهذه الحماية كافية لأمنه. وإن أراد أن يقيم فإن العناية لم تعد صالحة : العناية والمزراك ضمانة مؤقتة وجدت خصيصا للمسافرين. وأما من أراد أن يقيم بعض الوقت، ولو شهرا واحدا، فعليه أن يتأكد من الحصول على ضمانة أخرى. يطلب بصفة دائمة حماية شخصية من القبيلة : يسمى هذا الإجراء «ذبح عليه». أصل هذا العبارة العرف القديم ـــ والذي مازال معمولا به إلا في حالات خطيرة ـــ يتمثل في نحر خروف على عتبة مسكن الرجل الذي تطلب عنايته. إن منح الشخص المقصود عنايته، كما تمر الأحداث عادة، يحضر مرابط ويحرر ساعتها عقدا Acte يشهد أن المسمى فلانا قد ذبح على فلان من القبيلة الفلانية وإنه حاليا تحت حمايته. هاكم عبارات 131 أسلوب تحرير هذه الوثائق معتمدا نموذج إحدى دبيحاتي على إدا وبلال : «بإرادة الله، يذبح الربي يوسف الجزائري على حيمد بن حيون الحرزلاوي حتى يحميه من التصرفات المضرة به التي قد تصدر من إخوانه أهل مكرز. بعد قبول الذبيحة ؛ يصبح حيمد مسؤولا عن كل الأضرار التي قد يلحقونها بالربي بعد أن توصل من اليهودي بثمن الذبيحة. ويأخذ على عاتقه هذه الأضرار ويرجع إليه كل ما قد يؤخذ منه. ومن جهته يتعهد اليهودي أن يدفع إلى حيمد بن حيون 10 أذرع من قماش القطن كل سنة. قبلت هذه الشروط من طرف الجانبين. حرر بحضورهما في 26 محرم 1301. عبد الله العظيم. حامد بن محمد الحداد العمراني».

ثمن هذه الحماية، كما يلاحظ، إتاوة سنوية ضئيلة وفقط بعض الأسياد الكبار يعتبرون من باب النخوة عدم طلب أي شيء. يستنتج من محتوى العقد أنه عندما يتم هذا الإجراء لايعود هناك شيء يخشاه المحمي من طرف مواطني الحامي ويصبح في إمكانه التجول بينهم بدون خطر : إن الاعتداء عليكم قد يعني الهجوم عليه شخصيا وكل القوانين التي تحميه أيضا : لقد دخل المرء تحت حمايتهم عن طريق الذبيحة، والذبيحة تدمج الذابح بين أفراد القبيلة إن صح التعبير. بما أن هناك إلى جانب التقاليد قانون الأقوى وأن الغلبة لهذا الأخير في كثير من الأحيان فيتحسن أن يأخذ الباحث عن حماية مدافعا يكون رجلا ذا مكانة : من عائلة قوية وخاصة

ذا مزاج متكبر وجريئ ولا يسمح أن يمس زبناؤه بسوء يجب أيضا اختيار رجل وفي ذلك أنه إن كانت الذبيحة تحمي من شر مواطني الحامي فإنها لا تقي من تصرفات الحامي نفسه. إنه نادرا أن يخون الحامي زبونه ومن تصرف هكذا فإنه يصبح محط الاحتقار العام وحتى إخوانه أنفسهم قد لا يدافعون عنه.

لابد من ذبيحة في أي قبيلة أو بليدة حيث يريد المرء أن يقيم وقتا ما وأيضا بين القبائل حيث يريد إما شراء أملاك أو تأسيس مستودعات بضائع : يقدم التجار أصحاب التجارة الواسعة عددا كبيرا من الذبائح. يعتمد بين القبائل الرحل حاميا رؤساء القبيلة الرئيسية والعادة في القصور أن يقصد الشيخ لهذا الغرض.

عقود الذبيحة جزء من الإرث : يبقى أبناء الحامي وأبناء الزبون ملزمين بالتعهدات التي كانت تربط آباءهم. أمران اثنان وحدهما يمكن أن يحلا عقدة الذبيحة : التوقف عن أداء الإتاوة من طرف المحمي أو خيانة الحامي.

توجد الذبيحة بين القبائل كما هي عليه بين الأشخاص. هناك وسيلتان للحصول على حماية قبيلة الذبيحة على أحد أفرادها أو الذبيحة على القبيلة بأجمعها. وتكون للعقد نفس النتيجة مادام كل فرد في القبيلة مساندا لأخوته. عادة تضع الأشخاص والجماعات الصغيرة كالقصورالمنعزلة نفسها تحت حماية شخصية واحدة وعكس هذا تقوم المقاطعات وفخذات القبائل الكبرى بذبائح على القبائل بأجمعها : هكذا فمقاطعة تيسنت تابعة لإدا وبلال بأجمعها بينما في طاطا لكل قصر على حدة مدافع عنه هو عضو من قبيلة إدا وبلال [Nbp] وأعلنت قبيلة أيت جلال نفسها زبونة لقبيلة إدا وبلال بأجمعها الذين هم أنفسهم كانوا تابعين للبرابر. لا تفرض هذه العلاقات، ونكرر هذا، أي تدخل في الشؤون الخاصة للمحميين ولا أية سيادة، وإن كنا نستعمل كلمتي سيادة ومُقطعية للتعبير عنها، لا تعمل وثائق الذبيحة إلا على ضمان أمن أفراد القبيلة الزبونة داخل أراضي القبيلة الحامية. بما أن أيت جلال مقطعو إدا وبلال فعلى هؤلاء أن يحترموا في كل مكان أشخاص وممتلكات الأولين الذين يمكنهم أن يسافروا في أمان تام عبر أراضي إدا وبلال، وإدا وبلال بفعل ذبيحتهم على البرابر يمكنهم التنقل دون خطر عبر أراضي البرابر. إن نهبت خطأ بضائع قبائل زبونة من طرف المدافعين أو وقع العكس يجب إرجاع ما أخذ مباشرة بعد التأكد من الخطإ المرتكب. إن القبائل المتعاطية إلى التجارة والقبائل

ص 132

التي على قوافلها أن تعبر أراضي القبائل الأجنبية أو عليها أن تخشى هجماتها من جهة، ومن جهة أخرى أن المقاطعات الضعيفة أو المطوقة من طرف أصقاع يجوبها جيران أقوياء خاصة هي في حاجة إلى هذه الذبائح التي تؤدي الضمانة التي تفرزها هذه الذبائح بإتاوة سنوية، هي أقل أو أكثر أهمية حسب أهمية فخذة القبيلة الزبونة ودوام علاقاتها مع مدافعيها. لبعض القبائل عدة حاميين في نفس الوقت كما هو الأمر بالنسبة لبعض الأشخاص.

تسمح الذبائح بالاتجار والأسفار وقد تجعلها هينة وتزيل عنها كل خطر إن كانت هذه الذبائح محترمة. في كثير من الأحيان فإن معاهدة الذبائح ليست محترمة : بين الأفراد قليلا ما تخترق، بين القبائل هناك قليل من التحفظ فيما يخص احترامها. هذه حالات عدم احترام هذه المعاهدات الأكثر شيوعا : يمكن أن يقتل محمي أو ينهب من طرف مواطني الحامي. إن تصرف القتلة جهلا، إن اشهروا ندمهم واقترحوا أداء الدية وإرجاع ما أخذوه، عادة تقبل هذه العروض وتقف الأمور عند هذا الحد. لكن تندر إمكانية تقديم إدعاء الجهل عند الإقدام على العمل المدان في مكان كل امرئ يعرف باسمه الشخصي. عمليا، يكاد يكون التصرف المدان مقترفا تقريبا عن علم. يُكوّن الهجوم إهانة شخصية لحامي الضحية، فشرف هذا الأخير يفرض عليه أن يعمل دون انتظار على أخذ ثأر بَيّن Vengence éclatante. يحضر الحامي المهان جميع أفراد عائلته، الأمر الذي يمكن أن يمس عددا كبيرا من الناس، ويطلب منهم مساعدته للانتقام. يتبعه عدد كبير من أفراد القبيلة إن كان قويا. في اليوم الأول فإنه يهاجم الذين أهانوه ويقتلهم.

هؤلاء القتلى الجدد يطلبون الثأر بدورهم : لا يمكن لذويهم ترك موتاهم دون أخذ الثأر حتى لا يمسهم العار، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، ذوي اعتبار أو لا، أقرباء الموتى أو الفخذة التي ينتمون إليها. حين يلجأ إلى السلاح، ينشب نزاع مسلح فلا تتأخر القبيلة برمتها عن المشاركة فيه. هذه النزاعات المسلحة تدوم قليلا في القصور وتدوم سنوات بين الرحل وتنشب لاسيما فيما بينهم. على سبيل المثال، اخترنا حالة نبيل عليه أن يثأر من أناس أقل قوة منه. إن كان الحامي المهان قويا نسبيا ما فإنه يلف حوله كل القبيلة تقريبا وقد يعاقب مرتكبي الاعتداء بنفس الطريقة التي ارتكبوا بها اعتداءهم. إلا أن أقرباء مرتكبي الاعتداء قد لا يتجرأون على الدخول في صراع مع المطالب بالحق وقد يكتفون بطلب دية قد يحصلون

عليها بدون شك أو قد يؤجلون رد فعلهم مترقبين المناسبة لإسقاط عدوهم أو أحد أقربائه في كمين قصد إزالة العار الذي أصابهم من جراء قتل بعض أفرادهم : وفي اليوم المرتقب قد يقومون بالعملية. وعلى إثر عمليتهم هذه قد يهاجرون مخافة الانتقام. هناك حالة ثالثة، وهي كثيرا ما تحدث : يمكن الاعتداء على محمي رجل ضعيف الوضعية الاجتماعية إن كانت قبيلة هذا الأخير متحدة جدا، وإن كان أصحاب الاعتداء في إعدام لهذه القبيلة فإن قبيلة المهان تعتبر الاعتداء موجها إليها وتدافع جماعة عن قضيته : يصنف هذا التصرف ضمن الحالة الأولى، وإن كانت جماعته غير متحدة، وإن كان للمشتكي منه أصدقاء بينهم فسيسمع قليل من الناس لشكوى المعتدي عليه. وإن تعلق الأمر بشخص في نفس الضعف الذي هو عليه فيمكنه أن يثأر لنفسه بمفرده : إن كان خصمه أقوى منه فعليه إما أن يعيش العار الذي لحقه أو إن كان شجاعا فإنه يغتال بصورة مفاجئة، عدوه أو أحد أفراد عائلته، ثم يلوذ بالفرار. هذه هي الأحداث التي تقع عندما يهضم حق شخص في أحد زبنائه من طرف أحد مواطنيه، وتسير الأمور على نفس الشاكلة سواء كان المحمي فردا أو جماعة أو قصرا. يقوم السادات بأخذ ثأر دموي فداء للاعتداء الذي يصيب أحد محمييهم ماعدى إذا كانوا في حالة عجز عن أخذ هذا الثأر : لقد لطخ شرفه ولهذا السبب جماعات سكان كبيرة أو قصور تفضل وضع أنفسهم تحت حماية شخص واحد بدل وضع أنفسهم تحت حماية قبيلة بأجمعها.

الذين هم تحت حماية قبيلة هم أقل حماية وإذا ألحق أناس قبيلة أو عصابات الضرر بأفراد أو بجماعة تحت حماية قبيلتهم فإن الفعلة تكون مدعاة للاستنكار. واجب نفاليس الجماعة الحامية أن تقيم العدل للزبناء المهانين. لكن في هذه الحالة لا توجد أية مصلحة شخصية لأي أحد فلا يعتني أي شخص بالمسألة، بل يتهاون الكل. ما هو الأمر المشتكى منه ؟ هل وقع هجوم على قافلة ؟ هل نهب بعض الأشخاص مسافراً منفردا ؟ يجلس ضمن مجلس الجماعة عدة أعضاء ينتمون للجماعة التي استولت على القافلة : فعلى السارقين أن يردوا المسروق كرها، خاصة إذا كانت القافلة مزودة بحمولة نفيسة، ويشعر الذين لم يشاركوا في الغنيمة إنهم سيتعرضون لنفس الشيء ويخشون مطالبتهم من طرف مواطنيهم بحسابات سعداء بدورهم ألا يقدموها يقوم اقترافهم لنفس التصرف. وأخيرا الاستلاء على غنمية كبيرة نجاح يدغدغ كبرياء القبيلة كلها. يجب الامتثال عندما تكون فخذة

القبيلة المشتكية قوية ويخاف من ثأر كبير إلا أن الأمور تطول ويبحث عن عدة مبررات لإرجاع أقل مما أخذ وإعطاء أقل ما يمكن. إن كانت القبيلة المتضررة ضعيفة، أو كانت نائية وإن لم يكن هناك ثأر تخشى عواقبه فلا ترجع المسروقات إلا بعد وقت طويل، وما يرجع يكاد لا يكون شيئا يذكر. يصاحب لهذه الاعتبارات زطاط ــ أحد أبناء القبيلة الحامية ــ أفراد الفخذات الزبونة التي هي على سفر عبر أراضي حاميهم. لما يجمع عقد ذبيحة بين قبيلتين وتظهر إحداهما كثيرا من سوء النية في احترام عهودها يفسخ العقد من تلقاء نفسه فينتج نزاع عن هذا الفسخ بين المتعاقدين السابقين.

يمكن أن تقع النزاعات بين سكان مستقرين وبين سكان رحل أو بين السكان الرحل أنفسهم. في الحالة الأولى، يتجمع الرحل بأعداد كبيرة ويزحفون على القصور ويحاصرونها ويخربون بساتينها. وفي حالة عدم استعانة السكان المهاجمين برحل آخرين لنجدتهم فإنهم يضطرون ــ إن هم لم يريدوا مشاهدة تدمير قصورهم دون التمكن من الدفاع عنها ــ إلى طلب عفو المغيرين وشراء السلم عن طريق تقديم فدية لهم. ويختلف شكل النزاع المسلح عما هو عليه بين السكان الرحل. يتخذ هذا النزاع شكل حرب تنشأ عنها أحداث قليلة ومفاجآت كثيرة : قليلا ما تحدث اصطدامات دامية ويكتفي الطرفان بهجمات متبادلة، فيبحث المغير عن مهاجمة خيام الآخرين بغتة ومداهمة قطعان الأعداء ــ بحثا عن الغنيمة وقد لا يكون القتال غاية في حد ذاته وتدوم هذه النزاعات المسلحة عادة عدة أجيال.

ينشب نزاع مسلح عندما يسرق أهل قصر أو قبيلة ممتلكات أفراد قبيلة مجاورة أو ينهبونهم أويقتلون بعضا منهم ويرفض أي تعويض. لا يمكن أن تنتهي الأمور بدون تقديم تعويض عندما ينتمي المتضررون إلى قبائل بعيدة. يوجد بين القبائل البعيدة عرف عام : هو عرف أخذ الثأر. لنأخذ أمثلة :

ــ قتل أشخاص من قصر أكادير تيسنت شخصا من سكان قصر إمن ــ ن ــ طلس. سوف يقتل، بعد هذا الحادث، أول شخص من أكَادير يقع بين أيدي ساكني إمن ــ ن ــ طلس ؛

ــ وجد رجل من قبيلة زناكَة في قصر أكَدير تيسنت وحدث أن تعرض لغش خلال عملية تجارية من طرف رجل من أهل القصر ورفضت النفاليس أن تحكم

له. سيلقى القبض، بعد هذا الحادث، على أي شخص من ساكني قصر أكَدير تيسنت يوجد في أراضي زناكَة ولن يخلى سبيل المقبوض عليه إلا بعد أن يكون قد أعطى مواطنوه قدرا من المال يساوي قدر كمية المال التي نهبت من الشخص الزناكِي. وإذا لم يكن معه القدر المطلوب من المال فعليه أن يستقدمه وسيبقى سجينا حتى يؤديه بالتمام كل ما هو مطالب به. وتسير الأمور هكذا حتى يوجد حل للمشكل.

إنها شريعة القصاص. كل يستعيد ما أخذ منه عنوة كلما سنحت الفرصة : اعتبارا لهذا التقليد كان بإمكان الأزدفي أن يأمر بوضعي في السجن لكوني أحد رعايا السلطان لأن أشخاصا من قبيلته كانوا سجناء المخزن في مراكش.

يتكلم سكان تيسنت وكذلك جميع السكان النظاميين باللغة الأمازيغية. لأكثرية المستقرين مظاهر الإنسان العربي نتيجة علاقاتهم مع السكان الرحل المجاورين، لا تتكلم النساء والأطفال إلا اللغة الأمازيغية ويتعلم الرجال اللغة العربية كلما تقدموا في السن.

ص 135 لكن تختلف درجة معرفتهم لهذه اللغة : يتقن الفقراء اللغة العربية إلا قليلا لانشغالهم دائما بأعمال يدوية على طول السنة، ويتقنها الأغنياء أكثر بفضل التجارة وبفضل الاتصالات اليومية مع الرحل. يتكلم السكان ذوو المكانة الاجتماعية اللغة العربية بطلاقة. لهذا السبب فاللغة الأمازيغية أقل نقاء مما كانت عليه في تازناخت وعند زناكَة : دخلت على الأمازيغية كلمات خاصة في مذكرات الرحل وحافظت النساء على التعابير الأمازيغية القديمة بطريقة أحسن مما فعله الرجال. إن كانت الأمازيغية لغة سكان الواحات الظاعنين فجميع القبائل الواقعة جنوب جبل باني من الرحل ــ أولاد يحيى، إدا وبلال، آيت ومرابط ــ تتكلم اللغة العربية ولا تستعمل النساء والأطفال إلا هذه اللغة. ولا يعرف بتاتا عدد كبير من بين الرجال لغة أخرى غير العربية. ويتكلم شيئا من الأمازيغية فقط أولائك الذين تستدعيهم علاقات متكررة إلى القصور. ولا يأبى هؤلاء استعمال الأمازيغية إلا عندما يكون محاورهم لا يتكلم اللغة العربية ــ كأن يكون المخاطب امرأة مثلا. تخرج عن هذه القاعدة عائلات أولاد يحيى ــ الذين يعيشون في زكَيد وعلى أرباض درعة ــ وعائلات إدا وبلال وأيت مريبط ــ المستقرة في أقا وتوزنن. تعلمت هذه

العائلات ــ المعزولة عن الناطقين بالعربية والتي هي على اتصال دائم مع الأمازيغ ــ الأمازيغية ولو أنها تستعمل أيضا اللغة العربية فيما بين أفرادها في الحياة اليومية.

اهتممنا عدة مرات بلغات المغاربة وبعاداتهم وبتقاليدهم ولم نقل شيئا عن طبعهم : ذلك أنه يبدو لي من الصعب أن يصيب المرء في هذا الموضوع. أي فضائل وأي نقائص يمكن، يجب منحها إلى مجموعة من عدد من الناس يختلف كل واحد منهم عن الآخرين ويختلف حتى عن نفسه ؟ في هذه الحالة، هل يحاول المرء أن يوضح الصفات العامة ؟ حينما يظن المرء أنه تعرف على بعض من هذه الصفات العامة تبرز له حالات متعددة تناقض ما قدمه سابقا وإذا أردنا أن نكون واقعيين فيجب أن ينحصر الحديث عن طبائع قليلة العدد أو الحديث عن أشياء عامة إلى حد أنها لا تطبق على شعب بعينه فقط ولكن تطبق على جزء كبير من البشرية جمعاء.

نجد عبر المغرب وفي جميع الأماكن نفس المزيج من الفضائل والنقائص مع التغيرات التي تدخلها الحضارة أو الهمجية، نفس المزيج من الفضال والنقائص مع التغيرات التي يدخلها الغنى أو الفقر، نفس المزيج من الفضائل والنقائص مع التغيرات التي تدخلها الحرية أو العبودية. يبدو لي اليوم من الصعب الاعتراف بتلك المجموعة من الأخلاق التي وسم بها ابن خلدون من أسماهم بالبرابرة. إن كان من الممكن أن يعطي شيء فكرة عن طبيعة المغربي فإنها تلك الكتب حيث وصفت طبع القبائل أو سكان أمازيغ آخرين من سكان الجزائر. لقد اعطت التجربة الطويلة والدراسات المعمقة أناسا حق التطرق بالحجة إلى مثل هذا الموضوع ولا يمكن لامرىء مثلي، قضى فقط سنة واحدة في هذا البلد أن يدعي التوفر على مثل هذا الحق. لذا فلن أتطرق بتاتا في القول من هم المغاربة وما ليسوا عليه وسأكتفي بالإشارة إلى بعض الصفات المنفردة التي أثارت انتباهي والتي وجدتها في كثير من الأماكن أو لاحظتها عند بعض المجموعات. سأقوم بهذا معلنا أنني «لم أجد شيئا أقوله برمته وأقوله بكل بساطة وأقوله بحجة دامغة وأقوله بدون لبس وبدون خلط ولا في كلمة واحدة» لكنني أقول إن الجشع يسود تقريبا في كل مكان من البلاد مع ما يصحبه من سرقة وكذب على اختلاف أشكالهما.

وتعتبر عموما اللصوصية والاعتداء المسلح أعمالا مشرفة، إن الأخلاق منحلة. وإن وضعية المرأة في المغرب هي ما هي عليه في الجزائر. إن المغاربة قليلو الارتباط

بأزواجهم عادة ويكنون حبا كبيرا لأولادهم. إن الإخلاص لأصدقائهم أجمل فضيلة يتحلون بها ويمارسون هذا الإخلاص إلى أقصى الحدود : يجعل هذا الشعور النبيل الإنسان يقوم بأجمل الأعمال. في بلاد السيبة لا يوجد أمرؤ لم يخاطر عدة مرات بحياته لصالح أصحابه أو لصالح ضيوف بضعة ساعات. إن الكرم ــ والمتجسد على الخصوص في استضافة الآخرين ــ ليس وقفا على مجموعة من سكان المغرب دون غيرها. يصف السكان الرحل عادة الشلوح بالشح والبخل ويتهم الشلوح الرحل بنفس الرذيلة : لكنني لم أشعر بتاتا بوجود فرق عميق بين الأولين والآخرين في هذا الموضوع. هناك بخلاء وأناس أسخياء في أماكن أخرى حسب ما بدا لي : يستقبل عموما الأجانب بكرم في الأصقاع الغنية ولا يقدم لهم شيء في الأصقاع الفقيرة. وهكذا سوف يطعم الجميع إذا أتى مسجد هذا القصر 100 مسافر في نفس الوقت ولن يستضاف ولو مسافر واحد منهم في القصر الآخر. ويوجد نفس التصرف عند الرحل. يتمتع المغاربة بنفس الكبرياء التي توجد عند جميع الناس، وهذا الشعور عند عرب الجنوب متطور جدا ويتحول في كثير من الأحيان إلى شهامة نبيلة ويصير عند الحراطين خيلاء صبيانية ويتصرف الشلوح بأقل من هذا. لا حاجة إلى القول إن هؤلاء الناس ــ الذين يقضون حياتهم حاملين السلاح ــ طيبون.

هؤلاء الناس متشبثون باستقلالهم : لقد حصلوا على هذا الاستقلال عنوة ويدافعون عنه كل يوم من أيام العمر أما ضد السلطان أو ضد جيرانهم مجازفين بحياتهم ــ وقبائل بلاد المخزن نفسها ما فتئت تتمرد عليه. لم أتمكن من الحكم بنفسي على القيمة الحربية لمختلف سكان المغرب ويعترف في جميع جهات البلاد أن السكان الأكثر شجاعة والأكثر تمرناً على الأعمال الحربية هي القبائل الكبرى لجنوب الأطلس الكبير وشرقه : إنهم البرابر، آيت سدرات، إدا وبلال، أولاد يحيى وأيت ومربط من جهة، وذوي منبع وأولاد الحاج من جهة أخرى. يأتي بعد هؤلاء وهم أيضا أناس ذوو شجاعة كبيرة، سكان الجبال وشلوح الكتلة الاطنتيكية وقبائل الريف. تكون ساكنة السهول ــ المستقرون في السهول الدنيا للأنهار بجوار المحيط الأطلسي ــ طبقة ثانية ينظر إليها على أنها أقل شجاعة من الطبقتين السالفتي الذكر والحراطين أقل قيمة من جميع الذين سبق ذكرهم.

المغاربة سريعو إراقة الدماء ولا يعيرون أي اعتبار لحياة الآخرين : لم أر

شخصيا تصرفات قاسية ارتكبوها و لم أسمع من أفواههم حديثا عن قسوة صدرت من طرفهم.

يتفانى الشلوح والحراطين في العمل على العموم. إنهم يتعاطون الفلاحة ويبدون ماهرين فيما يتعلق بها ويتقدمهم الحراطين على الخصوص. لا يتوفرون على يقظة عقل بعض العرب ـــ مثل ادا وبلال أو وأولاد يحيى : لهؤلاء ذكاء لافت للنظر رغم جهلهم الكتابة والقراءة ولهم حب الاطلاع وسرعة الفهم. لهؤلاءالعرب تصرفات متميزة وحسن المعاملات بينما الأمازيغيون خشنون في كثير من الأحيان.

وعلى العكس من هذا، يجد المرء ضمن هؤلاء بساطة نادرة عند الأولين. المغرب بلاد جهل كبير ـــ باستثناء بعض المدن وبعض المقاطعات النائية : في أي مكان الناس متطيرون تقريبا ويمنحون احتراما وثقة لامتناهيين لمرابطين محليين يمتد تأثيرهم عبر مسافات مختلفة. في أي مكان، باستثناء المجالات السالفة الذكر، لاتقام الشعائر الدينية بطريقة عادية وهذا حتى عندما يتعلق الأمر بالممارسات الدينية المؤداة عموما. توجد مساجد بكل قصر أو مدشر مهم لكن يتردد عليها المسافرون الفقراء ـــ الذين يتخذون منها مأوى لهم ـــ أكثر مما يتردد عليها السكان أنفسهم.

قبل مغادرة تيسنت، لِنقلْ إنه ضمن 5 قصور حالية 4 منها في حالة خراب توجد 3 منها في قمة جبل تيمزوغ وقصر آخر يوجد في أقصى جنوب تسنت وتخترقه الطريق. لا يعرف أحد إلى أي تاريخ يرجع تهديم هذه القصور : إلى أقصى ما تعيه الذاكرة فقد شوهدت هذه القصور كما هي عليه الآن ـــ يرجع تأسيس هذه القصور إلى المسيحيين.

2 ـــ من تيسنت إلى طاطا

لم أكن أرغب في التوقف في تيسنت هذه المرة نظرا لعزمي على الرجوع إليها مرة ثانية. لذا رغبت في الذهاب إلى طاطا مباشرة بعد وصولي إليها. وجدت بسرعة خفرا مكونا من زطاطين ينتميان إلى إدا وبلال : إنه خفر كاف لضمان سلامة السفر لكن حدث ظرف طارئ كان هجوم 400 من البرابر مرتقبا في المنطقة منذ بضعة أيام فلم يكن في هذه الظروف من باب الحيطة الخروج في

سفر ما لم تكن نوايا المهاجمين معلنة. وقع هجوم على الجزء الغربي لبساتين تسنت خلال اليوم 16 من الشهر الجاري : نهب الغزاة البساتين واختطفوا عمالا كانوا يشتغلون بها. كان الغزو قد بلغ غايته و لم يبق لمنفذيه إلا التراجع لضمان غنيمتهم. إذن كان من الممكن أن أسافر.

خلال هذه الإقامة القصيرة، تعرفت على عدة أشخاص. أراد جميع الحجاج ـــ وهم أناس يألفون ولهم معرفة بكثير من الأشياء وسكان البلدان البعيدة ـــ مقابلتي مباشرة بعد انتشار خبر وصولي. وتعرفت مرة أخرى على النتائج الإيجابية للحج : لقد استقبلني جميع هؤلاء الحجاج أحسن استقبال لسبب وحيد مصدره أني من أرض الجزائر التي استقبلوا فيها بطريقة حسنة. وظن كثير منهم ـــ عرفت هذا فيما بعد ـــ أنني مسيحي إلا أنهم لم يقولوا شيئا في هذا الموضوع، ربما وعيا منهم أكثر مني بالأخطار التي يمكن أن يرمي بي إليها كلامهم. ولقد صار فيما بعد أحد هؤلاء الحجاج، وهو الحاج بورحيم ولد بورزاق، صديقا حقيقيا وقدم لي خدمات جليلة ذات شأن وانقذني من أعظم المخاطر.

16 نونبر

غادرت أكَادير عند الظهر صحبة رجلين من إدا وبلال. وصلت إلى قصبة جوا في الساعة 3 و30 دقيقة. قصبة جوا واحة صغيرة فكان علينا أن نقضي الليل. نتبع دائما قدم جبل باني انطلاقا من تيسنت حتى الوصول إلى طاطا. هذه السلسلة الجبلية عارض تضاريسي غاية في الغرابة وهو أحد أهم العوارض التضاريسية للصحراء المغربية. يصل علو هذا العارض التضاريسي ما بين 200 و300م فوق مستوى السطح المجاور ويصل عرضه ما بين 1كلم و2 كلم عند قاعدة السلسلة وينمحي هذا العارض عند قمة السلسلة فيكوّن حادثا مفاجئا، شفرة صخرية حادة ناتئة من الأرض عند باب الصحراء. لا يوجد لا إبط جبل ولا سلسلة جبلية ترتبط بهذا الحاجز المنعزل في الصحراء. تتجه هذه السلسلة الجبلية من الشرق/الشمال الشرقي إلى الغرب/الجنوب الغربي كما هو عليه اتجاه المجرى الأسفل لنهر درعة وسلسلة جبال الأطلس. طول سلسلة جبل باني كبير : يقال إن نهر درعة يخترق هذه السلسلة الجبلية في أسفل تمكَروت ويزيد اتساعها ولكن دون أن تتغير ملامحها. تحتفظ السلسلة دائما بنفس التكوين وبنفس الشكل

13

وبنفس الارتفاعات حتى تصل إلى قرب المحيط الأطلسي — حيث تلفظ أنفاسها جنوب مجموعة القرى المعروفة باسم واد نون.

تخترق سلسلة باني مجموعة من الخوانق — وهي ثلمات ضيقة تسيل عبرها مياه الأطلس الصغير في اتجاه نهر درعة. كل من هذه الممرات نقط تجمع 4 أو 5 أنهار ويشبه شكلها ثقب القمع Entonnoir. نشأت واحات عند كل نقطة من هذه النقاط نظراً لتجمع المياه بها : هذا هو منطلق جميع الواحات الكبرى المشاهدة بين سوس ودرعة والمحيط الأطلسي. وتوجد جميع واحات كل من زكَيد وتيسنت وطاطا وأقا وتزكَي الحراطين وإشت عند فم خانق من خوانق جبل باني من صخور عارية، بدون تربة ولاغطاء نباتي : حث محروق ويكسو فلس Une écaille لامع سائر وجه سفوحه — كما هو الأمر بالنسبة لجبال تازناخت. هذه السفوح ذات انحدار منتظم عند قدم السلسلة وذات انحدار مستقيم جدا عند القمة. توجد معادن في أماكن عدة من جبل باني : نحاس وزنك وفضة وذهب في اتجاه الغرب. تنتصب شمال هذا الحاجر منحدرات الأطلس الصغير : تنطلق هذه المنحدرات عند قدم هذا الحاجز غربا ويفصلها سهل الفيجة عن هذا الجدار الطبيعي في الجزء الغربي ولا توجد بتاتا جبال في الجنوب وإنما سهل شاسع على مد البصر. هكذا هي سلسلة جبل باني، السلسلة الجبلية المغربية الأخيرة قبل الدخول إلى الصحراء الكبرى : جبل باني مواز لسلسلتي الأطلس الكبير والأطلس الصغير وهو مثل افريز الزبد الذي يحد الشاطئ الأطلنتيكي أمام هاتين الموجتين الضخمتين جدا : سأتبع هذه السلسلة الجبلية الملفتة للنظر حتى الوصول إلى طاطا.

سأسير تارة محاديا لقدم الجبل وتارة أخرى سأبتعد عنه بعض الشيء، سائرا عبر سهل الفيجة أولا وعلى المنحدرات الأولى للأطلس الصغير ثانية. الطريق سهل : سطح رملي في الفيجة ومحجوجر في مكان آخر، ليس به غطاء نباتي في هذا الفصل وتكسوه النباتات قصيرة القامة خلال فصول الشتاء الممطرة وأشجار من السنط علوها ما بين 2م و3م. يكثر عدد هذه الأشجار كلما اقتربنا من سرير جدول أو ابتعدنا عن جبل باني — حيث السطح لا يسمح بنمو هذه الأشجار لكنه من صخور عند قدم السلسلة الجبلية. لا توجد بالمنطقة حيوانات قنص في هذه الجهات العقيمة باستثناء الأروي، هذه الأخيرة هي الحيوانات الوحيدة التي

تعيش في قفار الأطلس الصغير الشاسعة وبين جلاميد جبل باني. تعيش الغزلان بكثرة في السهل عند جنوب هذا الجبل.

لم افتأ أتبع مجرى واد قصبة جوا انطلاقا من خانق تسنت حتى القصبة التي تحمل هذا الاسم. بهذا المجرى المائي ما بين 12 أو 15م من الماء عند مستوى عقه آيت سيدي. يسيل هذا الماء داخل سرير صخري يبلغ عرضه ضعفي قيمة كمية الماء. يحيط بالسرير حاجزان صخريان ووعران علوهما ما بين 20 أو 30م يختفي الماء الجاري على بعد كيلومترين من هنا عند العالية وتبقى فقط غدران طويلة الشكل تقريبا ومتباعدة بعضها عن بعض، وسرير عرضه 50م. قعر السرير (ص 139) من صخور بيضاء وتتكون جدرانه من نفس الصخور. تكسو هذا القعر قشرة رقيقة من الرمال في بعض الأحيان ولم يعد علو الجدران إلا 15 أو 20م قليلا بعد هذا، يستمر انخفاض علو هذه الجدران وتتحول إلى حافة من رمال علوها ما بين 10 و15م — ناشئة على طرفي الوادي في شكل شريط من تلال غير منتظمة تسمى إدرُمن Idroumen. لم يعد أثر للماء انطلاقا من طريت Trit : سرير من دماليك على مستوى الفيجة. يتخذ النهر اتساعا أقصى انطلاقا من قصبة جوا إلا أنه يبقى جافا ويحتل النخيل السرير — الذي يتكون نصفه من الرمال ونصفه الآخر من الحصيم : بعد قليل لا يعود للسرير وجود حيث أصبح لا يتميز عن الميدان الذي يجري فيه النهر. عبرت واحة طريت الصغيرة خلال الطريق : غابة من نخيل ينتصب وسطها قصر عدد منازله 100 تقريبا. ساكنة القصر حراطين تابعون لإدا وبلال. طريت تحكم نفسها بنفسها. صادفت عددا كبيرا من الناس على الطريق من تيسنت إلى قصبة جوا.



17 نونبر

إقامة في قصر جوا. قصبة جوا قصر كبير وسط واحة جميلة. شيدت بنايات القصبة على المنحدرات الأولى للتلال الثلاثة الأقل ارتفاعا في اتجاه الغرب. تنتصب

هذه التلال الثلاثة قرب جبل باني ودون أن تنتسب إليه فإنها تكون كتلة منعزلة في حاشية الفيجة. بواد قصبة جوا كثير من النخيل. النخيل على نفس مستوى سطح الواحة إلا أن هذا النخيل لايوجد داخل القصبة بل يعرج عليها. يستقبل واد قصبة جوا واد طريق تركَنت [Nbp] عند دخوله إلى المغارس. يسمى هذا الواد هكذا لأن على المرء الذي يريد أن يبلغ القصر ـــ الموجود في الجهة الشمالية/الشرقية والذي يحمل نفس الاسم ـــ أن يتبع مجرى هذا الواد في اتجاه علوه خلال بعض الوقت. تظلل هنا أشجار النخيل ـــ التي هي أقل كثافة مما هي عليه في تيسنت ـــ المزروعات. التربة رملية. لا يوجد ماء جار بتاتا : الواد جاف اللهم في حالة تساقط الأمطار. توجد فرشة مائية باطنية، على عمق قليل. حفرت أعداد كبيرة من الآبار في الواحة تسد حاجيات القصبة من الماء وتسقي منها مغارسها. لا حاجة إلى سقي النخيل خلال سنوات الأمطار : يكفي أن يجري الماء في الواد خلال 24 ساعة لغمر الواحة ولإخصاب الأرض ولضمان محصول الحبوب والتمور. إلا أن الأمطار لا تسقط خلال جميع السنوات. لقد مرت 7 سنوات دون أن ينعم السكان بذلك : لقد عاش الجزء الغربي لحوض درعة 7 سنوات من الجفاف. تضررت المنطقة من هذا وهي حاليا فقيرة إلى حد كبير. يباع الشعير بأثمان ليست في متناول جميع السكان ولم يكد يعود هناك وجود للبهائم : لقد شمل البؤس الجميع. غيوم في السماء وقليل من الأمطار ميزا بداية هذا الشهر فعم الاستبشار وانفقت المدخرات الأخيرة لاقتناء البذور وشرع كل واحد في حرث الأرض بجد ونشاط حيث لم يوجد رجل واحد لم يباشر العمل الفلاحي. يرى الناس في جميع جهات الواحة منهمكين في الحرث بين أشجار النخيل : تجر المحراث الأبقار والخيول والبغال والحمير وحتى النساء في حالة عدم توفر وسائل أخرى ـــ ذلك إن دواب النقل ودواب الجر نادرة في القصور وستنتهي فترة زرع البذر عما قريب !

قصبة جوا قصبة فسيحة، مزدهرة وجيدة البناء ـــ جزء منها بالمقدار والجزء الآخر بالحجارة. يمثل بياض سحنة هؤلاء السكان الشلوح تباينا مع سواد سحنة مالكي الواحات المجاورة. هناك استثناء يثير الانتباه : لا يعترف هؤلاء السكان بأي سيد Suzerain ولم يذبحوا على أي أحد. ينحدر عدد كبير منهم من أصل شريف وأكثريتهم أغنياء. يتوفرون على 400 بندقية. يتكلمون فيما بينهم الأمازيغية

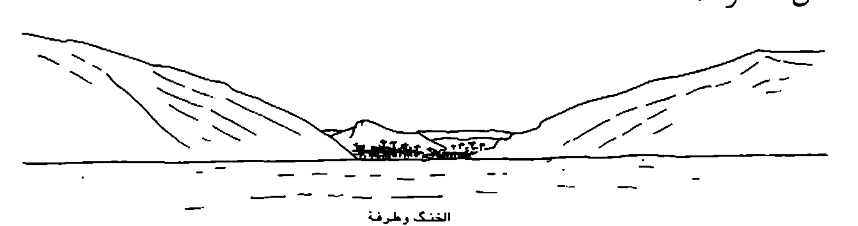
ويكاد يتكلم جميعهم تقريبا اللغة العربية. إنهم فرقة من آيت سمك Semmeg الموجودين على الضفة اليسرى لنهر سوس وينحدرون عن القبيلة ــ البطن Leur tribu mère وقد احتفظوا مع القبيلة ــ الأم بعلاقات طيبة : في حالة نشوب نزاع مسلح فإنهم يبعثون إلى قبيلتهم هذه بالمساعدة ويستقبلون المساعدة منها ــ إذا دعت الضرورة إلى هذا ــ رغم بعد المسافة الفاصلة بينهم. إنهم على علاقة جيدة مع إدا وبلال ويتزوج كثير من رجالهم بنساء من هذه القبيلة. قصبة جوا مشهورة بكثرة تمورها وجودة نوعية هذه الأخيرة تنتج تمور بوفكَوس والمجهول وبوسواير وبوإطوب وخاصة بوزكري.

يميز المسافر 4 واحات انطلاقا من هنا. توجد هذه الواحات على الجانب الآخر للفيجة. تشتمل كل من هذه الواحات على قصر تسمى باسمه : أقا إغن، تسكمدن، إدا وسلطان وصرغن. أهمها هو قصر أقا إغن. تسمى القصور الأخرى بالقصور البيضاء لبياض جدران مساكنها. تعمر جميع هذه القصور سكان من الشلوح والحراطين تابعون لإدا وبلال.

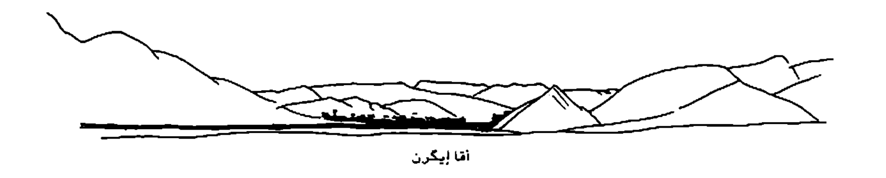
18 نونبر

الذهاب على الساعة 6 صباحا. لازلت اتبع سلسلة جبل باني. تنتهي عما قريب الفيجة وانتقل إلى منطقة جديدة على المنحدرات الأولى للأطلس الصغير. ميدان محجوجر لكنه يسهل السير فيه. اقترب من أقا إجرن Igiren : يرى المرء هذه الواحة الصغيرة من جهة ومن جهة أخرى يرى خانقا في جبل باني : إنه خانق الطرفه. توجد عين ونخيل عند هذه الثغرة ملك لقصر أقا إغن إلا أنها خالية من أي مسكن. ينطلق من هنا نهر في اتجاه الجنوب : إنه واد خانق الطرفه. يتكون هذا الواد من 3 روافد هي واد أقا إزن، واد تستفت، وواد أقا اجرن : الأولان جدولان يتيهان في الصحراء والثالث نهر مهم : يحمل هذا النهر في عالية أقا اجرَن اسم واد تركَنت ــ بعد أن يكون استقبل رافداً وعبر القصبة ووفر الماء لعدة أماكن مأهولة.

ص 141



الخنك وطرفة



أقا إيكرن

تمتد واحة أقا اجرن على مساحة صغيرة بها قصران مظهرهما بائس : نصف البنايات في حالة خراب ومهجورة وبنيت بالحجارة. المساكن التي لازالت قائمة. هذه المساكن رديئة الانجاز وما لها في كثير من الأحيان إلا طابق سفلي ــ الشيء الذي يمثل أدنى علامات البؤس في المنطقة. ساكنة القصرين من الشلوح والحراطين التابعين لادا وبلال. لا يوجد ماء جار بتاتا ولكن يوجد عدد كبير من آبار ذات ماء جيد وفجارة بجوار القصر الغربي.

حوالي الساعة 3 أبصرت نخيل طاطا أمامي. ليست هذه الواحدة غابة كثيفة Compacte مثلما كانت عليه واحدة تسنت : إنها تتكون من عدد كبير لمجموعات سكنية متفرقة يوجد بعضها شمال جبل باني ويوجد بعضها الآخر عند الجنوب. قصور الواحة متقاربة ومغارسها تكاد تتصل فيما بينها في المنطقة الأولى وهي منعزلة ومنتشرة واحدة واحدة عبر السهل في المنطقة الثانية. ينتمي تنتزرت، القصر حيث أتوجه إلى هذه المجموعة الأخيرة من القصور.

بدأت بتسلق جبل باني لكي أتمكن من الوصول إلى هذه القصور. كان الصعود متعبا : عما قليل يجب ترك ظهر البهائم والسير على الأقدام بصعوبة بين الصخور. في الساعة 3 و35 دقيقة وصلت إلى قمة جبل باني : ضلع حاد وضيق جدا. يوفر القاء البصر نظرة خاطفة رائعة في اتجاه الجنوب. يمتد سهل شاسع على مد البصر : إنها الصحراء. ينطلق هذا السهل أصفر اللون ومستوي السطح بصفة لا متناهية حتى حدود الشريط الأزرق المزدوج الذي تكونه هدودات Coteaux الضفة اليسرى لدرعة وحافة الحمدة المتواجدة في الأفق.

تظهر عدة قصور من قصور طاطا مثل بقع سوداء فوق الرمال : إنها تنتشر قرب جبل باني، على مسافة قريبة من بعضها البعض ويحيط النخيل بكل واحدة منها.

يسمى الفج حيث أوجد تيزي ــ ن ــ تزكَرت [Nbp] النزول من جبل باني

بطيئ مثلما كان عليه الصعود. صادفت رملا صلبا عند النزول من باني سوف أسير عليه حتى تنتزرت. وصلت إلى هذا القصر في الساعة 5 و30 دقيقة.

لا يوجد بشر بالطريق طيلة النهار. كانت مجاري المياه التي صادفتها جافة وكانت ذات أسرة متشابهة : القعر من حصى غليظة، الأصواح من تراب وعلوها من 50 سم إلى 1م. لم يكن أي واحد من هذه الأنهار ذا أهمية تذكر باستثناء واد أقا إجرن. عرض هذا الأخير 80م. وله أصواح مستقيمة علوها 2م في الواحة التي تحمل نفس الإسم، على طول الطريق، أشجار السنط كثيرة باستثناء جوانب جبل باني. تختلط هذه الأشجار، على جوانب الجدول، ببعض أشجار الطرفاء وتنتشر باقات الملبنة والكمشه على السطح. تنبت نباتات صغيرة في جميع الجهات نتيجة أمطار سقطت حديثا. لا ترى العين خلال الطرق إلا صخورا — انطلاقا من الأطلس الصغير — سواء تعلق الأمر بالمنحدرات القريبة لسواد مثل جبل باني — أو بالأعراف البعيدة، كتل عظيمة ذات لون أحمر داكن.

3 — طـاطـا

تنتزرت أحد أكبر قصور طاطا. شيد هذا القصر في نهاية سلسلة صخرية صغيرة ذات جوانب وعرة جدا وعلوها يتراوح مابين 15 إلى 20م. هذه السلسلة جزء من تشابك الأعراف من الصخور السوداء التي تتلوى Serpentent في السهل. تسمى النقطة حيث شيدت تنتزرت عرف أوزلاكَ» «رأس الأفعى». يتكون هذا الموضع من 3 أجزاء : يشرف على أولها البرج الرئيسي للسكن الجماعي فيكون هذا الجزء الأول القصر الحالي. والجزء الثاني — وهو أصغر من الأول مرتين — في حالة خراب : كان هذا محل إقامة الشيخ حامد فيما مضى. يرجع تهديم هذا القصر إلى بضعة أعوام وهذا التخريب من تصرفات مقرز، أحد فرعي أدا وبلال. كان هذا التخريب سبب نزاع مسلح طويل ودام لم ينته إلا منذ فترة قصيرة بين مقرز وحيان — الفرع الآخر لهذه القبيلة — الذي كان الشيخ حامد زبونا لهم. والحي الثالث لهذا القصر أصغر من الحيين السابقين ويوجد خارج الأسوار : إنه الملاح أساس المساكن من حجارة والأجزاء العليا من المقدار — كما هي عليه في قصر تسنت — ولجميع المساكن سطوح.

توجد حقول نخيل جميلة تسقيها عيون متعددة. تنتهي جميع المياه ـــ القادمة من جبل باني والتي تروي هذا السهل ـــ بين هذه السلسلة الجبلية وتلك الريح وأنغرف عند تنتزرت والقصبة وانغرف وتخصب أراضي هذه القصور. توجد البساتين في الأماكن الثلاثة المذكورة أعلاه جنوب السكن ولا ترى في الشمال إلا رمال السهل الجاف : إنه العرق. سكان تنتزرت من الشلوح والحراطين، والسيطرة للأولين.

143 تسير تنتزرت أمورها بنفسها كما هو الأمر بالنسبة لجميع قصور طاطا وهي تابعة لاده وبلال كما هي عليه القصور الوارد ذكرها أعلاه. عهدت تنتزرت بتسيير أمورها إلى شيخ منتخب من طرف الجمع العام. كان يقوم بهذه الوظيفة شاب عمره 18 سنة ـــ واسمه حامد باقادر. عند وصولي إلى تنتزرت حدث، خلال إقامتي في القصر، أن لم يرض الناس عن هذا الشيخ فعوضوه بالحسين ولد بهي ابن عمه والبالغ نفس السن : يشاهد المرء في هذا القصر قليلا من الناس الطاعنين في السن نتيجة هلاك رجاله في أحداث عنيفة.

كان الحدث الذي برر هذا التغيير في قيادة القصر هو التالي : كان شلح من قصر تنتزرت ـــ واسمه عبد الله ـــ في نزاع منذ سنوات مع أناس من قصر أقا إزنقد من قصور طاطا. كان أناس أقا إزنقد يطالبون عبد الله هذا بكمية من مال كان يرفض أداءها : نفذ صبرهم فقدموا إلى منزله صحبة 17 شخصا مسلما فقتلوه وأخذوا ما استطاعوا حمله ورجعوا أدراجهم. حدث هذا الطارئ خلال وجودي بالقصر. وحدث أن حامد باقادر لم يفعل أي شيء لاتقاء قتل عبد الله ولم يحاول بتاتا معاقبة قتلته : كان قد اكتفى بتقديم شكايات شكلية لدى جماعة أقا إزنقد. لم يرض أهل القصر عن ضعف عزيمة شيخهم فانتزع منه لقبه وأعطي إلى ابن عمه.



خنگ أدبس



طاطا أوسع الواحات الموجودة بين درعة والمحيط الأطلسي وتتكون من جزئين : يشتمل الجزء الشمالي على عدة مواضيع منتشرة على ضفاف 3 مجاري مياه هي واد طاطا وواد توكَ الريح وواد أديس. تتقارب هذه الأنهار فيما بينها عند الوصول إلى جبل باني حيث يفسح خانق أديس المجال لمرور مجاري المياه الثلاثة ولوصول الناس إلى المنطقة الثانية. هذه المنطقة الثانية هي ما يسمى العرق وهو سهل شاسع ذو سطح رملي وصلب موجود جنوب جبل باني. تنتشر في هذا السهل، هنا وهناك، قصور منعزلة، بعضها على ضفاف الأنهار الثلاثة السالفة الذكر وتسقي القصور المتبقية مياه العيون. العرق أقل سكان من الجهة العليا من المنطقة : يحتوي العرق على 14 مكانا مأهولا وتحتوي الجهة العليا على 22 مكانا مأهولا.

ص 144


آخر نخيل طاطا وهضاب الضفة اليسرى لوادي درعة

سكان هذه الجهات، خليط من حراطين وشلوح مع الغلبة العددية للعنصر الأخير، لا تربط بين هذه الجهات علاقات تسيير وهي مستقلة بعضها عن البعض الآخر : كل منها تابع لإدا وبلال وللقصور الموجودة في الجهة الشمالية القصوى ذبيحة ثانية على آيت جلال — قبيلة الرحل المستقرة غير بعيد من هنا في اتجاه المنحدرات العليا للأطلس الصغير. المراكز الرئيسية لمنطقة طاطا هي أفره Afra وعديس. يتكون المركز الأول والمركز الثاني من قصرين يكادان يلتصقان. اجتمع في كلا القصرين : السوق والزاوية. لزاوية أديس عدد قليل من المريدين والسيد محمد د أيت أوزكَار هو الشيخ الحالي. زاوية افره أكثر أهمية من سابقتها وتنتمي

إلى عائلة أيت حسين الكثيرة الأفراد. يسكن المرابطون أفره الفوقانية ـــ وتسمى أيضا أيت حسين ـــ حيث يوجد قبر جدهم، سيدي محمد د أيت أوزكَار. تتمتع هذه الزاوية باحترام كبير في هذه المنطقة.

توجد زاوية ثالثة في منطقة طاطا، إنها زاوية الجباير من تأسيس سيدي علي بن جبيرة الذي توجد قبة ضريحه بين أديس وتلكَ الريح. ينحدر سيدي علي بن جبيرة من سيدي محمد الشرقي دفين بجعد : ما تركه من نسب مستقر في الجبيره وهم فرع من العائلة التي يرأسها سيدي بن داود.حصل علي الهيبة، أحد سلالة سيدي علي، على ثروة معتبرة من الاتجار مع السودان حيث عاش عدة سنوات فاصبح له نفوذ كبير : لا يوجد إلا عدد قليل من الناس في طاطا وضمن قبيلة إدا وبلال لهم نفس وزن التأثير الذي يحظى به علي بن الهيبة. وهناك أخيرا سلطة دينية رابعة متمثلة في شخص المرابط سيدي محمد مولود ومقره تنتزرت. سيدي محمد مولود غريب عن القبيلة : كان أبوه هو السيد المختار بلعمش، مؤسس تندوف ورئيس قبيلة تجكانت Tajakant المرابطية. قسم السيد المختار، وهو على سرير الموت، منطقة نفوده على أولاده فكانت منطقة إدا وبلال من نصيب ابنه محمد مولود الذي استقر بين ظهراني طاطا حتى يكون قريبا منهم. إلا أن القبيلة من القبائل الأقل ورعا ولا توفر له لا عمالا ولا أرباحا. هل هناك عقد للتحرير أو شيء للتحرير ؟ يطلب منه إنجاز هذا التحرير مقابل قدر ضئيل من المال فتنحصر في هذا وظائفه وأرباحه ـــ وإن كان الناس يفضلون في كثير من الأحيان التوجه إلى أحمد دينيه ثاني إخوته المقيم في تندوف. 145

كانت تجارة تندوف مهمة فيما مضى لما كانت تصل إليها قوافل السودان، تكاد تكون هذه التجارة في الوقت الحاضر دون أية قيمة. يكتفي اليوم التجار بالبحث عن المنتوجات الأوربية من مراكش واستقدام الزيت من سوس وبيع التمور. يُقام سوقان أسبوعيان ـــ ثلاثاء عفره وخميس عديس. ذهبت مرة إلى هذا السوق الأخير الذي يقام على ضفة واد عديس اليمنى قبالة تمسلت تحت ظلال أشجار النخيل. يتخذ التجار تجاراتهم من مشكات Niches بنيت بالمقدار أو بالحجارة وتستند إلى جذوع النخيل. كانت المواد المعروضة للبيع تنحصر في أشياء قليلة يوم زرت هذا السوق : حبوب، بهائم، خضر، ثياب من قطن بيضاء، كثير من الحنت، شيء قليل من الشاي والسكر : لم يوجد هناك لا عود ثقاب ولا

ورق ولا إبر. كانت الحركة التجارية ضعيفة. يبدو أن غاية قدوم الناس إلى السوق كانت بالأحرى رغبة في التسلية وقصد الاتصال وليس اقتناء البضائع.

لطاطا نخيل كثير يأتي في مقدمتها نوع بوفكَوس ثم بويطوب والجهل وبوسواير : وأما بوزكري فهو نادر. أشجار النخيل متباعدة بعض الشيء فيما بينها إلى حد أنه يمكن زرع الحبوب والخضر في المجال الفاصل بين الأشجار — كما هي عليه الأمور في قصبة جوا. يزرع الشعير في العرق خلال سنوات الأمطار، على مقربة من الأنهار وبجوار النخيل، ويزرع في أي مكان آخر حيث يمكن سقي المزروعات.

يعيش في طاطا وفي قصور الجنوب، إضافة إلى ساكنة أمازيغية، عدد من أناس إدا وبلال، تعيش عائلات من القبيلة في القصيبة وإزغرن وتكَ الريح، استقر أفراد بعض هذه العائلات بهذه الأماكن بطريقة سلمية وأكثريتهم دخلوها عنوة على إثر نزاعات سكان هذه الأماكن فيما بينهم : هذه حالة تكَ الريح حيث يوجد أفراد قبيلة إدا وبلال بأعداد كبيرة. طلبت إحدى الفخذات مساندة إدا وبلال لها ضد الخصوم نتيجة نزاعات داخلية : حل أفراد من إدا وبلال تكَ الريح، طردوا جزءا من السكان، استولوا على أحسن المساكن واستقروا بالقصر.

تنتشر فوق أراضي طاطا عدة أماكن في حالة خراب : هجر السكان قصبة المخزن وتبيكَن القديم منذ زمن لم يعد يتذكره الناس : منذ 30 سنة مضت، خرب إدا وبلال 5 من بين 7 قصور تلدننت التي كانت تشتمل عليها هذه المجموعة البشرية، وخرب أيضا أفراد من نفس القبيلة أحياء من تنتزرت وإزغرن منذ زمن غير بعيد.

الأمازيغية هي اللغة السائدة هنا كما كان الأمر في تيسنت لكن يكاد جميع الرجال يستعملون اللغة العربية.

في تنتزرت أصبح مرافقي الربي مردوشي، بين أفراد عائلته، بين أخ وعدد كبير من الأقرباء : كان من الإنصاف السماح له بالتمتع بوجوده بينهم وبحضرتهم. تركته يستريح ضمن أقربائه في الوقت الذي كنت أنجز فيه رحلتين : الأولى إلى سرير نهر درعة والثانية إلى واحة أقا.

ص 146 لم أكن في حاجة إلى تقديم ذبيحة لأي كان من سكان القصر نظرا للقليل

من الوقت الذي كان علي أن أبقاه في تنتزرت. وكان من الضروري أن آخذ جميع الاحتياطات في هذا الإطار فأتزود بحاميين ينتميان إلى إدا وبلال بما أنني كنت سأقيم وقتا أطول على أراضي هذه القبيلة، يكفي حامٍ واحد في الظروف العادية. إلا أن النزاعات المسلحة التي قسمتهم إلى أطراف متناحرة لم تنته إلا منذ وقت قصير : لم يعد أفراد فخدة يضمنون سلامة التحرك داخل أراضي أفراد الفخدة الأخرى ـــ لذا يجب على المرء أن يتوفر على حام ينتمي إلى كل من الأطراف. ولهذا لم أتمكن من ولوج الطريق إلا بعد أن قمت بهذه الاجراءات.

4 ـــ جولات بالمعدر وأقا

1) المعدر :

الجزء من سرير نهر درعة الموجود غرب خط طول تيسنت قابل للحرث في أكبر جزء منه : قعره رملي تقريبا على طول امتداده، يصير خصبا حالما يسقى. يسمي السكان هذه الأجزاء القابلة للحرث المعدر. هناك 6 معادر رئيسية عند مقارن الروافد 6 الكبرى للدرعة يحمل كل واحد منها اسم معدر إدا وبلال ومعدر طاطا ومعدر عطا ومعدر تزكَي ومعدر إشت ومعدر أو كَدر. سوف أتوجه إلى معدر إدا وبلال.

25 نونبر :

غادرت تنتزرت في الساعة 10 صباحا فوصلت في الساعة 6 و30 دقيقة مساء إلى أراضي بها عدد من المزروعات تسمى معدر السلطان، على بعد 200م. من سرير درعه. هذا المكان جزء من سهل مدلس ـــ وهو دلتا رملية من أعمال واد خانق الطرفة عند مقرنه بنهر درعة. قضيت الليل في هذا المكان.

خلال تحركاتي، قطعت 5 أقاليم متميزة :

ـــ كان الإقليم الأول من تنتزرت إلى واد توفسور Toufasour. إنه منطقة العرق كما تراه العين حتى سلسلة باني : رمال مستوية السطح، صلبة، ليس بها أحجار أو أشجار، تنتشر فيه باقات نادرة ونحيفة من الآكَايا والكمشة Kemcha

والملبنة وتنتأ من الأرض، هنا وهناك، أعراف ضيقة من صخور سوداء تتلوى عند السطح،

ــ تبتدئ المنطقة الثانية عند واد توفسور وتنتهي عند خانق زروغة. لا توجد رمال بالمنطقة، سطح صلب ومستو تغطيه حجارة صغيرة وحصيم، توجد نفس النباتات السالفة الذكر وتضاف إليها أشجار سنط علوها 3–4م وهي كثيرة الأعداد خاصة على طول الجداول، تزحف دائما الأفاعي الصخرية على سطح السهل، وهي ذات لون رمادي وأصفر. ــ في الجزء الثالث من المسار، من خانق زروغة إلى واد اسكَيكْ، تنمحي التضاريس، لا توجد أي أعراف صخرية، ميدان مستوي السطح حتى درعة، تغطي السطح، الصلب جدا، حصى سوداء داكنة ولامعة. نفس النبات التي سبق ذكرها وهي أقل انتشارا وتنحصر أكثر على جوانب الجداول. يسمى هذا السهل وطا بودير.

ص 147

ــ يمتد الإقليم الرابع من واد اشكَيكْ إلى دلتا واد خانق الطرفة، يصير السطح لينا، تختلط الحصى بالرمال، يكثر هذا الأخير كلما تقدمت في السير تبقى النباتات كما كانت عليه من قبل، يقل عدد أشجار السنط،

ــ الإقليم الخامس هو سهل مدلس، دلتا رملية من حمإ وتلال رملية ذات ارتفاع ضئيل من 50سم إلى 1م. يخترق واد خنيك والطرفة، هذا السهل المنقسم إلى 3 أدرع، حيث توجد حياة نباتية غنية، تظلل باقات كبيرة من الطرفاء سطحا مخضوضرا تكسوه الملبنة والأكَايا والسبت [Nbp]وتظهر مزروعات. كلما تقدمنا سيرا أصبح السطح رطبا : إنه حمئي Sol vaseux خلال مسافة 2 كلم. إلى حد أن دواب الحمل تسير بصعوبة ويجبر المسافر على السير حافيا على القدمين. يسمى هذا الجزء الأسفل من سهل المدلس ــ المجتث المحروث ــ معدر السلطان : توقفت فيه على بعد بضعة خطوات من نهر درعة. قضيت الليل هنا، عند قدم باقة من الطرفاء، صحبة ما يقارب 12 شخصا من قبيلة إدا وبلال، فلاحين مخيمين هنا في العراء.

عدد قليل من الناس كانوا يسافرون فرادى خلال الطريق ــ بعض الفلاحين راجعين من المعدر صحبة بهائمهم بعد الانتهاء من الحرث. كانت مجاري المياه التي صادفتها خلال الطريق جافة ولا أهمية لأحدها، سرير واد توفسور ذو عمق

ضئيل، لسرير واد زروغة قعر من حصيم عرضه 12م وأصواح من تراب، عرض سرير واد اسكَيكْ 30–40م. وقعر نصفه من رمال ونصفه الآخر من حصيم وأصواح مستقيمة علوها 1–2م. خلال الجزء الأخير من المسير. يظهر جبل تيمزوغ وخانق الطرفه ويرفع الجلب Gelob ـــ كتلة منعزلة والتضريس الوحيد الفاصلة بينها وبين الطريق ـــ قمته المزدوجة في اتجاه الجهة الشرقية وسط السهل الممتد من جبل باني إلى نهر درعة. لم يكن في الإمكان مشاهدة خانق أديس، كانت تحجبه عن البصر التلال التي مررت عبرها جنوب واد توفسور.

26 نونبر

الذهاب في الساعة 6 و5 دقيقة. تركت سهل مدلس في الساعة 6 و9 دقائق وتسلقت رست جدايد Rist Djedeid، كندة Bourrelet صخرية تفصله عن نهر درعة في الساعة 6 و13 دقيقة وصلت قمة هذه الكندة وفي الساعة 6 و14 دقيقة كنت وصلت النهر. السرير من حمإ جاف في الأطراف ورطب في الوسط. مراع فسيحة كبرى وأجمات من الطرفاء كانت تكسوه خلال هذه الأيام الأخيرة نباتا كثيفا. كانت كل هذه النباتات، في الفترة التي أتحدث فيها، اطمرت تقريبا بسبب الحرث : الجزء الأكبر من الأرض مزروع ولازال الناس يحرثون باستمرار، في جميع الجهات لاترى إلا محاريث تجرها الثيران والخيول والجمال ولا يسمع إلا صياح الفلاحين وأناشيدهم.

سرير نهر درعة منبسط وعرضه 3,5كلم. تحده يسارا حافة منتظمة الانحدار علوها 100م : إنه الخط الأزرق الذي كانت تراه العين من تسنت وطاطا. وتحتل الكندة الصخرية، رست جدايد ـــ ذات 30م. علوا تقريبا والتي اخترقتها هذا الصباح ـــ الضفة اليمنى للسرير. عادة، يغيب النهر برمته بين الأعشاب العالية والأحراش : تقلع هذه النباتات عند حلول أمطار الخريف حتى يتمكن الناس من الحرث وتحتل السرير من جديد بعد انتهاء موسم الحصاد. في الفترة الحالية الكل مجتث باستثناء بقعة أرض عرضها 500م في الوسط : هنا، في الجزء الأوسط للسرير، التربة مبللة إلى حد أنه ليس من الممكن حرث الأرض ويمشي الناس فيها بصعوبة حتى بعد خلع نعالهم. خلال السنوات الممطرة جدا، لما تصل مياه درعة حتى هنا فإنها تغمر السرير بأجمعه وتنشيء فرشة مائية عرضها 4–3م. يستحيل عبورها : إذ ذاك تخصب المزروعات وتصبح المحاصيل الفلاحية مضمونة.

تتوصل المعادر بالقدر الكافي من الماء إن سقطت فقط بعض الأمطار ولكن ليس بالقدر الذي يحتم وصول مياه درعة العليا إلى هنا ـــ إذ تحمل إليها الماء الأنهار التي توجد هذه الحقول عند مقارنها : في هذه الحالة يخصب كل معدر إلا أن السرير لا يملأ ماء والقليل من الماء الذي يوجد في السرير سيسيل في 3 سواق موجودة في الوسط والتي سوف أراها عما قليل. وأخيرا إن كانت السنة جافة تماما فلا يصل الماء أي مكان وتبقى الأرض عقيما وتحدث المجاعة. لقد مرت عدة سنوات من المجاعة لذا استقبل الناس الأمطار الأولى بفرحة كبرى إذ اعتبروها بداية فصل شتاء مطير : توجه الناس بسرعة كبرى إلى المعدر وبدأوا يحرثون الأرض بنشاط متزايد.

لم يوجد لا أناس ولا حيوان خلال الأيام التي قضيتها بتنتزرت : كانت الأبقار والحمير والخيول والبغال والجمال مع الرجال في المعدر وكانت النساء بمفردهن والأطفال يحرصون المنازل. كان تكدس في هذا الشريط الضيق من الأرض منذ 15 يوما جميع ذكور هذا الصقع، المستقرون والرحل. هنا، يملك الأراضي سكان من الأطلس الصغير ومن سوس نفسه ومن الساحل، جاؤوا اليوم لحرثها.

في هذه الأيام، لسرير درعة، عادة مقفر، المظهر الأكثر بشاشة والأكثر نشاطا. عند طلوع النهار، يشعل الناس النار في عدة أماكن على طول ضفتي النهر فيخترق دخانها ضباب الصباح : تهيأ في هذه الفترة الوجبة الغذائية اليومية الأولى في صمت. ثم يغادر الرجال والبهائم الخيام ويشرع في العمل. يتطاير الضباب شيئا فشيئا، ومن وراء منحدرات الابط الأيسر الذي لا زال ذا لون مدادي داكن تنير الشمس النهر الذي تتلون رماله بلون وردي لطيف : تنبعث الحياة من جديد. ينتشر على سرير النهر عدد كبير من الناس. يخترق السرير الفلاحون في جميع الاتجاهات : لا يسمع إلا صهيل الخيول وعجيج الحيوانات وصياح الفلاحين الذي يهيج هذه الحيوانات.

ص 149

بعدما سرت في اتجاه عالية النهر بعضا من الوقت، وسط هذه الأشغال ووسط هذه الحركة الشاملة، وقفت على السواقي الثلاث حيث تتجمع حاليا كل مياه درعة. عرض ساقية أقصى الشمال 20م. وعمقها 1م. وبها الحمأ أكثر مما هو عليه في أي مكان آخر إلا أن هذا الوحل ليس به ولو قطرة ماء. تشبه الساقية الثانية الساقية الأولى وما لها إلا 10م. من العرض. وما عرض الساقية الثالثة

القصوى جنوبا إلا 8م. لكن عمقها ضعفا عرضها، وتنتشر عدة غدائر في قعرها. ماء درعة في هذه المنطقة مالح. تتلوى السواقي الثلاث وسط نبات كثيف، قصير القامة وتتزاحم أعشاب متنوعة في المنطقة في شكل زرابي مختلفة الألوان، تظللها أشجار من الطرفاء طولها من 3 إلى 4م. حملت روافد النهر، على أثر أمطار تساقطت حديثا في منطقة الجبال. ماء الساقية الثالثة والرطوبة المنتشرة في المعدر : يكفي ماء الساقية الثالثة والرطوبة المنتشرة في الجو لضمان الغلة المقبلة وإذا أضافت درعة العليا نصيبها من الماء فسيكون المحصول الزراعي أكثر وفرة. وإذا أتت مياه درعة العليا خلال فصل الربيع، بعد جمع هذه الغلة، فستمكن عملية البذر ثانية والحصول على غلة ثانية. يدوم الغمر الناتج عن وصول مياه درعة العليا أياماً قلائل.

اتبعت عند الرجوع نفس الطريق الذي كنت سلكته عند الذهاب مخترقا المدلس في نقطة أعلى من النقطة حيث اخترقته في المرة الأولى. للأدرع الثلاثة لواحة خانق الطرفة المظهر التالي : عرض الدرع الأول 20م. وأصواحه لينة جدا وقعره من رمال رطبة جزئيا ولا يوجد به ماء بتاتا. الدرع الثاني رطب جدا. وهو في نهاية الأمر شبيه بالدرع الأول. الدرع الغربي شبيه بالدرعين السابقين إلا أنه جاف أكثر مما كان عليه، عرضه 30م ويمثل نهاية الرمال وحاشية المدلس.

خلال هذه الرحلة، كان الرجل الذي يخفرني من إدا وبلال. كان الحصول على هذا الزطاط الوحيد صعبا. لقد ذهب جميع الناس إلى درعة : لأراضي المعدر الخصبة بجوار النهر ولو لم تكن محروثة خلال الجزء الأكبر من السنة ويعرف كل واحد من السكان بقعته : يباع الحقل في المعدر ويشتري ويكترى كأي ملك من الأملاك الأخرى. لا يهتم الناس بهذا الملك مادامت لم تسقط الأمطار وعند ظهور الغيوم الأولى في الأوفق يتهيأ الملاك للحرث أو للبحث عن أكّار. يزور الناس المعدر فترة الحرث والبدر لمدة 15 يوما أو 3 أسابيع : يذهب الرجال فقط إلى المعدر صحبة حيوانات الحرث حاملين معهم زادهم من الشعير والذرة والتمور في بعض الأحيان. ولا يصحب الفلاحون معهم الخيمة أبدا بل الكل يخيم ويخيم أيضا حتى الرحل منهم. يغادر الناس المعدر بعد انتهاء أعمال الحرث ولا يعودون إليه إلا في فترة جمع الغلات خلال شهر مارس. أثناء 3 أشهر ونصف الشهر، خلال الأيام الأول لشهر مارس من 1884، سوف أشهد حصاد ما يزرع اليوم

ـــ سيكون المحصول رائعا رغم كون مياه درعة لن تكون كافية بالتأكيد لسد حاجيات المزروعات. وسوف تأتي هذه المياه مباشرة بعد جمع المحاصيل الفلاحية وسوف تغمر سرير النهر خلال عدة أيام، إذن من المحتمل أن يتمكن الفلاحون من الحصول على غلتين خلال سنة 1884. ص 150

معدر إدا وبلال طويل جدا وينقسم إلى عدة أجزاء. تسمى القسمة التي زرتها رست جديد اشتقاقا من اسم المرتفعات التي تحدها.

2 ـــ أقـا

غادرت تنتزرت يوم 28 نوفمبر في الساعة 7 و30 دقيقة صباحا ووصلت إلى القبابة، أحد قصور أقا الأقصى شرقا، في نفس اليوم، في الساعة 6 مساء. خفرني رجلان : كان لي زطاطان ينتمي أحدهما إلى إدا وبلال والآخر إلى أيت أومربط لأنني كنت مضطرا إلى عبور أراضي كل من القبيلتين. يمكن تقسيم الطريق من تنتزرت إلى أقا إلى قسمين : من تنتزرت إلى سرير واد طاطا ومن سرير واد طاطا إلى القبابة.

الجزء الأول من هذا الطريق هو العرق كما نعرفه بسطحه المستوي والرملي والصلب وبباقاته من الملبنة والأكَايا والكمشة وأشجار السنط النحيلة يتراوح طولها ما بين 1م إلى 2م. وصخوره المتلوية كالأفاعي والتي تتجلى تدريجيا على شكل خطوط داكنة اللون على سطح السهل الأبيض ويعن من حين لآخر قصر وحزامه الطري من النخيل الشيء الذي يجعل المرء ينسى هذا المشهد الممل. كيلومتران قبل الوصول إلى واد طاطا. يقطع المسافر منخفضا اسمه إمشسن دون غطاء نباتي وتكسوه قشرة من أمرسل وهي غبرة بيضاء تشبه الملح لكن دون أي ذوق. قليل من الوقت بعد هذا، على بعد 1كلم، يتبلل الرمل ويكسوه نبات كثيف، باقات الملبنه والاكَايا ذات قامة باسقة وتنمو بينها الأقراس وهو نوع من السمار ذي لون أخضر داكن وتختلط الطرفاء بالسنط وتنشر أغصانها بعض النخيل البري فوق جميع هذه النباتات. يمتد هذا الغطاء النباتي حتى جوار واد طاطا حيث ينتهي. هنا ينتهي العرق ويبدأ الجزء الثاني من مسيري.

السطح دائما مستوي الأديم حتى هنا يصير رماديا ومحجوجرا. يخترق الطريق عدد كبير من السيول : كلها جافة وقعرها من حصى غليظ وعرضها 15-6م.

لا يتغير الغطاء النباتي ويتزايد عد السنط بعض الشيء : هكذا هي المنطقة الممتدة من واد طاطا إلى القباب : إنه خلاء مقفر.

انطلاقا من تتكَان آخر قصور طاطا، لم أصادف أنسيا واحدا خلال الطريق. كانت الأنهار التي عبرتها ـــ واد أديس (سرير صخري عرضه 20م، أصواح ضئيلة العلو)، واد طاطا (ينقسم إلى 3 أدرع : للدرع الأيمن 100م عرضا وعلو الأصواح 1-1/2م، من دماليك متدحرجة، قصر من صخور تتلوى وسطه 3م. من ماء شفاف، جاري ومالح، عرض الدرع الأوسط 30م. وهو جاف، عرض الدرع الغربي 60م وله سرير صخري وبه غدائر. تفصل بين هذه الأدرع المختلفة أراض غير مغمورة جزء منها من رمال ويغطي الجزء الآخر حصى غليظ ولا يوجد غطاء نباتي، وأخيرا واد فم مسكوه (ينقسم إلى 3 أو 4 أذرع للأوسع منها 30م. عرضا، كل هذه الأذرع جافة وذات سرير من حصى غليظة والأصواح متوسطة العلو من 2 إلى 3م) هكذا كانت سلسلة باني عند تيسنت، هكذا رأيته عند طاطا وسأجده على هذه الصورة في أقا. من أية نقطة تتراءى للمرء هذه السلسلة فلا يميز فيها أي اختلاف. يجد نفس العلو ونفس التكوين ونفس الشكل ونفس اللون في أي مكان. تقدم هذه السلسلة 3 نقط ملفتة للنظر ما بين خوانق طاطا وأقا، فم أزرفتن Azerftin وهو خانق ضيق ومقفر يفسح الممر لواد ازرفت وهذا الأخير جدول جاف، وفم مسكوه الذي يشبه الخانق السالف الذكر وتيزي أقا وهو فج ينطلق منه طريق ثانٍ يوصل من طاطا إلى أقا. يتبع هذا الطريق القدم الجنوبي لسلسلة باني من طاطا إلى أقا ويخترق السلسلة عند هذا الممر ويحاذي قدمها الشمالي حتى الوصول إلى خانق أقا. يوجد تيزي أقا على مستوى أقل بعض الشيء من المستوى العام للاعراف. واحة أقا، والتي تسمى أيضا واحة أقا وشعيب، تشبه واحة تيسنت، غابة نخيل كثيفة متكدسة جنوب الخانق حيث يعبر واد أقا جنوب سلسلة باني، تمتد في جزء كبير منها على جوانب هذا النهر. يشارك مجرى مائي ثاني في توفير الماء لسقي الواحة : ينبع واد قبابة هذا من سلسلة باني شرق فم أقا ويسيل عند قدم السلسلة الجبلية حتى يصل إلى الخانق ويتجه من هنا نحو الجنوب ساقيا القسيمة Portion الغربية من المغروسات.

بُني أكثر عدد قصور أقا عند حدود الواحة ـــ كما هي عليه قصور تيسنت ـــ ويوجد قصر واحد في الوسط. القصور عشرة وهذه أسماؤها : تكَاديرت،

توررت، ارحال، الزاوية، القصبة، أكَدير أوزرو، القبابة، أيت جلال، أيت بوفضايل، أيت عنتر. فيما مضى، كانت تكَاديرت تحتل المرتبة الأولى : توجد في نفس القوة حالياً كل من تكَاديرت، توررت، إرحال، وأكَدير أوزرو، تحتل القصبة والقبابة مرتبة أدنى من سابقتها وتأتي الزاوية في المرتبة الأخيرة. يرجع اسم الزاوية إلى وجود ضريح سيدي عبد الله ومبارك بها.

تتكون الساكنة من خليط من الحراطين والشلوح. وللأولين الأسبقية العددية. واحة أقا، فيما مضى دون ذبيحة، هي حاليا تحت سيادة أيت أومربط منذ 40 سنة خلت. لكل قصر حكومته. الخاصة ويسير شؤون القصر شيخ. شيوخ أقا وراثيون وهم أقوى من شيوخ تيسنت وطاطا : إنهم شلوح ومسقط رأسهم المنطقة باستثناء شيخ القبابة أحد شيوخ آيت ومربط.

توجد أقا في نفس ظروف طاطا التجارية. كانت فيما مضى نقطة وصول قافلات الجنوب فكان يتوافد على أسواقها الذهب والعبيد والجلود ومنسوجات بلاد السودان، ونمت صناعة محلية إلى جوار حركة تجارية هامة : كانت أقا مشهورة بحليها المصنوعة من الذهب. اندثرت الآن جميع مصادر الثروة، فاليوم لا تجارة ولا صناعة ولا علاقات تجارية مع جهات بعيدة. إنها واحة تعيش على أرباح منتوجات نخيلها كما هو الأمر بالنسبة لواحتي طاطا وتنت. لكن لازال سوقان أسبوعيان تقامان هناك يرد عليها قليل من الناس : سوق الأحد لتوررت وسوق الثلاثاء لأرحال. وتحولت الحركة التجارية مصدر ثروة هذه الجهة سابقا إلى تندوف وتيزونين. ص 152

تتساوى واحة أقا مع واحة تيسنت وربما تتفوق عليها فيما يخص مظهرها البشوش وجمال طبيعتها : توجد بها جميع أنواع الفواكه. تنتج، وبكثرة، التين والعنب والرمان والمشمش والخوخ والبندقة والتفاح والسفرجل — إضافة إلى التمور من أنواع بوزكري وبويطوب والجهل وبوفكَوس وبوسواير. يسقي هذه البساتين عدد كبير من القنوات : يوجد الماء بوادي أقا وقباله خلال جميع فصول السنة ويصاد السمك في النهر الأول.

يرى المسافر، انطلاقا من أقا في اتجاه الجنوب، واحتين منعزلتين وسط السهل. تسمى الأولى، وهي قريبة، أم العالكَ El Aleg : إنها قصر صغير تحيط به بعض

أشجار النخيل. والواحة الثانية، وهي بعيدة، هي تيزونين : إنها موضع مهم وتبدو على شكل أكمة رمادية اللون في الخلاء.

أيت أومريبط، الذين توجد على أراضيهم أقا، قبيلة متعددة الأفراد رحل يقطنون بين سلسلة باني في الشمال وإدا وبلال في الشرق ووادي درعه في الجنوب وقبائل مختلفة في الساحل عند الغرب. تنقسم هذه القبيلة إلى عدة فخدات أقواها فخدة آيت ويران Ou Iran. يحتلون الجزء الأكبر من الإقليم ويوجد تحت سيادتهم قصور أقا وتيزونين ونزكَ إلحراطين ونـزكَ السلام [Nbp] وتدكـوشت Tadakoucht وإشت Icht. فيما مضى، كان إخوان الشيخ حامد المستقر في تيزونين، والشيخ محمد المستقر في قباله — يسيران القبيلة : لقد توفي كلاهما وخلفهما أبناؤهم. يعيش عدد قليل من آيت وإرن في الواحات المحمية وتعيش أكثريتهم في الخيام. لا تملك هذه المجموعة البشرية معدرا خاصا بها : إنهم يملكون ويكترون قطعا أرضية في معادر إدا وبلال، طاطا وأقا. النزاعات متكررة بين أفراد فخدات أيت أومريبط وقليلة داخل الفخدات نفسها. القبيلة مستقلة ولا علاقة لها مع السلطان.

5 — إدا وبـــلال

غادرت تنتزرت قليلا من الزمن بعد رجوعي من أقا : تجوالي بالجوار وتلميحات اليهود المغرضة كانت أثارت الشبه حول شخصي وجعلت إقامتي معرضة للأخطار. جاء الدوبلالي [Nbp] حيان — الذي منحني حمايته — على عجل خوفا من الاعتداء على زبونه، لإخباري بالشائعات الرائجة والأخطار التي كانت تهددني. اقترح علي أن يسكنني في بيته في تلكَ الريح فقبلت اقتراحه هذا.

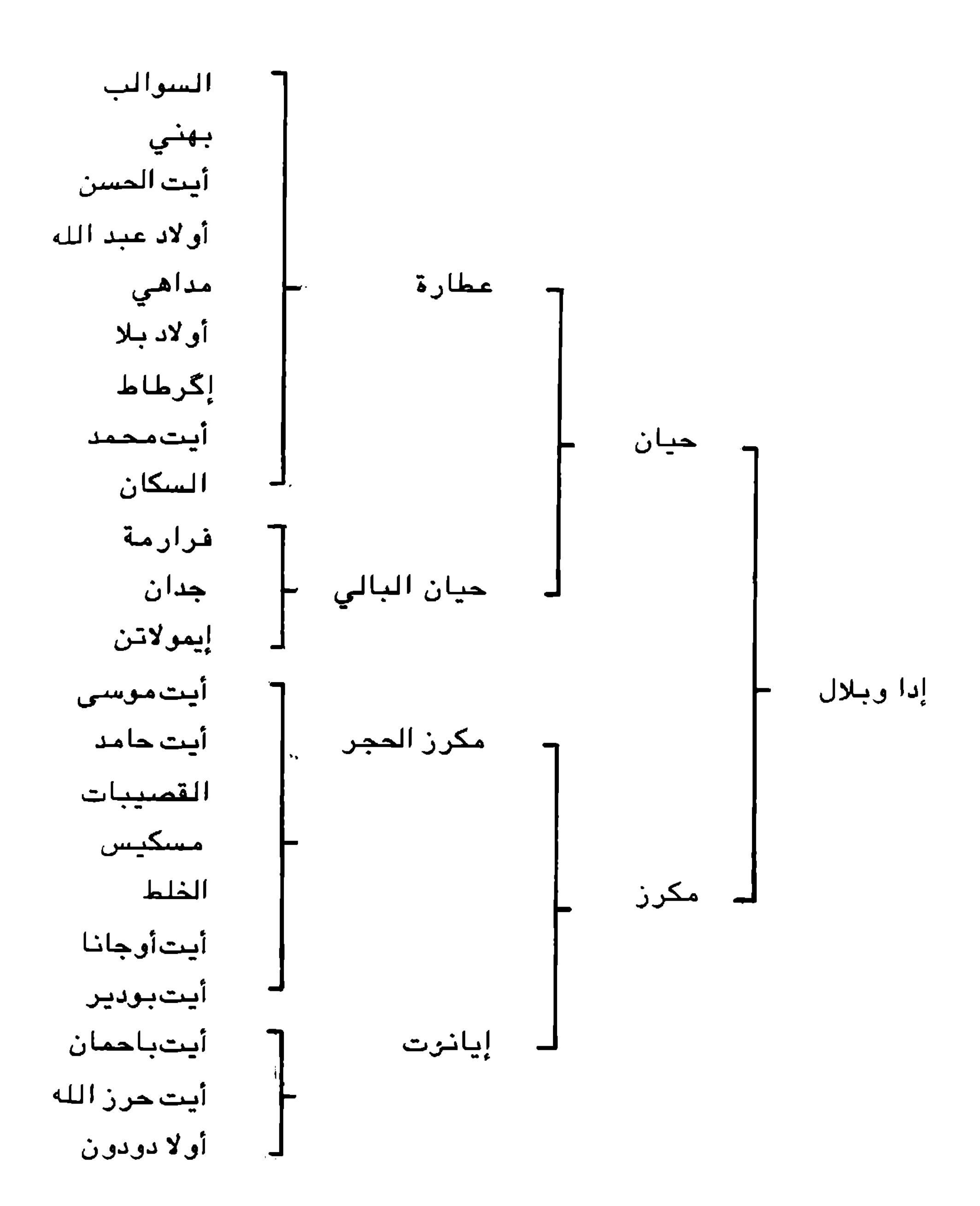
تلكَ الريح قصر أصغر من تنتزرت، ينتصب وسط العرق فوق أكمة منعزلة تنتشر مساكنه فوق سفوحها وتتوج قمتها : جعل هذا الموضع الرحل يطلقون على القصر اسم تلكَ الريح — «بنت الريح» وكان يسمى اسببطن Isbabten فيما مضى. بساتين تلكَ الريح فقيرة : لا يوجد بطاطا موقع فيه النخيل أقل عددا مما هي عليه في هذا القصر.

أهل إدا وبلال قبيلة رحل يدعون أنهم من أصل عربي [Nbp]. يقيمون بين المنحدرات الأولى للأطلس المتوسط شمالا وأيت أومريبط غربا. تمتد أراضي القبيلة على مسافة عدة أيام من السير عبر الصحراء جنوبا وهذا دون حدود مضبوطة : لا تفصلها عن السودان أية قبيلة. إن كان إدا وبلال يجوبون، دون أدنى قيد، هذه الأراضي الشاسعة فخيامهم تحتل جزءا ضعيفا من أرض المنطقة. لا تتفرق عندهم الخيام لاعتبارات أمنية : في كثير من الأحيان تتجمع كل الخيام في نقطة واحدة ونادراً ما تتوزع إلى أكثر من مجموعتين. خلال الجزء الأكبر من السنة توجد القبيلة بجوار تيسنت أو خانق الطرفه، بين سلسلة باني ونهر درعة. خلال فصل الربيع، تخترق القبيلةُ النهر للالتحاق بالمراعي الغنية الموجودة على الضفة اليسرى بين درعة وحمادة. يتعدى ميدان عمليات إدا وبلال حدود أراضيهم. تتمثل هذه العمليات في أمرين : توفير العنايات والقيام بالغزوات، نجدهم تارة على شكل مجموعات صغيرة خافرين القوافل وتارة أخرى في شكل جماعات عدد أفرادها 50–60 يجوبون الأرض قصد مباغثة القوافل غير المؤمنة من طرف قبيلتهم — انطلاقا من طاطا إلى تنبكتو ومن طاطا إلى الأدرار، داخل المثلث الموجود بين هذه النقط الثلاث، في الساحل جنوب نهر درعة. هذه هي الميادين الرئيسية لهجماتهم إلا أن هذه الجهات ليست الوحيدة حيث يمارسون أعمالهم المشار إليها أعلاه : إنهم يتجولون في الفيجة شمال سلسلة باني ويرسلون طلائع هجماتهم هذه ضد العرب والبربر في اتجاه جنوب نهر درعة ويواصلون هذه الأعمال العدوانية حتى تافيلالت وتوات.

ص 154

نقدم فيما يلي عناصر شجرة قبيلة إدا وبلال.

تتوفر إدا وبلال على 1800 بندقية وعلى 100 فارس. فيما مضي، كانت الخيول كثيرة الأعداد إلا أن الصراعات الأخيرة بين حيان ومقرز استأصلتها. انتهت هذه النزاعات لصالح حيان ولم تنطفئ بعد ضغينة هذه الصراعات رغم اقرار السلم بين المتنازعين. كادت تكون الخسائر البشرية متساوية بين الجانبين أثناء هذه المشاجرات المسلحة : هلك 120 شخصا من حيان و150 من مقرز. سبق أن تحدثنا عن سبب هذا النزاع : كانت انطلاقة شراراته الأولى هجوم أهل مقرز على شلح من تنتزرت كان زبونا خليفا لأهل حيان.



إدا وبلال
حيان
مكرز
عطارة
حيان البالي
مكرز الحجر
إيانوت
السوالب
بهني
أيت الحسن
أولاد عبد الله
مداهي
أولاد بلا
إكرطاط
أيت محمد
السكان
فرارمة
جدان
إيمولاتن
أيت موسى
أيت حامد
القصيبات
مسكيس
الخلط
أيت أوجانا
أيت بودير
أيت باحمان
أيت حرز الله
أولا دودون

فيما مضى، كان شيخ وراثي يسير أمور كل فخدة من فخدات إدا وبلال وحاليا لازالت العائلات التي تحمل هذا الاسم تملكه لكن دون ممارسة ولم تعد السلطة الفعلية مرتبطة بهذا الاسم : تسير المجموعات البشرية نفسها بواسطة أعضائها الرئيسيين دون ارتباط بالآخرين. لأحد أفراد قبيلة إدا وبلال سلطة كبيرة على القبيلة كلها ويمكن اعتباره قائدها ولو لم يكن يحمل هذا اللقب : اسمه علي ولد بن نعيلات إنه يعيش في الخيمة مع جميع أفراد قبيلته. حيان رغم امتلاكه مسكنا في تلك الريح، ويحظى باعتبار كبير لدى أهل مقرز مثل ما يحظى به لدى حيان أهله. لا يقبل منه أهل إدا وبلال إلا ممارسة نفوذين بدرجات مختلفة باستثناء هذا الاعتبار الأخلاقي : السلطة الأولى مادية وتتمثل في النفوذ الذي يتمتع به علي بن الهيبة سكين جباير عن طريق ثرواته الشخصية، والسلطة الثانية روحية وتتمثل في نفوذ الجاكاني حامد دينية، ابن المختار، مرابط تندوف.

إدا وبلال مستقلون ولا يعترفون بتاتا بالسلطان. سألت أحدهم يوما عما إذا لم تكن لهم في يوم من الأيام علاقات مع السلطان فأجابني هذا الأخير قائلا : «بلى. لقد كانت لنا معه علاقات منذ سنة ونصف سنة مضت. كانت هذه العلاقات هكذا : كان مولاي الحسن قد بعث، خلال حركته في الساحل، كتابا ومخازنية لجمع الضرائب في رأس الواد. كان ردنا أن بعثنا جماعة منا لتتربص بهم. لما كان ناس المخزن في طريق العودة والبهائم محملة بالفضة هجمنا عليهم واجبرناهم على الفرار وعدنا، منتصرين، بضرائب أهل سوس وخيول المخزن. كانت هذه آخر علاقات قبيلتنا مع المخزن. وأشك أنه كانت لها مع المخزن علاقات أخرى من نوع آخر.

عند إدا وبلال ــ كما هو الأمر في تنتزرت ــ لا يرى المرء إلا ذكورا في مرحلة الشباب ــ وأقفرت القبيلة : أنهكت النزاعات الداخلية القبيلة بعد ما كانت قوية خلال 15 سنة الماضية. يجد الآن أهل إدا وبلال صعوبة لمقاومة هجومات القبائل المجاورة لهم وقد كان، فيما مضى، جميع سكان الصحراء يرتعشون لذكر اسمهم. لم يعودوا ينشغلون بتنظيم الهجمات على الآخرين بقدر ما يحترسون من غزوات الآخرين ضدهم : يهجم عليهم البربر بدون انقطاع. ويعلن في كل لحظة عن هجوم جماعة من البربر على إدا وبلال عند نقطة ما من أراضي هؤلاء الآخرين

وشاهدت شخصيا إحدى هذه الجماعات من البربر ترتمي على بساتين تيسنت،
15 و15 يوما بعد هذا الهجوم انقضت جماعة أخرى على العدر شرق رست جديد.
هذه الغارات مخالفة لكل قانون، ذلك أن إدا وبلال زبناء للبربر. كل سنة، يبعث البربر ممثلين لهم لجباية الإتاوة وقدرها أوقية لكل مالك بندقية ـــ إضافة إلى أوقيتين لكل ناقة وأوقية واحدة لكل حمار في ملك أفراد إدا وبلال مسافرين عبر أراضي البربر : فيما مضى، كانت المعاهدات محترمة من طرف الجانبين، أما اليوم فيغتنم البربر ضعف مقطعيهم فيفرضون تطبيق البنود المفيدة لهم ولا يراعون البنود التي تحافظ على مصالح إدا وبلال.

إدا وبلال تابعون للبربر وهم ـــ في نفس الوقت ـــ سادات لعدد كبير من القبائل والمقاطعات : آيت جلال، قصور أنزن Ounzin وقصور أودية أجنان وأيت منصور وطاطا وتيسنت وقصور الفايجة باستثناء قصبة جوا والقصور الموجودة جنوب سلسلة باني الموجودة داخل أراضيهم ـــ جميع هؤلاء زبناء لهم.

يترتب عن هذه المعاهدات المتعددة علاقات دائمة بين إدا وبلال والقبائل المجاورة لهم. خلال مدة الشهر ونصف الشهر رأيت أكثر من 10 وفود قدمت إليهم وكلها أتت لنفس الغرض : شكاوي في موضوع نهب قوافل ـــ رغم وجود معاهدات الدبيحة ـــ وطلبات إعادة المنهوبات. كان المطالبون بإرجاع المنهوبات من البربر ومن أيت جلال ومن شلوح من الأطلس الصغير وكان أيضا أناس من تافيلالت.

يغادر إدا وبلال الصحراء قليلا. يذهب بعضهم فقط إلى مكَادور ومراكش ولم يذهب أحد منهم إلى مكة للحج. لهم معرفة جيدة بإقليمهم وهم على علم بما يجري في المنطقة الممتدة من هنا حتى تافيلالت وواد نون وتنبكتو والادرار.

يوجد حاليا إدا وبلال على أسوء حال : افقرتهم النزاعات الداخلية الأخيرة وعدة سنوات من المجاعة. القبيلة غنية في الظروف العادية : لا قيمة لقطعانها حاليا إلا أنها كثيرة الأعداد عادة. يوفر المعدر الحبوب الكافية لسد الحاجيات الغذائية الومية ويتعاطى بعض أفراد القبيلة للتجارة مع السودان. وأخيرا تملك القبيلة في الصحراء مصدر مداخيل لا تنضب ممثلة في المداخيل التي تحصل عليها عن طريق خفر القوافل والغنائم التي تجنيها من نهب القوافل.

الغزوات أو الهجوم على القوافل أولى المؤسسات عند إدا وبلال. تنظم هذه الهجمات على الطريقة التالية : يعلن أفراد معروفون بجرأتهم أنهم سيقومون بهجوم وينادون على بعض ذوي الاستعداد للمشاركة في هذه العملية. يقترح شباب القبيلة أنفسهم وفي كثير من الأحيان ينضاف إليهم من شلوح القصور المجاورة أو يعير هؤلاء الآخرون خيولهم مقابل جزء من الغنيمة المنتظرة. يشتمل طاقم الهجوم على الجمال والخيول والراجلين. يتكون عدد الراجلين ما بين 400 أو 500 شخص ينفذون هجمات خلال فترة زمنية قصيرة وداخل مجال ذي شعاع ضيق. لا يتعدى عدد أفراد الهجمات الأخرى 100 شخص. ينجزون عملياتهم هذه بعيدا عن قواعدهم. تصحبهم خيول محملة بالتمور ويستقرون قرب نقطة ماء : يرسلون فرسانا للاستكشاف كل يوم وما إن يلمح أحدهم قافلة أو مسافرين حتى يسرع للاخبار بهم. يترامى المتربصون في أعقاب الطريدة ويستولون على البضائع وينهبون الأشخاص : إذا كان هؤلاء من قبائل بعيدة أو ينتمون إلى قبائل ضعيفة أو كانوا يهودا فإنهم يرجعونهم إلى أهليهم أحياء. أما إن كان ضحايا الهجوم ينتمون إلى فخدة قبيلة قريبة يرتقب منها أخذ الثأر لما وقع فيقتل المغيرون ضحاياهم حتى لا يذيعوا سر ما اقترفوه ثم يرجع المهاجمون إلى جمالهم متربصين ضحايا آخرين من جديد. يبقى المهاجمون متربصين في نفس المكان أو ينتقلون إلى نقاط ماء مجاورة مادام هناك تمور. يعود الغزاة إلى منطلقهم عند نفاد ذخيرتهم من التمور. في بعض الأحيان، يحدث أن يفاجئ الهجوم دواوير قبيلة مجاورة يعرف المهاجمون أنها قرى منعزلة أو ذات حراسة غير كافية لرد هجماتهم.

ص 157

إدا وبلال، هؤلاء الكفرة الذين يرفضون الاستماع إلى «رجال الدين» لا يذهبون إلى غزوة دون أن يوجد بينهم واحد منهم. يصحبونه معهم للدعاء حتى تكون الحملة مثمرة : كل يوم يصلى المرابط المصاحب طلبا لمساعدة الهجوم وإن يسقط ضحايا كثيرين في شباكهم وإن يلهم المهاجمين إلى نصب انفع الكمائن. تؤدى خدمات هؤلاء المرابطين من أرباح العملية : إذا حقق الهجوم غنائم مربحة سيأخذ المرابط المصاحب نصيبا مهما. وإن ذهبت الجهود سدى و لم يجن أي ربح — فإنه مرابط ردئ الدعوات ويشبع شتما ولا يعطي أي شيء ولن يصاحب أفراد الهجوم مرة أخرى في عملياتهم المقبلة. الخطر الوحيد الذي يهدد المسافرين في هذه المنطقة هي الغزوات التي تجوب الصحراء من سلسلة باني إلى السودان في

جميع الاتجاهات. ما على القوافل الكبيرة المكونة من عدة مئات الأشخاص أن تخشى أي شيء. إنها مسلحة ولا يجرؤ أي على مهاجمتها : تخترق هذه القوافل الصحراء بين تمبكتو من جهة وتندوف ودرعة وتافيلالت من جهة أخرى في فصل كل ربيع وخريف من كل سنة. على التجار الذين يحاولون اختراق الصحراء بمفردهم ــ قصد تحقيق أرباح أحسن عن طريق استباق القافلة بوجه عام ــ أن يتقوا كل أنواع الأخطار. في هذه الظروف يحاول هؤلاء التجار الانفلات من الهجمات ــ عن طريق اللجوء إلى تكوين قوافل ذات أعداد صغيرة وعن طريق محاولة الزيادة في سرعة السير عند معاينة المهاجمين : في بعض الأحيان يتحقق لهم الإفلات من الوقوع في قبضة المغيرين : هكذا تمكن الدكتور لنز Lenz من اختراق الصحراء تقريبا بمفرده.

هنا، لازالت قصة مروره بتندوف على جميع الألسنة. كان الناس يتعجبون من جرأته إذ كان بهذه الواحة عشية غوصه في الصحراء : كيف لامرىء بمفرده المغامرة وحيدا في هذه القفار المروعة، وهل كان يفكر في كل إمكانيات النهب التي قد يتعرض لها من طرف البربر وأولاد دليم الركَيبات ؟ كان جوابه أن أشهر بندقيته.

ــ «ماهو عدد أفراد هذه الغزوات التي تريدون أن أخافها ؟
ــ عددهم 60 أو 80 فردا وربما 100
ــ أليس أكثر من 100 شخص ؟
ــ ليس أكثر من ذلك
ــ اذن انظروا».

أسند البندقية إلى كتفه واطلق 150 طلقة نارية مسترسلة وقد قام بهذا كله دون أن يزود سلاحه.

لدى إدا وبلال أفكار جد غريبة حول المسيحيين : يعتبرهم البعض نوعا من الشياطين Des génies، نوعا من سحرة بدل كونهم أناساً عاديين. يظنونهم قليلي العدد، منتشرين على بضع جزر في الشمال وذوي قدرة خارقة للعادة. كان البعض يسألني إن كان صحيحا أنهم يحرثون البحار، وسألني الآخرون إن كان الفرنسيون أكثر عددا من عدد إدا وبلال. هذا السؤال الأخير مقبول : إنهم يعرفون عنا أمرا

واحدا ــ منذ 3 سنوات، يقوم عدد قليل من سكان فكَيك من شلوح وحراطين بالجهاد ضدنا دون أي عقاب من طرف السلطة الفرنسية. هل كان لهم أن يتجرأوا على مهاجمة قبيلة مثل إحدى قبائلهم ؟ هل سيدخل حراطين تيسنت في صراع مع إدا وبلال ؟ أبدا. يحكم على قوتنا حسب تصرفنا إزاءهم : في فكَيك : لا يمكن لامرئ من هذه القبائل أن يستخلص من هذا التصرف لنفسه فكرة ذات قيمة ــ وهذه هي صورة سمعتنا في الصحراء المغربية، من الساحل إلى نهر زيز. لا يقبل أن يكون صبرنا في فكَيك احتراما لمولاي الحسن فهو ليس صاحب فكَيك. هل يوجد شيء مشترك بينه وبين هذه الواحة ؟ فعلا، لم يعد هناك أي جهل في وضع فرنسا وإدا وبلال في نفس المستوى واعتقاد فكَيك خاضعة لسلطان فاس. ص 158

6 ــ رجوع إلى تيسنت. مغيميما

كانت واحة أقا والمعدر هما الحدود الغربية والجنوبية التي كنت رسمتها لسفري. كنت نويت الانشغال بعودتي بعد بضعة أيام قضيتها في تلكَ الريح. كان من المفروض أن تتم هذه العودة عبر ترناته أو مزكَيطه ومنطقة دادس وكانت تيسنت آخر مرحلة في هذا الطريق : طلبت من رفيقي أن يعيدني إلى تيسنت.

17 دجنبر

ذهبت في الساعة 8 و30 دقيقة صحبة 3 أشخاص من إدا وبلال. اخترقت خانق أديس ثم توغلت في واد عاصف اسمه وداد حيث التحقت من جديد بطريقي خلال الذهاب. نوجد دائما في العرق من تلكَ الريح إلى إيمي ــ ن ــ واقا، رمال صلبة تتخللها باقات الملبنة والأكَايا. فيما وراء واد إم ن واقا أجد من جديد المنطقة التي كنت اخترقها عند الذهاب إلى تنتزرت، سطح محجوجر به أشجار السنط كثيرة خاصة عند جوانب مجاري المياه. وصلت في الساعة 3 و30 دقيقة إلى أقا إجرن مبيتي هذا اليوم.

رأيت عند خانق أديس عدة مجاري مياه جديدة، واد تلكَ الريح (عند قدم قصر تلكَ الريح، سرير عرضه 12م إنه جاف لكن به ماء في اتجاه العالية قرب تييتي،

واد أديس (عند قدم تمسولت عرض السرير 20م. منها 8 من ماء صاف وجار عمقه 40سم، أصواح من تراب من 1/2، علوها 5م)، واد إزرزن Izourzen (50م عرضا، جاف، سرير من حصى غليظة، أصواح من رمال علوها 1م إلى 2م).

18 دجنبر

ذهبت في الساعة 8 صباحا من إجرن. وصلت إلى أكَدير تيسنت في الساعة 4 مساء. تغير مظهر مجال المنطقة بين طاطا وتيسنت خلال شهر من الزمن : تغيرت النباتات : الملبنة المعمرة عند نهاية شهر نوفمبر قد يبست الآن وانتقلت الاكَايا من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر. لما كنت مررت بالمنطقة لم تكن ترى العين إلا هذه النباتات بالإضافة إلى الكمشة، خرجت من الأرض أعداد كبيرة من النباتات والزهور وهي تكسو الأرض خضرة الآن. توجد هذه النباتات والزهور خلال طول المسار هنا في الرمال ومتسللة هناك بين الأحجار وتحل محل ألوان الزهور والأوراق الناصعة في أي مكان من وجه الأرض.

إقامة في تيسنت

عند وصولي إلى أكَدير نزلت عند الحاج بورحيم الذي كان خلال مروري الأول بالمنطقة طلب مني قبول ضيافته عند الرجوع. فرضت علي ظروف غير منتظرة أن يكون هذا الرجل رفيق كل يوم خلال قرابة 4 أشهر. لا أستطيع أن أقول كم كنت راضيا عنه ولا أستطيع التعبير عن الدين الذي أدين له به : كان الحاج بورحيم الصديق الأمين والأقل بحثا — في معاملاته معي — عن منفعته الشخصية والأكثر إخلاصا في تصرفاته. عرض حياته للهلاك خلال مناسبتين لضمان حماية حياتي : لقد اكتشف أنني مسيحي بعد قليل من الزمن من التعرف علي ولقد صرحت له أنا نفسي بهذا فيما بعد : لم يزد هذا المظهر من الثقة المتبادلة إلا في تنمية تعلقه بشخصي. الحاج بورحيم حرطاني، إنه أحد كبار سكان تيسنت.

لم يخطر ببالي، يوم 18 دجنبر، عند دخولي إلى منزله أنني سأعيش معه خلال عدة أشهر. لم أكن أفكر آنذاك إلا في شيء واحد : الوصول إلى ترناتة أو مزكَيطه أو تينزولين ومتابعة طريقي سريعا في اتجاه الشمال الشرقي. الانتقال من هنا إلى

ترناتة أمر صعب، يسافر المرء من هنا إلى محاميد الغزلان بدون عناء كبير صحبة زطاطة من البربر ولابد من اختراق أراضي أولاد يحيى للوصول مباشرة إلى تينزولين أو ترناتة. في الظروف الراهنة أولاد يحيى في صراع مع إدا وبلال وأكَدير. إضافة إلى هذا تسود بينهم حاليا مجاعة مهولة تفوق وبكثير المجاعة المتفشية هنا في هذه الضائقة Détresse تحول جميع السكان إلى نهابين يهجمون على كل من يمر على مرمى بندقيتهم وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ولا يحترمون أية عناية.

فكر الحاج بورحيم ومولاي حيان المكلف بي في الوسائل التي تمكنني من متابعة طريقي : هناك حلان للخروج من هذه الوضعية : يتمثل الحل الأول في الاتصال بأحد رجال إدا وبلال له علاقة قرابة بين أولاد يحيى ولازال على علاقة طيبة معهم رغم النزاعات الجارية فيطلب من هذا الدوبلالي أن يستقدم إليه زطاطة ثقات فيسلمني الحاج وحيان إليهم ليوصلني هؤلاء الزطاطة إلى تينزولين. في هذه الحالة، سوف يحرر عقد ــ كما جرت العادة في الصحراء عندما يتعلق الأمر بأمور خطيرة ــ يشهر الزطاطة بواسطته مسؤوليتهم نحو شخصي أمام قبيلة إدا وبلال، مصرحين في حالة وقوع نازلة مؤسفة في حقي، أداءهم لهذه القبيلة كمية مهمة من المال. ويتمثل الحل الثاني في الذهاب إلى مرممه، قرية قريبة من هنا وحيث توجد زاوية سيدي عبد الله ومبارك.

ص 160 يحظى سيدي عبد الله، الرئيس الحالي للزاوية، باحترام كبير لدى أولاد يحيى وهو أشهر وأكثر وقاراً في ربوع ما بين سوس ودرعة بعد زاويتي تمكَرت وسيدي أحمد وموسى. لربما سيطلب منه أن يأمر أحد أبنائه شخصيا بمصاحبتي إلى تينزولين. ليس هناك زطاط يتمتع بمثل هذه الحماية، وعندها لم يعد المرء يخشى أية خيانة : يمكن للمرء أن يوكل أمره إلى مرابطي مريميما. تم الاختيار على هذا المشروع. إذن سأذهب إلى مغيميما.

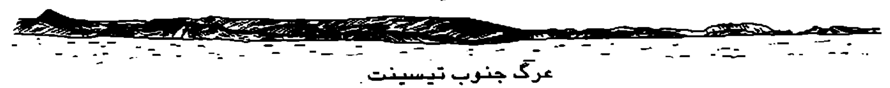
26 دجنبر

الذهاب في الساعة 9 و30 دقيقة صحبة الحاج و3 أشخاص من إدا وبلال وضمنهم حاميي. عند مغادرة الواحة، قرب الزاوية، أجد سهلا من رمال صلبة تنتشر فوقها بعض باقات من الأكَايا والملبنة. بلغت نهاية هذا السهل عند الساعة 11 و15 دقيقة ودخلت معبرا بين جبلي فكَوسات وكدية بوموسي. جبل

فكَوسات ثعبان من صخور سوداء ضيق وقليل العلو شبيه بثعبان تنتزرت. كدية بوموسي أكثر علوا وهي كتلة خشنة من تلال رمادية داكنة ذات منحدرات لينة. يمتد بين الجبل والكدية ممر واسع حيث أسير. السطح من كثبان رملية علوها ما بين 1م إلى 2م ونباتاته أكثر حيوية مما كانت عليه من قبل : الأكَايا أطول قامة وأكثر وفرة وتختلط بباقي من السبت Sebt. الرمال مبللة في بعض المواضع، في هذه الحالة تختفي الرمال تحت النباتات وتكسوها الزيادة والحامد وادن نجا وغريم الغزل.

في الساعة 12 و15 دقيقة غادرت المعبر واخترقت جبل الفكَوسات. يرى المرء من أعلى عرفه الصحراء حتى درعة سهلا شاسعا تتخلله ثعابين صخرية وتلال شبيهة من حيث المنظر بتلك الثعابين التي تمتد جنوب طاطا إلا أن السطح يبدو هنا أكثر وعورة مما كان عليه هناك والسلاسل الجبلية أكثر عددا وأكثر علوا. السلسلتان الجبليتان الرئيسيتان هما جبل محيجيبة أو كدية مغيميما، وجبل همسيليخ. تبدو الأولى ذات ارتفاع ما بين 60م و70م فوق سطح السهل المجاور لها وللسلسلة الثانية علو يفوق هذا الارتفاع. كلتا السلسلتين من صخور عارية وإبطها ذات انحدار لين. جبل محيجيبة أسود اللون ولامع مثل جبل باني وهمسليخ ذي لون فاتح ويحتوي على معادن حسب ما يقال. أرى على بعد خطوات من الطريق أجمة مشهورة في الاقليم : إنها تأوي ينابيع سيدي عبد الله ومحند. إنها ذات جريان دائم وذات خاصية نادرة : كل امرئ مصاب بداء خنزري ما عليه إلا أن يذهب إلى قبة سيدي عبد الله الموجودة في الزاوية وأن يقضي بها 3 أيام في الصلاة وتقديم القرابين وأن يستحم هنا : يكون شفاؤه مضمونا بعد هذا كله.

تنطلق عدة عيون ومجاري مياه أخرى من كدية بني موسى في اتجاه أبعد إلى الشرق. توجد هنا مقاطعة اسمها معدر الجلد حيث توجد مراعي وافرة مهما كانت حالة الجفاف، ينبت العشب بكثرة، وتوجد حاليا خيام إدا وبلال بمعدر الجلد.



من الجانب الآخر للفكَوسات، اخترقت شِعْبين Vallons متوازيين قعرهما من رمال صلبة حيث تنبت بعض أشجار السنط. نفذي إلى سهل بعد اختراق هذين

الشعبين. تربة هذا السهل صلبة وتكسوها جلامد تحيط بالجوانب الجافة للجداول. يمتد هذا السهل بعيدا. تحد هذا السهل شمالا حافة منخفضة يخترقها واد تيسنت عند تيزي إكَد وهمسليخ شرقا ومحيجبه جنوبا. يمتد هذا السهل غربا حتى خط زويزل المنتظم الشكل واللين والذي هو حافة أكثر مما هو تلال. يخترق هذا السهل كل من واد تسنت وزكَد اللذين يلتقيان فيه قرب مغيميما ويغادرانه للاتصال بنهر درعة عبر ثغرة واسعة هي فم تنتكَرفه. تكشف هذه الثغرة، في البعد، عن تلال الدرعة الزرقاء. ترى نخيل مغيميما عند قدم محيجبيه التي سرت في اتجاهها.

يظهر فم زكَيد في اتجاه الشمال الشرقي. إنه خانق في جبل باني شبيه بخانق أقا وطاطا. توجد هنا واحة زكَيد ويمر هنا الواد الذي يحمل نفس الإسم. تبدو 4 أو 5 ربوات منعزلة منتصبة في السهل بين مغيميما وفم زكَيد. على بعد 6 أو 8 كلم من هنا، تسمى هذه الربوات القلوب الصغيرة أو كلوب مريميرا. تميزه هذه النعوت عن كَلب آخر كنت رأيته عند الذهاب إلى المعدر. لا تتغير حالة السطح حتى الوصول إلى مغيميما : مستوى، صلب، محجوجر، كلما اقتربت من العدر تزايد عدد أشجار السنط. دخلت القرية في الساعة 2.

باستثناء واد تيسنت، اخترقت مجرى مائيا واحدا كان ذا أهمية اسمه تازروت تملكًا (سرير عرضه 20م تغمر منها 10 مياه صافية وجارية، قعر من صخور).

إقامـة في مـغـيـمـيـمـا

نزلنا أنا ومرافقي، في أحد مساكن القرى : إنها دار غير مأهولة في ملك سيدي عبد الله الذي يملك عدة دور أخرى مثلها يستعملها لإيواء ضيوفه بمناسبة سوق مشهورة تقام كل سنة. قدم إلينا أبناء الشيخ مباشرة بعد استقرارنا : عدد أبناء الشيخ 4 اسم البكر السيد مبارك وعمره 30–35 سنة. يفوض له أبوه تسيير قسط كبير من شؤون الزاوية، والأبناء الثلاثة الآخرون أصغر منه سنا. أحضر حصير للمسلمين وقدمت التمور للجميع ثم أوتي بصينية وبها كؤوس وكل ما يحتاج إليه لتهيئ الشاي ما عدا السكر والشاي : كان على اليهودي أن يحضر السكر والشاي. أخد كل منا مكانه. ما إن جلسنا حتى بدأ السيد مبارك يستظهر لائحة الشكاوي المترتبة عن تصرفات إدا وبلال : «جميع القبائل تخدمنا. كلها تقدم لنا هدايا غنية

ص 162

وإدا وبلال وحدهم لا يقدمون لنا أي شيء أكثر من هذا، إذا زرناهم لجباية مستحقاتنا عليهم فإنهم يستقبلوننا بالألقاب والتهكم والكلمات الجارحة. إنني أحقد عليهم، لا بسبب الجوع الذي أعاني منه عند زيارتي لهم ولكن بسبب ما سمعت عنهم : أناس غليظو التصرف، لا يعتنون بالضيف، ملحدون بقدر ما هم بخلاء. على كل حال، لهم كل ما يستحقونه. يسيئون استقبال المرابطين ويحتقرون دعواتهم لهم فلا يبارك لهم الله بتاتا : إنهم يموتون جوعا وهم على شقاق فيما بينهم. كانت إدا وبلال قبيلة عظيمة فيما مضى وهي تحتل الآن آخر مرتبة بين قبائل الصحراء. ينهبهم البرابر في أية مناسبة وكذلك يتصرف معهم أولاد يحيى ويتجرأ عليهم حتى أولاد جلال ولم يعودوا يجسرون على وطء أرض الساحل ودرعة. إنهم أضحوكة العالم كله. فضلا عن هذا فلا يوجد بينهم ذوو رجولة : لقد توفي جميع من كان ذا جرأة بينهم. ما هم اليوم إلا نساء. جميعهم كذابون. كلهم خونة. لايحترم أي منهم عنايته. لما كان يطلب المزراكَ من أبنائهم، كان آباؤهم يمنحون هذا المزراكَ : لمجرد شرف منح المزراكَ، دون المطالبة بأي مقابل. وعندما يطلب اليوم المزراك من إدا وبلال تكون أول كلمة يفوهون بها في هذه المناسبة هي : «كم ستعطونني ؟». ويدخلون في مساومات كما يتصرف اليهود عند البيع والشراء. لا يوجد بين إدا وبلال رجل شجاع ولا كريم ولا صريح ولا مخلص وبقدر ما تقل قيمتهم الأخلاقية تكبر ادعاءاتهم، كثير بينهم عدد الشيوخ من أصول اجتماعية متعددة منذ بعض الوقت. فيما مضى، كم من مشيخات حقيقية كانت لآبائهم الذين لم يفكروا يوما في حمل هذا اللقب : حاليا، ضمن القبيلة كلها لا أثر لمشيخة واحدة وجميع أفراد القبيلة شيوخ. إنهم نوع من بشر طماعون وخونة. لايوجد لديهم شيء طيب لذا فإننا لا نزورهم. لا يقبلون دعواتنا لصالحهم لكن انطلاقا من اليوم إنه واضح إنهم لقوا أجر عدم تقواهم واحتقارهم للأولياء». سكت أصحابي الدوبلاليون الثلاثة واظهروا امتعاضهم أمام هذه الخطبة التي دامت على نفس النهج أكثر من الساعة. ما قاله السيد مبارك كان صحيحا لكن للمرارة التي كان يعاتب بها المرابط أفراد قبيلة إدا وبلال كونهم لا يعطونه بتاتا المال لفرط بخلهم. أما أنا فكنت اتفرج على هذه الذئاب التي كانت تتناهش فيما بينها.

خلال المساء، طرحت مسألة سفري إلى تينزولين. سيقودني إليها السيد مبارك شخصيا. كان يظهر للآخرين إنه يناقش ثمن عنايته مثلما يفعل أهل إدا وبلال :

اتفقنا على ثمن مرافقتي من طرف المرابط خلال السفر بعد ساعتين من المناقشة. وأخيرا تم الاتفاق : ادفع للمرابط القدر المالي المتفق عليه حينها وتم الاتفاق على السفر بعد الغد.

غداً صباحا، 27 دجنبر، انصرف رفاقي الدوبلاليون الثلاثة ــ بعد أن لم يعد لهم أي مبرر للبقاء هنا ــ إلى حالهم وكذلك فعل صديقي الحاج. عند الوداع، وجدت صعوبة كبيرة لاقناع الحاج بقبول هدية وعلى العكس من هذا كانت هناك صعوبات لتصفية الأمور مع الدوبلاليين. ها أنا وحيد بمغيميما صحبة مردوشي وخادم يهودي. زارنا عند الظهيرة عبد الله نفسه. إنه عجوز عمره يقارب 70 سنة ذو لحية كلها بيضا، متمايزة مع لون جلده الأسمر ــ ذلك أنه حرطاني. يخاطبنا بوقار إلا أن خطابه المطنب يذكر بكلام ابنه : «الحمد لله. ها أنتم الآن تخلصتم من رفاقكم الدوبلالين. أناس ملحدون ولا إيمان لهم. لم يأتوا إلا لنهبكم. أما فيما يخصني فإنني لا أحب اليهود لكن الله هداكم إلى دار الإيمان : أهلا بكم وعندما تقررون الذهاب سأجعلكم تصلون في أمان إلى حيث تريدون الوصول. لكن لندقق في الأمور. اليهود بنو جلدتكم عندما يقدمون أنفسهم لا يخاطبونني إلا وتملأ أيديهم جميع أنواع الهدايا. أنتم لم تعطوني أي شيء. حاولوا أن تصححوا خطأكم هذا وأن تهدوني شيئا ذا قيمة ــ لا أريد لا الخنت ولا تلك الأشياء العادية والخشنة. أريد شيئا ذا قيمة. سأعود إليكم بعد قليل. الآن سوف أتحدث إلى بعض أفراد قبيلة أولاد يحيى الذين سأكِلُ أمر سفركم إليهم».

تخلى عنا السيد عبد الله. غاب بعض الوقت ورجع إلينا بعد نصف ساعة : «أحسن ما يمكن أن تقوموا به هو قضاء السبت هنا وإلا لن تتابعوا طريقكم إلا غدا. لقد ضربت موعدا لأفراد من قبيلة أولاد يحيى الذين سيرافقونكم خلال اليوم التالي. والآن لنر ما هيأتم لي من هدايا ثمينة». أضع أمام عينيه ما هو متوفر لدي : شاي نسيج من قطن، قالبان من السكر. أخد جميع هذه الأشياء واعلنا له أننا أسعد أناس في العالم لكون ولي كبير مثله رضي أن يقبل هذا العطاء الضئيل ــ وحقيقة الأمر أنني لست أسعد مثلما أصرح به.

هاقد أجل سفري عدة أيام، ذلك أن اليوم يوم خميس. ثم من هم أفراد قبيلة أولاد يحيى هؤلاء الذين يريد الشيخ سيدي عبد الله أن يضع مصيري بين أيديهم

في حين كنا اتفقنا على أن ابنه هو الذي سوف يرافقني بنفسه يحترم هؤلاء المرابطون عهدهم أقل مما يفعله إدا وبلال. لكن ما العمل ؟ إنني أوجد تحت تصرفهم وهذه مناسبة لأقبل قدري وعلي أن انتظر باستسلام. خلال الحديث ذكرت أن شريف وزان قد أوصي بي — متمنيا أن يكون لهذا أثر طيب على وضعيتي الحالية. لم أكن استعملت رسالته لحد الآن وذلك لسبب هين :

إن اسم شريف وزان كان مجهولا لذى الذين كان علي أن أتعامل معهم حتى الآن.

ولا يوجد نفوذه في المناطق التي قطعتها انطلاقا من فاس. هنا لا يختلف الأمر كثيرا عما كان عليه سابقا لكن اسم الشريف معروف لدى الزاوية ومحترم في جوارها على الأقل. اعطيت الرسالة إلى سيدي عبد الله خلال الأيام الأولى فكان هذا حدثا : قرئت الرسالة في المسجد وكان من تأثيرها هذا أن عوملت بأكثر من الاعتبار من ذي قبل، وكان يزورني كل يوم السيد عبد الله ويرسل كل مساء اثنين من أبنائه لقضاء الليل في بيتي تشريفا وحماية لي في نفس الوقت.

مر يوم السبت ومر يوم الأحد دون الحديث بتاتا عن السفر. وحدث إن لم يظهر السيد عبد الله كما كان يفعل من قبل.

طلبت مقابلة السيد مبارك : قيل لي إنه مريض. وأخيرا، صباح يوم الاثنين رأيت هذا الأخير قادما إلي : قال لي إنه يستحيل علي السفر اليوم. وقال لي أيضا كانت جماعتان من المسلحين — عددهم 20 فردا، الأولى من العرب والثانية من البربر — علمتا بسفري، عند مرورهما من هنا. وكان الخبر أنني مسيحي — وهو الخبر القادم من تنتزرت — قد شاع في البلد وبلغ إلى الجماعتين المهاجمتين إضافة إلى كونهم يظنون أنني أحمل ذهبا. تربصت الجماعتان بي في الجبل وكانتا تنتظران مروري بالمنطقة للهجوم علي. كان علي إذن التحلي بالصبر. ستنسحب الجماعتان المعاديتان خلال 3 أو 4 أيام نتيجة عياء الانتظار وإذ ذاك سيأخذ معه السيد مبارك 30 أو 40 فردا من الحراطين وسوف يوصلني بنفسه إلى مقصدي. جاء السيد عبد الله غذا ليؤكد هذا الكلام : «ضعوا ثقتكم في شخصي. سوف أضمن ذهابكم في أمان صحبة ابني عندما ينسحب جميع الذين يريدون نهبكم أو يكونون نسوا وجودكم هنا. مغيميما بطن ضبع. تأكدوا من جميع ما يوجد فيها من شيء قبيح، لكن صبرا فسوف تخرجون من مغيميما بسلام إن شاء الله.

وحدث حدث آخر يومين بعد هذا : كان العرب (العريب) قد غادروا المكان لكن عوضهم 30 فردا من أيت سدرات : كانوا قدموا لاقتناء التمور لكنهم استقروا بالمحيجبة لما علموا بخبر العملية المرتقبة ـــ مقسمين أغلظ إيمانهم ألا يبارحوا المكان ما دمت هنا. يوم الخميس صعدوا من تصرفاتهم : لقد بعثوا إلى السيد عبد الله وفدا طالبين منه تسليمي إليهم وأنهم سوف يتحملون إيصالي إلى تينزولين. ولما رفض اقتراحهم أمطروا الدنيا تهديدا وأعلنوا أنهم سوف يختطفونني عنوة. خاف المرابطون على سلامتي : رصدوا خلال النهار رجلين أمام بيتي واصدروا تعليمات ألا يدخلن اليوم عليَّ إنس وأرسلوا عددا من العبيد لضمان الحراسة خلال الليل. وكان اثنان من صغار أبناء سيدي عبد الله لا يفارقانني أبدا. كانت جدران المنزل عالية وكان بابه متينا فلا يهاب علي شيء من هذا الجانب لكن كان يخشى أن يثقب آيت سدرات الجدار المبني من المقدار. وبعث المحاصرون رسلا جددا في اليوم التالي : ازداد قلق المرابطين وزيد في عدد حراسي.

حدث يوم الجمعة، أن جاء السيد عبد الله ليقول لي إنه لم يعد يتعهد باقتيادي إلى درعة : كل ما يمكن أن يقوم به لصالحي هو أن يعيدني إلى تيسنت وحتى في حالة قبول هذا الاقتراح فإنه يجب علي الانتظار أكثر من أسبوع ـــ سيكون عيد المولد النبوي هذه السنة يوم 12 يناير وخلال هذا اليوم يقوم السيد عبد الله، كل سنة، بزيارة إلى قبة سيدي عبد الله ومحند في تيسنت، يتوجه السيد بهذه المناسبة إلى الضريح في موكب كبير ضمن جميع أفراد الزاوية.

ص 165 وبمعيته كل ما لديه من أعضاء عائلته وخدم وعبيد : سألتحق به وسوف أتمكن من المرور تحت حماية هذا الخفر القوي.

لم يعد لي أي شيء أنتظره في موضوع المرور بتينزولين بعد إعلان من هذا النوع. ولم يعد لي أي مبرر للانتظار في مغيميما وكان لابد من الرجوع إلى تسنت وحتى هذا كان أمرا صعبا وخطيرا. مساء هذا اليوم من الثالث من يناير، كتبت كتابا إلى صديقي الحاج بورحيم، وصفت له الوضعية ورجوته أن يقدم ليصحبني معه. حمل متسول رسالتي.

في اليوم التالي، في الساعة 7 صباحا وقعت حركة كبرى في القرية : وصل إلى القرية 25 راجلاً وفارسان ودخلوا مباشرة إلى ساحة مأواي : قدم الحاج

بورحيم ليأخذني معه. لقد توصل برسالتي هذه الليلة. تهيأ مباشرة بعد توصله بالرسالة وأسرع عند إخوته وأصدقائه : تقلد كل واحد منهم سلاحه والتحق به بمعية خدمه وشرعوا جميعا في السير وهاهم حاضرون لإغاثتي. أخذت طريق أكَدير صحبتهم بعد نصف ساعة من وصولهم. كان المرابطون قلقين عندما شاهدونا آخذين الطريق : كانوا يخشون علينا هجوما من طرف أيت سدرات. إلا أن هؤلاء كانوا يبحثون عن النهب وليس عن الصراع فلم يتجرأوا على الهجوم أمام قوة هذا الخفر. وجدت نفسي في دار الحاج من جديد في الساعة 11 و30 دقيقة.

مظهر مغيميما حزين وفقير. إنها قرية صغيرة بنيت من المقدار تتكون من مجموعة بنايات واطئة Basses تنتؤ وسطها منارة المسجد الكبير المخرب ومنارتان أقل علوا من سابقتها. تتلألأ، ضمن هذه المجموعة من الجدران الرمادية اللون، 3 قباب صغيرة ـــ وهي البنايات الوحيدة المطلاة بالجير. يقام خارج المساكن،



مغيميما

عند حدودها الشمالية الغربية، الموسم السنوي ـــ وهو أحد أسباب شهرة مغيميما. تحتل المنازل الكبرى المربعة الشكل والتي هي في ملكية السيد عبد الله هذه الجهة من تيسنت. هذه الدور فارغة حاليا وتستعمل كمستودعات للبضائع خلال الموسم. الدار حيث أوجد إحدى هذه المنازل. تمتد مغارس النخيل على مساحة متوسطة عند الشرق وجنوب شرق القرية. تنتج هذه المغارس خاصة التمور من نوع التمر المجهول وبعده أنواع بوسواير وبوفكَوس وشيئا من بوزكري.

يسيل واد زكَيد محاديا لأشجار النخيل بين الواحة وصخور محيجيبة. إنه نهر واسع، أكثر قوة شيئا ما من واد تيسنت، به ماء جار طول السنة وبه أسماك كثيرة العدد.

تتكون ساكنة مغيميما من جهة من أفراد العائلة المباشرة لسيدي عبد الله ومن الأعضاء المنحدرين منها، وكلهم متجمعون حول الزاوية، السكن الشخصي لهذا

الأخير، وتتكون من جهة أخرى من السود ومن الحراطين، عبيد أو خدم عائلة الشرفاء. يحمل جميع أفراد هذه العائلة لقب مرابط ويعيشون على نفقات الزاوية أو تقدم لهم مساعدات. أكثرية نخيل القصر ملك لسيدي عبد الله والباقي منه ملك لأبناء أعمامه ولأفراد عائلته والحراطين من سواد الساكنة.

زاوية مغيميما ليست قديمة جدا إنها غير حرة، أي غير «مستقلة». تكون زاوية حرة عندما يكون لرئيسها الحالي 7 أجداد بعد تأسيسها : سوف تكون سلالة أحفاد سيدي عبد الله هم الأحرار فقط. إذن يكون قد مر على تأسيس الزاوية 150 سنة اعتمادا على هذا المعطى. يلحق مرابطو مغيميما أصلهم بقصر الزاوية من تسنت : توفي رئيسهم، الشيخ سيدي عبد الله ومحند، منذ عدة قرون. توجد قبة هذا الولي في تيسنت. يحج مرابطو مغيميما كل سنة خلال عيد المولد إلى هذا الموضع وسط احتفال كبير. ينحدر مرابطو مغيميما إذن من عائلة أولياء الزاوية. تمتد فروع هذه العائلة بعيدا : سوف أجد بعضا منها مستقرين بصفة دائمة في رأس الواد في سوس الأسفل وسوف أجد بعضا منها حتى بجوار مكَادور. إنهم محترمون في أي مكان ويعيشون في أي مكان مما يوفره لهم لقبهم ويعيشون على لقبهم الشريف هذا. شرفاء مغيميما هم حاليا الأكثر شهرة بين أبناء هذه الزاوية ولو أنهم ليسوا الفرع البكر لهذه العائلة : يبقى دور الفروع الأخرى ذا تأثير محلي. يتمتع هذا الفرع من العالة باعتبار كبير عبر مجال واسع : يجمع أبناؤه «زيارات» الزاوية من القبائل في درعة وفي الساحل وفي سفحي الأطلس الصغير. اسم مريميما واسم زاوية سيدي عبد الله ومبارك معروفان في كثير من الأماكن حيث اسم تيسنت مجهول. إلا أنها زاوية من الدرجة الثانية ولا يمكن مقارنتها بكل من زوايا وزان وبجعد وتمكَرت. لا تشبه زاوية مغيميما هذه الزوايا الأخيرة في أي شيء لا من حيث الشهرة ولا من حيث النفوذ ولا من حيث الثروات.

لاحظت، منذ وصولي إلى مغيميما، أن السيد عبد الله وأبناءه طماعون : لا يستغرب المرء من هذا عندما يقف على المشقة التي يكلفونها أنفسهم لجمع المال. يقدم الناس لهم قليلا من العطايا : مصدر هذا المال الزيارات التي تأتي من أماكن بعيدة. لا ينفق من هذه الزيارات إلا ما تتطلبه نفقات متفرقة : يوجب جمع الإتاوات العامة المستحقة على القبائل التنقل بين هذه الأخيرة، ويجب على المرابط أن يدعو لأهل الأراضي التي يزورها عن طريق إقامة بين السكان لبعض الوقت

وأن يدعو ليبارك أراضيهم. بعد توفير هذه الشروط، وعندما يكون وجوده وصلواته ضمنت غلة جيدة ومراع وافرة ومياه دفاقة، يقدم للمرابط، مقابل وساطته هذه، المشاركة العادية وإذا لم يقدم أيا من هذه الخدمات فإنه لا يتوصل بأي شيء. تترتب عن ضرورة إنجاز هذه الأعمال كلها أسفار متكررة هي بالنسبة للمرابطين عمل منتظم : يسمون هذه الأعمال «الذهاب لأجل التبريك». يذهب كل سنة سيدي عبد الله شخصيا إلى الساحل وإلى درعة لأجل الدعاء لصالح أهل القبائل ولتحصيل الأتاوات ويبعث بأبنيه البكرين إلى المناطق التي تخدم الزاوية لجمع الهبات. يتم هذا في جزء من الأطلس الصغير (عند أيت بويحيى، عند سقطان...) من جهة وفي جنوب جبل باني (أولاد يحيى، إدا وبلال، أيت أومربيط) من جهة أخرى. 167

لا تبدو الزاوية غنية رغم هذه المداخيل. البنايات متواضعة ولا تدل ملابس المرابطين على رخاء كبير — يلبس سيدي عبد الله وحده الزي الحضري : عمامة كبرى بيضاء والفَرَجية والحائك. ملابسه نظيفة وجديدة ولا يمكن قول نفس الشيء بالنسبة للملابس أبنائه : يبدو ابنه البكر فخورا جدا لارتدائه قفطانا أحمر رثا Rapé يلبسه تحت الحائك (لمرابطي المغرب ميول واضحة لارتداء الملابس البراقة) والابن الثاني، السيد الفاطمي، لا يلبس فوق قميصه إلا حائكاً خشناً وبرنوساً ذا ثمن متواضع، أما بالنسبة للابنين الأصغرين سنا فقميصاهما الوسخان الممزقان وبرنساهما المثقوبان جعلني أحسبهما متسولين لدى وصولي. عمر أحدهما، السيد يحيى 15 سنة وعمر الثاني السيد حامد 10 سنوات. وما رأيت من أثاث استقبال الضيوف إلا براريد وكؤوساً وهي من النماذج الأكثر شيوعا. لا توجد الشموع : لا وجود لها في أي مكان في الصحراء. يستعمل الناس قناديل صغيرة تعطي ضوءا حزينا وتتمثل قمة البذخ في توفر مغيميما على 3 أو 4 مشكات من النحاس : توضع القناديل فوق هذه المشكات خلال الإنارة — وفي هذا من الكفاية لتوفير الإنارة للجميع. لا تملك الزاوية من دواب الحمل إلا بغلة واحدة.

لا أظن أن أهل الزاوية يدخرون الأموال. لا يمكن للمرء التفكير أن صندوق الزاوية مليئ ذهبا رغم بساطة عيشهم اليومي : يحصل أهل الزاوية على عدة هدايا ويجمعون عدة إتاوات لكن تكاد تكون جميع هذه الهدايا عينا : تتكون هذه الهدايا من التمور والشعير لدى قبائل الصحراء وتتكون من القمح والزيت لدى قبائل

المناطق الجبلية ــ ويكون قليل من الهدايا نقودا. تنفق هذه الهدايا بنفس السرعة التي يحصل بها عليها.

لا تتكون الزاوية [Nbp] فقط من رئيسها وأبناء هذا الأخير بل يعول السيد عبد الله عددا لا يحصى من أبناء العمومة وأبناء الخؤولة وأقارب ينتمون لنفس الجد. لا يعيش هؤلاء كلهم إلا على شرف نسبهم إنهم يعيشون جميعا على نفقة الزاوية. أتفهم أن ينقطعوا عن أكل اللحم ولكن هناك أيضا الضيوف : عدد الأجانب الذين يتغذون على كرم الزاوية كبير جدا. خلال إقامة دامت شيئا ما أكثر من أسبوع رأيت زائرين من البربر وأولاد يحيى والعريب وإدا وبلال ومن تجقنت ورأيت أناساً من تافيلالت ومن أيت سدرات. لا يمر يوم دون أن يوجد بالزاوية 15 أو 20 ضيفا : ناس من درعة ذاهبون لشراء التمور من واحات الجهة الغربية، فرسان عائدون من غزوات، وفود ذاهبة إلى قبائل بعض المناطق المجاورة ومسافرون من مختلف الوضعيات الاجتماعية ومن جميع المناطق. مغيميما، بسبب موقعها الفريد بين درعة وجبل باني، نقطة عبور ونقطة تموين طبيعي بالنسبة للذين يخترقون الصحراء المغربية في طولها. يقيم البعض منهم بها قليلا من الوقت ويبقى فيها آخرون زمنا طويلا. كنت في مغيميما مع شخص من آيت يوسي [Nbp1] كان يعيش فيها منذ شهرين. كان قد قدم من درعة ولم يجرأ على الرجوع إلى موطنه لكون أيت أومربيط ــ الذين كان عليه أن يعبر أراضيهم ــ في نزاع مع قبيلته. بما أن السيد عبد الله كان يذهب إلى الساحل كل سنة في أيام معلومة فإن هذا الشخص كان ينتظر سفره هذا حتى يرجع إلى أهله تحت حماية المرابط. يسافر السيد عبد الله بمناسبة موسم المولد النبوي [Nbp2]. يذهب السيد عبد الله كل سنة إلى هذا الموسم حيث يوجد عدد كبير من المشاركين فيتمكن من جمع عدة هدايا في مناسبة واحدة.

ص 168

مرابط مغيميما على اتصال مع جميع القبائل الموجودة بين المحيط الأطلسي وتافيلالت وكلمته حاضرة ومحترمة في هذا النطاق الواسع من المغرب : يتم له هذا كله عن طريق هذه الجولات التي تهم حوض الدرعة بأجمعه تقريبا وأيضا بواسطة الناس ذوي الأصول المختلفة الذين يستفيدون من كرم الزاوية. يستطيع سيدي عبد الله أن يتوفر على نفوذ سياسي حقيقي خلال فترة زمنية ما.

يتكلف السيد عبد الله بأمور الزاوية رغم تقدمه في السن، إلا أن ابنه الأكبر،

السيد أومبارك، يتصرف في الجزء الأكبر من هذه الشؤون : فهو يتصرف في كثير من الأحيان دون أخذ رأي أبيه لكن الأب لا يقوم بأي شيء دون استشارة الابن. للسيد أومبارك نفوذ على القبائل المجاورة فهو الذي يستقبل الزوار وهو الذي يقوم بجولات جمع الزيارات. لا يبتعد كثير عن الزاوية حيث لا يمكن الاستغناء عنه. تتكون السلالة الوحيدة للسيد عبد الله من السيد اومبارك ومن 3 إخوة ومن أختين لهما : رزق السيد عبد الله هؤلاء الأطفال الستة من زوجته الأولى. تزوج امرأة أخرى بعد وفاة الزوجة الأولى فلم يرزق منها بوارث : لم تكن للسيد عبد الله أكثر من امرأة في عصمته في يوم من الأيام. لأبنائه سمات الحراطين لكنها أقل وضوحا مما هي عليه عند الأب نفسه. مرابطو مغيميما الآخرون، أبناء إخوانه أو أبناء إخوته على اختلاف درجات القرابة بينهم، منهم من هم حراطين ومنهم من هم بيض البشرة. بعضهم ذوو يسر وبعضهم فقراء. يحملون جميعهم سبحة كبرى حول العنق وهذا شيء معمول به فقط لدى الشرفاء وعلى المسلمين أن يقبلوا أيديهم. ذهب عدد قليل منهم إلى الحج : لا يرحلون إلا حيث النقود ــ مثلهم في هذا مثل إدا وبلال. إنهم أميون رغم حفظهم القرآن وخشنو التفكير. ألم يتخيلوا أنني أردت إلحاق الضرر بالإسلام بأجمعه لكوني جمعت 5 أو 6 قشات عشب في المعدر ؟ لم أدر إن كنت تمكنت من تهديئتهم في هذا الموضوع. يتناول الكيف ــ وهو امتياز الشرفاء والمرابطين ــ في حاشيتهم : يدخنون الكيف مع تناول كؤوس كبرى من ماء الحياة يصنعها لهم يهود تنتزرت ودرعة. كان 4 أو 5 أشخاص يستعملون الكيف في تيسنت وطاطا : كانوا شرفاء منحدرين من تافيلالت. يتعرف عليهم بواسطة الغليون الصغير المتأرجح حول أعناقهم. ص 169

مغيميما مشهورة بزاويتها وليست أقل شهرة أيضا بسبب سوقها. يقام هذا السوق سنويا. يدوم هذا السوق السنوي 3 أيام ويتردد عليه كثير من الناس. يأتي الناس إليه من حوض نهر درعة ومن سوس ومن الساحل ومن تفلالت في كثير من الأحيان وشوهد فيه تجار قدموا من فكَيك.

تقام بالصحراء المغربية 3 مواسم سنوية كبرى : موسم مغيميما في شهر رجب، وسيدي أحمد وموسى في نهاية شهر مارس والمولد خلال شهر ربيع الأول. تستقطب كل ممن هذه المواسم الثلاثة عددا كبيرا من الناس. لا تشاهد عادة أية

فوضى خلال هذه التظاهرات التجارية رغم توافد أناس قليلي التعود على الانضباط. يتخذ رؤساء أماكن قيام هذه المواسم (يتعلق الأمر هنا بالسيد عبد الله) قرارات صارمة حتى يستمر النظام كما هو عليه في الأيام العادية : وأكثر من هذا فإنه يضمن أمن الطريق خلال السفر بالنسبة للوافدين على الموسم. إذا تعرض شخص أو قافلة ذاهبة إلى السوق إلى النهب أو إلى سوء المعاملة خلال الطريق يلقى القبض على أناس منتمين إلى قرية الجناة الموجودين في السوق فيحملون مسؤولية الضرر الناتج عن الاعتداء ويلزمون بأداء التعويض حينها. يسود الأمن ــ هذه الظاهرة النادرة ــ خلال 3 فترات من السنة عبر طرق الصقع بفضل هذه الطريقة المتبعة لضمان أمن التنقل أيام إقامة الموسم الثلاثة السالفة الذكر. يجد المرء في هذه الأسواق الثلاثة منتوجات المنطقة ويجد المواد المصنوعة في مدن المغرب وفي أروبا ويجد بضائع السودان. أهم هذه الأسواق هو سوق السيد أحمد وموسى : يقام هذا السوق، الواقع في طريق قوافل تنبكتو وقت وصولها إليه، وهو مسرح معاملات تجارية ذات علاقة بتجارة السودان. يتم هنا تبادل الذهب وريش النعم والعاج والعبيد مقابل المواد الأوربية القادمة من موكَادور. يقام سوق مغيميما بعد سوق السيد أحمد وموسى. وسوق المولد أقل أهمية من بين الأسواق الثلاثة المذكورة أعلاه.

VI
من تيسنت إلى موكَدور

1 ــ من تيسنت إلى أفيكوراهن

ص 170 كانت كمية المال الذي كنت أحمله معي قد نفدت خلال وجودي في تيسنت ــ على إثر سرقات متتالية ــ إلى حد أنه لم يكن في استطاعتي متابعة السفر اعتمادا على ما تبقى لي منه. كان علي أن أجد قبل كل شيء المال لإتمام مهتمي ولن أتمكن من الحصول عليه إلا في مدينة يوجد فيها أوربيون : كانت موكَادور أقرب هذه المدن. قررت إذن أن أبحث عن المال في هذا المرسى.

أطلعت صديقي الحاج بورحيم على برنامجي واقترحت عليه الحل التالي : سوف يقودني إلى موكَادور وينتظرني فيها ويعيدني منها إلى تيسنت. سنسلك طرقا مغايرة عند الذهاب وعند الرجوع، سنذهب عبر إسفس وإِللن وسنرجع عبر سوس ورأس الواد وأيت جلال. يعرف الحاج المنطقة التي كان علينا أن نعبرها عند العودة وكان له بها أصدقاء كثيرون. سوف يأخذ معه خلال الذهاب أحد مخبريه اسمه محمد وعدِّي من قبيلة إِللن. كان وعدِّي هذا يعرف الطريق الذي سوف نسلكه. وسنسافر ثلاثتنا فقط : سيبقى الربي مردوشي ــ الذي لم أكن في حاجة إليه في هذه الظروف ــ في تيسنت عند أهل الحاج : سينتظرني هنا.

9 يناير.

غادرت تيسنت في الساعة 10 و30 دقيقة مساء وسرت في اتجاه طاطا تحت خفر الحاج وصاحبه. سرنا طيلة الليل. كنا ننتظر سكون القصر قبل الشروع في السفر : لم يكن أحد على علم بسفرنا ولم يودع الحاج لا زوجته ولا ابنه. لو كان خبر سفرنا شاع بين الناس لكان علينا أن نخشى إسراع أجانب ــ من ص 171 برابر وأولاد يحيى وآخرين موجودين دائما بكثرة في أكَدير ــ إلى التربص بنا في الطريق قصد مهاجمتنا ونهبنا. من هنا كان سبب سفرنا السري وسيرنا ليلا. وكان على مردوشي ألا يفتح الباب في اليوم التالي لأي كان وكان عليه أن يعلن ذهابنا إلى تزنخت بعد يومين من مغادرتنا أكَدير. تتخذ دائما احتياطات من هذا

القبيل عندما يكون على المرء أن يخترق قفرا شاسعا أو ممرا خطيرا وعندما يكون الركب مكونا من قليل من الأفراد وتنقل أشياء كفيلة بإثارة الطمع. وكان علي أن أضاعف من الاحتياطات : فأكثر من جماعة تكون قد أخذت الطريق لو أن خبر مغادرتي تيسنت كان قد شاع ــ نظرا لانتشار خبر كوني مسيحيا وكوني رجلا محملا بالذهب ــ وكان منظر بغلاتي وحده كافيا لجعل كثير من الناس يتقلدون اسلحتهم : هذه البغلات عينها رأسمال في هذه البليدة الفقيرة.

10 يناير

أبطأت أمطار غزيرة ــ سقطت خلال الجزء الأكبر من الليل وخلال الصبيحة كلها ــ من سرعة سيرنا فوصلنا إلى طاطا في نهاية اليوم العاشر من الشهر. في الساعة 7 مساء توقفنا في قصر تغله الصغير عند بعض أصدقاء الحاج بورحيم.

من تيسنت إلى طاطا، لم يجدَّ شيء خلال الطريق بالنسبة إلي، تمكنت من ملاحظة درجة تطور الحياة النباتية منذ مروري الأخير بالمنطقة : كان بساط كثيف من الأزهار يمتد على طول أبسط مجرى مائي وفوق كل شجرة سنط.

سرنا، للوصول إلى تغله، في اتجاه عالية واد طاطا داخل سريره انطلاقا من تيتى Tiiti : عرض هذا السرير 150م وتنتشر فوقه دمالك غليظة. حفرت وسط هذا السرير قناة عرضها 30م حيث يتلوى شيء من الماء في قعر من صخور. سيسيل المجرى المائي، من تيتي إلى تغل ــ وقد تقلص عرضه ثانية بين القصر وجبل باني ــ عبر سهل من رمال خال في الضفة اليمنى وتكسوه النخيل على الضفة اليسرى.

11 يناير

إقامة في تغلة، يوجد هذا القصر في الفم الجنوبي لخانق يخترق واد طاطا بواسطة سلسلة من تلال موازية لجبل باني. تغله قصر صغير وغني. يتنفس فيه كل شيء الرخاء : المساكن جميلة ولا وجود لأطلال. تعيش الساكنة، من شلوح وحراطين على غلات نخيلها، يطغى ضمنها بوفكوس على أنواع التمور الأخرى.

12 يناير :

قضينا النهار كله في تغله داخل بيت صديقنا دون مغادرته. أفشى الحاج إلى

صديقه سر وجودنا هنا وأوكل إليه الاحتفاظ به. علينا، من هنا إلى تَزَكَ مَأوانا المقبل، أن نخترق قفرا شاسعا خطيرا جدا، ولا يمكننا قطعه إلا ليلا وجريا، كما سنحاول أن نحقق هذا — أو صحبة قافلة وافرة الأعداد. يمتد هذا القفر الذي هو جزء من قفر إماون ويخترقه واد أقا — على تخوم عدة قبائل ويكون بينها أرضا محايدة : إنه مجال مشترك حيث تمارس جماعات ناهبة من أيت أومريبط وادًا وبلال وإسفن السلب وتجوب فيه باستمرار.

ص 172

ذهبنا في الساعة 9 ومشينا دون توقف حتى الصباح. وجدنا أنفسنا في الفجر عند مدخل خانق عميق في سرير نهر جاف عند مقرنه مع جدول اسمه واد تنمرت توقفنا بضع ساعات في هذا المكان.

ينقسم البلد الذي اخترقته منذ تغله إلى قسمين متميزين، ينطلق الجزء الأول من تغله إلى إمِطق، وينطلق الجزء الثاني من امطق إلى المنطقة حيث أوجد. يتكون الجزء الأول من أودية واسعة تنتصب وسطها كتلات حلمية الشكل ذات ارتفاعات ضعيفة، ويتكون الجزء الثاني من سهول مسترسلة متدرجة تفصل بينها سلاسل جبلية عالية متوازية تخترقها أنهار بواسطة خوانق ضيقة. سطح أودية الجزء الأول من هذا البلد محجوجر في أجزائه السفلى وتملؤه أشجار السنط والسدرة والملبنه، ولهذه الأودية في أجزائها العليا سطح صخري ذو حياة نباتية أقل غنى وإبطها هدودات من حث أسود ولامع. تحل جبال عالية محل التلال فيما بعد إمطق : هذه الجبال كتل صخرية ذات منحدرات وعرة، لها لون أصفر وردي — وهو لون مخالف لما رأيناه حتى الآن، ما آباطها المتعرجة إلا فجوات وشقق من قدم الكتلة إلى عرفها. تحيط هذه الجبال، مثل أسوار متصدعة، بسهول مستوية ومحجوجرة. حيث تكسو السطح، عادة جاف، الخضرة في هذا الفصل من السنة : يسير المرء بين السدرة والملبنة وأعشاب عالية القامة. تخترق الأنهار، بين هذه السهول، الجبال بواسطة ممرات ضيقة، ذات جدران مستقيمة، ومتقاربة إلى حد أنها لا تترك إلا مجال مرور النهر. لم يعد لأشجار السنط وجود شمال إمطق.

اخترقت هذه الليلة عدة مجار مائية، كانت جافة كلها وكان لكل واحد منها سرير من دمالك غليظة وأسواح مستقيمة من رمال ومن حصى، علوها مابين 1م إلى 2م.

173 يتكون واد إمطق من اتصال مجريي الماء الأكثر أهمية : المجرى المائي الأول قادم من الشرق، والمجرى المائي الآخر قادم من الغرب. عرض الأول 50م وعرض الثاني 40م. لم يكن الطريق صعبا من تغله إلى هنا ولو أن الميدان كان دائما محجوجرا أو من صخور : هناك طرق صاعدة وأخرى هابطة لكن لم تكن قطّ هذه الطرق لا وعرة ولا طويلة.

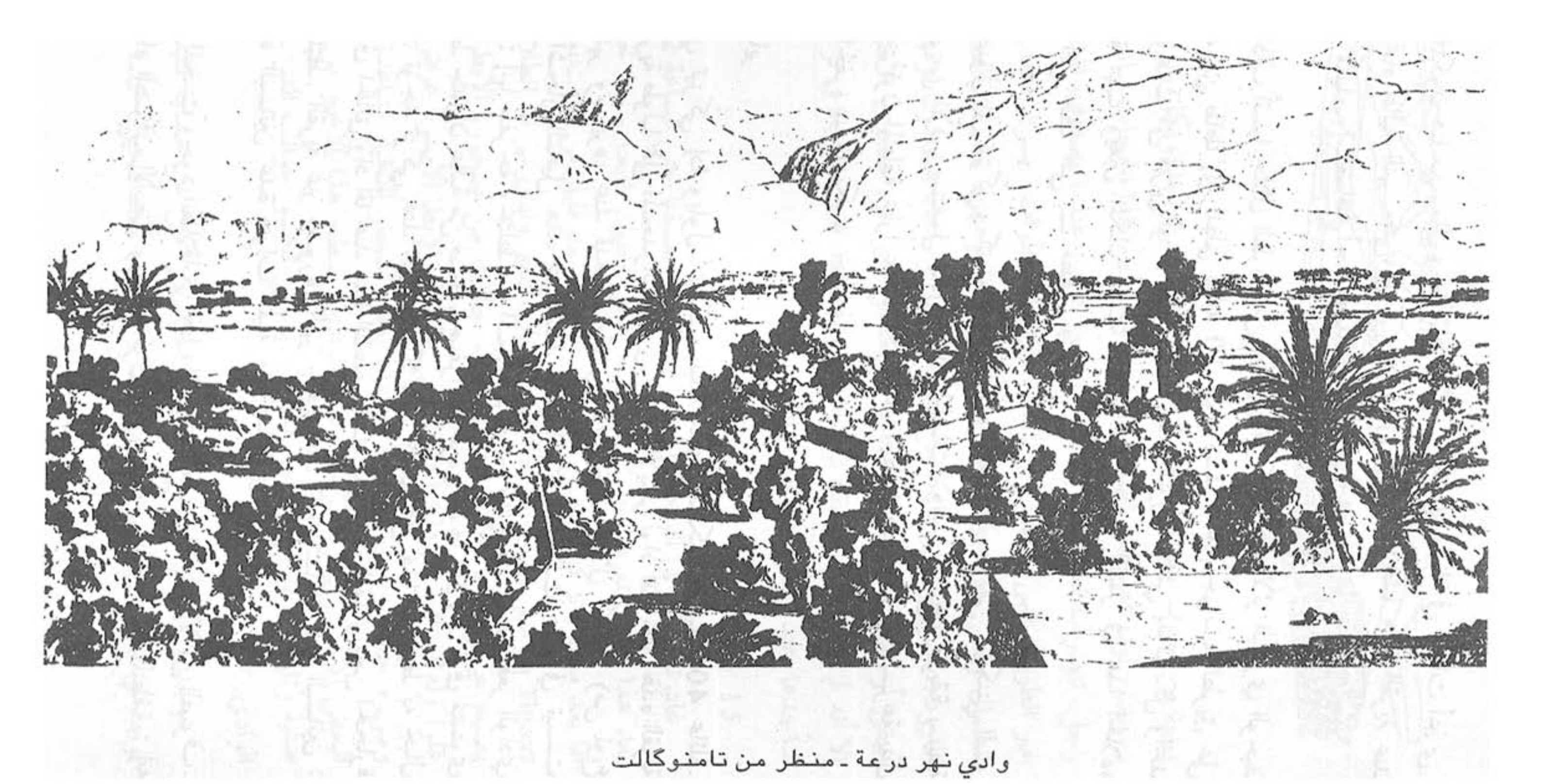


سهل بين إيمتك وتانمروت

13 يناير

استأنفنا السير في الساعة 1 زوالا. تركنا الوادي مكان توقفنا، وسرنا في اتجاه عالية واد تمارت. يسيل هذا الأخير في شعب ضيق يصبح عما قليل دون أي اتساع ومتعدد التعرجات. الجدران جبال من صخور صفراء كنا تحت أقدامها حتى الآن وهي الجبال التي سوف نخترقها فيما بعد. تبرز بين الصخور نباتات غنية قرب السيل : سدرة وحبوب Heuboubs قامتها من 2م إلى 3م، أعشاب طويلة وأزهار من كل لون. وصلنا بعد ساعة من سير متعب إلى فج تنمرت حيث يأخذ النهر منبعه. يمتد تحت قدمي وادي واسع ابطه الأيسر هي الكتلة التي تسلقناها منذ لحظة، والابط الأيمن حافة داكنة اللون يبدو عرفها أعلى شيئا ما من العرف الذي نوجد فيه. ننزل في اتجاه السليل. المنحدرات وعرة إلى حد كبير في السفح الآخر، لينة هنا، الطريق سهل، البلَد صخري، النباتات معمرة في الواجهة المقابلة ونادرة في الجهة حيث نوجد : تضع السدرة وحدها فقط، على فترات طويلة، حدا لرتابة السطح العاري.

بعد وصولنا إلى قعر الوادي، سرنا فيه نحو السافلة خلال بعض الوقت. يحتل وسط الوادي مجرى مائي جاف، عرضه 60م إنه أحد روافد واد أقا، بعد قليل من الوقت وصلنا إلى جوانب واد أقا : هذا الأخير نهر كبير عرضه 200م لاماء



وادي نهر درعة - منظر من تامنوكالت

في سريره المكون هنا من رمال وحصيم هناك ومن دمالك غليظة في جهات أخرى. سرنا في اتجاه عالية النهر حتى تيزكَي إدا وبلول [Nbp]. دخلنا هذه القرية عند الساعة 7 مساء. استضافنا أحد أصدقاء وعدِّي.

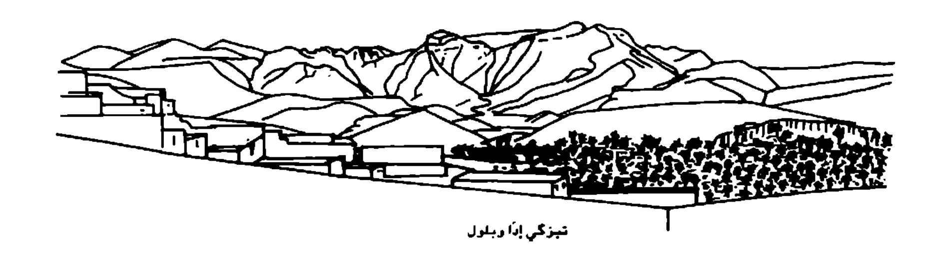
لم نصادف أنسيا خلال الطريق من تغله إلى تيزكَي. كان الأثر البشري الوحيد الذي رأيته من طاطا إلى امطق قرابة 10 قبور منتشرة على جوانب الطريق على شكل مجموعات من قبرين أو 3 قبور. كان لهذه القبور ــ التي يذكر كل واحد منها بعملية نهب ويعين المكان حيث هلك، تحت ضوء القمر في هذا الخلاء، مسافرون أقل حظا مني ــ مظهر حزين.

بعد وصولي إلى تيزكَي، كنت قطعت الجزء الخطير من طريقي : يمكنني السير نهارا ابتداء من الآن. يستعمل مغاربة هذه الجهات، وهذا واضح، طريقة بسيطة للسفر : يخترقون المنطقة نهاراً عندما تكون غير خطيرة ويعبرونها ليلا بسرعة بدل استعمال الخفر عندما تكون خطيرة. 174

14 يناير

إقامة في تيزكَي إدا وبلول. تيزكَي بليدة منعزلة تسكنها تقريبا 400 عائلة. شيدت القرية طوليا على المنحدرات الأولى للإبط الأيسر لواد أقا. تحتل هذه القرية جوانب النهر وسريره، عند قدم القرية، زراعات تحت ظلال النخيل (من نوع بوسواير) أشجار النخيل هذه غير متقاربة فيما بينها كما كانت عليه في تيسنت وفي طاطا : إنها منفرجة وتختلط مع أشجار الرجراج والتين والزيتون. قعر الوادي رملي، الابط جدران عالية من صخور صفراء، وعرة، علوها 150م. فوق مستوى سرير النهر. توجد تزكَي عند خانق ــ كما يدل الاسم على هذا ــ تحيط به جبال عالية. يخترق الخانق واد أقا عند هذه النقطة. بنيت القرية من المقدار ومن الحجارة الرديئة التبليط. القرية غير مسورة. النهر جاف عند قدم المساكن وفي البساتين : تسقي هذه البساتين عدة قنوات مليئة ماء صافيا وجاريا.

لم يعد للخنت وجود انطلاقا من هنا ولا يتكون ملبس الأهالي إلا من الصوف. تلبس النساء الصوف الأبيض ويضعن فوق رؤوسهن حجابا خاصا بالمنطقة : إنه



قطعة من صوف سوداء مستطيلة الشكل طولها متر واحد وبكل زاوية منها شرابة من نفس لون الصوف. تضع النساء على وجوههن هذا الحجاب مباشرة بعد رؤية رجل. تتصرف نساء هذه المنطقة بتواضع كبير : عندما يصادف المرء نساء منهن عبر الطريق. إنهن يتوقفن عن السير على بعد خطوات. يسرن قدما إلى اليمين أو الشمال ويقفن على جانب الطريق، ساترات وجوههن، مديرات الظهر حتى يمر المارون. يلبس الرجال حائكا من صوف أبيض أو جلبابا ويلبسون فوقها إما برنوسا أبيض أو الخنف في أكثر الأحيان. لا يسجل تغير على مستوى الأسلحة الفردية إلا أنه لم يعد وجود للبندقية ذات الطلقتين. هكذا كانت الأزياء في تزكَي، وهكذا سأجدها عند إسفن وإبرقفن وإللن.

15 يناير

غادرنا تيزكَي في الساعة 10 صباحا. خفرنا مضيفنا حتى الساعة 12 : يمكننا، بعد هذا السيرُ بمفردنا حيث لم يصبح البلد خطيرا. تابعنا سيرنا نحو عالية واد أقا بعد مغادرة تزكَي. يتصل هذا الواد الأخير، بعد قليل من الوقت، بواد تنزرت Tinzert ويرسم منعرجا مفاجئا نحو الشمال. يتغير وادي نهر أقا انطلاقا من هنا : يصبح عرض قعره 600م وتصبح إبطه حافات من صخور، الإبط الأيمن أكثر علوا وله أعراف متباعدة أكثر مما هي عليه في الإبط الأيسر. عرض النهر 60م وسريره جاف وتنبت فيه، هنا وهناك، بعض أشجار النخيل متباعدة بعضها عن البعض الآخر ويتجلى تدريجيا وسط الوادي. سطح هذا الأخير من رمال، تارة صلبة وتارة أخرى رطبة. تحتل الحقول ـــ التي تكسو جوانب النهر ـــ جزءا من الوادي.

نوجد في أراضي إسافن. تظهر لنا غابة من نخيل على مسافة قليلة من حيث نوجد في اتجاه عالية النهر : نسير مباشرة في اتجاه هذا النخيل. كلما تقدمنا سيرا

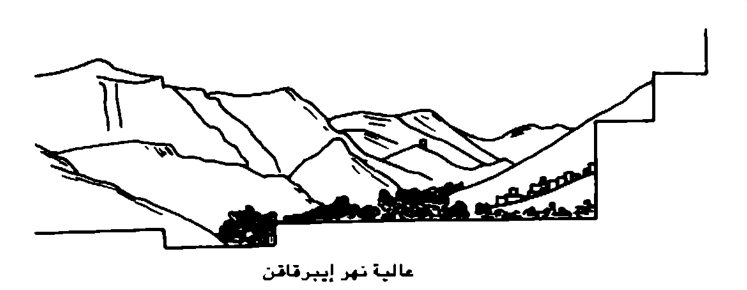
صار السطح رطبا. كانت سيقان الشعير الخضراء في الحقول بدأت تخرج من الأرض. تنبت خارج هذه المناطق الطرفاء وينبت العشب عند قدمها. عما قليل نصل إلى النخيل : هذه الأخيرة من نوع بوسواير، وستكسو قعر الوادي انطلاقا من حيث نوجد إلى حيث سنغادر الوادي ومن هنا إلى حيث يمتد النظر. يختلط النخيل بأشجار أخرى ذات ظلال. زراعات خضراء تحيط بقرى منتشرة على امتداد النهر : تنتمي هذه القرى إلى أيت تسوسخت، إحدى فخدات إسفن الثلاثة. نتابع السير في اتجاه عالية واد أقا، تارة تحت ظلال أشجار النخيل وتارة أخرى محاداة لجوانبه إلى أن نبلغ المكان حيث يتصل بمياه واد إبرقفن. لا تتغير معالم الوادي عبر كل هذا المجال، إن لم يكن تقلص عرض الوادي الذي تصبح أبعاده ما بين 300م إلى 200م بالإضافة إلى تقلص حصة النخيل كلما تقدمنا سيرا نحو العالية، وترتفع حصة الأشجار الأخرى من رمان وخروب ولوز وزيتون : قرب قرى إسفن السفلية لا توجد إلا أشجار النخيل، وفي عالية تمسلت Tamsoult تطغى أنواع الأشجار الأخرى. انطلاقا من نفس المكان، داخل سرير النهر، يتلوى ماء جار رقراق عرضه ما بين 2م و1متر وصلنا في الساعة 1 و30 دقيقة إلى مقرن واد إبرقفن. التحقنا بجوانب هذا المجرى المائي الجديد وسرنا في اتجاه عاليته. دخلنا في نفس الوقت في أراضي القبيلة التي اشتق منه اسم النهر وسرنا في اتجاه عاليته. يرى المسافر عند مغادرته واد أقا وادياً مسترسلا على مد البصر، دون أن يعتريه أي تغير : حزام طويل أخضر يتجلى بين الجبال وتزركشه قرى اسفن نقطا داكنة هنا وهناك.

وادي نهر ابرقفن أقل أهمية من الوادي الذي غادرناه : إنه واد متعمق جدا بين حافات صخرية. عرض الوادي 50م يحتل قعره نخيل يظلل مزروعات تمتد على شكل درجات في منحدرات الابط الأولى. عرض السرير 8م وتكسوه الدمالك.

176 السرير جاف، تسيل عند الضفتين قنوات واسعة مليئة ماء تحمل للسكان والمزروعات مياه الجبال. هنا وهناك، تنتشر قرى ــ منتصبة فوق نتوؤات الصخور الأولى ــ تنتمي إلى آيت إبرقفن. يستمر تقلص عرض الوادي انطلاقا من تلكَ الخير : لم يعد عرضه إلا 30م وفي نفس الوقت تصبح الابط وعرة : إنها حافات من صخور صفراء وعرة جدا يترواح علوها ما بين 100م إلى 150 مترا. تنمحي

المغروسات التي كانت تتدرج فوق منحدراتها الأولى لكنها لم تزل تكسو قعر الوادي وحده. تقل أعداد النخيل وتحل محلها أشجار الزيتون واللوز. القرى دائما كثيرة الأعداد : توجد قرية عند كل كوع من أكواع النهر حيث يتسع الوادي.

في الساعة 3 و30 دقيقة وصلنا إلى قرية تدكَار Tidgar حيث المبيت : نزلنا ضيوفا عند أحد أصدقاء وعدّي.



عالية نهر إيبرقاقن

في تدكَار، انمحى النخيل من وادي إبرققن. يرى المرء الوادي مسترسلا في الأفق خطا قاتما متلويا بين كتلتين من صخور صفراء : تكسو قعر الوادي أشجار زيتون ولوز وتظهر القرى واضحة على المنحدرات الأولى للإبط. صادفنا عددا كبيرا من البشر خلال طريقنا.

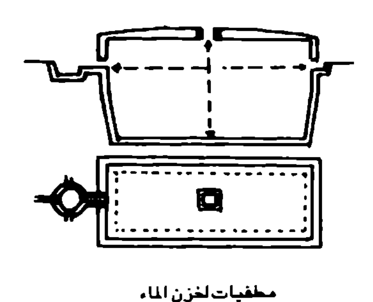
منازل إسفن وأيت إبرققن من حجارة رديئة اللحام وتارة من المقدار الرديئ التهييئ. مساكن آيت إسفن حيث يطغى استعمال المقدار غير أنيقة ولاتستطيع مقاومة تقلبات الجو : لاتوجد هنا أية مقارنة مع منازل آيت زينب الرشيقة. أكثرية مساكن إبرققن من الحجارة وتنتمي سطوحها إلى نوع السطوح البدائية الأولى : يكتفي الناس بتصفيف حجارات مستوية الوجه على طول صف من جوائز أشجار الزيتون والابقاء على هذا على هذه الوضعية بواسطة حصى كبيرة توضع فوقها كما هو الأمر في البيوت الخشبية في أوربا.

16 يناير

الذهاب في الساعة 8 و30 دقيقة صباحا. خفرنا مضيفنا خلال 3 ساعات من السير ثم ودعنا : لم تعد المنطقة تمثل أي خطر علينا. تركت وادي نهر ابرققن عند تدكَار وسرت، عند منتصف الضلع، في اتجاه عالية شعب مقفر قعره ضيق جدا وإبطه وعرة جدا هي جدران رتيبة المشهد من صخور صفراء : المسلك

مدرج طويل. متلوٍ عند شفا الهاوية. نحت هذا المسلك في الصخور نفسها وتكسوه حجارة ملساء ومنزلقة : طريق سهل للمشي على الأقدام لكن صعب وخطير بالنسبة لبهائم الحمل. لا أثر للحياة النباتية : لا ترى العين إلا سطح الصخرة الأصفر في كل مكان.

ص 177 تغير المشهد في الساعة 10 عند وصولي إلى نهاية الشعب وجدت نفسي عند الجانب الجنوبي لهضبة واسعة سلكتها. لم تعد فوق رأسي منحدرات شديدة أو قمم عالية. تمتد أمامي هضبة ذات انحدار ضعيف جدا انطلاقا من الشمال إلى الجنوب وما بها إلا تموجات خفيفة وأودية قليلة العمق وتلال قليلة العلو. تتوج هذه الهضبة الأطلس الصغير وخط قممه الذي أسير في اتجاهه هو ذروة هذه السلسلة الجبلية. تظهر في الأفق شعفة جبل إدا وزيكَي إحدى قمم الأطلس الكبير المكسوة ثلجا. سرت في اتجاه العرف الأعلى للهضبة، صاعدا تارة ونازلا تارة أخرى : 2/3 السطح من تراب و1/3 الآخر من الصخور وتكسو هذا السطح مزروعات تتخللها في أكبر جزء منه أشجار اللوز التي تنمو وسط الحقول ــ مثلما هي عليه أشجار التفاح في بعض جهات فرنسا ــ ويبدو عدد كبير من القرى في الأفق وتكثر حولها الزراعات على الخصوص ومغارس اللوز ذات الأشجار المتقاربة فيما بينها.



مطفيات لخزن الماء

صادفت عددا كبيرا من النساء في الحقول : كُن يقمن بأعمال الحرث. يرى المرء بعضهن، خلافا للعرف المتداول، يفلحن الأرض بواسطة محراث يجره ثور أو حمار ويرى أخريات يعزفن Bécher الأرض بالمعول. يسود المنطقة نشاط كبير في كل مكان : إنه فصل البذر. لاحظت عدة صهاريج [Nbp] وسوف أصادفها عند كل خطوة أخطوها على طول الطريق من هنا حتى الوصول إلى موكَدور :

لا يتوفر السكان إلا على مياه هذه الصهاريج في هذه المناطق حيث يوجد قليل من الأنهار وقليل من الينابيع. في الساعة 12 و30 دقيقة بلغت العرف اللين الذي يكوِّن ذروة الأطلس الكبير. تفصل هذه الذروة، في نفس الوقت، بين السفح الجنوبي لهذه السلسلة وبين سفح قبيلة إبرققن. يسمى المكان الذي يخترق هذه الذروة تيزي إبرققن. أرى من هنا، في اتجاه الشمال، بقعة أرض طويلة زرقاء اللون يحيط بها لون فضي : إنه الأطلس الكبير وقممه المثلجة لامعة تحت أشعة الشمس. هنا غادرت حوض نهر واد درعة دخلت أراضي إللن.

تمتد الهضبة المتوجة الأطلس الكبير على قمة سفحه الشمالي وتمتد أيضا على قمة سفحه الجنوبي. المنطقة شاسعة على جانبي تيزي إبرققن : نفس السطح المستوي، نفس الأرض الخصبة، نفس المزروعات التي تزركشها أشجار اللوز، نفس الساكنة الكثيفة. الجزء حيث أوجد أكثر غنى من الجزء السالف : بقدر ما نتقدم سيرا تصبح القرى أكثر عددا وتكسو الحقول مجالات أوسع وتكاد تكتسح كل سطح المنطقة.

ص 178 بعد قليل من الوقت لم يعد هذا السطح إلا ترابا، وقليل من أجزائه محجوجر وتنمحي الصخور. تمتد أشجار اللوز في بعض الأماكن على مد البصر وتضفي على هذه الهضبة الخصبة مظهرا فريدا.

في الساعة 4 وصلنا إلى قرية أزغرد من قرى اده وسكه التي تنتمي إلى فخدات إللن. توقفنا فيها عند أحد أصدقاء وعدي. لم أر مجرى مائيا واحدا خلال مسيرة اليوم. كانت قرية ـــ من بين القرى العديدة التي صادفتها ـــ ذات أهمية : إنه أكَدير إبرققن الفوقاني. يوجد به من 300 إلى 400 مسكن أكثريتها خالية خلال جزء من السنة. توجد هذه المساكن الفارغة مؤقتا في منطقة زراعات القبيلة الرئيسية : يستقر بها أصحابها خلال فترات الحرث وجمع الغلات ويستعملونها كمخازن للحبوب وحفظ الغرامات. يملك أناس من جميع الجهات دورا في هذا الجزء من أراضي القبيلة وأيضا يملك فيه أهل إبرققن السفلى مساكن.

هناك فرق مثير للانتباه بين قرية ازغرد وقرى السفح الجنوبي للسلسلة الجبلية. كانت هذه القرى رديئة البناء كما رأينا سابقا : عكس هذا تتميز ازغرد بجمال تشييدها. بنيت جميع المساكن من حجارة غير مهيأة لكنها مبلطة بعناية توصل

مياه الأمطار إلى النطافي ميازب منجزة بكثير من العناية على طول الجدران. لكل مسكن نطفيته الخاصة. أبواب المساكن عالية وواسعة وذات أقواس. أنجزت الشرفات المقوسة من حجارة مختلفة الأبعاد ومسومة بمهارة، والنوافذ وأعراف الجدران والميازب مجيرة. تتكون سطوح المساكن من حجارة مستوية الوجه تكسوها قشرة من تراب ملتحمة فيما بينها بواسطة حصى كبيرة. البنايات متشابهة عبر جميع أراضي إللن : أنجز جميعها باهتمام وكلها من حجارة : ولن أجد المقدار مرة ثانية إلا عند دخولي أراضي شتوكة.

17 يناير

الذهاب في الساعة 8 صباحا. سافرنا بمفردنا : تكفينا حماية وعدِّي مادام علينا أن نبقى طيلة النهار في أراضي إللن. مازلنا نسير في هضبة البارحة. لا تتغير معالمها. نفس السطح ونفس التموجات، وتكسو المزروعات جميع جهات الهضبة. تظلل هذه المزروعات أشجار اللوز على مد البصر وتوجد في المنطقة أعداد من القرى أكثر من أي وقت مضى. لاوجود للأزهار ولا لأشجار اللوز حتى الآن : سوف أراها جميعها مزهرة انطلاقا من سوق اثنين توفالعزت في الساعة 11 وصلت إلى النهاية الجنوبية للهضبة : تنتهي الهضبة في هذه الجهة بغتة كما تنتهي أيضا نحو الجنوب. سرت، عند مغادرتي للهضبة، في اتجاه سافلة عدد من الشعب أوصلتني إلى واد عميق. إنه وادي نهر إخلان. المنطقة التي نوجد فيها الآن جبلية ومشجوجرة : ذات جوانب مليئة بالتراب، تنتشر فوقها صخور وأشجار أركَان باسقة ومنحدرات صلبة وخوانق متعمقة. توجد في قعور هذه الخوانق رقارق جافة ذات أسرة من دمالك وفي بعض الأحيان من جلامد. في المتون، تحت ظلال أشجار الأركَان ينمو ضرو ذو أزهار صفراء يصل علو الشجرة الواحدة منه المتر، كثير من الخضرة قصيرة القامة، تنبت تسووت بين الصخور وهي الأولى من نوعها التي رأيت منذ مغادرتي الأطلس المتوسط. هذه الغابات مأهولة. تبرز عدة قرى عند الأعراف أو عند منتصف المنحدرات ويوجد عدد كبير منها في قعر الشعب. لكل من هذه القرى محيطها من البساتين. تنتظم المغروسات على شكل مدرجات حيث ينمو اللوز والرمان والزيتون. مسالك هذه المنطقة متعبة : هبطت عدة مدارج شديدة الانحدار لا يوجد بها أي ممر صعب.

179

وصلت إلى وادي إخلان في الساعة 3، عرض الوادي 400م. وتكسوه

المزروعات. إبط الوادي حافات عالية مشجوجرة. مررت قرب عدة قرى. تلمع في الأفق قرى أخرى على سفح الجبل. يتلوي النهر وسط الوادي. سرير هذا الأخير جاف وهو من دمالك تارة ومن الصخر تارة أخرى : عرض هذا السرير 50 أو 60م سرت مع مجرى النهر في اتجاه السافلة خلال ربع ساعة ثم التحقت بقدم الإبط الأيسر. تسلقت هذا الابط. أرض شبيهة بأرض الهنيهة : أشجار كبيرة من الأركَان، خضير، ضرو، تسووت ناشئة تحت ظلال الضرو، سطح تارة محجوجر وتارة أخرى مترب تنفشه قطع من صخور. في الساعة 4 و30 دقيقة وصلت قمة الضلع. وجدت نفسي أمام هضبة جديدة شبيهة بهضبة هذا الصباح من حيث الخصوبة ووفرة المزروعات وعدد القرى لكنها أقل صعوبة. دلفنا فيها ومشينا عبرها ما بقي من النهار. توقفنا عن السير في الساعة 5 و30 دقيقة. ها نحن في أفكراهن، القرية الصغيرة مسقط رأس وعدِّي.

زُرعت جميع أطراف الهضبة التي نوجد بها. لم يعد وجود «للوز وتحل محله أشجار كبيرة من الأركَان ضاربة في القدم. غرست هذه الأشجار بطريقة متماثلة داخل الحقول على مد البصر. تبدو هذه الهضبة كما لو كانت درجة ثانية للأطلس الصغير حيث إن الدرجة الأولى هي الهضبة التي غادرتها هذا الصباح. سوف لا أقطع درجة أخرى من هنا حتى الوصول إلى وادي نهر سوس : تشرف مباشرة قرية أفكراهن على وادي سوس. المنظر رائع انطلاقا من مسكن وعدِّي : غربا، في الأفق، سهل شتوكة والمحيط الأطلسي فيما وراء الخط الأزرق للافق، وشمالاً سهل سوس تحيط به الكتلة الداكنة والقمم المثلجة للأطلس الكبير. على بعد 75 كلم، حيث يلفظ الأطلس أنفاسه الأخيرة وحيث يبدأ المحيط، يظهر أكَدير إغير وجدرانه تلمع تحت أشعة الشمس مثل تاج من فضة على مخروط مائل إلى الزرقة.

كان واد إخلان المجرى المائي الوحيد الذي رأيته اليوم. صادفت عددا كبيرا من البشر في الهضبتين اللتين عبرتهما في بداية اليوم وفي نهايتة، وصادفت عددا قليلا من الناس في المنطقة الجبلية المشجوجرة الفاصلة بينها. كان هؤلاء الناس عمالا يفلحون الأرض في الهضاب، وكانوا مسافرين فرادى في الجبال. عند المرور بوادي نهر إخلان، وقع حادث كاد أن يكون مشؤوما بالنسبة لوعدي. أبصرنا، لما كنا نسير في اتجاه سافلة النهر، خمسة أشخاص كانوا قادمين وراءنا وكانوا مدججين

بالسلاح وكانوا يسيرون بسرعة نحونا. نظر إليهم وعدي وصاح : «هؤلاء من إخلان ساعون ورائي».

180 استبدال بندقيته الطويلة ببندقية الحاج ذات الطلقتين والفرار إلى القرية الأقرب بأكبر سرعة ـــ تطلب إنجاز كل هذا أقل من الوقت مما احتاج إليه وعدي لينطق به. بقينا، أنا والحاج بورحيم في مؤخرة الركب. لم يتوقف الإخلانيون الخمسة عندنا. تجاوزوننا وكان شغلهم الشاغل إلقاء القبض على وعدي. عما قريب اختفى الاخلانيون الخمسة في القرية حيث رأينا عدي يدخل. انتظرنا بعض الوقت وكنا قلقين جدا على مصير وعدي. أخيرا ها هو وعدي يعود إلينا صحبة أحد أعيان المكان. إنه أحد أصدقائه منحه حمايته. رجع أعداء وعدي من جهة ثانية : لقد جاؤوا متأخرين حتى يتمكنوا من إلحاق الضرر به. التحق بنا مرافقنا. واستأنفنا السير مباشرة بعد رجوعه إلينا. خفرنا منقذ وعدي خلال ساعة سير إلى أن أصبحنا في مكان آمن.

كان الرجال الذين لحقوا بنا ينتمون إلى قرية كنا مررنا قربها. كانوا نهبا وكانوا ينتمون إلى إللن كما هو شأن وعدي، وكانوا من فخدة إخلان **Ikhoullan** بينما كان صاحبنا ينتمي إلى فخدة أفرا **Afra** : المجموعتان في نزاع مسلح في الظروف الراهنة. سبق أن لوحظ وجود وعدي في هذه القرية. شرع 5 أشخاص، مباشرة بعد التأكد من وجوده، في متابعته ليس قصد نهبنا ولكن قصد قتله.

2 ـــ من أفكراهن إلى موكَدور

18–19 يناير

إقامة في أفكراهن. نزلت فيها ضيفا على وعدِّي. لم يكن وعدي عاش بين أفراد عائلته منذ سنة مضت فمنحته استراحة يومين قرب عائلته.

أُنجزت مساكن المنطقة بعناية. الكل من حجارة مبلطة. الدور فسيحة وأنيقة. تتكون من طابق أو من طابقين. بها درج مريحة ولها أبواب واسعة ومتينة. لا تتوفر القرى على أسوار خارجية في المناطق التي عبرتها انطلاقا من طاطا وفي المناطق

التي سوف أخترقها من هنا حتى موكَدور، إلا أن هناك ما يميز بين هذه القرى جميعها : بعض هذه القرى منظم بطريقة دفاعية ولو أنها غير مسورة، وبعضها لا يوجد على هذه الحالة. أكثرية القرى لدى إسفن وإبرقفن وإللن غير منظمة بطريقة تمكنها من الدفاع عن نفسها في حالة الهجوم عليها. توجد لدى فخدة أفره كوات بالجدران لرمي المهاجمين عند كل طابق وللسطوح متارس مسننة. تنمحي هذه الاحتياطات الدفاعية مباشرة عند مغادرتي إللن وسوف تكون القرى ذات المظهر الأكثر هدوءا. كانت المساكن منتظمة في قرى كبيرة حتى وصولي إلى فخدة افرة. ولن تكون الأمور هكذا تقريبا من أفره إلى موكَدور : سوف لا أجد قرى إلا في بعض الحالات النادرة وإنما سأجد اكفارا أو مساكن منعزلة أو على شكل مجموعات سكنية منتشرة في الأرياف ولم يعد هناك وجود لأي شيء من مظاهر الصراعات القبلية. سينتصب في بعض الأحيان برج بين بعض المساكن : وهذا البناء ليس إلا للزينة أو مظهر خارجي لمسكن أحد الأغنياء. وسوف لا أرى من جديد البساتين تحيط بالأماكن المأهولة في هذه المنطقة : وداعا لك أشجار التين والرمان والعنب والأجمات الطرية — وداعا لكل هذه الأشياء المتوفرة في المحيط العادي للقرى المغربية : تنتصب من هنا إلى موكَدور الأكفار والمساكن الحزينة داخل الحقول ضمن المزروعات، وأقصى ما لهذه المساكن سياجات من الصبر. يستخلص مما سبق أن تغرمت ذات النموذج الأكثر انتظاما والأكثر توحيدا من حيث الشكل — والذي صادفته من تادلة إلى تزنخت — لا توجد على أي وجه من الوجوه عبر هذه الاصقاع : أوجد انطلاقا من تيسنت داخل بلاد أكَدير. ص 181

لا يتغير الملبس هنا عما كان عليه في تزكَي وعند القبائل الموجودة عبر هذا المجال، لكن تجدر الإشارة إلى معطى ثانوي فيما يخص تجهيز حامل البندقية، يتغير وعاء البارود عند إللن ويصبح علبة من معدن ذات شكل مخروطي قصير جدا. يتداول هذا النموذج لوعاء حمل البارود عند إللن ويستعمل القرن لصنعه عند شتوكة وفي باقي حوض سوس وعند حاحة : إذن هذا الوعاء من النموذج المتداول عموما والسالف الوصف. يبقى نموذج البندقية والخنجر كما كان عليه من قبل. لا سيوف ولا حراب.

20 يناير

الذهاب على الساعة 10 و30 دقيقة. استأنفنا السير في الهضبة حيث نوجد، تكسوها دائما المزروعات وتنتشر عبرها دائما القرى. في الساعة 12 انتقلت من أراضي قبيلة إللن إلى أراضي قبيلة شتوكة. لا تتغير مشاهد المنطقة. هذه الحدود مهمة من الناحية السياسية : يمثل هذا الانتقال الحدود بين بلاد السيبة وبلاد المخزن : غادرت الأول ودخلت في الثاني. بقيت مظاهر الهضبة كما كانت عليه قرب افكراهن حتى الساعة 2. انطلاقا من هذه الساعة أصبح السطح مستويا ولم تعد به إلا تموجات خفيفة. لازالت الهضبة محروثة على امتداد البصر وتنتشر فوقها أشجار الأركان ظلالها وتنتشر فيها القرى : هذه الأخيرة أقل عددا مما هي عليه عند إللن. وصلت حوالي الساعة 3 إلى النهاية الجنوبية للهضبة عند الحافة الفاصلة بين هذه الهضبة وبين سهل سوس. تشبه هذه الحافة تلك التي سرت الأمس في اتجاه أسفلها من الساعة 11 إلى الساعة 3 : أضلاع مستقيمة ومخددة، سطح محجوجر وبه كثير من الصخور، غرس هذا السطح أركان وتحت ظلال الأشجار يكسو الوزال والضرو والسدرة والتسووت السطح. مسلك متعب ولكنه ليس وعراً. دخلت الغابة وبدأت أنزل في اتجاه قدم الحافة، حوالي الساعة 3 و45 دقيقة بلغت قدم الحافة. يمتد أمام بصري سهل مثلث الشكل عرضه 5–6 كلم وينتهي بخانق أسير في اتجاهه. يحيط بهذا السهل حزام من تلال دنيى عند المنحدرات الأولى حيث تتلألأ — مثل بقع بيضاء — عدة أكفار. تكسو السهل مزروعات تحت ظلال الأركان، سطح من رمال وليس به حجارة. يشرف برج على أكثرية المساكن مشيرا — هنا وكما كان الأمر عند إللن — إلى دار الشيخ. لا تتوفر المساكن
182
على الآليات الدفاعية التي كانت موجودة في المساكن السالفة. لم تعد هذه المساكن من الحجارة وأصبحت من المقدار الأبيض. في الساعة 4 و30 دقيقة وصلت مدخل الخانق : توقفت فيه عند كفر توررت وسليمان.

صادفت في الطريق هذا اليوم كثيرا من الناس، عمالا ومسافرين. كان عصف أمزال (سرير من حصى غليظة عرضه 15م تسيل وسطه 5 أمتار من الماء عمقها 30سم) المجرى المائي المهم الذي رأيته. وجدت قرية — ضمن القرى التي وجدتها خلال مسيري — قرية ذات مظهر متميز : إنها قرية آيت سعيد. كانت فتحات تتوج المساكن العالية ذات السطوح، وكان كل مسكن منها في نفس الوقت قصرا

صغيرا. كانت جميع هذه المساكن مجيَّرة، وهذا أعلى درجة الترف في هذه المنطقة : لا توجد في المدن المغربية منازل أجمل مما يوجد هنا. إنها مساكن أفراد عائلة آيت سعيد الغنية. هذه الأخيرة عائلة كثيرة الأفراد تتعاطى التجارة بين موكَدور من جهة وبين الساحل وطاطا وتزونن وتندوف من جهة أخرى. ترسل عائلة أيت سعيد من موكَدور المنتوجات القادمة من أوربا وتستقدم إلى موكَدور التمور وصمغ الصحراء ولوز اللن ومنتوجات السودان التي تقتنيها في تندوف وفي الساحل. لآيت سعيد إقامات في الساحل الذي هو مهدهم إلا أن جزءا من أفراد العائلة يستقر في موكَدور.

استضافنا شيخ القرية في توريرت وسليمان. يرمز لقب الشيخ عند شتوكة وعند إللن إلى أغنى رجل في الكفر. لكل مركز شيخه حتى ولو كان عدد منازل هذا الكفر 3 أو 4 بيوت. لكن لا يترتب عن هذا أن الشيخ رجل عظيم. في بلاد المخزن يعين القايد هؤلاء الشيوخ أو يرفضهم، لا يرفع هذا من درجة الشيوخ الاجتماعية وما لهم إلا اعتبار مؤقت مرتبط بثروتهم الشخصية.

لا تختلف الأسلحة عند شتوكة عما كانت عليه عند إللن لكن تتغير الملابس : لم يعد وجود للخنيف ويلبس كل رجل قميصا من قطن أو من صوف أبيض وعمامة بيضاء صغيرة تترك أم الرأس عارية وحائكا أو برنوسا من نفس اللون. للبرنوس اسم وشكل متميز : إنه قصير جدا ويسمى السلهام. لا تعتري لباس النساء تغيرات باستثناء غياب الحجاب المصنوع من الصوف. لباس سكان شتوكة هو لباس سكان كَسيمه وحاحا.

شتوكة أمازيغ (شلوح) — مثلهم في هذا مثل كَسيمة وحاحا ومختلف القبائل التي عبرت أراضيها انطلاقا من تزكَ وبلول — ويتكلمون الأمازيغية ولا تعرف القبائل ساكنة الجبال من إسفن وإبرقفن وإللن إلا هذه اللغة. اللغة العربية منتشرة بين قبائل الساحل وخاصة بين أفراد قبيلة كَسيمة.

21 يناير

الذهاب في الساعة 8 و30 دقيقة. سرنا طول النهار كله صحبة قافلة صادفناها البارحة عند المبيت. تفرض الحيطة، رغم وجودنا في بلاد المخزن، أن يسير المرء ضمن جماعة بدل السفر فرادى. وجدت، بعد دخول الخانق الذي كنت توقفت

ص 183

عند مدخله البارحة، سهلا شاسعا حيث سأسير حتى المساء. إنه سهل من رمال وردية اللون، سطحه مستو مثل وجه مرآة دون ولو حجارة واحدة ودون أدنى تموج، يمتد من قدم الأطلس الصغير حيث أوجد إلى البحر من جهة وحتى الأطلس الكبير من جهة أخرى. يخترق هذا السهل نهر سوس. تحتل قبيلة شتوكة الجزء الذي أمامي تقريبا بأجمعه وهو ذو خصوبة مبهرة : حرث جزء منه وتحتل الجزء الآخر مراع وغابات. لم تعد توجد أشجار الأركَان وسط المزروعات التي لا تظللها أية شجرة : إنها حقول مسترسلة موحدة الشكل تفصل بينها سياجات نباتية حية. ترى آبار هنا وهناك. توجد قرب هذه الآبار بعض أشجار التين. ينتصب عدد كبير من الاكفار وسط هذا السهل : يرى المرء دائما، ضمن الأجزاء المحروثة، 12 أو 15 وحدة من هذه الاكفار : اكفار غير مسيجة وليس لها آليات دفاعية. الأبراج نادرة. الاكفار بنايات من مقدار وردي ولا تحيط بها الأشجار باستثناء الصبر. علامات الرخاء بادية على هذه القرى. هذه الأجزاء المحروثة من السهل أحد الأصقاع الأكثر خصوبة والأكثر تعميرا في المغرب، وللأجزاء المشجوجرة مظهر مختلف تماما : هنا لا توجد بتاتا حقول ولا أماكن مأهولة بل هناك غابات الأركَان ضاربة في القدم ترسل ظلالها فوق سطح مستو تكسوه مراع شاسعة : لا أثر للحث ولا مساكن تكسر رتابة هذه المراعي الواسعة تحت قبة أوراق الأشجار : السكان الوحيدون الذين يصادفهم المسافر على فترات طويلة هي قطعان من أبقار وأغنام وإبل تسرح تحت أوراق الأشجار. تسمى الغابة الرئيسية ضمن هذه الغابات غابة تاركَنت وودم. إنها غابة مشهورة بثعابينها : يقصدها عيساوة للتزود بهذا الحيوانات.

سرت هكذا، مرة عبر سكينة الغابات المتعددة وتارة أخرى وسط مزروعات بشوشة وقرى كثيرة، وصلت عند المساء إلى مكان غير بعيد عن نهر سوس : توقفت في الساعة 5 في كفر على مسافة غير بعيدة عن النهر.

صادفت اليوم عددا كبيرا من الناس عبر الطريق. لم أر ولو مجرى مائيا واحدا خلال هذه اليوم كله : لا نهر ولا رقارق. مررت بسوق، سوق إدا ومحمد حيث توقفت بما فيه من الكفاية من الزمن.

22 يناير

الذهاب في الساعة 6 و30 دقيقة. أتوجه نحو نهر سوس. ما المنطقة التي أسير فيها إلا حديقة واسعة من البداية حتى النهاية : حقول ذات سياج من صبر تظللها أشجار الزيتون والتين والأركَان وتنتشر داخلها عدة مساكن، ويتلوي الطريق ذو السياجات الشوكية الكثيرة بين مغارس الأشجار المثمرة وبين المساكن المتتالية بدون انقطاع. وصلت، عبر هذا الصقع الغني، إلى جانب النهر في الساعة 7 و30 دقيقة. اخترقت النهر عند معبر : سرير من رمال عرضه 100م 75 منها جافة و25م الباقية فرشة ماء عمقها 50سم، تيار ذو سرعة متوسطة. يحتفظ النهر بنفس العرض ويتغير مظهره عند عالية المعبر وعند سافلته : الماء، أقل سرعة وأقل عمقا، يغطي السرير الذي يكسوه القصب بعد أن أصبح هذا السرير حمئيا. سيكون لنهر سوس، انطلاقا من النقطة التي عبرته فيها حتى النقطة التي لن أعود أراه، نفس المظهر : قطعة أرض عرضها 100م يكسوها القصب.

ص 184

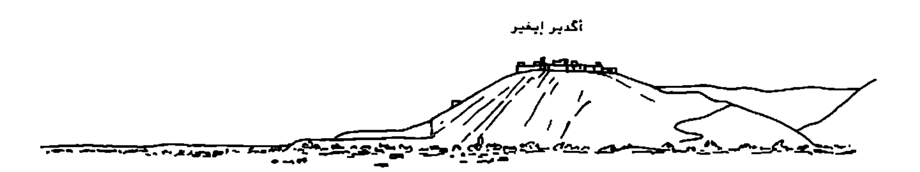
سرت على الضفة اليمنى للنهر في اتجاه سافلته : يكاد يكون علو السطح 1م فوق مستوى النهر. إنها الرمال يغطيها الخضير والسمر وتظللها الطرفاء. يمكن اعتبار هذه الأرض القليلة الارتفاع والرطبة ــ التي تكوّن شريطا عرضه 300م على امتداد الضفة اليمنى ــ جزءاً من السرير. أبتعد عن جوانب النهر عند ثلاثاء كَسيمة وألتحق بقرية مجاورة هي إقامة سيدي عبد الله د آيت يحيى مرابط الزاوية القادم من تيسنت والمستقر في هذه الناحية منذ زمن بعيد. من سوق الثلاثاء إلى مسكنه، ليست المنطقة إلا مزروعات وبساتين وقرى وسط الخضرة مشرفة على الجهة. الحاج العربي صاحب المنزل العالي المجيّر : إنه قصر فعلا ذو برجين هائلين كنت لمحتهما انطلاقا من توررت وسليمان. لا يشغل الحاج العربي أي منصب رسمي، هو رجل في غاية من الثراء. كنا عند السيد عبد الله في الساعة 8 و30 دقيقة : السيد عبد الله من نفس المكان وهو صديق للحاج. نعتمد عليه ليصاحبنا وليحمينا عند عبورنا أراضي حاحا حيث يتوفر، كما هو الأمر هنا، على نفوذ كبير. علمنا أنه كان غائبا عند وصولنا ولم نجد إلا ابنه. استقبلنا هذا الأخير ــ وهو شاب جميل عمره قرابة 20 ربيعا، حرطاني ذو لون يكاد يكون أسود ــ استقبالاً رائعاً : استقبل الحاج، وهو الرجل الفاضل المحبوب من طرف جميع كل من يعرفونه، بصدر رحب. تم الاتفاق مباشرة بعد وصولنا على أننا سنقضي هنا ما بقي من

النهار وأننا سنتابع سيرنا غدا صحبة المرابط الشاب الذي سيخفرنا حتى الوصول إلى موكَدور.

23 يناير

الذهاب في الساعة 9 يسترسل نفس السهل، حيث كنت منذ ما قبل الأمس، من هنا إلى أكَدير إغير تكسوه المزروعات والمراعي، وتنتشر هنا وهناك السدرة. وقد انمحت أشجار الأركَان.

أكَدير إيغير



أصبح البلد خاليا في الساعة 10 و30 دقيقة. دخلنا في دغل من أشجار وأحراش، أشجار أركان صغيرة وعُنب بري. وجدت على جانب البحر في الساعة 11، بعد اختراق بعض التلال الرملية علوها ما بين 8 إلى 10 أمتار. سرت محاديا للبحر حتى أكَدير. يمر الطريق عند عالية المدينة في منتصف الطريق بينها وبين فنتي Founti : هذا الأخير كفر بائس يتكون من بضعة أكواخ للصيادين، وأكَدير — رغم سورها الخارجي المجير الذي يضفي عليها مظهر المدينة — بليدة فقيرة هجرها السكان وبدون تجارة حسب ما قيل لي.

اتبعت الشاطئ انطلاقا من هنا، سائرا عند منتصف الجرف الذي يحد هذا الشاطئ، ليس الجرف عاليا ولا وعرا جدا : إنه حافة محجوجرة وصخرية في بعض الأحيان، تكسوها الأحراش والمراعي وتطغى فيها السدرة والتسووت. حوالي الساعة 1 و45 دقيقة سرت في اتجاه السافلة لأخترق عصف تمرخت Tamrakht على بعد بضعة أمتار من مصبه : تكثر المزروعات في واديه وترى فيه، على مسافة ما، عدة قرى. يكوِّن النهر درعين عرض الأول 15م وعرض الثاني 50م لكن سرير الدرعين من رمال. سرير الدرع الأول جاف وتوجد بعض الغدائر في السرير الثاني. بعد ذلك رجعت إلى طريقي على طول الجرف. تغير مظهر الجرف حوالي الساعة 3 : صار الجرف صخريا أكثر وتكسوه أشجار أركَان علوها ما بين 4 إلى 6م. تخليت عن محاذاة الجرف وصعدت إلى عرفه

حيث وصلت في الساعة 3 و45 دقيقة، إنها نهاية الغابة : وجدت عند جوانب هضبة ذات تموجات خفيفة تكسوها جزئيا مزروعات تظللها أشجار الأركَان كما كان الأمر عند إللن، تبدو فيها عدة بنايات منعزلة ومجموعات من المساكن. توقفت عن السير في الساعة 4، عند إحدى البنايات. أولى هذه البناية «نزالة». يطلق هذا الاسم على مواقع تسكنها عائلات ذات ارتباط بالمخزن يجب عليها ضمان أمن الطرق ويرخص لها المخزن بتحصيل مكوس مرور ضئيلة. توجد هذه النزالات في عدد قليل من القبائل الخاضعة للسلطان : لا تضمن هذه النزالات إلا أمنا جزئيا، لا يتجرأ الأجانب على السفر فرادى هنا كما هو الأمر في جهات أخرى. سأبقى في أراضي حاحا بعد دخولها هذا الصباح عند أكَدير وسأبقى في هذه الأراضي حتى وصولي إلى موكَدور. يوفر ما أبصرته من أراضي حاحا فكرة عامة عما سأراه فيما بعد. يمكن تقسيم بلادهم إلى 4 أجزاء : 1) أجراف الشاطئ : إنها في كل مكان كما رأيتها سابقا، 2) الأودية : قعورها محروثة وتنتشر فيها القرى، 3) الشواطئ : تكسوها جميعا أشجار الأركَان، جزء من السطح من تراب والجزء الآخر من صور بيضاء، منحدراتها وعرة إلى حد ما وتخدّدها شعاب وعرة، تنمو تحت ظلال الأركَان السدرة وعدة أنواع من النباتات وتعيش فيها كميات هائلة من وحش الصيد : حجل كثير، خنازير، أرانب، وشق، إلخ...، 4) الهضاب : تكون الجزء الرابع من أراضي حاحا وهي الجزء الأهم منها. تشبه هذه الدرجات درجات افكراهن، إنها أقل وعورة منها ولا تشتمل إلا على تموجات خفيفة وليست مأهولة في جميع أطرافها : تكسو المزروعات جزأها الأكبر، حقول شعير وقمح بها أشجار الأركَان كما كانت عليه حقول إللن، تنتصب وسط الحرث عدة مساكن متوزعة واحدة أو مثنى أو ثلاث. لا توجد عند حاحا مراكز ذات أهمية فقط وبل يرى المسافر اكفارا أيضا تذكر بشتوكة وإللن. تنتصب المنازل وسط الحقول أو متجمعة على شكل مجموعات صغيرة جدا : المنازل من مقدار أبيض ومساكن الأغنياء جيدة الإنجاز مداخلها ذات إطار من حجر مقصوب وذات أبراج مربعة الشكل عالية نهايتها وزواياها من حجارة، ينتج البلد بوفرة حجارة بيضاء هشة وسهلة التهييئ لكن قليلة الصلابة : تستعمل هذه الحجارة في بناء المساكن. تحتل المزروعات ـــ متجمعة في بعض الأحيان على امتداد طويل ومنفرجة في جهات أخرى ـــ 2/3 مساحة الهضاب والباقي مراعي، وبها أجمات من الأركَان وفي

ص 186

بعض الأماكن وزال أبيض كبير. لم أر في هذه المنطقة إلا غابة واحدة هي غابة إدا وكَرت Gert الموجودة عند مدخل موكَدور. السطح من تراب أبيض تمتزج به الحجارة. ما لهذه الأراضي العليا حيث تجمعت أكثرية المزروعات وسكن حاحا من ماء إلا ماء الصهاريج.

24 يناير

الذهاب في الساعة 7 و30 دقيقة. التوقف عن السير في الساعة 5 مساء على جوانب نهر آيت عامر. مررت في طريقي على التوالي عبر المناطق التي وصفتها منذ وقت دون أن تكون هناك مناسبة لتسجيل ملاحظات جديدة. الشيء الوحيد الذي يجب ضبطه يتعلق بالتكوين الصخري لجزء من الجرف الموجود بين نزالة قضيت فيها الليل والفندق الواقع عند قمة هذا الجرف على نفس الشاطئ : يتكون الجزء العلوي لهذا الجرف من جلاميد كبيرة الحجم من أصداف متلاحمة فيما بينها، لا يرى المرء هنا أثرا لا للتراب ولا للحجر : فليس السطح كله إلا من هذه الصدف المتحجرة : يمر الطريق فيها.

صادفت قليلا من الناس اليوم ولم أعبر أي مجرى مائيٍّ ذي أهمية تذكر.

25 يناير

الذهاب في الساعة 8 صباحا، والتوقف عن السير في الساعة 4 مساء عند مسكن الحاج عبد المالك. المارة عددهم أكثر مما كانوا عليه البارحة. عبرت واد عامر (سرير من دمالك، 50م عرضا، به رقارق من ماء جار يمتد على 2م). كان هذا النهر المجرى المائي الوحيد الذي أبصرته هذا اليوم.

26 يناير

187 إقامة عند الحاج عبد المالك.

27 يناير

الذهاب في الساعة 7 صباحا. والتوقف عن السير في الساعة 6 مساء عند أحد أصدقاء المرابط. تبقى المنطقة كما وصفتها سابقا.

عبرت عدة مجاري مياه صغيرة : عصف اده وجلول (غدير جاف، 6م عرضا)، واد أيت بوزول (40م عرضا، جاف) واد إجغرن (3م، عرضا، جاف،

منروافد ايت بوزول) واد إمغرن (15م عرضا، جاف، يخترق مجراه الأعلى منجم ملح غير بعيد عن ينبوع جار اسمه عين إمغرن وهو الينبوع الوحيد الذي رأيته في حاحا)، واد اسغن (جاف، 15م من العرض عند مقرنه)، واد تدسي (30م عرضا، جاف).

28 يناير

الذهاب في الساعة 7 و30 دقيقة صباحا. وفي الساعة 8 دخلت غابة واسعة تحت ظلال أشجارها مراع شاسعة : إنها غابة إدا وكرت، مكان مقفر، مشهور باللصوصية المقترفة فيه. خرجت من هذه الغابة في الساعة 11 و30 دقيقة عبرت فيما بعدها سهلا صغيرا يكسوه جزئيا الوزال، ثم أوصلتني تلال من رمال عبر منحدر لين إلى جانب البحر. في الساعة 1 دخلت موكدور.

ذهبت إلى قنصلية فرنسا حالة وصولي إلى المدينة. استقبلني المستشار مونطيل Montel : لا أجد كلمة تمكنني من التعبير عما أكنه للسيد مونطيل من امتنان على ما أولاني إياه وعن الخدمات المختلفة التي أسداها إلي. أرجو أن يتمكن أي مسافر في نفس الظروف التي كنت أوجد فيها أن يلقى نفس الاستقبال ونفس الاستئناس ونفس الدعم. ما أسعد الذين يمثل بلدانهم رجل مثل السيد مونطيل هذا الرجل الذي يجد فيه مواطن مغمور من مواطنيه، منذ لقائه به اليوم الأول، إخلاص صديق وعناية وحماية رجل قانون.

VII

من موكَدور إلى تيسنت

1 ـــ من موكَدور إلى دوار أومبارك أودحان

موكَدور، ذات الاسم المكتوب بأحرف غليظة على خرائطنا، بعيدة أن تكون المرسى المهم الذي يمكن أن نتخليه. سيصاب بالخيبة من كان ينتظر أن يجد في موكَدور مدينة على علاقة دائمة مع أوربا. وسائل الاتصال انطلاقا من هذه المدينة المغربية بالخارج نادرة وغير منتظمة خاصة خلال فصل الشتاء. على رأس 45 يوما توصلت بجواب من باريز عن رسائل كنت بعثتها غداة وصولي موكَدور. ترجع هذه الحالة إلى ضعف تجارة موكدور اليوم : لم يعد لهذا المرسى من تجارة إلا مع الشياظمة وحاحا وشتوكة وإللن ومع الساحل وتندوف وانطلاقا من هنا إلى تمبكتو. يتمتع هذا المرسى بامتياز الجزء الأكبر من التجارة المنجزة مع السودان وأيضا بامتياز ما يقوم به أهل تجكانت من عمليات تجارية. يمثل هذا الامتياز الأخير أجمل حصة ما تبقى لمرسى موكَدور من زمان الرخاء الماضي. أما بالنسبة لحوض سوس والصحراء الغربية والصحراء الوسطى، من وادي نهر درعة إلى وادي نهر زيز، فإن هذه الجهات تستوفي مشترياتها من مراكش، وتستقبل هذه العاصمة الأخيرة جميع حاجياتها من الجديدة (مزكَان).

مراكش هي مركز المغرب التجاري الكبير : تمون فاس وجنوب الأطلس وحوض نهر زيز ومنطقة الصحراء شرق هذا النهر، وتمون موكَدور الساحل والجزء الصغير من حوض نهر درعة غرب أقا، وتغذي مراكش حوض نهر سوس بأجمعه وحوض نهر درعة الشاسع باستثناء التحفظات التي قدمناها منذ لحظة، وتمون أيضا حتى المقاطعات التي تخترقها روافد نهر زيز مثل تدغة وفركلة.

أخذت الطريق في اتجاه الجنوب قصد الالتحاق بتيسنت حالة توصلي بالرسائل التي كنت أنتظرها من فرنسا. كان صديقي الحاج بورحيم في انتظاري. كنت هذه المرة ذاهبا بمفردي مع الحاج فلقد كان سرَّح مرافقه.

من 14 إلى 20 مارس 1884

ذهبنا من موكَدور يوم 16 مارس صحبة ابن السيد عبد الله د أيت يحيى

الذي كان أبوه قدّمه لنا خفرا ووصلنا إلى دار المرابطين، في قبيلة كَسيمه يوم 20 من نفس الشهر. كانت أمطار طوفانية سقطت خلال هذه المدة عرقلت سيرنا العادي : هذا ما يبرز احتياجنا إلى 7 أيام لقطع مسافة تتطلب عادة 4 أيام فقط من السير. أخذنا طريقا مغايرا للطريق الأول إلا أنه لم يوفر المناسبة لأي ملاحظة جديدة. كان مستوى الأنهار ارتفع على إثر الأمطار : كنت أجد أمامي سيولا صاخبة حيث لم أكن رأيت فيما قبل التساقط إلا أسرة مجاري مياه جافة. أصبح واد أيت عامر ـــ الذي كنت عبرته في نفس النقطة عند الذهاب ـــ نهرا عرضه 20م وعمق مياهه 20سم وأصبح سريع الجريان إلى حد أنني وجدت صعوبات لعبوره.

بحث مرافقنا، حالة وصولنا إلى منزله، عن أحد أقربائه، وهو مرابط من مغيميما وصديق للحاج بورحيم. هذا المرابط، السيد يحيى بوحبل، شخصية أقل اعتبارا من السيد عبد الله لكنه أكثر شهرة من هذا الأخير في المنطقة الجديدة التي سنسافر فيها. يقوم السيد عبد الله بالوعظ والإرشاد لدى كَسيمة وحاحا مثلما يقوم السيد يحيى بوحبل بنفس الأعمال لدى إمسكن وهوارة. تم الاتفاق على أن يخفرنا السيد يحيى حتى الوصول إلى دوار أومبارك أودحان. يوجد هذا المكان على الضفة اليمنى لنهر سوس، على مسافة ما من النهر شمال شرق إكَلي.

21 مارس

الذهاب في الساعة 7 صباحا صحبة السيد يحيى. سرت من جديد في اتجاه عالية نهر سوس، على مسافة 1 كلم أو 2 كلم. من ضفته اليمنى رأيت النهر، طيلة النهار كله، متلوياً بين الطرفاء، تحيط به المزروعات وأشجار زيتون كثيرة تظلل مجرى النهر، وصفين من القرى المنتشرة على ضفافه. لا يتغير المشهد من هنا حتى الوصول إلى إكَلي : يكوّن النهر وجوانبه ـــ من حقول وأشجار ومساكن ـــ قطعة أرض واسعة خضراء تتجلى للعيان وسط السهل. توجد 10م. تحت مستوى المنطقة العام. تربط حافة من 1/2 المنخفض بمستوى السطح المجاور. سرت شمال الحافة داخل سهل سوس. إنها مساحة شاسعة مستوية المعالم كوجه مرآة، سطحها من تراب أحمر دون أية حجارة، تمتد بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير، عرض السهل هائل انطلاقا من البحر إلى رأس الواد : يصبح السهل أكثر اتساعا كلما توجهنا نحو السافلة ويصل عرضه هنا إلى 40 كلم. وسوف يكون

هذا العرض 12 كلم. في قبيلة المنابهة. لم يتغير مشهد وادي نهر سوس طيلة 3 أيام التي سرت فيه في اتجاه العالية : سهل ذو خصوبة رائعة سجين سلسلتين جبليتين طويلتين، تحد إحداهما ــ أقل علوا وذات أعراف متماثلة ــ الأفق في جهة الجنوب بواسطة خط داكن. وترفع ــ عموديا فوق المنطقة ــ السلسلة الجبلية الثانية المرتمية نحو الغيوم كتلها الجرانية ذات الإبط المائلة إلى الزرقة وذات القمم البيضاء نتيجة وجود الثلوج به [Nbp].

سهل سوس، الخصيب الجيد، غير مستغل في جميع أطرافه.

ص 190 تنتشر الحقول والبساتين والقرى باستمرار على ضفاف النهر في الوقت الذي تتزاحم فيه بطريقة غير منتظمة جدا في باقي الوادي. تتقاسم سطح الوادي المزروعات والمراعي والغابات، وليس فيه مكان عاريا. تكسو خضرة وافرة كل جزء من هذه التربة السخية.

يمكن تقسيم الجزء من هذا السهل الذي سأعبره هذا اليوم إلى 3 مناطق مختلفة الطول : تحتل المزروعات 1/3 مساحة الجزء الأول، وتحتل الباقي منها الأحراش والمراعي : تنمو غابات صغيرة من أشجار كبيرة متباعدة فيما بينها، وترعى قطعان عديدة من الأبقار في المروج. يصادف المرء بين حين وآخر قرية إلا أنها قليلة السكان. كانت هذه أراضي إمسكَن. والمنطقة الثانية غابة واسعة هي الحدود الفاصلة بين أراضي إمسكَن وهوارة : غابة كثيفة من الأركَان تظهر وسطها بعض القرى من حين لآخر في الفجوات، قليل من الناس، لا وجود للقطعان بتاتا، سطح المنطقة جاف حتى الآن يصير مبللا. تنتشر فيه أنقاع [ج. نقع Mares] وغدائر في بعض الأماكن، ويصل طول قامة أشجار الأركان فيه من 4 إلى 5م، لا تذكر هذه الأشجار ــ وهذه أيضا حالة هذه الأشجار في حاحا ــ بأشجار الأركَان البديعة الموجودة في منطقة شتوكة وإللن، تنمو تحت ظلالها نباتات وافرة من أحراش وعشب تزينها الأزهار. دخلنا أراضي هوارة عند مغادرة هذه الغابة. وهنا تبتدئ منطقة جديدة : أصبحت الأشجار نادرة بعد أن كانت كثيرة إلى حد كبير. لا مزروعات بتاتا إلا ما يوجد منها على جنبات القرى : تمتد مروج شاسعة تنتشر فيها الغدائر من نهر سوس إلى قدم الأطلس الكبير وتبدو للبصر قرى وضعيات منعزلة : يحيط بالكل ــ كما هو حال جميع الأماكن المأهولة التي مررت بها اليوم ــ حزام من صبار وبعض حقول الشعير ومغروسات الزيتون.

في الساعة 6 مساء وصلت إلى قرية أولاد الصغير حيث يملك السيد عبد الله مسكنا توقفت فيه.

صادفت حيثما مررت ــ باستثناء داخل الغابة ــ كثيرا من الناس خلال طريقي. كان جميعهم يقبِّل بورع يد مرابطي الذي يمكن التعرف عليه بسهولة ــ كما هو عليه الأمر بالنسبة لأكثرية مرابطي سوس ــ عن طريق عصا طويلة مصفحة في رأسها كرة من نحاس وهي نوع من عكاز لا يتخلى عنها أبدا. يبدو حاميي رجلا طيبا إلا أنه أعنف مدخن للكيف موجود في العالم. خلال طريقنا، كانت الأماكن التي لا يوجد له بها صديق يدخن الكيف مثله قليلة : كان يتخلى عني ــ حالما نقترب من أحد هذه الأماكن ــ يسير بخطى الرياضي ويدخل القرية ويطلب غليونا يدخنه وبعدها يلتحق بي : رغم بلوغه سن 68 فإنه تصرف هكذا أكثر من 10 مرات خلال السفر.

عبرت مجريي ماء مهمين : واد الخمريين (انطلاقا من هنا. إنه يوفر الماء لقبيلة الحمريين التي تحمل هذا الاسم، حسب ما يقال بسبب لون سطح المنطقة الأحمر اللون. إنه نهر جميل : 30م عرضا و80سم عمقا، تيار سريع، عرض سريره 40م من رمال ومن حصى، أصواح من تراب من 1/1 علوها 3م. يكسوها الخضير والدفلى والطرفاء، وواد سمناره، السرير من رمال وعرضه 40م، أصواح علوها 3م من 1/1. وليس عرض الماء إلا 3م. وهو صاف وجار. 191

أثارت انتباهي ــ خلال السير عبر أراضي القبائل المختلفة الكم من كَسيمة وإسكن وهوارة التي سرت فيهاــ ثلاثة أشياء : انبساط السطح في هذا الوادي الواسع لنهر سوس، وغنى الحياة النباتية، وقدرة الحيوانات الجسمانية : إنها ليست أبقار الجزائر وصحراء المغرب الصغيرة، ولكنها الحيوانات الجميلة مثل أبقار جوار طنجة ومنطقة زيان وبلدان أوربا.

22 مارس

إقامة عند أولاد الصغير

قبيلة هوارة، التي عبرت أراضيها تحت خفر مرابط متواضع، مشهورة ومهابة بسبب اللصوصية الممارسة بها. كنت ذا حظ عظيم إنني لم أصادف أشرارا خلال

سفري بها. النهب متكرر بها أكثر من أي وقت مضى ولو أن المنطقة أصبحت جزءا من بلاد المخزن ابتداء من سنة 1882. يسير شؤون هوارة قائد تمتد سلطته على جميع أجزاء أراضيها المشتملة على ضفتي نهر سوس. يسكن أكثرية أفراد قبيلة هوارة ضيعات منعزلة، ويعيش الباقي منهم في قرى ذات شكل خاص بالقبيلة : المنازل منفصلة بعضها عن البعض، ويحيط بكل واحدة منها سياج دائري الشكل من سدرة وصبار. يحتل أبسط موضع مسكون مساحة كبيرة نتيجة هذه الوضعية. توجد قرى ذات أهمية عددية : 120 مسكن في القرية التي دخلتها. لا يوجد مكان مسكون لا تحيط به المزروعات والبساتين. ينمو من أشجار التين والرمان والزيتون. في أكثر الأحيان، يحصن المساكن، وهي واسعة، برجان لا يفوق علوهما علو جدران المسكن. البناء من المقدار والمساكن ذات سطوح.

تنقسم قبيلة إمسكن التي اخترقت أراضيها البارحة إلى 11 فخدة حسب ما قيل لي. تسود حركة تجارية كبيرة في هذه المنطقة كما يدل على هذا عدد الأسواق الكبير : يتعامل الناس مع 8 أسواق مختلفة أسبوعيا انطلاقا من هنا : سوق أربعاء الحمريين وخميس أولاد دحو وجمعة أمزو وسبت القفيفات وأحد المنزلة واثنين أولاد تيمة وثلاثاء الحفاية وسبت الجردان.

23 مارس

البلد الذي يجب أن أسلكه بلد خطير : أخذ السيد يحيى، قصد تقوية الخفر، أحد أبنائه المقيم في الصغاير. كان الذهاب في الساعة 6 صباحا. تظهر الأشجار للوجود من جديد وتبدو بعض المراعي تزركشها غابات صغيرة من الأركَان : تكسو الأشجار الجزء الأكبر من مساحة المنطقة حتى الساعة 10 و30 دقيقة. تشبه هذه الغابات ما رأيته من غابات خلال ما قبل الأمس : نفس أنواع الأشجار : نفس الأماكن المقفرة ذات الظلال، نفس الفجوات النادرة حيث تبدو قرية تحيط بها المزروعات وينتشر عدد كبير من الضيعات المنعزلة بالقليل من المراعي التي تراها العين. يصبح المكان جافا من جديد انطلاقا من واد الصغاير إذ لا وجود بتاتا للغدائر. ص 192

لم يعد للغابات ولا للمراعي وجود. في الساعة 10 و30 دقيقة، دخلت منطقة حرث لا يلبث أن يحتل جميع أطرافها حقول شعير وقمح تختلط بها مغروسات

زيتون تصير أكثر اتساعا كلما تقدمنا سيرا. تنتصب أعداد من القرى في كل جهة. يبرز عما قريب خط أسود طويل : إنها غابة زيتون تنتأ من بين أشجارها منارة مئذنة مسجد : إنها تارودانت. وصلت عند أقدام جدرانها في الساعة 12 و30 دقيقة. سرت محاذيا للجدران دون الدخول إلى المدينة.

بنيت أسوار تارودانت الخارجية من مقدار أصفر اللون. علو هذه الأسوار 5 أو 6م وسمكها 40سم تقريبا، وبهذا السور عدد من الشقوق وهو في حالة تدهور ولو أنه ليست به ثغرات. عاينت عن قرب منعرجات الجزء الجنوبي للسور. ولقد وقفت على صحة تخطيطه حسب أعمال السيد كَاطل M. GATEL [Nbp].

تبدو لي تارودانت موضوعة عند نقطة من وادي نهر سوس حيث يتقلص اتساع الوادي فجأة خلال مسافة قصيرة : يحدث هذا عند خانق ــ لكنه خانق غير واضح المعالم بتعبير موجز ــ يبدو أن عدة سلاسل جبلية ذات علو متواز بالنسبة للنهر تنسلخ من قدم الأطلس الصغير، قبالة هذه الجهة، وتلفظ أنفاسها الأخيرة قرب نهر سوس، على شكل تلال رملية غرست أشجار أركَان. لا تتوصل المدينة بأي مجرى مائي وتتوصل بالماء بواسطة قنوات انطلاقا من النهر.

في الساعة 1، غادرت جدران عاصمة سوس الأسفل. يلتوي الطريق الذي تحيط به سياجات من أزهار برية بين الحقول ومغروسات الزيتون بين القرى حتى الساعة 2 و30 دقيقة. جوار تارودنت ذات ثروة قصوى. ما إن تحرث هذه التربة الرائعة لمنطقة سوس ــ وهي غير مستغلة بأكملها ــ حتى تصير ذات خصوبة عجيبة. توقفت عن السير في الساعة 2 و30 دقيقة عند أحد أصدقاء السيد يحيى في زاوية صغيرة.

كان قليل من الناس خلال طريقي حتى الساعة 10 و30 دقيقة وكثير منهم بعد هذه الساعة. اخترقت مجريي ماء مهمين : واد بني محمد (ينقسم إلى 3 فروع حيث عبرته : عرض سرير الفرع الغربي 40م، حصى ورمال، جاف، أصواح علوها 75سم، يشبه الفرع الأوسط الفرع الغربي، عرض الفرع الشرقي 60م، سرير من حصى، جاف، تفصل بين السريرين الأولين قطعة أرض Langue de terre تكسوها المراعي والطرفاء، وتفصل بين السريرين الأخيرين مساحة لا تنمو فيها إلا باقات من الملبنة. ما لهذا النهر من الماء إلا بصفة عابرة خلال فصل تساقط

الأمطار ؛ وواد الواعر (جاف، سرير من جحصى عرضه 60م، أصواح من رمال، مستقيمة علوها 10م).

24 مارس

ص 193 الذهاب في الساعة 7 تابعت السير على مسافة ما شمال نهر سوس خارج بقعة الأرض حيث توجد المغروسات والقرى التي تحد هذا الطريق. يبقى الوادي كما كان عليه البارحة : دائما مستوي السطح، دائما ليس به ولا حجارة واحدة، ويتقلص عرض هذا الوادي شيئا فشيئا كما سبق القول. يعبر الطريق، حتى أراضي المنابهة، مجموعة من مغروسات ومراعي ومنسغات [ج. منسغة] وغابات من الأركَان، ويصادف المار قطعان ثيران عند كل شبر من الطريق. تتوقف الغابات والأحراش ابتداء من حدود أراضي قبيلة المنابهة، توجد بعض المراعي لكن تحتل حقول الشعير والقمح الجزء الأكبر من مساحة المنطقة. وتوجد القرى بأعداد كبيرة لم يسبق لها أن كانت عليه. بنيت القرى من مقدار أحمر أقل أو أكثر دكانة كما هي عليه جميع قرى وادي نهر سوس. ينتصب برج في بعض هذه القرى معلنا مسكن رجل غني أو شيخ القرية. القرى حسنة الإنجاز، حسنة الصيانة، غير أنيقة، جدرانها عارية ودون تنميقات. انمحى الصبار الذي كان يحيط بالقرى عند هوارة وشتوكة وامسكَن وكَسيمه ـــ انطلاقا من تارودنت ـــ وأصبح يحيط بها حزام داكن من أشجار الزيتون. وصلت إلى مخيمات أولاد إدريس وأنا أسير عبر هذا الصقع الغني : توقفت بهذه المخيمات في الساعة 6 مساء في دوار ومبارك ودحان. استضافني رب الخيمة الكبيرة وهو صديق قديم للحاج.

كان عدد كبير من المارة هذا اليوم عبر الطريق. عبرت خلال الساعات الأخيرة من السير عددا كبيرا من القنوات بعضها مدفون (فكَارات) والأخرى في العراء. تحمل هذه القنوات الماء من الجبال إلى مزروعات السهل. اخترقت 3 أنهار مهمة : واد زياد (سرير عرضه 500م حيث تسيل 6 فروع عرض كل واحد منها 2م في قعر من رمال وحصى، ماء صاف، تيار سريع)، واد تلكجنت (السرير من رمال ودمالك، عرضه 40م بواسطة غدائر، أصواح من تراب علوها 3م)، واد بو سريول (سرير من حصى، عرضه 50م، فرشة ماء جاري عرضها 3م أصواح من تراب علوها 3م).

25 مارس

إقامة عند أولاد إدريس. هؤلاء قبيلة منعزلة تخيم شمال شرق المنابهة بين هؤلاء وأهل تلكجنت. كانوا مستقلين فيما مضى فاصبح مصيرهم مثل مصير باقي من كان موجودا في رأس الواد وخضعوا للسلطان سنة 1882. جعلهم السلطان تحت سلطة قايد المنابهة. أولاد إدريس فلاحون إلا أن مصدر ثروتهم الأساسية هي تربية الإبل. يعلنون انتماءهم إلى الأصل العربي. يتكلمون اللغة العربية وتتكلم أكثريتهم اللغة الأمازيغية أيضا. هم على علاقات مستمرة مع مناطق جنوب المغرب — مع اطا وتينت وأقا — ولهم أحلاف مع آيت جلال وإده وبلال. لباسهم أقرب إلى لباس الصحراء منه إلى لباس أهل سوس : عمامة من خنت وجميع ملابسهم الداخلية من الخنت والملابس الخارجية من الحائك أو السلهام أو الخيدوس أو الخنيف. 194

يلبس الرجال قميصا أبيض عند قبائل سوس الأخرى التي عبرت أراضيها — من كَسيمه وإمسكن وهواره وأولاد يحي وآيت يكَاس والمنابهه وأيضا عند إدوزال — ويعوض السلهام أو الخنيف هذا الأخير في كثير من الأحيان. يبقى الرأس عاريا أو تحيط به عمامة رقيقة بيضاء اللون. تلبس النساء لباس نساء المغرب اليومي : يتكون هذا اللباس عند أكثريتهن من الخنت وعند البعض الآخر منهن من صوف أو قطن أبيض ويعتبر اللباس المصنوع من الخنت الأكثر أناقة.

تتكون الأسلحة من بندقية طويلة متداولة ذات الأسنون الواسع أو الضيق Crosse ومن خنجر معقوف يُدعى كمية. يوضع البارود في قرون من نحاس. الخيول غير نادرة عند هذه القبائل وإن كانت قليلة الأعداد. يتصرف أهل هذه الأراضي تصرفات بلاد السيبة ولو أن المنطقة تنتمي إلى بلاد المخزن : لا يغادر الناس القرى دون حمل السلاح، ولا يسافر المرء دون حماية زطاط، وتتشاجر الفخدات على طول الأيام وتوجد في بعض أجزاء الطرق أخطار أكثر مما يوجد في بعض المناطق التي لا تخضع لسلطة المخزن : هناك عدد قليل من القبائل المستقلة أقل خطرا من قبيلة هوارة وكان شجار في الجوار خلال إقامتي عند أولاد الصغير : كنت أسمع دوي البنادق طيلة النهار. كانت فخدتان في صراع مسلح وكان القتال ينتهي عند حلول الليل باحتلال القرية المنهزمة وتدميرها.

أهل كَسيمة وإمسكَن وأولاد يحيى وأيت إيكَاس والمنابهة وإنداوْزال يتكلمون تامزيغت، ويتكلم أهل هوارة اللغة العربية. عند الأولين. اللغة العربية متداولة إلى حدّ ما، خاصة بين كَسيمة وإمسكَن ؛ وقليلة الاستعمال جداً بين إنداوزال.

2 ــ من دوار أومبارك أودحان إلى تيسنت

26 مارس.

الذهاب على الساعة 5 صباحا. عرض علينا مضيفنا ابنه لخفرنا حتى إليغ. علينا أن نخترق وادي نهر سوس وجزءا من الأطلس الصغير عند سفحه الجنوبي حيث يوجد القصر. ينقسم سيرنا اليوم إلى مرحلتين : أولاهما داخل السهل، وثانيتهما في الجبل. عند مغادرة دوار أومبارك أودحان ــ سرت في اتجاه الجنوب–الشرقي حتى أقطع عموديا وادي نهر سوس، حتى الوصول إلى النهر. تتوالى مراعي وأحراش العنّاب البريّ، تعلوها من وقت لآخر باقات من أشجار أركَان، أمر أمام عدد من القرى تكاد تتميز فقط بين أحزمة مغارس الزيتون. ص 195 حوالي الساعة 6 و 15 دقيقة وصلت إلى نهر سوس، تحف المزروعات والقرى والبساتين بكلتا الضفتين، لكن مظهر السرير مختلف عمّا كان عليه شيئا ما عند السافلة. عرض السرير قرابة كيلو متر، سطح السرير من دماليك غليظة وبه أماكن قليلة رملية، لا قصب ولا أسل، ولا أثر للخضرة.

يجري النهر وسط هذه المساحة الزرقاء عبر 3 أدرع : ليس للدرع الأول إلا ميتران من الماء و 15 م للثاني مع عمق 40 سنتمتر وتيار سريع جدا. وعرض الدرع الثالث 35م و 1,20م. من العمق، يوجد في النهر أمواج عظيمة عندما يتوصل بمياه أمطار حديثة ويصبح تياره صاخبا إلى حد أنه تعذر علينا اختراقه بوسائلنا الخاصة : جاء بعض سكان قرية قريبة لنجدتنا وأشاروا علينا باستعمال معبر آخر لا يتجاوز عمق مياهه مترا واحدا. بعد أن تفرعت المياه إلى عدة قنوات، وساعدونا على العبور. عملية طويلة وصعبة لكثرة عنف المياه. يوجد المعبر قبالة كفر تفلونت. تفصل أصواح من تراب عمودية علوها 1,5م سرير نهر سوس عن مغروسات ضفاف النهر.

بعد العبور استأنفت السير من جديد في السهل. يحتفظ هذا الأخير بنفس المشهد من هنا حتى قدم الأطلس الصغير، هناك مراع تتخللها السدرة وأشجار نادرة من السدرة، حجل بأعداد كثيرة، لا أماكن مأهولة بتاتا، لا توجد المزروعات إلا بجوانب النهر.

في الساعة 9 و15 دقيقة وصلت إلى المنحدرات الأولى للأطلس الصغير. توجد بعض الحقول عند قدمه وتوجد القرى في منتصف المنحدرات. دخلت السلسلة الجبلية عبر سهل مثلث الشكل يمر به واد تنكَرفه. تكسو السهل مراع بها سدرة وأشجار أركَان تشبه السدرة والأركَان التي غادرناها. بدأت تنتشر في السطح ـــ وهو ترابي هنا ـــ الحجارة التي ستصبح كثيرة عما قليل. مررنا أمام نطفيات/ صهاريج : لا توجد النطفيات بتاتا في وادي نهر سوس : تحصل جهات السهل التي لا تتوصل بالماء من النهر أو من روافده على الماء بواسطة الغدائر والقنوات. تستعمل مياه الغدائر للشرب وتصلح مياه القنوات لري المزروعات. بعد وصولي إلى نهاية السهل حيث كنت دلفت، سرت من جديد في وادي تنكَرفه في اتجاه عاليته، ثم تركت الوادي وسرت مرة أخرى في وادي أحد روافد نهر تنكَرفه حتى الوصول إلى قصر تكَره. هذان الواديان متشابهان : قعرهما محجوجر، يتباين عرضهما ما بين 30م و50م، إبطهما أضلاع وعرة تنفشها الصخور وغرست أشجار أركَان، علو هذا الابط 200م. سريرا النهرين جافان في جميع الأماكن تقريبا، تسيل فيهما في بعض الأحيان رقارق لا يتعدى عرضها 1م. الطريق سهل ولا يبتعد عن السليل. في عالية واد تنكَرفه، يصبح الوادي الضيق الذي كنت تبعته شعبا يستحيل السير فيه : ينساب الواد في هذا الشعب سيلا عبر الشلالات وبين الصخور. أغادر قعر الوادي عند هذه القرية وأتسلق إبط الوادي الأيمن، صعود صعب : الطريق ليس إلا صخورا تنبت في شققها أشجار أركَان نادرة وتخرج من الأرض عدة ينابع. وصلت أخيرا إلى العرف وبعد قليل إلى فج. بدأت أسير في اتجاه سافلة وادي صغير : إنه وادي نهر العسل. لا يصل عرض هذا الوادي إلى 20م. وتحيط به حافات من صخور وردية اللون من كلتا الجانبين. الحافات قليلة العلو وذات انحدار منتظم. تنتشر قصور وإفريز ضيق من مزروعات تحت ظلال أشجار اللوز فوق المنحدرات الأولى على امتداد المجرى المائي. تختلف هذه المنطقة الجديدة عن المنطقة السالفة : يمثل الفج الذي كنت عبرته منذ قليل

196

الحد الفاصل بين جزئين من الأطلس الصغير : حتى هنا كانت بجميع الأضلاع أشجار الأركَان، وانطلاقا من هنا تنمحي هذه الشجرة. سوف لا أرى شجرة الأركَان فيما بعد أبدا : سوف تكون إبط الجبال من صخور عارية انطلاقا من الفج حتى الوصول إلى تسنت. هناك تغير آخر : كانت القرى مفتوحة في سهل سوس وتظهر هنا القصور من جديد.

حوالي الساعة 4، يصل واد العسل إلى سهل مخضر تحيط به مرتفعات عارية. اخترقت السهل : إنها مساحة مستوية السطح الرملي والمكسو بمراع : يمتد هذا السهل بين واد العسل وواد آيت الحازن ويمتد حتى مقرن هذين الواديين. وصلت بعد ساعة من السير إلى نهر الحازن وسرت في اتجاه عاليته حتى قرية أمزوكَ الكبيرة. توقفت عن السير هنا في الساعة 7 و30 دقيقة مساء. استقبلنا أحد أصدقاء مرشدنا. في وادي الحازن، كان للمنطقة التي سرت فيها ما بين 500 إلى 600م عرضا كلها مستغلة وكانت الإبط حافات عالية ووعرة من حث مسود مثل حث جوار تزنخت. صادفت في الأسفل عددا كثيرا من القرى الكبيرة أو من القصور ذات المظهر الثري. عرض النهر 60م وسريره من دمالك وليس به ماء.

يكون السهل الذي عبرته بين الساعة 4 والساعة 5 الحدود بين أيت الحازن وأيت إندوزال. عند مغادرة أراضي هؤلاء أكون غادرت بلاد المخزن ودخلت بلاد السيبة من جديد. آيت الحازن مستقلون، كانوا بالأمس حلفاء آيت سمكَ وهم حاليا حلفاء أونزن. آيت الحازن شلوح مثلهم مثل آيت سمكَ وأونزن ومثل آيت اندوزل ويتكلمون تمزغت وبعض منهم فقط يفهم اللغة العربية.

قليل من الناس خلال طريقي باستثناء من صادفت من أناس بجوار نهر سوس وفي وادي نهري آيت الحازن والعسل. هناك نهر ضمن الأنهار التي عبرتها لم أصفه : إنه واد الأمداد. سريره من دمالك وعرضه 100م يسيل وسطه 15م من ماء صاف وجار وتحف به أصواح ترابية مستقيمة علوها 20م بنيت القرى والقصور المصادفة جنوب نهر سوس من حجارة ومن مقدار.

27 مارس

الذهاب في الساعة 5 صباحا. يرافقنا مضيفنا هذه الليلة وسوف يخفرنا حتى فج أزرر. لازلت أتابع السير في اتجاه عالية واد أيت الحازن : أصبح الوادي يضيق

بعد أن لم يتغير عما كان عليه البارحة ثم انتهت المزروعات : على رأس ساعة و30 صار الوادي شِعبا كئيبا ما له من عرض إلا عرض النهر : 20 متر. وأصبح هذا النهر ــ الذي له الآن 7 أو 8م من الماء ــ سيلا حقيقيا، يسيل تارة في سرير من رمال وتارة ينساب شلالات بين قطع كبيرة من صخور. السير متعب. عما قليل علينا أن نترك قعر الشعب لنتسلق إبطه الأيمن. هذا الإبط حافة صخرية وعالية وعرة : إنها ضلع Montée مستقيم ووعر. وصلت إلى القمة : إنها هضبة تكسوها المزروعات. أسير في هذه الهضبة لبضع دقائق ثم أدخل في واد قليل العمق ذي أصواح من صخور ذات انحدار لين، قعر الوادي ومنحدراته الأولى مزروعة : يرى المرء في هذا الوادي، ضمن حقول الشعير، صبارا وأشجار لوز عديدة.

ص 197

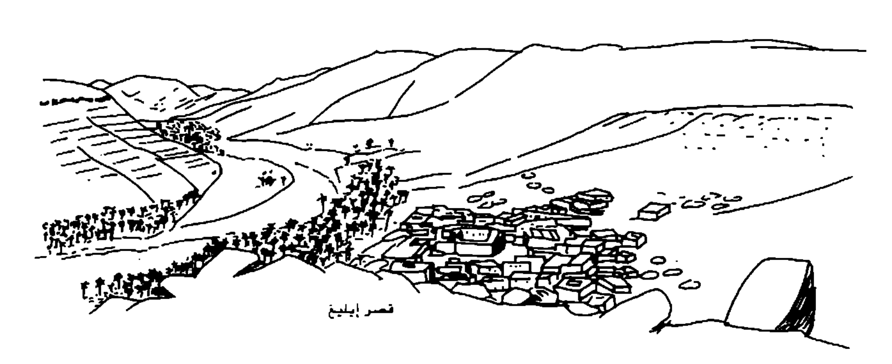
سرت في اتجاه عالية النهر. الوادي قريب من المنبع. وصلت إلى الفج حيث ينطلق الوادي. من الآن حتى الوصول إلى وادي نه ازرر لا توجد مزروعات ولا مساكن مأهولة بتاتا : انطلاقا من هنا إلى هناك أعبر مجموعات من أعراف وشعبات [جمع شعبة وشعب] مقفرة : سطح أسود اللون وصخري، لا نبات به إلا باقات نحيفة من الحلفاء متناثرة على المنحدرات. المسلك ليس إلا صعودا وهبوطا، إنه طريق متعب دون أن يكون صعبا. في الساعة 11 تغير المشهد : تفسح الصخور المجال لطبقة من رمال بيضاء تنتشر فوقها شذرات Paillettes لامعة. يوصل ضلع لين إلى واد ازرر الذي بلغته بعد ربع ساعة من السير. هذا المجرى المائي ذو واد واسع. إبط الوادي جبال صخرية ذات علو متوسط ومنحدراتها الأولى قليلة الانحدار تكسوها ــ كما هو الأمر بالنسبة للقعر ــ رمال بيضاء وتغطيها المزروعات. عرض سرير هذا النهر 30م 7 منها يحتلها ماء صاف وجار وتحيط بضفافه أشجار اللون وتنتصب على الجوانب عدة قرى شيدت من الحجارة. سرت في اتجاه عالية الوادي غير بعيد عن منطلقه، ثم التحقت بالصوح الأيسر وتسلقته. هذا الإبط صخري في البداية وذو انحدار متوسط ويصير بغتَة وعراً ويتحول إلى جدار عمودي : ممر وعر، يصعد المسلك بصفة متعبة بين قطع صخور سوداء كبيرة تتدفق منها عدة عيون. بلغت إلى القمة في الساعة الواحدة والنصف، ليس لهذه القمة أي اتساع، إنها شفرة حادة. عبرت هذه القمة عند فج موجود على مستوى باقي القمم : يسمى هذا الفج تيزي أزرر. هذا العرف هو ذروة الأطلس الصغير : عند فج تيزي أزرر ينتقل المسافر إلى السفح الجنوبي

للأطلس الصغير. انطلاقا من هذا الفج دخلت حلبة حيث ينطلق نبع. سرت في اتجاه جريان المياه : إنه واد سيدي محمد ويعقوب. لهذا الواد قليل من الماء عند انطلاقه وسرعان ما يجف هذا الماء، يغوص الواد عند مغادرته الحلبة في شعب ضيق ذي أصواح وعرة من صخور صفراء، عرض قعر الوادي 30 متر. تحتل الدمالك السرير بأجمعه، لا أثر للحياة النباتية، بعد أن يجري شيئا من الوقت هكذا، يصل النهر إلى سهل محجوجر تكسو سطحه نباتات عالية والوزال. اترك الواد يتبع مجراه في هذا السهل وأدخل في كتلة التلال متنقلا نحو الشرق المحيطة بالسهل في هذا الجانب : مكان وعر، منطقة تنتشر فيها الحجارة وتحززها رقع من صخور تمتد متوازية على وجه الأرض.

ص 198 تنحصر الخضرة في قليل من السعتر وبعض باقات الحلفاء. مازلت سائرا هكذا حتى وصلت إلى واد جديد هو وادي نهر إم ن تلس. سرت في اتجاه سافلة هذا الوادي أيضا : إنه شعب ذو أصواح مائلة إلى البياض صخرية ووعرة يزيد علوها ارتفاعا كلما تقدمنا سيرا، عرض قعر الشعب 15م يحتلها سرير النهر، هذا الأخير جاف وتكسوه الدمالك. لا حياة نباتية بتاتا لا في أسفل الأصواح ولا في أعاليها. في الساعة 5 و30 دقيقة دخل النهر سهل أزغر إم ن تلس [Nbp] الممتد من هنا حتى إلغ. تحد هذا السهل تلال صخرية ضعيفة الارتفاع جدا في جهة الغرب والشرق، وتحدها في الجنوب مجموعة ارتفاعات داكنة وعارية ذات أعراف موحدة الأشكال، السطح من تراب تنتشر فوقه كثير من الحجارة في بعض الأماكن : تكسو السهل سدرة ووزال وأعشاب مختلفة ومن حين لآخر تبدو فيه بعض الحقول، بعضها في ملكية إلغ وبعضها الآخر ملكية لمرابطي سيدي محمد ويعقوب : لهذا السبب يعوض اسم ازغر إم ن تلس باسم ازغر سيدي محمد ويعقوب في بعض الأحيان. باغتنا الليل وسط هذا السهل : صار الظلام قاتما إلى حد أننا ضللنا الطريق. تهنا بعض الوقت متشبثين بالأحراش ومتعثرين بين الحجارة : في الساعة 7 فقد مرشدنا أمل العودة إلى الطريق الصحيح رغم يقيننا بأننا كنا قرب إلغ : توقفنا عند قدم أجمة وقضينا الليل هناك.

28 مارس

الذهاب في الساعة 6 صباحا. انتقلنا إلى سهل قليل الارتفاعات وعار ومحجوجر ومموج وهو يكون الجانب الشرقي للسهل. اخترقنا السهل في اتجاه



منحرف وبعد قليل وجدنا أنفسنا عند عرف : في الأسفل، عند أقدامنا ظهر واد إلغ ونخليه وقصره. وجدت النخيل من جديد بعد غياب دام 3 أشهر. يوصلني نزول سريع عبر الصخور إلى قعر الوادي الذي تكسوه مزروعات تحت ظلال نخيل من نوع بوسواير. يجري واد سيدي محمد ويعقوب المسمى أيضا وادي إلغ وسط هذا الوادي. ما للنهر إلا 2م من الماء في سرير عرضه 50 متر يوجد قصر إلغ على الضفة اليمنى للواد. دخلت القصر على الساعة 8 صباحا.

199 نزلت ضيفا على أحد أصدقاء الحاج في الغ. قصر الغ كبير وغني : ساكنته من الشلوح كثيري العدد. إنهم مستقلون رغم قربهم من أيت جلال ولا يستطيع الرحل مسهم بسوء. بنيت إلغ من حجارة ومن مقدار : يأتي هذا الأخير في المرتبة الأولى من حيث مواد البناء.

بقينا في العراء البارحة. انطلاقا من فج أزرر، كان في إمكاننا لو تابعنا السير في اتجاه سافلة واد سيدي محمد ويعقوب السير في أرض مأهولة إلا أننا كنا تصرفنا عكس هذا عن قصد : الجاري به العمل هو تفادي الأماكن المأهولة عندما يكون الركب قليل الأفراد وعندما لا يتوفر هذا الركب على زطاط من الأهالي وعندما لا يتوفر الركب على زطاط مقتدر. ذلك أن رؤية مسافرين في ركب قليل الأفراد رديئ الخفر توحي إلى الذين يمر الركب بجوارهم بفكرة ملاحقتهم ونهبهم : هذا هو خطر أي لحظة في الأماكن المأهولة. يتفادى الركب هذا الخطر عن طريق الابتعاد عن أنظار الآخرين وعن طريق سلوك الممرات الخالية. لهذا السبب، في وادي نهر سوس، بدل الانتقال من قرية إلى قرية أخرى على طول ضفاف النهر كنا سرنا في اتجاه الشمال مخترقين الغابات تارة والمراعي تارة أخرى ومبتعدين دائما عن المراكز المأهولة. من أزرر إلى الغ كنا أخذنا الطريق عبر قفر إم ن تلس

حتى نتفادى مخيمات أيت جلال الموجودة على طول وادي سيدي محمد ويعقوب. لمسلمي هذه الأصقاع مبدآن عند سفرهم دون عناية ودون خفر : السير ليلا في الأماكن الخطيرة جدا، ودائما اختيار الطرق الأقل استعمالا والأكثر خلاء.

قبيلة ازرر التي عبرت أراضيها البارحة قبيلة شلحة صغيرة مستقلة.

29 مارس

إقامة في إلغ. كان سقط كثير من الثلج في تيزي أزرر، حسب ما قيل لي، خلال الليلة التي قضيتها في أزغار إم ن تلس. لم أكن رأيت أثرا للثلج على الأطلس الصغير لا انطلاقا من تزنخت ولا من أكَني ولا من الصحراء ولا عند إللن، ولاحظت وجوده مرتين على أعرافه منذ مغادرتي موكَدور : كانت هذه الآثار للثلج على شكل خيوط رقيقة بيضاء لا تكاد تبصرها العين تخدد متنين عاليين بخطوط ناعمة : أول هذين التلين كان أمام ترودانت وكان مشاهدا من وادي نهر سوس، وثانيهما كان غرب فج أزرر، وكنت ميزته ما قبل البارحة.

30 مارس

ص 200 من إلغ إلى أقا إغن علينا أن نقطع قفرا طويلا اسمه خلاء عدنان. إنه خلاء خطير دائما وخطير بالنسبة للجميع وخاصة بالنسبة للحاج بورحيم : يمر فيه المسافر على مرأى من قصر تسن س أمين الذي هو في صراع هذه الأيام مع أكَدير تسنت. لو وقع مرافقي في قبضة أهل هذا القصر لهلك، لهذا السبب نادى الحاج بورحيم على أهله واصدقائه ووصلنا إلى أقا إغن هكذا تحت حماية 20 شخصا مسلحا : كان هذا الخفر مجانا. توهب العناية التي يشتريها الأجنبي، للأصدقاء بالطريقة الأكثر سخاء : لم أكن في حاجة إلى أداء أجرة من خفرني خلال سفري من تيسنت إلى موكَدور ولا من موكَدور إلى تيسنت بفضل معارف وعدي ومعارف الحاج بورحيم : من واجبات الضيافة في المغرب مرافقة الصديق حتى وصوله إلى مكان إقامته المقبل أو حتى بلوغه مكانا آمنا. هذا شيء عادي جدا يقدمه المضيف دون أن يكون الضيف في حاجة إلى طلبه.

الذهاب في الساعة 7 صباحا. في البداية، يتبع الطريق، من إلغ إلى أقا إغن،

مجرى واد سيدي محمد ويعقوب، ثم يتبع مجرى واد أقا إغن ويخترق منطقة موحدة المشهد : أودية أو سهول ذات سطح مستو، رملي تارة ومحجوجر تارة أخرى : الأودية والسهول محاصرة بين جدران من صخور سوداء ولامعة، جدران عالية وعرة وعارية. لا تنعدم النباتات في قعر الأودية : الوزال الأبيض والكمشة في حوض واد سيدي محمد ويعقوب والكمشة والاكَايا والملبنه في حوض أقا إغن. تظهر أشجار الصنط في عيون الشيخ محمد أقا إغن (مسكن به ينبوع وبعض البساتين). يصادف المرء من هنا إلى أقا إغن أشجار الصنط متفرقة أولا ثم أكثر فأكثر عددا. جميع مجاري المياه جافة ولها جميعها أسرَّة من حصى عرض الواحد ما بين 50 و40م، تلكم كانت المنطقة المسماة خلاء عدنان. وصلت إلى أقا إغن على الساعة 3 و30 دقيقة.

أقا إغن واحة كبيرة مثلما هي عليه واحة جوا. تحتوي على قرية واحدة اسمها طابية عقة إغن. ترى ضمن النخيل بقايا موضع ثاني اسمه اكَدر أقا اغن حاليا مهجور. تتوفر طابية عقه إغن على 500 أو 600 رجل مسلح. تتكون الساكنة من الشلوح وعلى الخصوص من الحراطين. الواحة تابعة لإده وبلال. في هذه الواحة تختلط الرمال بحجارة بيضاء بادية على وجه الأرض : الميدان أبيض وكذلك مقدارالمساكن.

توصلت هنا بأخبار الصحراء : تَمَّ الحصادُ حوالي فاتح مارس. كانت الغلة رائعة في المعدر وأيضا في حقول الواحات لم ير أحسن منها مهما تذكر الناس. عم الرخاء الجهة : كان ثمن عبرة الشعير 1,5 فرنك عند ذهابي وهو الآن 20 سنتيماً فقط. وزيادة في سعادة الناس غمرت المعدر مياه درعة منذ بضعة أيام : سيكون من الممكن الحصول على غلتين هذه السنة.

31 مارس

إن كان الرخاء عم تسنت فإن العكس هو الحادث في مجرى نهر درعة وعند أولاد يحيى : تهيمن على هذه المناطق مجاعة مخيفة سببها ــ جزئيا ــ محصول التمور الرديئ في حوض درعة خلال الخريف الماضي [Nbp]. استقر 700 خيمة من 201

أيت علوان (برابر) هنا ما بين تيسنت ومريميما بعد أن شردتهم المجاعة. يجعل وجود هؤلاء الأجانب الفيجة أقل أمنا مما هي عليه عادة : يقوم هؤلاء الأجانب بالقرصنة كل يوم ويقترفون كل يوم نهبا جديدا. رجعنا إلى السير ليلا طريقتنا القديمة. غادرنا أقا إغن في الساعة 2 صباحا وعبرنا الفيجة ـــ هذه التي أصبحنا نعرفها ـــ متوجهين نحو تسنت. دخلنا أكَدير في الساعة 7 صباحا.

وجدت من جديد الربِّي مردوشي الذي كان ينتظرني بكل وفاء.

VIII
من تيسنت إلى دادس

1 ـ من تيسنت إلى تازناخت

ص 202 بعد محاولات جديدة غير مجدية للوصول إلى درعة عن طريق منطقة زكَيد، قررت الذهاب إلى درعة سالكا طريقا آخر هو طريق تزنخت. كان طريق زكَيد، وهو صعب في كل الأوقات، غير آمن نتيجة المجاعة التي كانت تفشت في المنطقة. لم أجد أحدا يريد تحمل خفري عبر هذا البلد. أجبرت لهذا السبب على المرور بتزنخت، حيث كنت أقمت لمدة طويلة. لذا قررت لكي أصل إلى غايتي أن أسلك للرجوع إليها من جديد، طريقا غير الطريق الذي كنت اتبعته للمرة الأولى منذ 5 شهور مضت. من بين الثلاثة طرق الموجودة بين تسنت وتزنخت، كنت سلكت، خلال الذهاب، الطريق الذي يمر إلى أبعد حد في اتجاه الشرق، وهو طريق تيزي اكَني. وفي هذه المرة، اخترت الطريق الذي يمر إلى أبعد حد في اتجاه الغرب، وهو طريق تيزي ن هرون.

6 أبريل 1884

الذهاب من أكَدير عند منتصف الليل. يخفرني الحاج وأحد إخوته وأحد أبناء عمومته. يصاحبني مردوشي. سوف لا أفارق مردوشي من الآن حتى وصولي إلى للامغنية. أخترق الفيجة مرورا بأطلال إمزن، وهي أطلال قصر مهجور. لم يعد لي شيء أسجله في موضوع هذا السهل : دائما نفس الرمال ونفس أشجار الصمغ التي ذكرتها سالفا. أترك الفيجة، سائرا في اتجاه عالية واد أجنان، انطلاقا من النقطة حيث يتصل المجرى المائي بالسهل. عرض الواد 100 م، سريره من دماليك وليس به ماء. سطح الوادي محجوجر تتخلله أشجار الصمغ، كان في البداية عرض الوادي 400م، ثم صار يضيق شيئا فشيئا وفي نفس الوقت تصبح الإبط، وهي حافات من صخور سوداء عند البداية، تصبح هذه الإبط عالية ووعرة. أنتقل من واد أجنان إلى أحد روافده، وهو واد إكس والمعروف أيضا بجنان ن إكس والذي سأسير في اتجاه عاليته أيضا. إنه واد مطابق للأول إلا أنه أضيق منه. بعد شيء من الزمن، يمتلئ قعر الوادي بالمزروعات والنخيل : خيط

ماء يظهر رقارق Un filet d'eau، إنه واد تمسولت سأصل عما قليل إلى مساكن القرية. توقفت عن السير. الساعة 7 صباحا.

تمسولت قرية كبيرة، بنيت من الحجارة عند منتصف الإبط الأيسر لواد إكس، بعيدا فوق مستوى المجرى المائي. تنتصب وسط القرية زاوية سيدي عبد الرحمان. 203 إنها بناية واسعة يشرف عليها برج رئيسي : نزلت بهذه القرية. المرابط المقيم بها رجل قوي. يكوِّن اتباع زاويته سكان مقاطعات وقبائل الجبال على امتداد 30 أو 40 كلم في جميع الاتجاهات، ويمتد نفوذه الديني حتى قبائل زناكَة. تركت هنا من صاحبني منذ أكَدير : أعطاني سيدي عبد الرحمان خفرا من 3 رجال سيقودونني إلى زناكَة حيث سيسلمونني إلى عبد الله بن الطالب، أحد أكبر شخصيات القبيلة. أعطيت رسالة سأسلمها لهذا الأخير الذي سيصاحبني بدوره حتى تزخت. ودعت الحاج بورحيم.

غادرت هذا الرجل بكثير من التأثر، هذا الرجل الذي كان طيبا معي إلى حد كبير والذي عشت معه طيلة 3 أشهر، هذا الرجل الذي ربما سوف لن أراه أبدا من الآن.

الذهاب من تمسولت في 10 صباحا سرت على الضفة اليسرى في اتجاه عالية واد أكس، على جنب الهدو A flanc de coteau. الطريق صخري وصعب. المجرى المائي قريب مني : عرض سريره المكسو نخيلا 40م. يحتل السرير قعر الوادي بأكمله ويسيل النهر بين جدارين من صخور مستقيمة علوها 10م. تبدو بعض المزروعات فوق الوادي على تدرج، تنتشر بين المزروعات عدة خلايا من حجارة هيئت لإيواء النحل، ثم تنتأ إبط عالية من صخور صفراء. إنها إبط عالية، وعرة وعارية. بعد 40 دقيقة من السير يخرج الواد من هذا الخانق ويخترق سهلا صغيرا خاليا، ذا سطح محجوجر به أشجار وزال أبيض وسبولة الفار. يصل علو هذا النبت الأخير من 40 إلى 50سم. انطلاقا من هنا، يدخل الواد من جديد في الجبل حيث يسيل في شعب خال، عرض القعر 50–60م منها 10م تكوّن السرير. هذا الأخير جاف وتكسوه الدماليك وما بقي من قعر الوادي محجوجر وبه بعض شجيرات الوزال الأبيض، إبط من صخور صفراء عالية جدا ووعرة كذلك. اتبعت المجرى حتى الساعة الواحدة، تكسوه عند هذه اللحظة أشجار النخيل شيئا فشيئا ويبدو قصر عند ضفته اليمنى. إنه قصر إكس وهو آخر مكان

مأهول من مجرى النهر. هنا يترك الطريق جوانب الوادي ليتسلق الإبط الأيسر للجبل. تكوِّن هذا الإبط الأيسر كتلة وعرة جدا تسمى جبل أنيسي. سأحتاج إلى ساعتين من السير لكي أصل إلى قمته. إنه أحد أصعب الممرات التي صادفتها خلال سفري. لا يمكن السير إلا على الأقدام. الطريق على شكل سُلم طويل، يرتفع ملتويا بين هوات شاسعة وجدران مستقيمة. الكتلة كلها من صخور. إنها جدران صفراء تارة ووردية تارة أخرى. ينمو عدد كبير من النباتات الصغيرة والربيع والأزهار على جوانب الطريق بين شقوق الصخور ولو أن السطح لا يبدو إلا حجارة. في الساعة الثالثة وصلت إلى عرف. تمتد أمامي هضبة ضيقة، محجوجرة وبها بعض الباقات القليلة من الحلفاء. سرعان ما تتحول هذه الهضبة التي أسير فيها إلى ضلع مائل نحو الشمال.

نزلت من الهضبة ووجدت نفسي على جوانب واد إكس. ما للواد إلا 20م من العرض، يحتل سريره، المكون من دماليك جافة، كل عرض الشعب. إبط هذا الأخير ذات ارتفاعات متوسطة، محجوجرة ووعرة. تكسوها الحلفاء. يسيل واد إكس هكذا بعض الوقت، ثم تنخفض الارتفاعات. يتسع الوادي وفجأة يجد المرء نفسه فوق هضبة لا أثر فيها للجبال أو للصخور : فقط سطح مستو ذو تموجات ضعيفة تكسوه باقات كثيفة من الحلفاء. نصف الميدان حجارة ونصفه الآخر من رمال. يتلوى فيه النهر بين إبط ذات انحدار منتظم جدا. علو هذه الإبط قرابة 30م هنا وهناك العوارض الطبغرفية الوحيدة هي أكمات صخرية منعزلة علوها 50 إلى 60م رافعة رأسها الأسود فوق تموجات السطح الخضراء. يصادف المرء من حين لآخر بعض مخيمات رعاة الزناكة. يأتي هؤلاء الرحل للاستقرار هنا خلال جزء من السنة. يشيدون أكواخا من حجارة جافة ويسوقون قطعانهم إلى المراعي المجاورة. في الساعة 7 توقفت عند إحدى هذه المحطات لقضاء الليل. ص 204

خلال الجزء الأخير من الطريق كان لواد إكس 12م عرضا سرير الواد نصفه من رمال ونصفه الآخر من دماليك. كانت تنتشر في هذا السرير الغدائر. لم أصادف خلال هذا اليوم أي مسافر أثناء طريقي.

7 أبريل

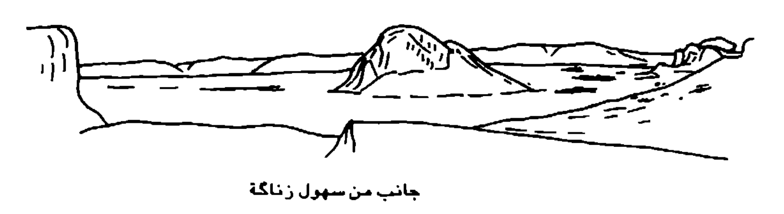
الذهاب في الساعة 7 صباحا. أسير بعض الوقت في نفس الهضبة حيث كنت

البارحة، ثم أتوغل في شعب ضيق ذي إبط وعرة من صخور سوداء لامعة تاركا



منظر مأخوذ من تيزي-نْ-هارون

الهضبة والحلفاء، يمثل هذا الشعب الضيق عقبة قصيرة ولكن صعبة، في الساعة 3 وصلت إلى فج تيزي ن هرون : هنا تمر نقطة ذروة الأطلس الصغير Ligne de faite.



جانب من سهول زناكة

أخترق هذه النقطة للمرة الرابعة. يوصلني طريق صعب جدا وسط صخور باسقة إلى شعب عميق. سرت في هذا الطريق في اتجاه السافلة وجدران ضخمة معلقة فوق رأسي. عما قليل سأبصر نهاية [فم] الشعب حيث شيدت قرية تقدشت المبتسمة، يميز المرء سهل الزناكَة، بعيدا بعض الشيء، ممتدا على مد البصر. في الساعة 9 وصلت إلى قرية تقدشت. إنها مقر سكنى عبد الله د آيت الطالب. يذكر مسكنه ــ تغرمت ذو أبراج من مقدار مقطع بدقة وتكسوه النواتئ ــ بمساكن جيران درعة الظريفة.

20 استقبلني فيه عبد الله استقبالا حسنا. لم يخف علي أنه كان لي حظ نادر أنني وصلت إليه تحت حماية خفر ضعيف كهذا الخفر الذي صاحبني ورفقة أناس مجهولين. في هذه الظروف، لو حدث أن صادفني هو أو أحد أبنائه فإنه، بلا ريب، سيكون قد نهبني. الآن دخلت بيته سلمته رسالة من عند السيد عبد الرحمان فإنه لا يرى في إلا ضيفا موصى به من طرف صديقه، فأهلا وسهلا بي وغدا سيصاحبني شخصيا إلى حيث أريد أن أصل.

8 أبريل

ركب عبد الله جواده في الساعة 8 صباحا وذهبنا. ها أنا ذا أخترق للمرة الثانية سهل زناكَة الجميل. ليس هناك شيء جديد يذكر في شأنه. هكذا كان في جزئه الغربي وهكذا أجده من جديد هنا : نفس السطح المستوي مثل وجه مرآة، أرض جيدة جزء منها محروث وجملتها قد تكون قابلة للحرث. تشبه الحافة التي تحدها غربا الحافة التبي تحدها شرقا، جدار من صخور سوداء ولامعة، متعامدة في جزئها الأعلى، ذات انحدار منتظم وتكسوها الحجارة عند القدم. مررت قرب عدد كبير من القرى والقصور وأهمها قصر أزدف، حيث سكنى الشيخ. إنه قلعة تحيط بها عدة أسوار وتنتفشها عدة أبراج. القلعة من المقدار مثلما هي عليه كل بنايات زناكَة ومنمقة بأناقة. صادفت أيضا عدة زوايا. قادني زطاطي إلى ما وراء حدود زناكَة. ينتهي هنا نفوذه : ليست له فائدة خارج حدود قبيلته. إلا أنه لم يتخل عني بل راعى رسالة صديقه إلى النهاية : أوصلني إلى العين وذهب ليتصل بالسيد حامد وعبد الرحمان، المرابط صاحب القصر وطلب منه خفرا لمرافقتي و لم يغادر العين إلا بعد أن رآني ذاهبا إلى تزنخت رفقة العبد موضع ثقة السيد حامد.



أزديف

من العين إلى تازناخت تجب الإشارة إلى شيء واحد : المناطق المحجوجرة الممتدة شمال واد تمججت والتي كنت وجدتها عارية منذ 5 أشهر مضت تغطيها الآن سبولة الفار. التقيت بالأزدفي خلال هذه المسيرة وهو اللقاء الذي تحدثت عنه سابقا. وصلت إلى تازناخت في الساعة الرابعة.

لم أر أحدا خلال الطريق باستثناء الأزدفي. المجاري المائية التي اخترقتها هي : واد تيويين (سرير نصفه رمال ونصفه الآخر من حصيم، 20م، عرْضا، جاف، أصواخٌ علوها 50سم)، واد تِمججتْ (30م عرضا، سرير من رمال، جاف).

2 ــ من تازناخت إلى مزكَيطة

كثرت العراقيل لمنعي من الوصول إلى درعة. علمت أن الطريق مقطوع عند وصولي إلى تازناخت. قامت النزاعات بين القبائل حديثا على طول المسافة ما بين قصر تاسله وأيت حمو، فخذة أولاد يحي المجاورة لمزكَيطة. نهب هؤلاء 200 رأس ماشية لأهل تاسه الذين نادوا في حينها على الزنيفي لإغاثتهم. انقض هذه الأيام الشيخ عبد الواحد على أيت حمو فقتل منهم 10 رجال وأخذ منهم 150 بهيمة. ها تازناخت في عداء مع القبيلة التي تمر منها الطريق إلى درعة : لا أحد من السكان يستطيع أن يكون زطاطي خلال هذه الطريق. إنه سوء الحظ، ذلك أن هذه الطريق لا تشتمل على أية صعوبة : يسافر فيها المرء تحت حماية شيوخ تازناخت بسهولة وتخترق القوافل الطريق في جميع الاتجاهات بدون انقطاع. في الظروف الحالية، لا أعرف متى سأستطيع الذهاب.

بعد 4 أيام من الانتظار، وجدت زطاطا، إنه رجل من أيت حمو، وصل إلى هنا منذ وقت قصير، قبل تحمل إيصالي إلى مزكَيطة، هو نفسه يوجد هنا في أرض أعداء ولم يتمكن من الدخول إليها إلا بواسطة عناية وسوف لا نستطيع المرور بتاسله، ولن نتبع الطريق العادي بل سوف نعرج على أراضي قبيلته عبر القفار ثم سوف نخترق ليلا المنطقة الأكثر خطورة.

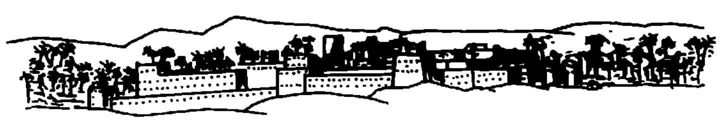
13 أبريل

الذهاب في الساعة 1 زوالا عبر الطريق العادي، وصلت إلى وادي نهر أيت تيكَيدي وشّن، أخذت نفس الطريق مرة ثانية حتى مقربة من تيسلت. هنا تركت الوادي وارتميت في الكتلة الصخرية التي تكون إبطها الأيمن. سرت خلال ساعة في منطقة وعرة مكونة من تتابع الشعاب الجافة والأضلاع المحجوجرة ولا نبات بها إلا قليل من سبولة الفار. عند الساعة 4 و30 دقيقة تغير المشهد : ينشر سهل شاسع تموجاته الخفيفة، ويكسو بساط من سبولة الفار ما بين التموجات والأجزاء العليا قطعا من صخور سوداء ولامعة ناتئة هنا وهناك وسط السطح الأخضر. سرت في هذه الهضبة خلال ما بقي من النهار : لا تتغير معالم الهضبة، سطح مستو محجوجر تملأه الخضرة.

توقفنا عن السير عند منتصف الليل. لقد انتهت المنطقة الخطيرة بالنسبة لزطاطي. في استطاعتنا الآن أن نستريح بدون تخوف حتى الصباح، توجد النقطة التي توقفنا فيها عند قدم عرف صخري عال : إنه جبل تفرنن. صادفت عددا كثيرا من الناس في وادي أيت اكَد وشن : انطلاقا من الساعة التي غادرت فيها الجبل لم أر إنسيا. في البداية، نادرا ما كان المرء يميز قطيعا ثم لم يعد يرى أي شيء. كان اليوم بواد تازناخت 6م من الماء الجاري عند النقطة حيث قطعته. في الهضبة 3 أنهار ذات أهمية. للنهر الأول سرير به عدة غدائر. يجري هذا النهر في أسفل السطح المحيط به داخل خندق عرضه 300م ويفصله عن السطح جداران من صخور عموديان علوهما 10م. مجرى النهر الثاني عند مستوى الهضبة إنه ذو سرير رملي عرضه 10م وبه 4م من الماء. ويصل عرض سرير النهر الثالث 20م، وهو ململوم بين ضفتين من صخور علوها 12م وبه 4م ماء جاريا. ص 207

14 أبريل

الذهاب على الساعة 5 صباحا. تسلقت جبل تفرنين وهو ضلع صخري منعزل وسط الهضبة : إنها ذروة الأطلس الصغير. وصلت قمته في الساعة 5 والنصف وعبرته عند فج يفوق علوه شيئا ما، عند تيزي نْ تفرنين، المستوى العام للأعراف. الفج ضيق جدا. سرت في السفح الآخر. الهبوط صعب. يتلوى الطريق، كما كان الأمر عند الصعود، بين صخور كبيرة رمادية اللون. بعد قليل من الوقت تنتظم المنحدرات وتكسوها الحلفاء وسبولة الفار. توصلني هذه المنحدرات إلى واد تحيط به كتلة صخرية صغيرة حيث يظهر فج. قطعت الكتلة ووصلت إلى الفج. يوجد هذا الأخير، واسمه تيزي ن امراد، في قعر ثلمة تشق الجبل حتى قدمه ويكاد يكون هذا الفج على مستوى السليل الذي اخترقناه منذ وقت قليل. نزلت بعد اختراق الفج، عبر شعب ضيق ووعر في اتجاه قصر تساونت الذي يرى في الأسفل وسط واد متسع. الطريق وعر وملتو عند منتصف الضلع. إبط الشعب من صخور صفراء، وعرة جدا، خضرة وأزهار في قعر الوادي. وجدت نفسي عند وصولي



تاساونت

إليه، في وادي نهر تمتسيفت. يوصلني إلى جانب النهر ضلع ذو انحدار منتظم وسطح محجوجر تكسوه سبولة الفار. هنا شيد قصر تساونت. دخلت القصر في الساعة 8 والربع. قادني الزطاط إلى مسكنه.

تساونت قصر صغير ينتمي إلى فخدة أيت حمو وهي فخذة مهمة لأولاد يحي. شيد القصر من المقدار حسب نموذج البناء في درعة. به عدد كبير من الناتئات وتنميقات تكسو الجدران وأبراج مشرفة على سطوحها. تحيط بالقصر من كِلا جانبيه مغروسات بنخيل، من نوع بوفكَوس، مثل مغروسات تاسلة. توجد هذه المغروسات على ضفاف واد تمتسيفت الذي يسيل قريبا من أسوار القصر. يكاد النهر يسيل عند أقدام المساكن. السرير جاف، عرضه 60م ويتكونِ من دمالك كما تحيط به ضفاف علوها 50سم. توفر آبار وقنوات الماء للقصر. في هذا الوقت كان القصر خالياً من السكان. إنهم منتشرون بجواره. يعيش السكان في أكواخ من قصب ويصاحبون قطعانهم إلى المراعي.

ص 208

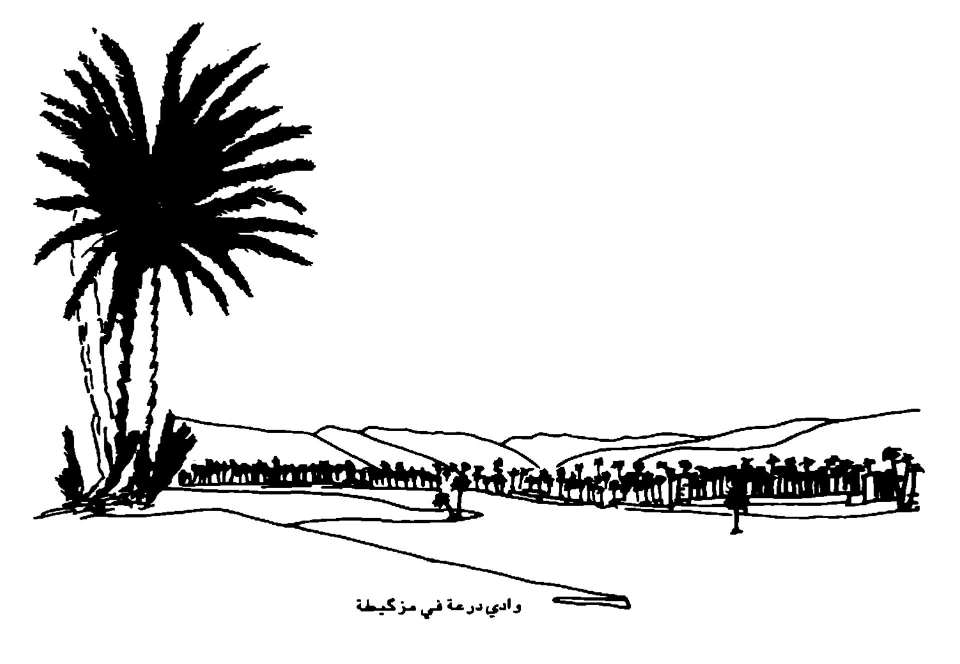
15 أبريل

الذها في الساعة 9 صباحا. إلى غاية وصولي إلى مزكَيطة تابعت مجرى واد تمتسيفت. يتغير مقطع الوادي خلال المسيرة. يتغير عرض القعر. يجري النهر تارة عند قدم الإبط الأيمن وتارة عند قدم الإبط الأيسر ولكن لا تتغير الخاصيات العامة : الإبط الأيسر هو دائما أعلى من الإبط الأيمن. إنه من صخور صفراء ويبدو انحداره العام متوسطا. ترى في الوادي من بعيد، مجموعات النخيل، هنا وهناك في قعر الشعب. الإبط الأيمن مكون من صخور سوداء ولامعة وهو ليس وعرا. يذكر بجبل محيجبه من حيث الشكل والتكوين واللون. يقال إنه غني بالمعادن مثل محيجبه. يمتد بين هاتين الحافتين واد مكون من ضلعين ذوي انحدار منتظم وممتدين من أقدام الإبط إلى جوانب النهر. في بعض الأحيان لا يصل الضلعان إلى هذا الحد وفي هذه الحالة يفصل بينهما مجال مستوى السطح. إذا وجد هذا الجزء الأوسط فإنه شريط خضرة من مراعي وأحراش وطرفاء وعُناب بري يتلوى بينها النهر. الأضلاع، على العكس، محجوجرة ويكسو سطحها الملبنة وسبولة الفار والجرط. تظهر بعض أشجار الصمغ عند الاقتراب من مزكَيطة.

مررت بمكانين مأهولين يختلفان من حيث الأهمية. يتكون إذا وجناد، أولهما،

من بعض الأكواخ من الحجارة الجافة المنتشرة بدون انتظام قرب واحة صغيرة، وثانيهما، واسمه وريكة، قصر على الضفة اليمنى للنهر. تملأ سرير هذا النهر وسريره فقط أشجار النخيل عند هذه النقطة. هناك مكان آخر اسمه أيضا وريكة يوجد على مسافة قليلة من وريكة السالفة الذكر لم أتمكن من رؤيتها لكون عارض ميداني يحجبها عن البصر. يحمل هذان المكانان اسم يوريكان الجماعي، والمكانان من أراضي مزكَيطة. عند وريكة، بواد تمتسفت ـــ الذي كان به شيء من الماء عند إده وجناد ـــ 4م من الماء الجاري داخل سريره بالإضافة إلى عدة قنوات. تبدو مزكَيطة من وريكة : لم تزل إلا شريطا أسود من النخيل، ممتدا عند قدم سلسلة جبال عالية وحادة أمامي الوادي حيث أسير. من الآن فصاعدا الطريق خال وتقل النباتات، إضافة إلى عدم وجود لا طرفاء ولا عنب بري ولا حتى سبولة الفار ويوجد فقط بعض باقات الملبنة وبعض أشجار الصمغ النادرة. لم يعد السطح محجوجرا بل صار رمليا وأبيض.

ص 209 وصلت إلى واد درعة في الساعة الواحدة. يبدو الوادي مثل شريط أخضر ملتويا بين سلسلتين من جبال. تمتد أمام عيني أشجار نخيل لا تحصى تمتزج بها آلاف الأشجار المثمرة. يتراءى بين الأغصان، من مكان إلى مكان آخر شريط



وادي درعة في مزكيطة

فضي، مياه النهر وأعداد من القصور، كتل سمراء أو وردية تعلوها أبراج تنتشر عند حدود المغروسات وعلى المنحدرات الأولى للإبط. وهي الكثيرة يسارا، الجدران الملتوية والوعرة لجبل كيسان والمغارات. هي سلسلة جرداء من صخور وردية، علوها ما بين 200 إلى 300م، الشقق ــ ويمينا حافة من حجارة سوداء ولامعة ذات الأعراف المتساوية الشكل والسطوح الملساء والأضلاع الوعرة : يسمى هذا الإبط كدية أولاد يحيى. علوه ما بين 150 إلى 200م.

بين هذين الجدارين يمتد قعر الوادي، سطح عرضه مابين 1200 إلى 1800م تكسوه رمال ناعمة وهو مستوٍ مثل وجه مرآة. يسيل في وسطه نهر درعة فوق سرير من رمال ودون ضفاف، يكاد يكون على مستوى السطح المجاور الذي يغمره خلال الفيضانات. متوسط عرض السرير 150م تملأ منها المياه دائما 60 إلى 120م ضفاف قعر الوادي بساتين غناء : أشجار تين، تقيوت [Nbp1.209 وتتزاحم فيه أشجار الرمان. تتعانق أوراق هذه الأشجار وتنشر ظلالها الكثيفة على السطح وفوقها تتمايل باقات أوراق النخيل العالية. إنه نفس البساط من الخضرة 210 تحت هذه القبة : لا توجد ولو بقعة أرض عالية وما السطح إلا مزروعات وبذور في انتظار الخروج من جوف الأرض. هذا السطح مقسم بنظام دقيق إلى عدد لامنتهٍ من مشارات تسيج كل وحدة منها خيوط من مقدار وتخترقها أعداد كبيرة من القنوات حاملة الماء والطراوة. في كل مكان تنفجر خصوبة هذه التربة النافعة. في كل مكان تظهر بصمات عنصر بشري مكد. في كل مكان تظهر آثار ساكنة غنية : تنبت خضر تحت ظل النخيل والأشجار المثمرة إلى جوار الحبوب، وتبدو عرائش الكروم ومقصورات من مقدار : إنها أماكن استراحة حيث يقضي المرء ساعات القيلولة تحت الظل وبين أحضان الطراوة. هكذا هو نهر وادي درعة، بستان عجيب امتداده 150 كلم انطلاقا من قدم جدران الصخور التي تحد هذا الوادي.

ينتشر عدد كبير من القصور على المنحدرات الأولى للإبطين : يوجد قليل من هذه القصور في الوادي إما اقتصادا لتربة ثمينة أو خوفا من الفيضانات، لجميع القصور مظهر الأناقة هذا وهو مظهر خاص ببنايات الدرع. لا يوجد بتاتا حائط واحد بدون ناتئات أو بدون رسوم تخترقه شرفات مجيرة، وتنتصب في كل مكان تغرمتن عالية وأبراج، وحتى المساكن الأكثر فقرا بها كثير من القبات الصغيرة

والشرفات المقوسة والحواجز المفرغة. قصر تمنكَلت، عاصمة مزكَيطه، إحدى البنايات الرئيسية لهذه القصور، هو غايتي اليوم وصلت إليه في الساعة 2 و30 دقيقة تحت ظلال الأشجار.

قبل دخولي تمنكَلت، قطعت نهر درعة الذي لا يمكن اختراقه في أي مكان شاء المرء إذ لابد من استعمال المعابرGués. كان للنهر حيث عبرته طبقة من الماء عرضها 120م وعمقها ما بين 60 و70سم كان قعر الوادي من الرمال وكانت المياه صفراء اللون، صافية وصالحة للاستهلاك. كان التيار سريعا.

تمنكَلت قصر جميل. إنه مقر إقامة عبد الرحمان بن الحسن، الشيخ الوراثي لمزكَيطة وعاصمة المقاطعة. يعمر الحراطين القصر وحدهم كما هو الأمر في جميع أنحاء درعة. سأقيم في هذا القصر بضعة أيام قبل استئناف طوافي في اتجاه دادس.

تتكون منطقة مزكَيطه من حاشية المزروعات والقصور التي تكسو ضفتي نهر درعة. في المنطقة التي أوجد فيها تنحصر مزكَيطة في وادي النهر نفسه. إنه شريط طويل وضيق لا يتعدى عرضه أبدا الكيلومترين. توجد نفس الحالة في المقاطعات الأخرى لدرعة بدون استثناء : هكذا هي الأمور في أيت سدرات وأيت زري وتنزلين وترنته وفزواطة واكتاوة والمحاميد. لا يتكون بعض أراضي هذه القبائل إلا من نصف وادي النهر. إنها، كما هو الأمر عند مزكَيطة، أجزاء أكبر أو أصغر مساحة من هذا الشريط الأخضر المتلوي في الصحراء والمسمى درعة، هذه المنطقة مجال ضيق : لا تُطلق هذه التسمية إلا على وادي نهر درعة بالمعنى الضيق لهذا المصطلح، ونقصد به 500م من النخيل التي تحيط بكل ضفة من ضفاف النهر. لا تفوق هذه البقعة في أي مكان هذه الأبعاد. في سافلة تنزين، تنفرج شيئا فشيئا الجبال التي كانت تحيط بهذه البقعة ويتمكن النهر في النهاية من الجريان حرا في السهل إلا أن شريط النخيل والمزروعات لا تتغير أبعادها : تبقى دائما كما كانت عليه سابقا. هناك فرق كبير بين هذا الخط ذي المناطق الواسعة المرسوم على خرائطنا القديمة وما تراه العين في الميدان. سوف ألاحظ نفس الشيء بالنسبة للواحات التي سأزورها لاحقا : لا تختلف كثيرا كل من واحات تدغة وفركلة وغريس والمقاطعات المختلفة لزيز عما عاينته في وادي درعة. إنها مجموعة أشرطة.

ص 211

3 ــ من مزكَيطة إلى دادس

20 أبريل

توجد 4 طرق رئيسية للذهاب من درعة إلى دادس. هذه الطرق هي على التوالي :

1) طريق إديلي : تنطلق هذه الطريق من تنغل، وهو قصر أفله نْ درعة، وتخترق هذه الطريق واد أقا المدفع الذي يرتمي في نهر دادس في أراضي إمغرن، ثم تخترق هذه الطريق واد تنزت وتصل أراضي إمغران : يومان من المشي دائما في القفار. نقضي الليلة على جوانب واد أقا ؛

2) طريق أنفوكَ (والمسمى أيضا طريق تكَزرت) : تنطلق هذه الطريق ما بين أفره وطه نْ أيت ملول وتخترق على التوالي وديان أقا المدفع، تنزرت أقا ن ورلاي وتنتهي، حسب الرغبة، عند دادس أو في أراضي امغران : يومان من المشي في أراض خالية. نقضي الليل عند جبل انفوكَ ؛

3) طريق إغل نْ وطُوب :إنه الطريق الذي سأتبعه ؛

4) طريق تيلقت : ينطلق من أيت عبد الله ويخترق خلاء تيلقت وينفذ إلى دادس عند أيت أقا وعلي (زاوية سيدي ادريس). يومان من المشي دون مغادرة القفار. نخترق واد تكَمت عند منتصف الطريق ونقضي الليل عل جوانب الواد.

تخترق كل هذه الطرق الأربع السالفة الذكر قفرا جبليا واسعا وهو السلسلة العالية لجبل صغرو. ما هذه السلسلة الأخيرة إلا الأطلس الصغير نفسه الذي يطلق عليه اسم جبل صغرو شرق نهر درعة. إذا لم يكن لجبل صغرو سكان مستقرون فله ساكنة رُحل كثيرة شيئا ما : تقيم إمغران وأيت سدرات خيامها في صغرو وترعيي قطعانها فيه.

يؤمِّن أيت سدرات خدمة الزطاطه من هنا إلى دادس. اغتنمت وجود العديد الوافر من أفراد هذه القبيلة القادمين إلى هنا، بسبب قيام سوق الخميس هذا اليوم، فاتفقت مع أحد أبناء القبيلة : سيأخذني زطاطي هذا معه اليوم ذاته. سأذهب صحبته لقضاء الليل في قصره وسنذهب غدا صباحا إلى دادس.

ص 212

الذهاب من تمنوكَالت عند الظهر. أسير في اتجاه سافلة نهر درعة، آخذا الطريق التي تربط بين مجموعة قصور المنطقة عند حدود المزروعات. الطريق، مارة بالمنحدرات الأولى للإبط، محجوجرة وفي بعض الأحيان صخرية. ليس هناك أشياء تضاف إلى ما قلته سابقا في موضوع الوادي : دائما نفس الاتساع ونفس المظهر. وصلت إلى مسكن زطاطي، تغرمت علي ن ايت الحسن، في الساعة 3 و30 دقيقة. هذه نهاية سيري هذا اليوم.

خلال الطريق، اخترقت نهر درعة (سرير من رمال عرضه 150م، عرض المياه 65م وعمقها 90سم، تيار سريع).

21 أبريل

الذهاب في الساعة 5 صباحا. يتكون الخفر من الزطاط المشار إليه سابقا ومن رجلين مسلحين آخرين. نخترق أولا نهر درعة (70 م عرضا و80سم عمقا) ثم نخترق واديه وندخل في سهل مقفر : بغتة، تتوقف سلسلة جبال كيسان العالية وفيما وراء المزروعات المحيطة بالنهر يمتد سهل مكان الجبال. تظهر جبال كيسان العالية، وفيما وراء المزروعات المحيطة بالنهر يمتد سهل مكان الجبال. تظهر جبال كسيان من جديد في اتجاه السافلة، محادية من جديد النهر كما كانت عليه في مزكَيطة. لا يتوقف نهائيا جبل كيسان إلا على مستوى وسغيت، عند ترتاته. تظهر السلسلة الجبلية واضحة خلال الطريق وتبدو جانبيا خلال وقت قصير : السلسلة الجبلية حادث صخري منعزل منتصب بين نهر درعة وواد آخر خال ومتسع شيئا ما ومواز للوادي الأول. لهذا الحدث الصخري تشابه مع جبل باني إلا أنه أكثر علوا منه وأكثر اتساعا ومختلف عنه لونا وبنية. قاعدته حافة، منتظمة عند الانطلاقة ووعرة أكثر فأكثر فيما بعد، الأجزاء العليا والمتوسطة منه توالي جدران تكاد تكون مستقيمة ترتفع درجات درجات. في اتجاه القمة توجد مغارات، من أعمال نصارى حسب أقوال الأهالي. ترى بقايا أبواب عند هذه المغارات. هذا الجزء من كيسان عرف مستقيم، يبتدئ عند مستوى اكَذر وينتهي هنا. من المكان الذي أوجد فيه، يرى نهر درعة سائلا دائما في نفس الاتجاه الذي كان يسير فيه منذ تمنوكَالت. مادام كيسان يحتفظ بنفس الاتجاه هذا فإنه لا يظهر من جديد عن يسار نهر درعة حيث تأخذ مكان السهل تلال منخفضة، ثم يميز البصر النهر راسما كوعا واضحا جدا عند تنزلين حسب ما قيل لي يبرز من جديد كيسان

انطلاقا من هنا : نراه من بعيد، في اتجاه جديد، يكاد يكون متعامدا مع الاتجاه الذي كان يتبعه هنا، له نفس العلو ونفس الشكل وهو مرتفع مباشرة عند الضفة اليسرى.

سطح السهل حيث أسير محجوجر، ينبت فيه شجر الصمغ وباقات كثيرة من الملبنة. تحد السهل شمالا المنحدرات الأولى لجبل صغرو. أسير في اتجاه هذه المنحدرات. عند الساعة 7 كنت عند قدمها. من هذا الوقت إلى الوقت الذي سأصل فيه إلى نهر دادس، سوف أسير دائما في هذه الكتلة. تتكون هذه الكتلة من هضبة يبلغ متوسط علوها 2000م يصل المرء إليها عن طريق مجموعة أضلاع تارة محجوجرة وتارة أخرى صخرية وتربط بينها حافات وعرة. للهضبة سطح مستوٍ ومخضر ومحجوجر وليس به أدنى تموج. تكسوه نباتات ناعمة. هنا يخيم خاصة أيت سدرات وأيت إمرغن. سأجد فيها عدة مجموعات من خيام وقطعان إبل وأغنام.

213

تكون المدرجات التي توصل إلى هذه الهضبة منطقة وعرة جدا. تخترق هذه المدرجات شعاب عميقة ذات الإبط الصخرية والوعرة وتتخللها أودية. تنتفشها أعراف وقمم بواسطة كتلتها السوداء. هذه المنطقة ملتوية ووعرة خالية عادة، تكثر المياه في صغرو. اخترقت، عند قعر عدة شعب، مجاري مياه عرضها 4 أو 5م مياه هذه المجاري صافية وعذبة، لا تنقطع أبدا عن الجريان ولا توجد بتاتا بالمنطقة عيون جارية. تكثر هنا الخضرة. لا تكسو هذه الخضرة وحدها فقط الهضبة العليا بل تكسو أيضا الحلفاء والملبنة وسبولة الفار ونباتات أخرى الأضلاع الناعمة وقعر الأودية والمنحدرات الأولى للأودية. كما يوجد العنب البري. تنبت الدفلى بجوار المياه. وتوجد نباتات صغيرة وزهور حتى في الأماكن الأكثر صعوبة كجوانب الشعب وسطح الحافات، ناشرة عروقها بين شقق الصخور.

حوالي الساعة الواحدة مساء، وصلت إلى الهضبة التي تتوج صغرو. في الساعة 3 مساء توقفت عن السير قرب بعض خيام أيت سدرات. لم أصادف أنسيا من وادي درعة حتى هذه المنقطة.

كان الطريق سهلا عند نهاية المسير بعد أن كان متعبا في البداية. كان لابد من النزول من على ظهر البهائم للسير قدما في اتجاه عالية واد تنكَرفه الذي يصبح

سريره ممرا صعبا بالنسبة للحيوانات حيث تنتشر قطع الصخور بكثرة. تعطل السير عند نقطتين : عند شعب وين س تليت وعند الشعب العميق الموجود بين الشعب الأول وبين المأوى.

22 أبريل

الذهاب في الساعة 7 صباحا. وفي الساعة 8 كنت عند عرف يكوِّن نقطة الاتصال بين الهضبة العليا لجبل صغرو وخط النقط العليا لهذه السلسلة. عند اختراقي لهذا العرف قطعت لآخر مرة ذروة الأطلس الصغير. من هنا يبدو لي وادي درعة، وفيما وراءه تبدو مجموعة من تموجات رمادية. يبدو لي وادي درعة وراءه الخط الأزرق للأطلس الكبير حادا الأفق وقممه المكسوة ثلجا. أوصلني نزول سريع جدا بين الحجارة إلى منطقة الأضلاع حيث سرت متنقلا من واد إلى واد آخر حتى الساعة 4 مساء. كنت في هذه اللحظة عند قدم صغرو وعلى جانب نهر دادس : تلفظ السلسلة أنفساها على بعد 300م من النهر.

تبدأ المزروعات عند قدم السلسلة وتملأ قعر الوادي. تكون هذه المزروعات شريطا عرضه المتوسط كيلومتر واحد. يجري وسط هذه المزروعات نهر دادس متلويا. عرض النهر 30م يحتل هذا النهر ثلث سرير رملي يكسوه القصب جزئيا: إنه سيل ذو تيار سريع جدا وذو مياه صفراء وشديدة البرودة.

ص 214

لا تذكِّر الحقول المحيطة بالنهر بأي شيء من عجائب منطقة درعة. فهي تمثل مزروعات المناطق العالية والباردة. لا وجود للنخيل. قليل جدا من الأشجار ولا وجود لأشجار الزيتون بتاتا وإنما فقط بعض أشجار التين القليلة وأشجار الجوز والرجراج بجوار القصور، والباقي ليس إلا حقول شعير وقمح : بساط رتيب من لون أخضر فاتح دون ظل ولابهجة. تبدو هذه الحياة النباتية حزينة بالنسبة للمرء القادم من الجنوب. تحد هذه النباتات الإبط الداكنة لجبل صغرو شمالا.

يمتد عند اليمين سهل أبيض على امتداد الوادي. سهل قليل الارتفاع بالنسبة لمستواه، ويفصل هذا السهل عن الوادي حدور منتظم. لهذا السهل 8 كلم عرضا على الأقل وتحده شمالا المنحدرات الأولى للأطلس الكبير التي تبدو وراءها الكتل المكسوة ثلجا والتي تتوج السلسلة. تحيط بالمزروعات من كل جانب مجموعة قصور دادس ذات مظهر خاص وهي لا تشبه القصور التي رأيتها سابقا ولا

القصور التي سأراها فيما بعد. فيما يخص تفاصيل بناء المساكن فإنها تشبه قصور درعة وقصور اد إونل. لها نفس الرشاقة. بنيت هذه القصور من نفس المقدار الذي تكسوه التناميق. لكن بدل أن تكون القصور كتلة متراصة من المساكن تنشأ من بينها أبراج تغرمتن الصغيرة. تتكون جميع قصور الواحة من مجموعات صغيرة من المساكن منفصلة بعضها عن البعض ومتناثرة على طول المزروعات. قد تشتمل هذه القصور على 8 أو 10 تجمعات سكنية، بعضها مغطى وأكثريتها محصنة. لكل واحدة من هذه التجمعات السكنية على الأقل إغرم واحد. تفصل مسافات قد تصل إلى 100 أو 200 أو 300م هذه التجمعات السكنية بعضها عن البعض. يمكن للمرء أن يستخلص بسهولة من هذه المعطيات طول امتداد القصر الواحد. يترتب عن هذا أن البليدات الكثيرة العدد جدا من جهة أخرى، جد متقاربة بعضها البعض. في أكثر الأحيان، ليست المسافات أكبر بين المجموعات المتاخمة لمراكز مختلفة مما هي عليه بالنسبة لمجموعتين سكنتين من نفس المركز. إنه من الصعب جدا التمييز بين بداية ونهاية كل منها في هذا الشريط المسترسل من المساكن والتغرمتن الذي يملأ ضفتي النهر. المساكن على جوانب المزروعات وليست داخلها كما هي عليه الحال في الدرعة تقريبا أو في أي مكان آخر. يخشى الناس هنا أيضا الفيضانات وليس نادرا أن ترى المياه تغطي قعر الوادي بل وتأتي لتصطدم بجدران القصور.

هذه القصور ليست البنايات الوحيدة لدادس. اري، بادية للعين، بنايات غريبة بأعداد كبيرة كنت لاحظت بعض النماذج منها عند أيت سدرات الدرعية. إنها الأجديم. يبدو أن تداولها خاص بدادس وتدغة وفركلة وبعض مقاطعات درعة. على الأقل لم أرها إلا في هذه الأماكن. إنها كثيرة الأعداد في المنطقتين الأوليين، ويوجد منها نماذج عند كل شبر. إنها واردة بقلة في المنطقتين الأخيرتين. هنا، تنتصب الاجدمان عند حدود القصور بكثرة وعلى جانب الواد ووسط المزروعات. إنها أبراج منعزلة علوها ما بين 20 و12م من آجرّ محروق بحرارة الشمس. إنها ذات شكل مربع وتخترقها شرفات مجهزة بمقذفات Machicoulis. الاجدمان كثيرة العدد خاصة عند تخوم البليدات. تنتصب عادة مثنى مثنى ووجها لوجه من كل جانب على جوانب الطرق. يملا كل فريق أبراجه رجالا مسلحين مباشرة عند انطلاق صراعات بين القصور وهو الشيء الذي يحدث تقريبا كل

215

يوم. غداة مروري بالمنطقة اندلعت إحداها ذهب ضحيتها شخصان. مهمة هؤلاء الرجال حماية المزروعات والقنوات وإطلاق النار على كل شخص من الفريق الآخر يمر على مقربة منهم. يبدأ التراشق من برج لبرج آخر ويصبح التراشق قويا من حين لحين آخر، خاصة عندما تبدو قافلة في الوادي غايتها محاولة إلحاق الضرر بحقول الخصوم.

تتسبب مشاكل ناتجة عن نقل الماء في نشوء أكثرية هذه الاصطدمات. قد تدوم هذه الاصطدامات زمنا طويلا، إلا أنها لا تكون عنيفة إلا خلال الأيام الأولى من اندلاع النزاعات. في هذه الفترة قليلا ما لا تراق الدماء. ثم تطول الأحداث وتنحصر الأعمال العدوانية في رمي المناوئ ببعض الطلقات النارية كلما ظهر الناس فوق سطح وفي البساتين وعندما يقترب شخص من نقط الحدود.

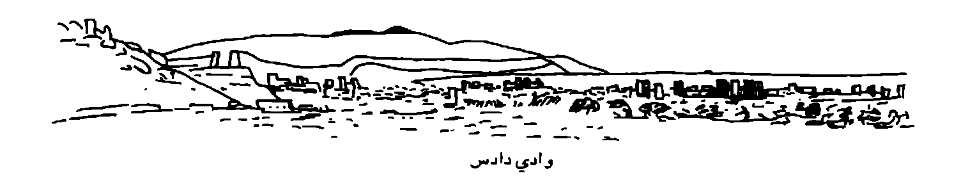
توقفت عند النقطة التي خرجت فيها من صغرو، عند النقطة حيث ينطلق الطريق، إنه جزء من مقاطعة أيت يحيى من آيت سدرات. تتكون هذه المقاطعة فقط من شريط المزروعات الضيق الذي يحيط بضفاف النهر كما هو حال جميع مقاطعات درعة ودادس.

لم أصادف أي بشر خلال هذا اليوم في أي مكان باستثناء من صادفتهم في الهضبة العليا لصغرو وبجواز نهر دادس. صادفت 3 ممرات عبور صعبة خلال الطريق. كان أولها عند النزول من صغرو بعد خط ذروته. وكان ثانيها شعب أقا ن ورلاي. وكان ثالثها الشعب الذي يلي هذا الأخير.

23 أبريل

الذهاب في الساعة 7 صباحا. سرت من جديد في اتجاه عالية نهر دادس.

ص 216 يبقى الوادي كما رأيته البارحة باستثناء ممر ضيق خال يخترقه بين مقاطعة أيت يحيى ومقاطعة دادس : نفس المزروعات تتخللها الاجدمان، نفس الأشرطة غير المسترسلة من القصور والمنازل. لا يمكن قطع مسافة 200م دون مشاهدة نبات فوق إحدى ضفتي النهر إن لم يكن خلال مروره بهذا الخانق. لا جديد يذكر : لا تتغير الإبط ونفس الشيء بالنسبة لقعر الوادي الذي يبقى كما كان عليه حتى وصولي إلى تيبلت حيث توقفت.



وادي دادس

طريق سهل، عدد كبير من الناس. اخترقت نهر دادس الذي لا يمكن اختراقه في أي مكان شاء المرء ولكن فقط عند بعض النقط حيث توجد معابر. كان عرض النهر 20م وعمقه 80سم عند المعبر حيث اخترقته. كان تياره سريعا جدا. أثار انتباهي قصران ضمن القصور التي صادفتها خلال سيري. إنهما قصر أيت بوعمران (بين أيت ازداكَ وأيت ورير) حيث ترى قبة جميلة، وقصر إمزوغ الذي تميزه المسافة التي تمتد عليها 5 أو 6 مجموعات سكنية يتكون منها هذا القصر، كما تميزه أيضا أهمية ساكنته.

لباس المسلمين كالتالي في مزكَيطة من مقاطعة أيت سدرات وفي مقاطعة أيت يحيى : الخنيف والبرنس من شعر الماعز الداكن أو الرمادي ذو ضلوع من أشرطة ناعمة بيضاء وسوداء وحائك أبيض أو أسمر. الرأس عارٍ أو به عمامة ولكن لا تكسوه عمامات صغيرة بيضاء أو سوداء. تلبس النساء الغنيات الخنت وللفقيرات منهن ملابس من صوف بيضاء أو داكنة. لا تتغير ملابس النساء في دادس مقارنة مع ما سبق ذكره. أما ملابس الرجال فهي إما الخنيف أو برنس طويل أبيض أو أزرق من صوف مصبوغ.

تبقى الأسلحة كما كانت عليه انطلاقا من تزنخت. بندقية طويلة ذات مقبض ضيق وخنجر معقوف. لكن يحدث تغيير على تجهيز حامل السلاح. ينمحي قرن البارود انطلاقا من مقاطعة أيت سدرات درعة وتعوضه حقيبة من الجلد الأحمر تكسوها زركشات من الحرير. تحمل هذه الحقيبة على الكتف وتعلق بواسطة قطعة من الجلد. هذه التحفة الفنية الأنيقة ذات تداول عام في المنطقة التي اخترقتها انطلاقا من أيت سدرات درعة حتى وصولي قصابي الشرفاء.

اليوم يوم سوق في إمزوغ قرب تييلت. اغتنمت هذه الفرصة للبحث عن زطاط أمين ينتمي إلى أيت سدرات الموجودين بالسوق : زطاط يقودني إلى تدغة. تم اختيار واحد منهم وتم الاتفاق معه. حرر هذا الاتفاق حسب الشكليات المعتادة

أمام الطالب الموجود بالسوق. حرر هذا الأخير عقدا من نسختين شاهدا أن السدراتي فلان يتعهد بإيصالي إلى تدغة، مقابل مقدار من المال قيمته 15 فرنك يؤدى عند الوصول. تعهد السدراتي أنه سيكون مسؤولا عن الأضرار التي قد تصيبني خلال الطريق. وتعهد في حالة عدم وصولي إلى مكان نهاية سفري أن يكون عليه أداء دية قيمتها 5000 فرنك لجماعة يهود تيلت. هذه الشكليات مستعملة في أنحاء مختلفة من الصحراء وخاصة عند البرابر وعند آيت سدرات. نادرا ما ينطلق يهودي عند هاتين القبيلتين في الطريق دون أن يكون في مأمن من زطاطه بواسطة هذا النوع من العقود. لا يتعامل هكذا بين المسلمين. مصدر هذا الاختلاف أنه، في أي مكان، قد يلحق رجل العار بنفسه إن هو خان العهد الذي يربطه بمسلم آخر واستغل ثقته فيه ليغتاله. بالعكس، عند بعض القبائل، مثل التي أوجد بين ظهرانها، أن يتعهد مسلم ليهودي لخفره وحمايته ثم، خلال الطريق، ينهبه ويقتله سيعتبر هذا التصرف هفوة أو حيلة خبيثة، لهذا تؤخذ الاحتياطات الخاصة بالنسبة لغير المسلمين. ص 217

24 أبريل

الذهاب على الساعة 9 صباحا. بدأت السير صحبة زطاطي للوصول إلى قصره. سأقضي الليل في مسكنه، وفي صباح الغد سنسافر إلى تدغة. أسير من جديد في اتجاه عالية نهر دادس الذي لا تتغير جوانبه. توجد نفس المزروعات ونفس أشرطة القصور المسترسلة. بدأ عرض الوادي يضيق شيئا فشيئا، وهو العرض الذي لم يتغير إلى حد الآن بصفة محسوسة. كان عرضه 1000م عند تيلت، وله 600م عند خميس سيدي بويحيى، و300م عند آيت يدير. كلما تقدمنا سيرا يكثر عدد الأشجار من جوز وتين. يعترض الإبط تحول مباغث. حتى الآن كان صغرو على اليسار وسهل على اليمين. اليوم طيلة السير، ستكون على اليمين أضلاع عالية إلى حد ما وعلى اليسار هضبة يكاد يفوق علوها فقط مستوى الوادي. إنها هضبة انكَاد.

في الساعة الواحدة وصلت إلى أيت إدير، مسكن زطاطي من قصور دادس العالي. اخترقت هنا نهر دادس. إنه يسيل في سريرين، عرض الأول 12م، وعرض الثاني 20م وعمقهما متساويان. قدر هذا العمق 60سم تيار سريع جدا.

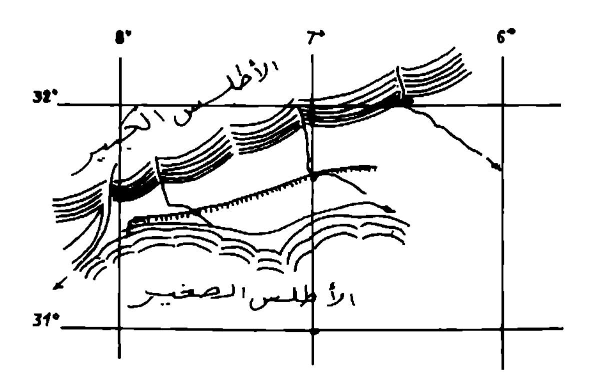
IX

من دادس إلى قصابي الشرفاء

1 ــ من دادس إلى قصر السوق

25 أبريل

ص 218 الذهاب في الساعة الخامسة صباحا. يخفرني زطاطي السدراتي الأصل ومعه رجل مسلح آخر غادرت دادس. يرى المرء انطلاقا من أعلى أيت يدير وادي نهر دادس كما كان عليه خلال 4 أو 5 كلم من قبل ثم يضيق. ينتهي السهل الذي كان يمتد على شماله وتعوضه حافة عالية. يدخل النهر في طريق ضيق بين جبلين حيث لا تعود تراه العين. يبقى النهر دائما محفوفا بالخضرة. يدخل النهر في أعماق الأطلس الكبير. مررت بالسهل القليل العلو والمستوي السطح الذي يحده النهر عند الشرق. بدأت السير في منطقة عرفت حركة تكتونية من الأكثر إثارة إلى الانتباه.



الهضبة التي بدأت فيها السير هي النهاية الغربية لسهل شاسع ينطلق من ناحية نهر زيز، بل ينطلق من ناحية نهر كَير. يمتد هذا السهل في اتجاه الغرب حتى نهر دادس. يفصل هذا المنخفض الكبير الأطلس الكبير عن الأطلس الصغير ويختفي تحت السلسلتين الجبليتين على شكل خليج عميق. سأبقي في هذا السهل بعد وصولي إليه حتى منطقة زيز. ينقسم السهل في هذه المنطقة إلى قسمين يمكن تسميتهما بالقسم الأعلى والقسم الأسفل.

القسم الأول هو الذي أوجد فيه الآن. إنه القسم الذي سأسير فيه من هنا حتى إميطير، وسأسير فيه أيضا انطلاقا من غريس إلى منطقة قصر السوق. هذا القسم هو الجزء الأصلي للسهل. يمتد هذا القسم على طول الأطلس الكبير. تحده شمالا هذه السلسلة، ويحده غربا نهر دادس وجنوبا الأطلس الصغير من دادس إلى إمطير. فيما وراء هذا يحده الجزء الأسفل السالف الذكر من السهل.

يوجد هذا الجزء الأسفل حيث سأدخل انطلاقا من إميطير لأبقي فيه حتى غريس عند قدم الأطلس الصغير. تحده جنوبا هذه السلسلة وشمالا وغربا يحده قسم السهل الأعلى السالف الذكر.

219 يوجد القسم الثاني من السهل على مستوى أدنى من القسم الأول. تفصله عن القسم الأول حافة منتظمة على طول امتداده. هذه الحافة شبيهة بدرجة موضوعة بين مستويين للسهل. لا تتغير هذه الحافة في أي مكان : يصل علوها تقريبا إلى 100م. تتكون هذه الحافة من صخور وردية.

الحافة مستقيمة في القمة وذات انحدار منتظم عند القدم.

لاشك أن القسم الأسفل من هذا السهل حفرته مياه الأطلس الكبير. هذه المياه، مرتمية عموديا من قمم هذه السلسلة في السهل، قد اصطدمت إلى حد كبير بالكتل الصخرية الملتوية في هذا السفح من صغرو فحفرت هذه المياه هذا السطح المنخفض. يوجد القسم الأسفل من السهل على طول المنحدرات الأولى للأطلس الصغير. القسم الأسفل هو الأقل ارتفاعا : تنتشر هنا أسرة مجاري المياه. هنا يسيل في نفس الوقت واد إميطير ونهر زيز. توجد إذن التلعة بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير في القسم الثاني من السهل.

للقسمين الأعلى والأسفل من السهل السالفي الذكر سطح مستو. إنه صلب ومحجوجر في كثير من الأحيان، لا حركة تكتونية تضع حدا للتشابه الرتيب للقسم الأعلى باستثناء كتل صخرية شمال تدغة وأكمة قرب قصر السوق. كل هذه شواهد منعزلة وسط هذا السهل. الشواهد أكثر عددا وتنتأ على شكل أحجام أكثر كثافة في القسم الأسفل — كما لو كان تعرض إلى كنس أقل شمولية من القسم الأعلى. إنه أولاً الحاجز المشاهد شرق تيمتغيوين، وثانية الكتلة الموجودة بين تدغة وغريس وفركله، وأخيرا التلال المنعزلة التي سأتركها يمينا عند الذهاب

من تدغة إلى فركله. تبدو هذه المجموعة من التضاريس المختلفة أقل علوا من الحافة التي تفصل بين قسمي السهل.

ينقسم طريقي إلى قسمين. يوجد أحدهما في القسم الأعلى من السهل، من أيت ادير، إلى أميطير، ويوجد الجزء الآخر في القسم الأسفل من السهل ويمتد من إميطير إلى تدغة. هذان القسمان من الطريق سهولتهما متساوية. يسير المرء في كل منها في أرض مستوية. في الجزء الأول من الطريق، قطعت سهلا يفوق عرضه 15 كلم، دون أدنى تموج. يعرف هذا الجزء من الطريق باسم أوطه انباد. تحده جنوبا كتلة صغرو البادية على شكل خط طويل أسود ذي بريق لامع. وتحده شمالا حافة داكنة ذات علو ضعيف منطلقة من الخانق حيث يغوص نهر دادس في العالية عند آيت إيدير، ويحده غربا وادي هذا النهر و لايحده شيء آخر في اتجاه الأفق. مادام المرء يسير في السهل فإنه لايرى أي شيء آخر غيره. وهكذا يترك المرء هذا السهل دون أن يشعر بمغادرته، وهذا عند الدخول في سرير نهر ضفافه منخفضة في البداية وسترتفع شيئا فشيئا لتصبح إبط شعب. إنه ممر قصير يُنفذ منه، عند إميطير، إلى سهل جديد، هو القسم الثاني من الطريق، أي الدرجة السفلى للسهل. أرض أوطا النبد كالجليد في محملها، ميدان رملي صلب ثنارت فوقه أحجار صغيرة عارية في ثلثيها وتكسو الثلث المتبقي مراع فقيرة. تخترق هذا السطح جداول ماء قليلة أسرتها جافة ويحيط بها وزال طويل عامة أبيض.

ص 220 إميطير مجموعة 4 قصور للبرابر. يوجد اميطير عند فم واد ضيق إبطه حافات من صخور وردية علوها 100م، مستقيمة، دون غطاء نباتي، شبيه بالمنحدرات التي تحيط بالشعب والتي نزلت منها منذ وقت قصير. المجرى المائي الذي يخرج من هذا الوادي الضيق، واد إميطير، ينطلق هنا من السهل الأسفل حيث يتصل بالمجرى المائي الذي كنت تبعته.

شيدت قصور إميطير بأناقة مثل قصور درعة. تحيط بهذه القصور بعض المزروعات من الشعير والذرة وبها أشجار التين والرجراج.

يبدأ عند إميطير الشطر الثاني من سفري، وأيضا يبدأ المستوى الثاني من السهل. هذا الأخير، هنا، مساحة طويلة مستوية السطح تحتفظ بعرض يبلغ 3 كلم انطلاقا من هنا، وهي بدايته، إلى تدغة حيث يقطعه نخيل الواحة. يتسع السهل بعد تدغة

درجات درجات إلى أن يصل 18 كلم عرضا عند فركلة وغريس. فيما وراء هذه النقط سأراه يسترسل على مد البصر في اتجاه الشرق وله عرض يبدو دائما متزايدا. لا يتغير على طول امتداده. تحده شمالا حافة من صخور وردية تفصل بينه وبين المستوى الأعلى، ويحده جنوبا خط ارتفاعات سوداء وصخرية وهي المنحدرات الأولى لصغرو. من إميطير إلى تدغة السطح مستوٍ. إنه من رمال وردية تتخللها حجارة قليلة في البداية وأكثر عددا كلما تقدمنا في اتجاه الشرق. لا يكاد يرى المرء أي نبات : عدا قليل من الصعتر والطحلب [Nbp 1]. عارض تضاريسي واحد يقطع رتابة السهل. إنه خط تلال علوها من 50 إلى 60م يحد هذا الخط من التلال السهل في اتجاه تيمطغيوين، فيكون هذا الخط عرمة على طول امتداد عرض السهل. هذه التلال ذات انحدار منتظم وليس بالطريق الذي يخترقها أية صعوبة. الفم حيث نخترق هذه التلال، فم القوس ن تازولت، هو نقطة مهمة : إنه يكوِّن الحد الفاصل بين أيت مرغاد والمنخفضات الأخرى لأيت يافلمان.

السطح مثير للاهتمام : إنه يكوِّن جزءا من صخور وردية وجزءا آخر من صخور سوداء. يجمع العناصر المكونة للأطلس الكبير والأطلس الصغير بعد جوانب المنخفض ولكن لا تبتعد كثيرا دائما عن جوانبه. في بعض الأماكن يتوقف النخيل باختراقي لهذا الفم وجدت نفسي من جديد في نفس السهل : في الأفق، يبدو نخيل تدغة شبيها بخط أسود. وصلت لهذا النخيل في الساعة 4 مساء وفي الساعة 4 والنصف توقفت في قصر توريرت.

تتكون واحة تدغة من ضفاف نهر تدغة فقط إنه شريط طويل عرضه من 800 إلى 2000 م. تكسوه المغروسات التي يتلوى وسطها النهر. يظلل الواحة على طول امتدادها كثير من النخيل تختلط بها، خاصة في الجزء الشمالي وبالجوانب المباشرة للقصور، أشجار الرمان والتين والزيتون، تكاد تكون مختفية تحت الفروع المتسلقة لأشجار الكروم والورود. على هذه الحالة رأيت تدغة، هكذا ستكون واحات فركلة وغريس ومنطقة قصر السوق، ثعابين رقيقة ممتدة وسط السهل.

خلال طريق اليوم، رأيت الأفق دائما في اتجاه الشمال فيما وراء المرتفعات القليلة العلو التي تحد منطقة أوطه انباد والحافة الفاصلة للقسم الأسفل للسهل، 221

جبال عالية داكنة بها بقع ثلج عند الذروة، لم تكن هذه الجبال العالية الداكنة الأعراف العليا للأطلس الكبير ولكن كانت فقط درجات مهمة من السلسلة.

على ذكر الأنهار، اخترقت واد إميطير (100م عرضا، سرير نصفه من رمال ونصفه الآخر من حصيم، جاف، أصواح من رمال علوها 2م) ونهر تدغة (20م عرضا 15 منها مملوءة ماء، قعر من حصيم، ليس له أصواح بتاتا). لنهر تدغة ماء صاف ولذيذ الذوق. يوجد بالسرير دائما ماء. تنطلق من السرير عدة قنوات توفر سقيا وافرا للمغروسات المحيطة به في جميع الأحوال. يسيل النهر وسط خندق عرضه 1000م تقريبا في الجزء من مجراه حيث يخترق القسم الأسفل من السهل. تفصل السهل عن الميدان المجاور حافة وعرة علوها 8 أو 10م تكسو قعر الوادي، وهو من رمال، المزروعات والنخيل : إنه قلب الواحة. في كثير من الأحيان يبتعد النخيل والحقول بعض الشيء عند جوانب المنخفض. سأرى فيما بعد نهر زيز يجري عند قصر السوق في خندق شبيه بالخندق الذي يسيل فيه نهر تدغة. يحفر نهر تدغة واديا ذا منحدرات منتظمة في الجزء حيث يخترق المستوى الأعلى والأسفل من السهل. عرض هذا الوادي 1300/1200م عند القعر.

رأيت بين إميطير ونهر تدغة مكانين مأهولين، قصرين صغيرين مررت بقرب أحدهما والآخر عاينته من بعيد. القصر الأول، واسمه تيمتغيوين إكَناون، ينتمي إلى البربر (الاكَناون، فرع من فروع أيت عطّا). تحيط به بساتين ومزروعات شبيهة بمزروعات وحقول إميطير. كما هو الأمر هنا لا توجد ولو نخلة واحدة. تنقل قناة نازلة من المنحدرات الأولى للأطلس الكبير ماء جاريا صافيا. والقصر الثاني هو قصبة أيت مولاي محمد. هو جزء لمجموعة من 3 قصور توجد على جوانب وادي إميطير، ليس بعيدا عن مقرن واد إميطير بواد تدغة. يحيط النخيل بالقصور الثلاثة. لم أصادف أي بشر باستثناء العمال المنتشرين وسط مغروسات إميطير وتيمتغيوين.

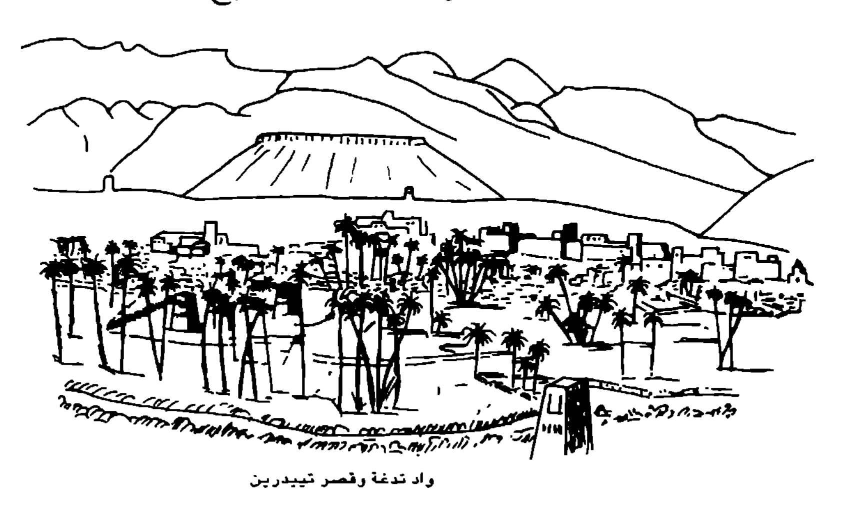
26 — 27 أبريل.

إقامة في توريرت من بين خصائص واحة تدغة أنها تنقسم إلى قسمين من الناحية السياسية. القسم الأول، وهو تدغة الحقيقية، يتكون من القسم الأعلى من السهل. تسكن هذه التدغة شلحة مستقلة. وينتمي القسم الثاني من السهل،

والموجود أسفل القسم الأعلى لا يفصله عنه أي شيء ملموس، إلى البرابر. يعيش الشلوح والبرابر في هذا المجال مختلطين. تتقاسم هذا الجزء من السهل عدة فخدات من المجموعتين البشريتين السالفتي الذكر.

في تدغة، كل بليدة مستقلة عن جيرانها. الواحة كثيرة السكان : تشتمل على 50 أو 60 قصرا منتشرة على مقربة من المغروسات. أكثرية القصور مشيدة على نقط طبغرافية مرتفعة. توجد قصور القسم الأدنى من السهل على جانب الخندق الذي حفره نهر تدغة. وتوجد القصور الأخرى عند قدم إبط الوادي كما هو الأمر بالنسبة لقصري تيدرين وتيغرمت أو على الأكمات المنعزلة قرب ضفاف النهر كما هو الأمر بالنسبة لقصري توريرت وأيت أورجدال. يتخذ هنا هذا الترتيب، والذي وجدته في تدغة ودادس، لنفس الأسباب كما هو عليه في المناطق السالفة الذكر بالإضافة إلى سبب آخر. هذا السبب هو الحاجة إلى التوفر على موضع يسهل الدفاع عنه. ص 222

الصراعات بين المجموعات البشرية المحلية المتكررة في مناطق أخرى، مستمرة كذلك في تدغة، لذا تتخذ كل مجموعة بشرية جميع أسباب الوقاية. فكل بليدة متجمعة داخل سور ضيق. تنتصب الاجدمين في جميع الاتجاهات. خلال الوقت الذي قضيته في توريرت، كان هذا القصر في صراع مع أيت أورجدال، القصر المجاور له. كانت تتبادل الطلقات النارية كل يوم وكانت المناور Lucarnes والنوافذ مُغلقة ولا يجرؤ أي امرئ على الصعود إلى السطوح مخافة أن يصير هدف



واد تدغة وقصر تيبدرين

قناص مختبىء. البليدتان متقاربتان إلى حد أن المرء، رغم ضعف مرمى البنادق، يصيب الآخر في سطوح القصر الثاني انطلاقا من سطوح القصر الأول. لا يكتفي بإطلاق النار عن بعد بل ليس من النادر أن يحاصر سكان قصر قصرا آخر ثم يستولون عليه عنوة وينهبونه.

لغة أهل تدغة تمازيغت. كثير من الرجال يعرفون اللغة العربية. يلبس المسلمون الخيدوس وهم عراة الرأس عادة، وفي بعض الأحيان يضعون على رؤوسهم عمامة بيضاء دون أن تغطي الرأس كله. يبقى السلاح حتى منطقة زيز كما كان عليه



امرأة يهودية من تدغة

في دادس. لا تتغير ملابس النساء. انطلاقا من هنا سيكون هذا اللباس دائما من صوف أو قطن أبيض ولا يوجد الخنت بتاتا كما لا يوجد حراطين.

28 أبريل

ص 223 سأكون في قلب أراضي البربر من تدغة إلى حوض ملوية. المنطقة التي عليّ أن أخترقها. من هنا إلى نهر زيز سهل شاسع مقفر تتخلله الواحات. هذا السهل ميدان تحركات عدة فخدات من البربر بدون انقطاع، خاصة من طرف أيت مرغاد وأيت عطّا. بما أن سوء التفاهم يسود الآن بين أيت مرغاد وأيت عطّا من جهة وبين أيت زمروي وأيت حشو، الفخدتين الكبيرتين لأيت عطّا، من جهة أخرى، فإني سأحتاج إلى خدمات 3 زطاطات من هنا إلى قصر السوق. ينتمي أحدهم إلى أيت مرغاد وينتمي الاثنان الآخران إلى أيت عطّا.

خلال إقامتي في تاوريرت، تأكدت من مصداقية الناس الذين سيقدونني إلى فركله، اليوم عليهم أن يتكلفوا بي. سنقضي الليل في قصر أحدهم، في تدغة السفلى وسنذهب إلى فركلة غدا. عند الصباح، سننضاف إلى القافلة التي تذهب إلى فركلة كل يوم ثلاثاء.

الذهاب من توريرت في الساعة الرابعة مساء. الوصول إلى مأواي، تنفلس في الساعة 7. سرت دائما بمحاذاة الواحة، سائرا طيلة الوقت في المستوى الأدنى للسهل. كان هذه السهل دائما مستوي السطح. هذا الأخير رملي مع بقائه صلبا. عند مستوى البليدات الأخيرة لتدغة، تبدأ كتلة منعزلة من تلال سفلى سأحاذيها خلال سير يوم الغد، على الضفة اليسرى للنهر وبعيدا منه. ينتهي المنخفض حيث يسيل تدغة عند أيت محمد. سرير النهر غير متعمق انطلاقا من هنا. اخترقت خلال السير واد إميطير (60م عرضا، سرير من رمال، سرير جاف). يقطع حاجز من صنع الإنسان النهر حيث اخترقته. إنه الإنجار الأحسن بناء الذي شاهدته من هذا النوع في المغرب.

29 أبريل

الذهاب في الساعة 6 صباحا. عما قليل تنمحي القصور والنخيل على ضفاف نهر تدغة. يجف سرير هذا النهر وأُوجد حينها في الصحراء. أسير في السهل حيث كنت أوجد البارحة، ماشيا بين نهر تدغة والكتلة المنتصبة عن يساره. سطح المنطقة من رمال بيضاء، صافية قرب النهر، تتخلل هذه الرمال حجارة صغيرة سوداء قرب التلال. عند قدم هذه الأخيرة تغطي هذه الحجارة السوداء السطح كما لو كانت أصبحت قشرة قليل من النبات : توجد بعض الخصل من الصعتر في المناطق المحجوجرة وشيء من الملبنة والعنب البري في الرمال التي تحتل الحيز الأكبر من المساحة. أرى في الجنوب المنحدرات الأولى للأطلس الصغير والتي لازالت تحمل اسم جبل صغرو، راسمة حدود السهل. إنه خط داكن من مرتفعات ملتوية إبطها من صخور سوداء ولامعة وبها بقايا رقيقة من الثلج متجلية هنا وهناك في الأعراف بادية هنا وهناك عند الأعراف. في اتجاه الشمال، خلال جزء من المسافة، تخفي تلال، أسير عند قدمها، المستوى الأسفل والحافة الوردية التي تحده. تكون هذه التلال كتلة رمادية ذات منحدرات صخرية وعارية وأضلاع لينة، يصل علو هذه الكتلة ما بين 30 و40 مترا. تنتصب هذه الكتلة وحيدة وسط السهل، محتلة 224

الجزء الأوسط لمثلث زواياه جهات تدغة وفركلة وغريس. فيما وراء خطها اللين، تبدو، في مكان بعيد، سلسلة طويلة من جبال عالية رمادية، الأدراج الأولى للأطلس الكبير. هكذا هو هنا المستوى الأسفل للسهل حيث أسير حتى فرـلة. بلغت عند الساعة الواحدة أشجار النخيل الأولى للواحة وتوقفت عن السير على الساعة الواحدة و20 دقيقة عند قصر أسرير. منذ الساعة التاسعة صباحا كنا نظن دائما أننا مشرفون على الوصول لما كنا عليه من جراء تأثيرات السراب المستمر. كانت هذه أول مرة رأيت فيها هذه الظاهرة في المغرب. سوف يتكرر السراب غدا على طول المسافة تقريبا بين فركلة وغريس. ولن أراه أبدا من الآن فصاعدا.

كنت أسير ضمن قافلة كثيرة الأفراد. وكان يحميني ضمنها 3 زطاطات. كانت تتكون القافلة من 100 إلى 150 شخص، ينتمي نصفهم إلى أيت عطّا وينتمي النصف الآخر إلى أيت مرغاد. كان من بين هذ الجماعة 60 إلى 70 شخصاً يحملون بندقية ولا يوجد فارس بينهم. كان هذا الركب راجعا من سوق اثنين تدغة ومتوجها إلى فركلة. كان عدد بهائم الحمل 120 أو 150 رأسا من حمير وبغال. توجد البغال بصفة عادية في المنطقة، لم أر مسافرين آخرين غيرنا خلال الطريق. كان عرض نهر تدغة الذي قطعته هذا الصباح عند مغادرة الواحة، 60م لم يكن به ماء. كان سريره من دماليك غليظة ولا يتوفر على أجراف. يبقى هكذا حتى فركلة، جاف دائما ويسيل عند مستوى السطح، لا أثر للنباتات لا في سريره ولا عند ضفافه، لاشيء يرسم، في البعد، مجراه عند سهل السطح الأبيض. تشبه فركلة تدغة في جميع تفاصيلها : إنه قطعة أرض عرضها 1000 إلى 2000م غرست نخيلا، يجري وسطها نهر تدغة، الذي يمتلئ سريره، من جديد ماء وافرا وصافيا. يجري عند مستوى السطح، والواحة كلها على نفس الارتفاع. فركلة أقل مساحة من تدغة. طوله أصغر، قراه وساكنته أقل عددا. جزء من فركلة في حوزة أيت مرغاد وجزؤه الآخر في حوزة شلوح منعزلين : قصورهم مختلطة، كل واحد منها مستقل، سواء تعلق الأمر بقصور الشلوح أو قصور البرابر. هذه حالة استثنائية فريدة. يحتفظ شلوح تدغة وفركلة وجزء من شلوح غريس بحرية مطلقة إزاء جيرانهم الأقوياء، ليس لديهم على هؤلاء أدنى ذبيحة. ما هو مرد هذا الاستثناء ؟ لاشك يرجع إلى تماسكهم عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن حريتهم

المشتركة ولمزاجهم الشرس. في هذا الصدد يلاحظ أنه لا يوجد حرطاني واحد بينهم. لم أعد أرى الحراطين لما غادرت منطقة نهر دادس : ولن أجدهم أبدا من الآن فصاعدا. في فركلة كما هو الأمر في تدغة أجد بنايات درعة الأنيقة. الغلات الفلاحية هنا هي نفس غلات تدغة مع هذا الفارق.

30 أبريل

225 أذهب اليوم إلى غريس. إنها واحة شبيهة بواحة فركلة. المغادرة في الساعة 8 صباحا. أتوفر على الخفر الإجباري المكون من البرابرة الثلاثة. أسير في قافلة تتكون من 20 شخصا يحمل نصفهم السلاح. تنتهي الكتلة التي كانت عن يساري خلال سير البارحة ما بين فركلة وغريس. نودع الأضلاع الأخيرة من هذه الكتلة على يمين الطريق. تبدو على مسافة كبيرة سلسلة جبلية سمراء داكنة متعددة التقطعات. في اتجاه الشمال، تلمع من خلال هذه السلسلة الجبلية متون بعيدة تكسوها الثلوج : الأطلس الكبير. هنا يبدو المستوى الأسفل للسهل في كل امتداده. يمتد هذا المستوى الأسفل ما بين الأطلس الصغير وحافة الصخور الوردية التي يوجد نهر غريس عند قدمها. لا يجعد أي تموج شساعة السهل المستوية التي يشاهدها المرء ممتدة إلى ما لا نهاية له في اتجاه الشرق. لا يتغير المشهد أبدا حتى أقصى ما يمكن أن يمتد إليه البصر. إنه سطح عار وأبيض يمتد حتى الأفق. هنا تجري أنهار تدغة وغريس. هنا يوجد مقرنهما. ضمن بياض السهل البراق لا يميز المرء بين سرير النهرين الجافين والعاريين من أي نبات. تبدو بعض الواحات البعيدة في عزلة : نقط سوداء تنعكس في المستنقعات والبحيرات الزرقاء الطويلة الشكل المتوجه من جراء السراب. من فركلة إلى غريس السطح من رمال صلبة تتخللها هنا وهناك حصى سوداء. ينحصر الغطاء النباتي في طحلب الحمادات باستثناء بعض النقط حيث تكون الرمال كتبانا علوها 50سم وحيث تنبت بعض باقات من الدرين.

وصلت إلى غريس في الساعة الواحدة والنصف. تشبه هذه الواحة تدغة وفركلة من حيث شكلها وإنتاجها. إنها تشبه خاصة تدغة : إنها مماثلة لها إن صح القول. مثل تدغة، توجد واحة غريس عند النقطة حيث يخرج المجرى المائي الذي يخصبها من الحافة الصخرية وينطلق من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى. مثل

تدغة، يوجد جزء من واحة غريس من ناحية ملموما في قعر الوادي ويوجد جزؤها الآخر فيما وراء السهل. واحة غريس شريط من النخيل يظلل المزروعات. يسيل النهر وسط هذه المزروعات، ووسطها تنتصب القصور.

بنايات الواحة على طريقة درعة. ربما يوجد بالبنايات ناتئات أقل عددا مما هو موجود مقارنة مع جدران درعة لكن في المقابل لأكثرية البليدات أسوار عالية وقرب أبوابها أبراج ذات ارتفاع كبير لم يسبق لي أن رأيته في أي مكان آخر. يكوِّن النخيل غابة كثيفة كما هو عليه في فركله بينما يوجد قليل من أشجار من جنس آخر بين النخيل.

نهر غريس من قوة نهر تدغة : عرض 30م منها 12م بها ماء جار وصاف عمقه 60سم، السرير نصفه من رمال ونصفه الآخر من حصيم. للنهر أصواح من رمال علوها 2م. ص 226

لم أصادف أي بشر خلال سير اليوم. مررت قرب مكانين مأهولين : زاوية سيدي الهواري وهي مجموعة مساكن تحيط بها بساتين كثيرة من زيتون ورمان وليس بها ولو نخلة واحدة، وثاني هذين المكانين المأهولين هو المخاطر وهو قصر صغير به نخيل.

تعرف منطقة غريس كثيرا من الغليان في هذه الأيام. في هذه الضواحي، ينتظر أن تحدث عما قريب اشتباكات بين أيت عطّا وأيت مرغاد : كل قصر على حذر، ولكل قصر حراسه عند الأبراج قصد المراقبة وإعطاء الإشارة في حالة المباغتة. خلال الخريف الماضي (1883) قاتلت كل من أيت عطّا وأيت مرغاد إحداهما الأخرى، ليس بعيدا من هنا، قرب تيليوين وهي واحة صغيرة منعزلة شرق فركلة. كان عدد أيت عطّا 8000 راجل و600 فارس وكان عدد أيت مرغاد 1200 راجل و700 فارس. انهزمت أيت عطّا إذ هلك منهم 1200 شخصا وكانت خسارة أيت مرغاد 400 شخصا [Nbp] : لم تدم المعركة إلا صبيحة.

تلت هذا اللقاء الدامي هدنة لمدة سنة. بعد هذه الأحداث اتفق على المبارزة من جديد خلال الخريف القادم. ينتظر أن تنطلق الأعمال العدوانية في أي يوم من الأيام المقبلة. ستكون غريس ولاشك الميدان الرئيسي للمجابهة. منذ قرابة 30 سنة مضت، انتزعت أيت عطّا عددا من القصور من أيت مرغاد كانت ملك

هذه الأخيرة في غريس. وكان من بين هذه القصور التي استولى عليها أيت عطّا كَلميمه، وهي أحد أهم قصور المنطقة. يظن الناس أن أيت مرغاد سيحاولون استرجاع هذا القصر، هناك ما يدفع إلى الاعتقاد أن القتال وشيك الوقوع. سأعلم الغد عند وصولي إلى قصر السوق، إن أهل أيت عطّا نهبوا، في هذا اليوم نفسه، قافلة لأيت مرغاد. إنها بداية الأعمال العدوانية.

1 ماي

الذهاب من كلميمة في الساعة 4 صباحا، ذهبت إلى قصر السوق، وهي مقاطعة صغيرة على نهر زيز. لا توجد أي قافلة بتاتا خلال الطريق. سافرت صحبة زطاطي البرابرة الثلاثة.

بدأت السير بمحاذاة قدم الحافة من الصخور الوردية الفاصلة بين مستويي السهل السالفي الذكر. عند قاعدة الحافة تصبح الرمال وردية وتختلط بها الحجارة. تكاد النباتات تنعدم : بعض باقات من الملبنة وطحالب الحمادات. في الساعة 7 و30 دقيقة انتهيت من المشي محاذاة للحافة وتسلقتها. عند وصولي إلى قمة الحافة وجدت نفسي عند جانب هضبة تمتد من الشرق إلى الغرب على مد البصر. تحد هذه الهضبة جنوبا الحافة التي تسلقتها سابقا، وشمالا يحدها مستوى أول من الأطلس الكبير المنتصب كجدار على بعد 20 كلم مني : إنه الجزء الأول من السهل، إنه المستوى الأعلى منه. يمتد عند قدمي القسم الأدنى من السهل الذي 227 غادرته منذ قليل : مساحة بيضاء شاسعة حيث تظهر واحة تيليوين ومخطره أيت عبو ...Makhtara، كما لو كانتا مجرد نقطتين. لا يتغير السهل أبدا. يحده الخط الداكن لصغرو إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البصر. عند سطح الجزء من السهل حيث أوجد، يبصر المرء جزءا من خط أخضر ممتد في اتجاه الشمال الغربي. هذا الخط الأخضر هو جزء من نخيل تدروشت التي تراه العين عبر منخفض صغير للسهل. من جهة أخرى، عند الشمال الشرقي، تظهر ربوة مائلة إلى الحمرة رافعة قمتها وسط القفر. توجد هذه الربوة في اتجاه قصر السوق. سرت في اتجاه هذه الربوة.

سطح هذا القسم الأعلى من السهل محجوجر ونصفه الآخر صخري عند الهوامش ويصير رمليا كلما اقترب المرء من وسطه. توجد في هذا الجزء في بعض الأحيان كثبان صغيرة علوها ما بين المتر الواحد والمترين.

تتكون النباتات، في الرمال، من قليل من الصعتر ومن طحالب الحمادات ومن عنب بري نادر. الأجزاء المحجوجرة أكثر عراء : ترى فيها بعض باقات الطحالب فقط.

السطح مستو ولا يرى فيه أي عارض تضاريسي إلا الأكمة المنعزلة التي أهتدي بها. إنها قليلة الارتفاع، سأمر عند قدمها في الساعة الثانية. ستبدو لي ذات ارتفاع ما بين 60 و80م إنها ربوة وعرة من صخر أحمر. تتجه مياه هذا الجزء من السهل إلى نهر زيز من جهة وإلى نهر غريس من جهة أخرى. أوجدت هذه الحالة المنخفض الذي أبصرت عبره جزءا من نخيل تدرشت.

بدا لي نهر زيز في الساعة 3 والنصف. يوجد على بعد مسافة قليلة من هنا. إنه خط أسود ناتئ من إبط الأطلس وممتد على طول البصر. لا يحد الأفق أي تموج للسطح، وهذا صحيح أيضا في اتجاه كل من الشرق والغرب والشمال، لا ترى العين في هذه الاتجاهات الثلاثة إلا سطحا مستويا أبيض ممتدا إلى ما لا نهاية له. في الوسط يتلوى شريط النخيل الطويل لنهر زيز دون أن يتوقف الخط انطلاقا من النقطة التي يخرج منها النخيل إلى النقطة التي لا يعود البصر يراها عند حدود الأفق.

المقاطعات المتتالية على جوانب زيز، كما هي عليه مقاطعات درعة، شريط ضيق يتجلى للعين تدريجيا وسط الصحراء. لا تكون مختلف الأماكن المأهولة إلا واحة واحدة، كما هو الأمر بالنسبة لمقاطعات درعة، ولو أنها تحمل أسماء مختلفة مثل قصر السوق ومطغرة والرتب وتيزيمي وتافيلالت. إنها شريط من نخيل على جوانب النهر بدون انقطاع انطلاقا من الجهة العليا لقصر السوق إلى الجهة الدنيا من تافيلالت. بلغت قصر السوق في الساعة 4 والنصف. توقفت في ملاحه.

لم أصادف أي بشر خلال الطريق. مررت قرب مكان مأهول، قصر تارزة الصغير، من أراضي أيت إزدك، يقترن مجريا ماء في الجهة العليا من هذا القصر ويتجهان نحو النجوب، ناحتين واديا عرضه 500م في السهل. يوجد القصر عند قعر الوادي. تحيط بالقصر حقول من زيتون وتين ولا وجود للنخيل بتاتا. لواد تارزة، المجرى المائي الرئيسي، 50سم عمقا، نصف سريره رمال ونصفه الآخر من حصيم. السرير جاف.

228 **قصر السوق** مقاطعة على جوانب نهر زيز. إنه أصغر مقاطعات زيز خلال مجرى هذا النهر وأولاها بعد خروجه من الأطلس الكبير. تبدأ المقاطعة حيث يخرج النهر من السلسلة الجبلية. يوفر وادي زيز شريطا من النخيل يجري وسطه النهر وتنتصب داخل القصور البنايات من المقدار. من هنا إلى فم غيور حيث يخرج نهر زيز من الأطلس يبقى المجرى المائي والنخيل داخل خندق عمقه عدة أمتار. هذا الخندق شبيه بالخندق الذي يجري فيه نهر تدغة بعض الوقت. قعر وادي زيز من رمال وجدرانه من صخور : توجد باقي حقول النخيل وأكثرية القصور خارج هذا الخندق. عرض نهر زيز هنا 40م وعمقه 80سم. به ماء أخضر ذو تيار عنيف وشلالات عديدة. لا يعبر نهر زيز إلا في مقاطع معينة. سرير النهر تارة من حصيم وتارة أخرى من رمال وليس له أصواح.

الملبس والأسلحة هي نفسها كما كانت عليه في الواحات السابقة الذكر مع اختلافات ضئيلة. يحمل الناس دائما الحقيبة الأنيقة المصنوعة من الجلد الفلالي والمزركشة بالحرير. التغيير الوحيد المسجل يهم زينة الرأس : يحتفظ الرجال بام الرأس عاريا. يعوض طوق من خيوط. مصنوعة من شعر الابل أو شريط من حرير يلف حول الرأس بضع مرات ــ القطعة الضيقة من القطن التي كانت تحيط بالجبهة في مناطق دادس وتدغة وغريس. دائرة هذا الشريط الحريري الوردي اللون عادة من 7 إلى 8م ومن العادة الجارية التوفر على قرط من الفضة في الأذن اليسرى. يلبس الناس الخيدوس قليلا. لا يلبس إلا البياض. تزين البرانيس، من الصوف أو من القطن، تطريزات من حرير ذي ألوان زاهية. سوف لا يتغير الملبس والأسلحة ابتداء من هنا حتى قصابي الشرفاء.

2 ــ من قصر السوق إلى قصابي الشرفاء

2 ماي

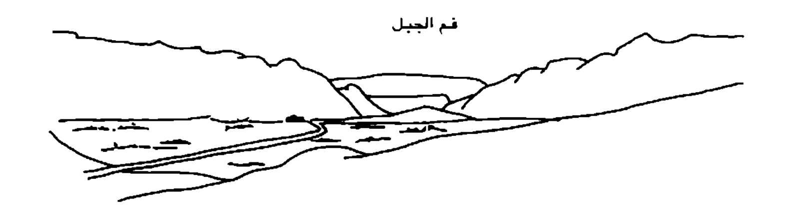
منطقة قصر السوق ومنطقة تيلالين وجميع البلدان التي سأخترقها من هنا حتى فج تلغمت، ذروة الأطلس الكبير، كلها أراض لأيت إزدكَ، أحد فروع البرابر. يرافقني 3 رجال مسلحون. ينتمي الرجال الثلاثة إلى هذه القبيلة. مهمتهم خفري

حتى تيلالين، المأوى حيث سأقضي هذه الليلة. توجد هذه المقاطعة، من أراضي زيز، في الواجهة الأخرى للسلسلة الجبلية الخشنة التي يوجد قصر السوق عند قدمها. يوصل إلى قصر السوق طريقان : يحاذي أحدهما مجرى النهر عند قعر خانق ضيق ويترك الآخر النهر جانبا ويتسلق أعراف الجبل. هذا الطريق كثير المصاعب. يسلكه المرء عند الضرورة الملحة، عندما يكون نهر زيز، الذي يقطعه الطريق الأول عدة مرات، متعذر الاختراق.

ص 229 سأسلك الطريق الأول رغم أن الفصل فصل فياضانات النهر وإن أمطارا زادت من حجم الماء في النهر وجعلت عبوره صعبا. دخلت المنطقة الجبلية عند الخروج من أراضي قصرالسوق. المنطقة الجبلية سلسلة واسعة من صخور عارية. تبدو هذه الجبال مكونة سلسلة مسترسلة من جدران عمودية وحافات تفصل بعضها عن البعض الآخر أضلاع أقل أو أكثر وعورة. هذه الأضلاع تارة صخرية وتارة أخرى محجوجرة. تكاد تكون هذه الكتلة كلها ذات لون أحمر ناصع. يتغير لون الإبط عند الاقتراب من تيلالين وتصبح هذه الإبط ذات لون مائل إلى الزرقة.

يخترق نهر زيز هذه السلسلة بواسطة خانق طويل ذي جدران وعرة. تتحول هذه الأخيرة في بعض الأحيان إلى جدران عمودية. يصل عرض قعر الوادي في بعض الأماكن 300 أو 400م. ويكون عرضه فقط 50 أو 60م. في كثير من الأحيان. قعر الوادي رملي. تكسوه المزروعات. تنتشر القصور على جنباته في أكبر جزء من طوله. الجزء العلوي من السرير الذي يتصل بالسهل عند تيلالين وحده صخري ومقفر. يكون الجزء الآخر مقاطعة منعزلة اسمها الخانق.

لم يفتأ النخيل يظلل المزروعات انطلاقا من قصر السوق حتى قصر تمركشت. ينمحي النخيل عند هذا القصر. ولن أرى النخيل من الآن حتى نهاية سفري. الطريق صعب في هذا اللصب بسبب عدد الممرات التي يجب اختراق نهر زيز خلالها. رغم أنني غيرت اتجاه طريقي عبر الجبل للتقليل من عدد العبور فإنني قطعت النهر 6 مرات. كان لأكثرية المعابر حوالي 25م من العرض و80سم من العمق. جعلت سرعة التيار الكبيرة جدا كلا من هذا العبور يستغرق وقتا طويلا. غادرت قصر السوق في الساعة 7 صباحا وما وصلت إلى النهاية الشمالية لهذا اللصب إلا عند الساعة 3 و30 دقيقة بعد الزوال. وجدت نفسي هنا أمام سهل حيث باشرت السير : إنه سهل تيلالين.



تحد جنوبا هذا السهل السلسلة الجبلية التي خرجت منها منذ قليل، وتحده شمالا سلسلة جبلية أخرى عارية ووعرة موازية للأولى، وتحده غربا جبال عالية على شكل نصف دائرة يفوق علوها بعض الشيء علو الجبال التي آخترقتها سابقا وربما يقع قدمها على مسافة 12 أو 15 كلم. انطلاقا من حيث أوجد. يصل هذا السهل أقصى بعده في اتجاه الشرق نحو حدود الأفق. هذه المساحة عارية ومستوية السطح. هذا الأخير محجوجر. بعض أجزائه صخرية والأخرى رملية. يخترق نهر زيز هذا السهل عبر طوله بأكمله. يحيط بضفتي النهر شريط مستمر من المزروعات ومن القرى التي تسترسل خارج السهل، ووراء السلسلة التي تحد السهل. إنه تيلالين يشبه تيلالين دادس فيما يخص الحياة النباتية. لتيلالين نفس المزروعات الكئيبة ونفس المظهر المقطب ونفس غياب الأشجار التي نجدها في دادس. تكوِّن الحقول الموزعة على ضفتي نهر زيز شريطا مسترسلا من الجانب الأول للمقاطعة إلى الجانب الآخر منها. عرض هذا الشريط غير منتظم. يصل تارة إلى 2000م وتارة أخرى يصل إلى قرابة 1000م فقط.

إن كان تيلالين يذكِّر بدادس من حيث الحياة النباتية فإنه لا يشبهه في أي شيء آخر فيما يرجع إلى القصور. منذ غادرت حوض تدغة وفن العمارة يسجل تدنيا. كان هذا الفن احتفظ بالرشاقة حتى منطقة قصر السوق، وفي تيلالين لم يعد وجود لهذه الرشاقة. البنايات من مقدار وبدون زخرفة. توجد تيغرمتين لكن جدرانها الأربعة المزودة بأبراج في أقصى البساطة. لا تقطيعات ولا تنميقات بهذه الجدران. انمحت الأجديم من المشاهد مع انمحاء نخيل غريس الأخيرة. من هنا إلى وجدة ستذكِّر البنايات بتلك البنايات الموجودة في تادلة وآيت عتاب والنتيفة. ليست البنايات في تيلالين فقط أقل رشاقة مما كانت عليه في دادس ولكنها أيضا أقل عددا. تكون البنايات سلسلة متتالية من القرى قليلة الابتعاد بعضها عن البعض

الآخر ولا تكون تلك المنظومة المسترسلة من المساكن التي تضفي على دادس مظهرا خاصا مميزا إلى حد بعيد.

دخلت تيلالين عند الساعة 4 زوالا. توقفت فيها عن السير على الساعة 5 عند قصيبة اليهود، وهي قريبة صغيرة تكاد توجد في نهاية السهل.

3 و4 ماي

إقامة في تيلالين. سقطت أمطار بدون انقطاع استقبلها السكان بالرضى إلا أنها لم تكن في صالح المسافر — مثلي — فألزمتني البقاء يومين في المنطقة.


وادي نهر زيز

5 ماي

الذهاب في الساعة 8 صباحا. عما قليل سأكون خارج السهل. يدخل نهر زيز في هذا السهل عبر خانق عرضه قرابة 100م. يدخله بين جبل بوقنديل شرقا وجبل جرس غربا. الأول جبل عال أسمر داكن ذو أضلاع وعرة. والثاني سلسلة جبلية طويلة من صخور صفراء.

هذه السلسلة الأخيرة ذات انحدار ضعيف خلال كيلومترين أو كيلومتر واحد ثم يزيد علوها في الارتفاع. يكون هذا الجبل الصوح الأيمن لواد يجري داخله نهر زيز قبل أن يمر عبر السهل. إبط السلسلة الأيسر حافة ذات عرف منتظم على شكل مدرج ناعم عند القدم. تنتهي الإبط عند القمة على شكل عمودي. ماهذه الحافة إلا صخور وحجارات دون أي نبات. لقعر الوادي حيث أسير في اتجاه العالية للمرة الثانية سطح مترب. يصل متوسط عرض الوادي إلى 1500م. تحتل هذا القعر مزروعات وقصور تيلالين والجرس. تمتد هاتان المقاطعتان على جميع أطراف الوادي. تمتدان على طول الوادي بأجمعه لكن دون أن تحتلا عرضه كله، ولا تحتلان إلا إحدى ضفتي النهر وتبقى الضفة الأخرى غير مزروعة وخالية. قطعت للمرة الأخيرة نهر زيز. يكوِّن زيز فرعين هنا عند المعبر عرض كل واحد

ص 231 منهما 50م. عمق الفرع الأول 80سم وعمق الفرع الثاني 50سم. تجري المياه في سرير من حصيم. ليس للنهر أصواح. التيار سريع جدا. في الأفق البعيد تبدو القمة البيضاء لجبل العياشي. ستبقى هذه القمة تلمع أمام عيني من هنا حتى قصابي الشرفاء ومن قصابي الشرفاء حتى ميسور.

حوالي الساعة 11 كنت في نهاية الوادي. ينخفض علو الإبط الأيسر بغتة ويفسح المجال لسهل. تحد هذا السهل شمالا سلسلة وعرة وحمراء اللون ترتفع على بعد عدة كيلومترات من هنا. ويحده جنوبا استمرار جبل الجرس. في اتجاه الغرب والشمال الغربي تحده جبال عالية بعيدة جدا : من هنا ينطلق نهر زيز. في البعد، يميز البصر على سطح السهل الأبيض بقع الحقول السوداء التي تحد مجراه. بالنسبة إلي، هجرت السهل وقصدت مباشرة السلسلة المنتصبة في هذا الاتجاه. حتى اللحظة كان السطح محجوجرا ومستويا وبدون نباتات.

وصلت عند قدم الكتلة في الساعة الواحدة إلا ربعا. تسلقت الكتلة ودام الصعود ساعة. وصلت إلى فج عبر شعب عار وعر. تبدأ هنا هضبة وعرة ذات سطح مترب يكسوها الجديم والصعتر. اخترقت الهضبة بعد قليل من الزمن ووصلت إلى عرف : إنها النهاية الشمالية للهضبة. يمتد أمامي ضلع قليل الانحدارت يكسوه الجديم. وفيما وراء هذا سهل طويل يمتد من الغرب الجنوب الغربي إلى الشرق الشمال الشرقي كما كان عليه سهل تيلالين. تحد هذا السهل جنوبا الكتلة التي اخترقتها منذ حين، ويحده شمالا جبل العبارات، وهي سلسلة جبلية عالية من صخور حمراء، كما تحده أمام جبل العبارات كتلة من تلال رمادية علوها ما بين 40 و50م تتكئ هذه الكتلة على جبل العبارات إلا أنها تبقى منفصلة عنه. يفصل السهل غربا نصف دائرة من جبال عالية إلى حدما. في اتجاه الشرق يمتد السهل إلى ما لا نهاية له.

يخترق واد النزالة هذا السهل طوال عرضه. وسط هذا السطح الخالي تبدو 3 قرى صغيرة وبناياتها النحيفة. بعد قليل سأكون في هذا السهل. سطحه رملي. تكسو السهل المراعي المسيجة. يطغى على نباتات هذه المراعي الوزال. ووصلت إلى واد النزالة. وسرت فيه حتى فج تلغمت، ذروة الأطلس الكبير.

عند نهاية السهل دخلت كتلة التلال الموجودة قبل جبل العبارات. يحفر واد النزالة لنفسه واديا في السهل عرضه 100م، يكسو الجديم الإبط المكونة من تراب

وبعض الحجارة. في الساعة 4 كنت في النقطة التي تنتهي عندها هذه الكتلة حيث تنتأ من السطح الجدران الوعرة لجبل العبارات. توجد الفجاج على اليمين وعلى الشمال بين الهدودات والجبل. تنفتح عند الأمام ثغرة ضيقة في إبط هذا الجبل. إنه خانق العَبَّارَاتْ وهو إحدى الظاهرات الطبيعية الأكثر غرابة في هذه المنطقة.

السلسلة التي حُفرت فيها الفجوة عرمة يفوق علوها 200م. عرف العرمة من صخور وقاعدتها من حجارة. تتجه الأعراف نحو الخانق مع انخفاض في علوها. يقل الارتفاع بشكل سريع ومنتظم راسما هكذا نصف دائرة. يبدو العرف العلوي نفسه راسما نصف الدائرة هذه بحيث يبدو جدار الذروة من قعر الخانق كما لو انخفض حتى صار على مستوى النهر : هكذا لا يبدو هذا الخانق بتاتا من نتائج نحت المياه كما هو الأمر بالنسبة للخوانق الأخرى. يبدو هذا الخانق ناتجا عن تنية البقعة الصخرية التي تتكون منها السلسلة. طول الخانق 100م وعرضه 30م تقريبا. قعر الخانق وجدرانه من الصخور.

ص 232

قطعت الخانق عند مستوى واد النزالة. يبقى هذا الوادي ضيقا عند الخروج من هذا اللصب وتنخفض إبطه. هذه الإبط هي المنحدرات الشمالية لجبل العبارات. كانت الإبط عارية في السفح الآخر. هنا تنتشر بعض الأشجار فوق الإبط من نفس الطبيعة الصخرية. إنها الأضلاع الأولى المشجرة التي رأيتها منذ مغادرتي وادي نهر سوس. عما قليل ينمحي الإبط الأيمن ويفسح المجال لسهل عار علوه 10م. فوق مستوى النهر. يحيط الإبط دائما بالسهل. لم يعد الإبط إلا 50 أو 40م الإبط حافة من صخور رمادية وذات انحدار منتظم. تنتشر على طول الوادي عدة قصور صغيرة ذات منظر بائس ليس بها حقول ولا مزروعات. توقفت عند أحد هذه القصور واسمه النزالة. كما تدل التسمية على هذا. فالقصر مجرد مأوى للمسافرين المارين بهذه الطريق.

أسير منذ هذا الصباح ضمن قافلة بغالين ينتمون إلى قبيلة مطغرة التقيت بهم في تيلالين. ساروا معي في نفس الاتجاه حتى قصر الشرفاء. مهنة هؤلاء البغالين حمل البضائع بين تافيللت وفاس.

استأجرت خفرا من أيت إزدكَ بعد اتفاق مع هؤلاء الآخرين لكونهم أسياد المنطقة كلها. يطلب أيت إزدكَ 5 فرنكات لكل بغل وكل يهودي وكل بعير

ونصف هذا القدر من المال لكل حمار يمر عبر أراضيهم مقابل تقديم زطاطتهم من قصر السوق حتى فج تلغمت. لا يدفع المسلمون أي قدر من المال لتأمين سلامة أرواحهم. يخفر آيت إزدگ القوافل ويضمنون أمنها مقابل الإتاوة السالفة الذكر. يتكون خفرنا من 3 فرسان و6 أو 7 راجلين.

عدد كبير من الناس عبر الطريق. لاقيت 7 أو 8 ركبان يتكون كل واحد منها من 50 أو 80 دابة حمل. كات الحيوانات بغالا وحميرا وجمالا وكان أكثر عددها من صنفي الحيوان الأخيرين. الطريق حيث كنت أسير، وهو الممر العادي بين فاس وتافليلت، هو الممر الأكثر استعمالا. انطلاقا من نهر زيز صادفت مجريي ماء مهمين. كان الأول واد تيره نْ إمين (كان به 10م من ماء صاف عمقه 10سم وله تيار سريع حيث اخترقته لأول مرة). كان المجرى المائي الثاني واد النزالة (عند مستوى أيت حمو وسعيد كان لعرض سريره 80م منها 15 من ماء صاف وجار عمقه 60سم عند النزالة لم يعد عرضه إلا 15م و6م ماء عمقه 15سم). قطعت خانق العبارات في الساعة 4. إنه خانق مشهور ويُخشى اختراقه بسبب الاعتداءات التي يقترفها فيه أهل أيت حديدو. تربصوا عدة مرات للقوافل، مختبئين وراء الفج الذي رأيته عن يساري، ونهبوها.

النزالة قصر صغير للمسافرين. في أيامنا هذه لم يعد يستعمل إلا للغاية الأخيرة. إنه مكان مربع الشكل مسور ومجهز بأبراج قليلة الفائدة. الأسوار والأبراج من مقدار رمادي وقليلة العلو.

233 توجد بداخل هذا المكان بعض المساكن، مقر 5 أو 6 عائلات تسكن هنا. ويوجد أيضا عدد كبير من الفنآت والإصطبلات والفنادق، حيث يستقر المسافرون. أكثر هذه الإصطبلات والمخازن في حالة خراب.

لا توجد ممرات صعبة خلال الطريق الذي قطعته اليوم. صادفت عقبة واحدة وعرة بعض الشيء حوالي الساعة 2. سرت بقية هذا اليوم في السهل. غدا، سيكون الطريق أكثر انتظاما خلال النهار كله. تختلف السهولة القصوى التي أخترق بها جزء الأطلس الكبير مع الصعوبات التي عانيت منها عند ما اخترقت السلسلة الجبلية هنا لأول مرة عند فج تيزي ن تلوت. لا يوجد أي مظهر يشبه أطلس اكَلاوة وجزء الأطلس حيث أوجد إذا استثنينا الارتفاعات. هنا، جزء

الأطلس الكبير هذا سلسلة ذات أعراف عارية وصخرية تتكون من أجراف طويلة تكاد تكون غير قابلة للاختراق. السفحان، وخاصة سفح الشمال، شديدا التخديد من جراء المياه الجارية. فقد السفحان شكلهما الأصلي ويبدوان على حالة إبط مستقيمة بالنسبة للعرف الأول. يخفي هذان السفحان المتميزان بالوعورة وشدة الالتواءات داخل إبطهما أودية ضيقة محاصرة بين جدران من صخور. هذه الأودية هي المآوي الوحيدة التي لجأت إليها النباتات والحياة في هذا الصقع الصعب المنال والموحش والخالي. الاتجاهات العامة لهذه الأودية مطابقة لاتجاه خط قمم السلسلة. وهذه أيضا حال الإبط المستقيمة التي تفصل بعضها عن بعض خلافا لما سبق، القمة مشجرة جزئيا هنا. يصل المرء إلى القمة بسهولة قصوى. لا تتكون الكتلة من عدة جبال تشمل كل المنطقة على شكل فروع شجرة متعامدة مع الجذع بل تتكون من مجموعة سلاسل متوازية مع العرف الرئيسي وتفصل بينها سهول تحتل الجزء الأكبر من الصقع.



مجاري المياه غير عميقة. توجد القرى بجوار مجاري المياه، هذه الأخيرة كثيرة العدد ومتقاربة تارة وتارة أخرى تكون متباعدة. تخترق هذه المجاري سلسلة الجبال المتعددة بواسطة نفس عدد الخوانق التي تنفتح فيها مثل أبواب فاسحة لها المرور.

بعض هذه السهول طويلة إلى حد أن نهرين يخترقانه عرضا وتفصل بين الأول والثاني مسافة كبيرة، هذه حال سهل تيلالين الذي يروي امتداده نهر كَير.

يقدم جزآ الأطلس الكبير اللذان قطعناهما اختلافا آخر إضافة إلى هذا الفرق فيما يخص طبيعته، كانت تحيط بتيزي ن الأكَلاوي قمم عالية من كلتا الجانبين تكسوها الثلوج على طول فترات السنة، كان تيزي ن الأكَلاوي منخفضا وسط جبال عالية جدا. يوجد تيزي ن تلغمت عند النقطة حيث تبدأ السلسلة في الانخفاض : ترتفع غرب الفج أعراف جبل العياشي العالية، إحدى القمم الأكثر ارتفاعا للأطلس، والتي تكسوها الثلوج دائما. لم تعد هناك آثار للثلج في الجهة

2

الشرقية وأصبحت ارتفاعات السلسلة تنخفض بسرعة. سيبقى جبل العياشي أمام بصري فترة زمانية طويلة خلال وجودي في ملوية. فيما وراء جبل العياشي تبدو السلسلة على شكل حافة طويلة سمراء داكنة ذات عرف منتظم وعلوها دائما في تراجع. تمتد السلسلة في اتجاه الشرق وارتفاعاتها في انخفاض مستمر إلى حيث لم تعد ترى عند حدود الأفق.

6 ماي

الذهاب في الساعة 6 صباحا، سأبقى في مجال مستوي السطح حتى فج تلغمت، تربة صلبة ينتشر فيها الحصيم والحجارة الصغيرة ويكسو نصفها نبات فقير من الجديم والصعتر ومراعي نحيفة. من هنا إلى الفج اخترقت 3 سهول منتظمة السطح ليس بها أدنى تموج :

يمتد السهل الأول بعيدا في اتجاه الشرق والشمال الشرقي. يحد هذا السهل الأول في هذا الاتجاه قدم جبل العياشي نفسه. ترى منحدرات هذا الأخير وقد انتشرت الثلوج عند قاعدتها. تتحول منحدرات جبل العياشي هذه شيئا فشيئا إلى كتلة ذات بياض كامد طافية فوق السطح. تحد هذا السهل الأول حافة رمادية علوها بين 40 و50م ذات الأضلاع المحجوجرة والمنتظمة الانحدار وقد نبت بها الجديم.

يمتد السهل الثاني إلى مسافة بعيدة في اتجاه الشرق حيث تحده جبال ذات علو متوسط. تحده غربا وتفصله عن السهل الأول كتل من تلال ذات انحدارات منتظمة يكسوها جزئيا الجديم. وتحده أيضا شمالا سلسلة من جبال عالية مشهورة هي جبال العباري. هذه الجبال ضلع صخري عار ترفع أعرافها فوق مستوى السهل على علو يفوق 200م. إبط السلسلة ذات لون أحمر. إنها صخرية ووعرة ويكسوها الجديم عند الأسفل والأشجار عند القمة. رغم أن الفج أكثر بعدا فإن قمة هذه السلسلة تكوِّن خط أعلى النقط للأطلس الكبير. نتيجة لحدث طبيعي غريب، بدل أن يأخذ واد النزالة منبعه عند السفح الجنوبي للجبل فإنه ينبع فيما وراءه عند السفح الشمالي. يخترق واد النزالة جبل العباري بواسطة خانق عرضه 30م. نفذت إلى السهل الثالث بواسطة هذا الخانق ؛

السهل الثالث سهل صغير لا يشبه من حيث المساحة السهلين السالفي الذكر.

يتكئ جزئيا على جبل العباري وتحده شرقا حافة عند الأسفل وتحده شمالا كندة صخرية ذات منحدرات مشجرة [Nbp 1] يصل علوها إلى 30م. عند نهاية هذا السهل الصغير يوجد فج تلغمت أنتقل عبره من حوض زيز إلى حوض ملوية. آخترقت هذا الفج في الساعة 9 صباحا. يصل علو الفج إلى 2182م أما فيما يخص خط القمم العامة للأطلس فإني اخترقته عند جبل العباري. من فج تلغمت. التحقت بشعب عميق تحد جزأه الأسفل الذي يصل عرضه إلى 20م حافات وعرة يكسوها الجديم عند الأسفل والأشجار في الأعلى. سرت في هذا الشعب الذي لا يمتد كثيرا. بعد بضع دقائق ينخفض علو الإبط ثم تصبح لينة وعما قليل تنمحي : أجد نفسي في السهل.

ص 235

يحمل هذا الأخير اسم سهل الجديم. إنه مستوي السطح لكن ذو ميل واضح في اتجاه الشمال. نصف سطح السهل من تراب ونصفه الآخر من حجارة وتكسوه باقات من الجديم الطويلة العامة. فيما وراء سهب الجديم، أرى، أمامي وعند مستوى أدنى، سهلا حفر فيه نهر ملوية سريره. هذا السهل جزء من سهل





الجديم وهو سهل واسع جدا يسميه الناس سهب الارمس. تحد هذا السهل شمالا حادفة داكنة طويلة ذات ارتفاعات متوسطة، وهذه الحافة هي المنحدرات الأولى للأطلس المتوسط. انطلاقا من هنا يرى المرء عددا كبيرا من الأعراف، مجموعة كتل رمادية متدرجة إحداها تلو الأخرى، وتشرف على جميعها كتلة زرقاء تكسو قمتها الثلوج : كتلة الأرض الزرقاء هذه هي الأطلس المتوسط، خط مستوي المعالم تبرز منه قمتان على شكل كتل بيضاء واسعة، توجد القمة الأولى وسط السلسلة. إنها جبل تسوقت، توجد القمة الثانية عند النهاية الشرقية للكتلة :



ملوية وقصبة المخزن (قصابي ألشرفا)

إنها جبل أولاد علي. يضع جبل أولاد علي هذا حدا للأطلس المتوسط بالصيغة الأكثر بغتة والأكثر غرابة : بعد أن ارتفع علوه كثيرا جدا فإنه ينتهي، تقريبا، بشكل عمودي عند شفة وادي ملوية. لسفحه الشرقي مظهر حافة من 1/1 يفوق علوها 1500م لهذا الجرف الهائل ــ حيث تنتهي سلسلة جبلية عالية ذات ارتفاع وامتداد أطول ــ التأثير الأكثر غرابة. سوف أرى عن قرب جبل أولاد علي خلال مروري بالوادي الأوسط لملوية.

يوصلني مدرج منتظم علوه 25م من سهب الجديم إلى سهب الأرمس كما هو لأمر بالنسبة للسهل الأول. يمتد هذا السهل على مد البصر في اتجاه الشرق وفي اتجاه الغرب. السطح رملي، بعض بقعه النادرة عارية وفي بعضها ينبت الصعتر وتكسو الجزء الأكبر منه النباتات القصيرة القامة المعروفة باسم الأرمس. ترى، على فترات طويلة، بعض التيغرمتين الصغيرة ذات المنظر البائس المنعزلة في القفار. أسير في هذا السهل حتى الساعة 3 و30 دقيقة. في هذه اللحظة ينفتح قربيا مني خندق له 1500م من العرض وتكسو الخضر قعره.

ص 236 في هذا الخندق تعرض عدة قصور ــ تكاد تكون مختبئة بين العديد من الأشجار المثمرة ــ سطوحها سمراء. يسيل وسط هذا الخندق نهر : تلكم قصابي الشرفاء ونهر ملوية. توصلني حدور من رمال عارية إلى قعر المنخفض الذي سطحه من رمال. مشيت في هذا المنخفض بين الحقول والبساتين. بعد ربع ساعة من السير وصلت إلى قصابي الشرفقاء، منتهي سيري في هذا اليوم.

تتكون قصابي الشرفاء من 3 بليدات توجد كلها في الخندق حيث تسيل ملوية. تجمع بين هذه البليدات الحقول والبساتين وتظللها أشجار من الزيتون والرمان. تضفي هذه الخضرة على المقاطعة مظهر بهجة وعيد يتباين مع المظهر الكئيب لمقاطعتي تيلالين والجرس. هكذا هي قصابي الشرفاء : شريط من مزروعات وقصور حبيس بين صوحين عاليين يسيل وسطه نهر ملوية.

صادفت اليوم، خلال الطريق، عددا من الناس مقارنة بالأمس. كان عدد القوافل المصافة 3 وكانت تتكون من 150 بهيمة حمل. تخلى عني زطاطي عند فج تلغمت كما كان متفقا عليه من قبل.

في فج تلغمت تبدأ بلاد المخزن. شمال الفج يوجد أيت إزدك. هم في نزاع

مع المخزن ولهذا قد يجدون أخطارا في التنقل في جماعات قليلة الأعداد ــ إن هم أرادوا الهجوم ــ والمسافرون، وهم في بلاد المخزن، لا يحتاجون إلى خفر. من فج تلغمت إلى قصابي الشرفاء، يجد المرء نفسه في بلاد أيت أوفلاه. في بداية الأمر هذه الأخيرة قرية صغيرة لإحدى فخذات أيت إزدكَ لكنها حاليا منفصلة عنهم وخاضعة لسلطة المخزن. يسافر المرء في هذه المنطقة بدون عناية. في هذه الظروف تكون القرية مسؤولة عن النهب المقترف في أراضيها : لهذه الغاية سمح المخزن للقرية بفرض إتاوة المرور على كل من يمر عبر أراضيها ــ قصد تعويضها لما تفقده من موارد تحصل عليها عن طريق السطو والنهب ــ نتيجة خضوعها لسلطة السلطان. قيمة هذه الإتاوة فرنك واحد لكل بهيمة حمل ولكل يهودي. ادت قافلتي هذا الواجب مرتين. في كثير من الأحيان يطلب هذا الواجب 3 أو 4 مرات حيث لا يجب أداؤه إلا مرة واحدة. تكون طريقة الاستخلاص على هذا الشكل في هذه الحالة : مسافة قصيرة قبل فج تلغمت، اتصل بنا بعض الأشخاص وطلبوا منها تقديم نقود الضريبة. دفعنا القدر المطلوب. وبعيدا بعض الشيء من هنا في السهل، وجدنا عصابة قوية واقفة في وسط الطريق اشترط أفرادها ألا نمر إلا بعد أدائنا لهم نفس النقود التي أعطيت لمن سبقوهم. أمام هذا التصرف صاح قائد القافلة في وجههم : «لقد أدينا الإتاوة سابقا»، فكان جوابهم : «كان من صادفتموهم قبلنا نصابين ليس من حقهم المطالبة بأي شيء. نحن وحدنا موفدون لجلب المكس. لن تمروا إلا بعد أن نكون توصلنا بالواجب أداؤه». بما أن الوفد كان مكونا من 40 فردا مسحلين كان علينا إرضاء رغباتهم. تكررت أحداث مثل هذه طيلة الأيام التالية : مناطق أداء المكس ــ وتحمل اسم النازالة ــ في بلاد المخزن أكثر تكلفة مما هي عليه في بلاد السيبة. من حسن الحظ أن هذه النزالات قليلة العدد : إنها عادة بليدات ساكنتها قليلة الخضوع لسلطة المخزن. قد تنهب علانية دون أن يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك إن لم يقدم لها هذا التعويض.

ص 237 لم أعرف نزالات من هذا القبيل إلا عند قبيلتين هما أيت أوفلاًّ وأيت يوسي. تتعدد النزالات عند هذه القبيلة الأخيرة. قد يصل عددها إلى 16 محطة حسب ما يقال. من قصابي الشرفاء إلى صفرو إنها الكارثة بالنسبة للتجار.

7 ماي

إقامة في قصبة المخزن. إنه مكان مسور مستطيل الشكل مجهز بأبراج ذات إنجاز حديث. يستعمل هذا المكان كمقر لإقامة القايد وللحامية العسكرية ولإيواء اليهود العابرين للمنطقة. فما مضى كان الشرفاء، أصحاب أراضي المقاطعة، ينفردون بالسلطة به ولا يعترفون بأية سلطة أخرى. اليوم المنطقة بلاد المخزن ويمثل السلطة فيها قايد. كانت هذه المقاطعة تابعة دائما لأيت إزدكَ وهي لازالت على هذا الحال حتى الآن. وإنه لمشهد غريب أن يقف المرء على إقليم من أقاليم بلاد السلطان تابع لفخدة قبيلة مستقلة. إن السلطان مولاي الحسن هو الذي أخضع قصبة الشرفاء، منذ 7 سنوات مضت. أرسل إليها بعد إخضاعها قايدا وعسكرا. اشترى هؤلاء قطعة أرض وشيدوا عليها المكان المسور حيث أنا الآن. لم يعارض أحد هذا الإجراء، هكذا بسطت سيادة السلطان على البليدة بدون مقاومة من طرف الأهالي. خلال السنة الأولى شملت هذه السيادة أيت أوفلا وأولاد الخاوه وأيت إزدكَ. انطلاقا من السنة الثانية لم يعد يعترف هؤلاء الآخرون بسيادة المخزن ورفضوا أداء الضرائب. منذ هذا الزمن بقيت الأمور كما هي عليه. تنحصر سلطة القايد عند مقاطعة قصابي الشرفاء وأيت أوفلا وأولاد الخاوه. إنها سلطة هشة إذ هي محترمة إلى حد ما داخل المقاطعة نفسها. في كثير من الأحوال يستقبل الشرفاء الأوامر أو أوامر تحصيل الضرائب المخزنية باستخدام البارود. القايد الحالي من فاس وهو بخاري. يتوفر على قرابة 100 عسكري من الجيش النظامي وعلى مدفعين من النوع المستعمل في العمليات الجبلية.

X

من قصابي الشرفاء إلى للامغنية

1 ــ من قصابي الشرفاء إلى أوطاط أولاد الحاج

8 ماي

ص 238 الذهاب من قصبة المخزن في الساعة 6 صباحا. عرض نهر ملوية 20م عند قدم القصبة. علو أصواحها الصخرية والصعبة 3 أو 4م مياه النهر صفراء وعميقة. لا يوجد معبر بتاتا عند هذه النقطة. اخترقت النهر على مسافة قليلة من هنا في اتجاه السافلة. عرض ملوية هنا 25م وعمقه 1,20م له تيار سريع بعض الشيء. السرير نصفه من رمال ونصفه الآخر من دماليك. بعد اختراق النهر غادرت الخندق حيث يسيل النهر. لازالت المزروعات تملأ الخندق. يسارا، تحد هذه الأخيرة حافة من رمال وصخور. تسلقت هذه الحافة. عند وصولي إلى القمة وجدت نفسي في سهل طويل.

إنه سهل متموج مجزأ إلى مجموعة شعاب ؛ تربته خليط من رمال وحصى، وفي كثير من الأحيان بدون غطاء نباتي. إنه ذو لون أحمر مثلما هي عليه الكتل المحيطة به شمالا. أتوغل في هذا السهل حيث أسير حتى الساعة 8 سأسير حينها في اتجاه سافلة ملوية : يجري هذا النهر في تجويف لازالت المزروعات والقصور تملؤه، إنها دائما مقاطعة قصابي الشرفاء. للنهر نفس العمق ونفس المياه المحملة بالتراب كما كان عليه في المعبر السابق ؛ يصل عرض الماء إلى 30م. ساعة وصولنا إلى صفته اليمنى تسلقت الحافة المحيطة بهذا التعمق من هذا الجانب ووجدت نفسي من جديد في السهل.

قرب النقطة التي عبرت منها نهر ملوية تنتصب قرية أيت بلال على ضفاف النهر. خرجت من قصابي الشرفاء صحبة 3 زطاطات، 2 منهم من شلوح أيت بلال، وثالثهم عربي من أولاد الخاوة. تخلى عني الشلحان هنا مدعيين أنهما ذاهبان إلى سكناهما للتزود بالخبز تهيؤاً للطريق وأنهما سيلتحقان بي فيما بعد : بعدها انتظرتهما أكثر من مرة إلا أنني لم أر لهما أثرا.

لقد خاناني ؛ لقد أخطأت استجابة لتدخلات يهود القصابي لما أديت لهما

أجرتهمامسبقا : لقد تخليا عني حيث لم يبق لهما أي شيء ينتظران تحصيله. سأتابع سيري في هذا القفر دون حارس سوى الرجل العربي : إنه شاب جميل المظهر عمره قرابة 15 سنة ؛ سيصحبني بوفاء ؛ إلا أنه في حالة حدوث مكروه لم يكن في إمكانه إلا توفير حماية ضعيفة : كانت بندقيته معطلة، لم أر إنسيا حتى الوصول إلى قريته.

السهل الذي أدخل فيه سهل شاسع. إنه قفر أبيض ممتد شمالا حتى نهر ملوية وحتى الأطلس المتوسط جنوبا وحتى الركام شرقا وإلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه البصر غربا. السهل متموج وسطحه صلب. هذا السطح تارة رملي وتارة أخرى محجوجر يكاد يكسوه الجديم من جميع جهاته.

الأطلس الكبير سلسلة ذات عرف منتظم يغوص في اتجاه الشرق وتقل ارتفاعاته أكثر فأكثر : شرق جبل العياشي لا أثر للثلج عند قممه. الركام بعيد جدا إلى حد أن قمته تتراءى فقط. انطلاقا من هنا ليس الركام إلا خطا أصفر نافعا يحد الأفق. سأراه غدا أكثر وضوحا : يتكون من مجموعة ارتفاعات رملية. منخفضة جدا، حادة وادي ملوية شرقا بين الأطلس الكبير وجبال دبدو.

حوالي الساعة 2 ينفتح الأفق بغتة بعد أن كان إلى حد الآن محجوبا بسبب الكتل القائمة أمام قصابي الشرفاء : لم تعد الجبال تحجب الرؤية وبرز سهل ملوية بأكمله : سهل أبيض شاسع مستوي السطح وعار يحده يمينا خط الركام الأبيض الناعم ويحده الأطلس المتوسط يسارا. هذه السلسلة الجبلية العالية السوداء المعممة بالثلوج المنتصبة فوق الوادي مستقيمة كالجدار. ينتشر الوادي على مد البصر في اتجاه الشمال حيث يَضع حدا للأفق. يبلغ اتساع هذا السهل أقصاه في هذه اللحظة : قريبا من هنا يفوق هذا العرض 30 كلم يبدو خط أخضر عند سطحه. إنه ميسور الذي سأصل إليه هذا المساء. إنه كما لو كان تدغة أو غريس : في سهل ملوية هذا، إنه سهل أكثر عراء وأكثر قفرا من أي جزء من الصحراء المغربية. للمجموعات السكنية النادرة المنتصبة خارج خندق النهر شبه كبير بواحات



وادي ملوية وميسور

الجنوب : لها نفس العزلة وسط القفار. لها نفس غنى الحياة النباتية. لها نفس الطراوة العذبة وسط السهل الجاف ولا ينقص إلا النخيل حتى يصير الشبه تاما.

ص 240 في الساعة 4 كنت على جانب ملوية. إنها في التقعير حيث كانت تسيل فيما مضى. سيكون الأمر كذلك من قصابي الشرفاء إلى أوطاط الحاج. هنا تملأ المزروعات دائما قعر الفندق الرملي. المزروعات ملك أولاد الخاوة هي من نصيب قرية البردجة مكان سكني زطاطي. اخترقت النهر الذي تحيط به أشجار كبيرة من الطرفاء ووصلت إلى القرية. هنا تركتب مرافقي الشاب. ركب أبوه الفرس ورافقني خلال ما تبقى من الطريق.

من البردجة إلى ميسور سرنا في وادي ملوية الذي كنت أراه منذ قليل. الوادي سهل مستوي السطح مثل مرآة دون أي تجعيد. السطح صلب. نصفهُ من رمال ونصفه الآخر من حصيم. في كثير من الأحيان لا حياة نباتية بتاتا. في بعض الأحيان دغل ضعيف من العنب البري. يمتد أمامي سهل ملوية إلى حيث لا نهاية. عند اليمين يمتد الخط الواضح للركام في البعد. عند اليسار تنتصب فوق رأسي الكتل الداكنة العالية التي يشرف عليها جبل أولاد علي. في الساعة 6 و30 دقيقة دخلت بساتين ميسور. وصلت إلى قصر بوكنزت ـــ حيث سلمني زطاطي إلى مرابط من أصدقائه ـــ سائرا في ممرات ملتوية تحيط بها سياجات نباتية أو أسوار من المقدار وسط آلاف أشجار الزيتون والتين والتفاح وأشجار مختلفة الأنواع ناشرة ظلالها على المزروعات. سأقضي الليل في هذا القصر.

لم أر إنسيا خلال الطريق إلا ما صادفت من بشر في الأماكن المأهولة حيث مررت : عند قصبة الشرفاء وفي قرية البردجة. في آخر اختراقي للنهر كان عرض ملوية 35م وكان عمقه 1,20م. كان تياره سريعا إلى حد ما وبه دائما نفس الماء، أصفر اللون لكنه ذو ذوق طيب. باستثناء هذا النهر لم اخترق إلا مجريي ماء ذوي أهمية ما : واد ويزرت (8م عرضا، 30–40سم عمقا، ماء صاف ذو لون أخضر، تيار سريع) ونهر يرتمي بملوية مباشرة سافلة قرية البردجة (سرير جاف من رمال، 100م عرضا، تجري على جوانبه قناتان مملؤتان ماء).

ميسور جزيرة صغيرة من الخضرة عند مقرن واد صوف الشركَ وملوية. الجزء الأكبر من نوع الواحة هذه يوجد على الضفة اليمنى لواد صوف الشركَ. تكون الأشجار المثمرة كتلة كثيفة تظلل المزروعات وتحيط بنحو 10 قصور. إنها غابة

من زيتون ــ تنتج زيتا جيدا ــ ومن أشجار التفاح ــ تصدر فواكهها إلى فاس ــ ومن الرمان والتين. تضفي هذه الأشجار الجميلة على هذا المكان المظهر الأكثر بشاشة. تسقي الباستين عدة قنوات انطلاقا من واد الشركَ. لازال عرض مياه هذه الأخيرة 20م وعمقها 50سم في عالية المزروعات. مياهه صافية جارية تسيل في سرير من الحصيم دون أصواح عرضه 60سم.

بنايات ميسور من المقدار وهي من النوع العادي، لا توجد لا تيغرمتين ولا أبراج ولا زخرفة.

لا يتغير الملبس باستثناء زينة الرأس : لم يعد وجود لفتيل الحرير الذي كان يحيط بالرأس، والملاحظ بداية التداول للشريط على الطريقة الجزائرية من شعر الإبل الذي يمسك بالحائك على الرأس فوق العمامة البيضاء. يسجل السلاح تغيرات انطلاقا من قصبة الشرفاء.

241 انطلاقا من هنا لا يوجد الجراب المصنوع من الجلد الفيلالي لحمل غبرة البارود ولا خنجر معقوف ــ عوض الجراب بوعاء من الخشب مثل المتداول في فاس وتازا وعوض الخنجر المعقوف بخنجر مستقيم طويل شيئا ما وهو المستعمل أيضا بنواحي فاس. إذن يحمل الشخص بندقية قصيرة على العموم (تتداول عدة بندقيات ذات طلقتين أو ذات كبسولة الاشتعال من صنع فرنسي، وأيضا عدة بندقيات من صنع أوربي وذات القداحة فقط) وخنجر مستقيم ووعاء للبارود، وفي كثير من الأحيان سيف ومسدس. يوجد عدد كبير من نوع هذه المسدسات ذات كبسولة الاشتعال.

تركت بلاد المخزن عند دخولي ميسور. أولاد الخاوة، الذين سرت عبر أراضيهم خلال الجزء الأكبر من هذا اليوم خاضعون للسلطان، إلا أنه خضوع ضعيف عمليا إذ ينحصر في تقديم ضريبة ضئيلة بين يدي قايد قصابي الشرفاء إضافة إلى كون القبيلة تسير شؤونها حسب إرادتها. لا يمكن التجول عبر أراضي أولاد الخاواه إلا بمعية زطاط رغم كونها موجودة ضمن بلاد المخزن الذي ينتهي عند ميسور. هذه المقاطعة مستقلة : انطلاقا من هنا سأدخل أراضي أولاد الحاج، القبيلة الكبيرة التي هي أيضا مستقلة. لن أغادر بلاد السيبة إلا بجوار دبدو.

يتكون نصف ساكنة ميسور من المرابطين ونصفهم الآخر من العرب كل

واحد من القصور مستقل لا تربطه أية علاقة بالقصور المجاورة له. لا تعترف ميسور بتاتا بسلطة المخزن : يذهب بعض المرابطين كل سنة إلى فاس في زيارة لتقديم ولائهم للسلطان ويحملون إليه الهدايا ويتلقون في المقابل هدايا أكثر أهمية ويرجعون إلى مساكنهم : تبقى هذه الأمور تصرفات شخصية.

حدث تغير مهم عند مغادرتي قصابي الشرفا : إنه يتعلق باللغة في حوض زيز ؛ عند أيت أوفلاً كانت تامزيغت اللغة الوحيدة في قصابي الشرفاء يتكلم البعض تامزيغت ويتكلم البعض الآخر العربية. كان كلا اللسانين متداولا. عند دخولي أرض أولاد الخاوة لا تستعمل إلا اللغة العربية. هذه اللغة هي الوحيدة المستعملة في ميسور وأراضي أولاد الحاج.

أولاد الخاوة فخدة من هذه القبيلة إلا أنهم منفصلون عنهم سياسيا كما هو الأمر بالنسبة لأيت أوفلاً وأيت إزدكَ.

9 ماي

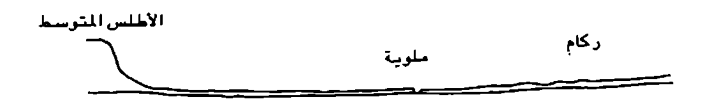
اتفقت البارحة مساء مع المرابط مضيفي على أن يكون هو زطاطي حتى أوطاط أولاد الحاج. ذهبت رفقته على الساعة 6 صباحا. عند الانطلاقة انضافت إلينا قافلة صغيرة سترافقنا خلال السفر. تتكون هذه القافلة من 6 رجال مسلحين و 4 نساء : هؤلاء الأخيرات من الشريفات وكن مسافرات على ظهر حمير أو بغال.

سيكون طريق اليوم في نفس السهل الذي دخلت فيه البارحة. يبقى السهل واسعا جدا ولو أنه سيضيق كلما سرنا في اتجاه الشمال ؛ لازال خاليا دائما ولا يميز البصر فيه أي مكان مأهول : يوجد عدد كبير من الأماكن المسكونة عند قعر الخندق الذي يجري فيه نهر ملوية، وعندما تكون هذه الأماكن قليلة تفصل بينها فرجات كبيرة فإنها لا تظهر على سطح السهل وتبقى مستترة عند حافات النهر. لا أثر للحياة البشرية أو للحرث من ميسور إلى اوطاط الحاج في هذا الوادي الشاسع، هذه المنطقة أكثر ما يمكن أن يرى المرء من أرض عارية قاحلة. السطر رملي صلب ويمكن أن يتخذ في بعض الأحيان مظهر الحمإ Vase المجفف. في بعض الجهات ينتشر الحصيم فوق هذا السطح. ص 242

تنحصر الحياة النباتية في بعض باقات من الصعتر وفي أدغال نادرة من العنب

البري. صادفت الخضرة عند نقطة واحدة ـــ في ربع الطريق بين توكَور وأوطاط الحاج ـــ : وزال أبيض وعنب بري والبطم في كل مكان. تدوم هذه الحالة قليلا من الزمن : يصبح السهل عاريا كما كان من قبل على رأس كيلومترين. تبقى إبط الوادي كما كانت علي البارحة حتى الوصول : جدار عال داكن يتوِّجه الثلج يسارا، خط أبيض ناعم لا يكاد يبصر يمينا. عند منتصف العقبة بين الأول والثاني، تبدو بقع خضراء، على فترات بعيدة. إنها مجموعة قصور وبساتين منتشرة على المنحدرات. لأوطاط الحاج نفس مظهر ميسور. مثل ميسور إنه خط أخضر يحد جزءا من السهل. هكذا كانت تبدو تدغة من بعيد. هكذا كان يبدو غريس من بعيد. هكذا كانت تبدو من بعيد جميع الواحات التي رأيتها. لا تتعذر إلا التمور حتى يكون التشابه تماما كما كان عليه الأمر في ميسور. توقفت عن السير في الساعة 5 مساء في ملاح أوطاط الحاج.

لم أصادف أي بشر خلال الطريق كما لم اخترق أي مجرى مائي مهم بعد واد صوف الشركَ. يقل الماء في السهل. مررت قرب عدة ينابيع ورأيت عددا كبيرا من الجداول المائية. أكثرية أسرة هذه الجداول ـــ المكونة من صخور بيضاء أو من الدماليك ـــ غير عميقة وبها مستنقعات. نزلت لحظة إلى خندق ملوية. نصف سطحه رمال ونصفه الآخر حصيم. كان الخندق مقفرا وكان به عدد كبير من أشجار الطرفاء ينمو تحتها الخضير : خلال فترة ما وجدت فرجة داخل هذه الغابة. غطى القعر المزروعات التي نصبت وسطها الخيام ودور فقيرة وأكواخ. كل هذه المساكن متجمعة حول قبة : إنه دوار توكَرت.



اليوم تمكنت من تمييز شكل الركام ولو أنه كان بعيدا : إنه ليس كتلة بتاتا لكنه مدرج ناعم يزداد علوه بطريقة غير ملموسة ويوصل إلى هضبة تتوجه : كما لو كانت مجموعة أضلاع ضعيفة تتابع درجات درجات تفصل بينها هضاب إحداها تلو الأخرى، العرف قليل الارتفاع عند القدم ولو أنه يبدو بعيدا عن القدم. الكل ذو لون ناصع دون أشجار ويبدو رمليا.

10–11 ماي

ص 243 إقامة في أوطاط الحاج. يدل هذا الاسم على جُزيْرة خضراء وسط السهل عند مقرن نهر ملوية وواد شكَ الأرض. توجد هذه الجزيرة كلها على جوانب واد شكَ الأرض وأكبر جزء منها يوجد على الضفة اليمنى لهذا الواد. كل ما قيل حول ميسور يمكن أن يقال أيضا في حق أوطاط الحاج. نفس وفرة الأشجار المثمرة. نفس الرخاء. نفس المظهر البشوش. إلا أن أوطاط الحاج أكبر مساحة من ميسور. ينتشر وسط روضاتها الغناء 31 قصرا هي لأولاد الحاج وضمن هذا العدد من المنشآت السكانية عدة زوايا.

أولاد الحاج قبيلة كبيرة مستقلة. يقولون إنهم ينحدرون من أصل عربي. يسكنون القصور والخيام : يتوزعون إذن بين مستقرين ورحّل. يستقرون على ضفتي ملوية ووسط السهل حيث يسيل هذا النهر انطلاقا من قصابي الشرفاء إلى قصر أولاد حامد، وينتشرون أيضا في كتلة الركام وفي جزء من أطوار دبدو. القصور التي يسكنها الشلوح والموجودة على السفح الأيسر لملوية لهم أو هي مرتبطة بهم عن طريق حلف الذبائح. أولاد الخاوة، إحدى فخداتهم، مستقلة عن باقي القبيلة. منذ زمن انفصلوا عنهم فهم يُحسبون سياسيا على أيت إزدكَ. وضعت فخدة أولاد الخاوة نفسها تحت سلطة قايد قصابي الشرفاء منذ بضع سنوات.

كانت قبيلة أولاد الحاج حتى 1882 تعترف بنفوذ السلطان. وكان لهم قايد منتخب من بينهم ومعترف به من طرف السلطان. منذ 5 سنوات ذهب هذا القايد إلى فاس. حدث أن وشى به أحد أبناء عمومته عند مولاي الحسن فسجن القايد صحبة شخصية معروفة في القبيلة. رجع الواشي إلى القبيلة وتقلد المنصب. وافق السلطان على هذه الوضعية. كان القايد الجديد من فخدة أولاد عبد الكريم. قتل القايد الجديد ناس من أهل الطوال. منذ هذا الحادث والقبيلة بدون قايد ولم تعد تعترف بسلطة مولاي الحسن، إذ كل قبيلة تسير أمورها كيفما شاءت — باستثناء 3 فخدات هي بني غريس وأهل الراشدة وأولاد عامر الخاضعة لسلطة قايد تازا. ليست باقي الفخدات مستقلة فقط بل هي في عداء معلن مع المخزن. هكذا لا يمكن لأي شخص من أولاد الحاج التجوال في بلاد المخزن باستثناء أفراد القبائل الثلاث السالفة الذكر.

2 ــ من أوطاط أولاد الحاج إلى دبدو

12 ماي

اتفقت بالأمس مع زطاطة سيقودونني من هنا إلى دبدو. إنهم 3 رجال من أولاد الحاج من فرع الهموزيين. سيتقاضون أجرتهم بعد العودة. سيؤديها لهم يوسف العسري من يهود أوطاط الحاج. سلمته الدراهم المتفق عليها بين يديه بحضور الزطاطة الثلاثة. سيسلمهم النقود حينما يعودون إليه برسالة يسلمها لهم ابنه الشاب الذي يدرس بدبدو يشهد فيها أنني وصلت إلى هذا المكان في ظروف حسنة. 24

سيأخذني خفري اليوم في الساعة 4 صباحا. انضاف إلينا 3 يهود فقراء أثناء الانطلاقة. اخترقت قافلتنا الصغيرة واد شكَ الأرض عند حائط الملاح ثم دلفت وسط مغروسات الزيتون، وعما قليل ستأخذ المغروسات محل الحقول. جزء من هذه الأخيرة محروث وجزؤها الآخر في حالة بور. في الساعة 4 و25 دقيقة قطعت آخر القنوات التي تسقي هذه الحقول وهاأنا ذا في القفر من جديد. إنه دائما السهل المنبسط العاري ذو السطح من رمل صلب حيث تنتشر الحصى دون أي غطاء نباتي إلا شيء من الصعتر والعنب البري الموجود على فترات طويلة. هكذا كان السهل عند البردجة، هكذا كان أيضا عند ميسور وهو هكذا، ولا يوجد إلا فارق واحد بين هذه الحالات إذ هو أقل اتساعا هنا.

خلال الطريق لاحظت، عن يميني، جُزيْرة كبيرة من الخضرة ــ إنه العرزان ــ وتحيط الأشجار التي أميز بمجموعة قصور لأولاد الحاج. اخترقت، خلال بعض دقائق، حقولا ملكا لهم أيضا. في الساعة 6 وصلت إلى ضفاف ملوية. يسيل النهر على مستوى السهل. لا أثر للخندق حيث كنت رأيته يسيل حتى الآن. يفصله عن سطح واديه صوحان رمليان ذوا انحدار منتظم من 5/1 علوها 3م. عرض السرير 120م يحتل الماء منه 35−40م الباقي منه تارة عار وتارة أخرى تكسوه مراع مسيجة والطرفاء. يوجد هنا مقطع حيث اخترقت النهر. عرض هذا المقطع 50م وعمقه 1,20م وله تيار سريع. للمياه نفس اللون الأصفر الذي رأيتها عليه انطلاقا من قصابي الشرفاء. هنا اخترقت ملوية للمرة الأخيرة : غادرت منطقة ملوية بصفة نهائية.

سرت دائما في الوادي. إنه دائما مستوي السطح، مقفر ورملي. لا يشعر المرء بوجود الحصى على السطح الذي أصبح ناعما. يبقى السهل في أكبر أجزائه عاريا ولا تنبت فيه إلا بعض بقع العشب. أرى رفوفا من القطات وهي الرفوف الأولى التي أراها في المغرب. في الساعة 8 مررت قريبا من تيبساف، سياج طري من أشجار يحجب عن البصر عدة قصور تحت ظلاله. على مسافة ما من هنا تتغير طبيعة السطح. يصير متموجا بعد أن كان منتظما. تختلط فيه الحجارة بالرمال : إنها بداية الركام. سرت فيه حتى المساء. سوف يبقى كما هو عليه من الآن : مجموعة تموجات خفيفة، أضلاع ودرجات متدرجة تهيء الانتقال إلى السهل دون الشعور بهذا التغير في الطبغرافية. تكون هذه الدرجات المتتالية مدرجا Rampe واسعا قليل العلو قمته هضبة ممتدة في الأفق. سطح تارة من رمال وتارة أخرى من صخور صفراء ناصعة. تنبت باقات من الحلفاء هنا وهناك، في هذا السطح : هذا هو الغطاء النباتي الوحيد الذي يظهر هنا.

كنت أسير هكذا عندما حدث طارئ كاد أن يضع حدا لسفري : كان أحد زطاطي الثلاثة، واسمه بلقاسم، رجلا مستقيما. أما الآخران فلم يقترحا نفسيهما لخفري إلا رغبة في نهبي. اعتبارا لنظافة ثيابي وجودة حالة بهيمتي فقد تخيلا ــ حسب أقوال يهود أولاد الحاج ــ أنني أحمل كميات من الذهب.

ص 245 لم يبد أي شيء من أفكارهم هذه في البداية. في الساعة 12 و30 دقيقة بينما كنت أسير في مقدمة القافلة مسجلا ملاحظاتي شعرت، بغتة، أنني جذبت إلى الوراء والقي بي على الأرض، ثم وضع اسكيمي على وجهي وشرع الزطاطان الاثنان في تفتيشي. كان أحدهما يقبض بي بينما كان الآخر يفتشني بصفة منتظمة.

أمام هذه الحالة أسرع بلقاسم إلى إنقاذي : أشهر بندقيته. هدد الآخرين. حاول منع النهب لكنه كان عاجزا عن إيقاف تصرفات صاحبيه. كل ما استطاع القيام به هو وضع شخصي تحت حمايته. أعادني حريتي وعاين، والدموع تملأ عينيه، افتضاض حقائبي. لقد أخذ الاثنان مني كل ما لدي. ثم بدءا في تفتيش أمتعتي. كانت خفيفة الوزن: لم يجدا فيها شيئا ذا قيمة. استولى الزطاطايان الاثنان على ما كان معي من نقود (دراهم معدودة) وأشياء أخرى بدت لهما ذات قيمة وتركا الأشياء الثمينة بالنسبة إلي ــ وكأنها لم تكن صالحة لأي شيء ــ : سجلات ملاحظاتي ووسائل العمل في الميدان. ثم وضعاني ثانية فوق البهيمة. تابعنا

الطريق وبلقاسم حزين مكتئب لأنه شاهد الاعتداء على عنايته دون أن يستطيع القيام بأي شيء. كان ناهباي غير راضيين لأنهما لم يستطيعا الوصول إلى غايتهما واستغربا أنهما لم يجدا كمية مال أكبر مما وجداه ولائمين نفسيهما أنهما تركا لي الأشياء الوحيدة التي لم يستطيعا سلبها مني : حياتي وبهيمتي.

خلال ما تبقى من هذا اليوم وطوال اليوم التالي بأكمله تناقش الاثنان حول هذا الموضوع مستعجلين بقاسم أن يتخلى عني وإن يسمح لهما بقتلي حينها. عرضا عليه اقتراحات. ووعداه بحقه من الغنيمة. إلا أن بلقاسم لم يتخل بتاتا عن موقفه قائلا إنهما لن يقتلاني إلا إذا قتلاه هو أيضا. ثم حاول أن يرجعهما إلى الرشد. كيف سيتصرفان عند الرجوع إذا لم يحضرا لليهودي الغسري رسالة ابنه الشاهدة على وصولي سالما إلى دبدو ؟ ثم بعد شيوع خبر وفاتي سيحاول أن ينتقم هذا اليهودي الذي تعهد أمامه الزطاطان الغادران بإيصالي حيا إلى دبدو. فهو صاحب أحد الناس الأقوياء وهذا شخص من أولاد الحاج، من فخدة هي أكثر عددا من فخدتهما. ستحاربهما فخدة صاحب اليهودي وستقضي عليهما. لقد أنجاني هذا الاعتبار الأخير من موت محقق إضافة إلى الموقف الحازم والحذق الذي أظهره بلقاسم والمتمثل في تمديد النقاش.

عند الاقتراب من بني غريس اتفق الثلاثة على أنه لن يصيبني أذى وأنني سأرغم ؛ عند الاقتراب من دبو ؛ على بعث رسالة إلى الشاب اليهودي معلناً له وصولي وطالبا منه الرسالة التي عليه بعثها للإخبار بوصولي حياً إلى دبدو ومعلنا أن زطاطتي كانت في المستوى المنتظر. اتفق الثلاثة على هذا المخطط في اللحظة الأخيرة وكوسيلة أخيرة : إلى هذه اللحظة لم تتوقف المفاوضات وكنت أتابعها بجميع تفاصيلها. وضعية غريبة هذه التي يسمع المرء خلال يوم ونصف يوم عدداً قليلا من الناس مثل هذا العدد يتناقشون حول حياته وموته ولا يستطيع أن يقول أي شيء للدفاع عن نفسه. لم تكن هناك بتاتاً امكانية القيام بأي شيء. كنت أعزل. نعم ؛ كان لدي مسدس بين أمتعتي لكنه أخذ مني. وحتى لو كنت تمكنت من تناوله فما كان لينفعني بتاتاً : ما قدرة المرء وحيداً في القفار وسط قبيلة تعتبر كل أجنبي عدواً لها ؟ لم يكن هناك إلا اتخاذ موقف واحد : انه التأني. ولقد كان التأني في صالحي. لقد أحسن الربي مردوشي التصرف خلال المشاجرة : انه دافع عني.

ص 246 لكن ما كان عساه أن يصنع ؟ لقد هدد برأس سيف ثم أقصي من النقاش. أما خادمي واليهود الذين انصرفوا إلى القافلة فانهم هربوا إلى أبعد ما سمحت لهم قواهم بذلك و لم نرهم إلا بعد أن استأنفنا السير.

بعد هذا الحادث واصلنا الطريق. فتابعنا سيرنا في الركام حتى المساء. في الساعة 5 وصلنا عند عرف وعلى مقربة من أقدامنا كان ينفتح شعب ذو سفوح صخرية ووعرة. أوصلنا طريق وعر إلى قعره. عرض الشعب لا يتعدى 30 م سرنا فيه خلال مدة من الزمن. توقفنا عن السير في الساعة 4 و 15 دقيقة. نوجد تقريبا في نهاية الشعب. على بعد بضعة أقدام من هنا تندثر منحدراته فجأة ويدخل الجدول السهل. احتمينا في جوف صخرة حيث قضينا الليلة.

طوال النهار كله لم أصادف أحداً في الطريق. لم أخترق الا مجرى مائياً ذا أهمية لم يكن يسيل في الركام باستثناء نهر ملوية وواد شكَ الأرض. في النقطة التي عبرته فيها كانت توجد عند ضفته قبة ضريح وقرية وما يقرب من 10 أشجار من النخيل في سريره. عرض هذا الأخير 20 م نصفه من رمال ونصفه الآخر من صخور ورقارق ماء جاري عرضه 2 م يتلوى داخله متجولا تحت ظلال الدفلى.



رأس الركام أكمة منعزلة علوها ما بين 30 و 40 م نصفها من رمال ونصفها الآخر من صخور صفراء كما هي عليه الكتلة برمتها : انها العارض التضاريسي الوحيد في الركام، وهي ترى من بعيد رغم ضعف علوها. كنت أرى هذه الأكمة انطلاقا من أولاد الخاوة قبل الوصول إلى البردجة. خلال نهاية النهار كانت أمام بصري كتلة من جبال رمادية سأسلكها غدا. توجد وراء هذه الكتلة دبدو. طوال النهار كله كنت أرى دائما وادي ملوية. يبقى الوادي كما كان عليه فيما مضى حتى اللحظة الأخيرة مع هذا الفارق فانه يضيق أكثر فأكثر. يحد إبطه الأيمن دائما

الأطلس المتوسط الذي بدأ تراجع ارتفاعه ابتداء من طور ركَو رغم بقائه دائماً عالياً. طور ركَو هو التضاريس الأخيرة التي تكسو قمتها الثلوج. لم يعد أثر للثلوج شرق هذه القمة.

13 ماي

247 الذهاب في الساعة 4 صباحاً. ينطلق من هنا طريقان في اتجاه دبدو : أحدهما يتبع السهل عبر وادي ملوية والآخر يسلك الجبل عبر اطوار دبدو ــ هذا الطريق يكوّن الإبط الأيمن لهذا الجبل. اتبعت طريق الجبل لأن طريق السهل ذو أخطار لكون فخذة زطاطيي في شجار مع قصر الرشيدة الذي تمر الطريق قربه. تابعت السير في الركام قاصداً الكتلة المنتصبة أمامي : وصلت عند قدم الكتلة في الساعة 8 صباحاً. تسلقت مدرجاً طويلا ووعراً تخدده الأودية وتنتشر فيه التلال دون انحدارات صعبة. السطح محجوجر وفي كثير من الأحيان صخري. تكسو الحلفاء أكبر جزء منه. به شيء من الأشجار قليلة العدد في البداية وأكثر فأكثر عدداً كلما تقدمنا في الصعود. وصلت إلى القمة عند الظهر. أصبح الميدان منتظم السطح. ننفذ إلى هضبة شاسعة تكسوها غابة كثيفة تتكون من أشجار طويلة القامة من عرعار وتقة وكريش يبلغ علو الواحدة منها مابين 6 و 8 م تسمى هذه الهضبة المشجوجرة المتوجة السلسلة الجبلية كَعدة دبدو وتعرف في المنطقة بالكَعدة فقط. سطحها مستو. إنه تارة من صخور وتارة أخرى من تربة. كثير من الماء : عيون وأنقاع تحت الأشجار والسطح زربية من العشب الأخضر والطحلب. توجد منفرجات داخل هذه الغابة. إنها قليلة العدد ويكسو بعضها العشب الأخضر. اخترقت بعض هذه المنفرجات وهي محروثة جزئيا وتوجد في ملكية سكان قصر الرشيدة. يوجد القصر على مسافة قليلة في اتجاه الغرب في الظهر الغربي للهضبة.

سرت دائما في هذه الغابة ــ احدى أجمل الغابات التي رأيتها في المغرب ــ حتى الساعة 3. وصلت إلى عرف في هذه الساعة : عند قدمي نحت واد عميق تكسو المزروعات منحدراته الداخلية وأجزاؤه العليا صخرية ومشجوجرة. يجري سيل. إنه واد بني غييس الذي يوجد منطلقه هنا. غادرت الهضبة ونزلت في اتجاه قعر الشعب عبر طريق مستطيل ووعر. بلغت قعر الشعب في الساعة 4 و 30

دقيقة عند اولاد ابن الخول احدى قرى بني غييس. توقفت في الساعة 5 و 15 دقيقة عند أحد أصدقاء بلقاسم الذي أسرع إلى وضعي بمأمن في منزل هذا الصديق.

سير اليوم كان كله في القفر : لابشر في الطريق. المجرى المائي الوحيد الذي رأيته هو واد غييس الذي اخترقته منذ 5 دقائق قبل توقفي عن السير. كان عرضه 3 م وعمقه 25 سم وتياره صاخباً : انه سيل يقفز فوق سرير من صخور وحجارة كبيرة.

أولاد ابن الخول قرية كبيرة فخدة من بني غييس. ليس لقعر الشعب حيث يوجد القصر اتساع. تكسو المنازل أصواح الشعب في اتجاه أسفلها ثم المزروعات التي يتداخل فيما بينها الصبار وفي الجزء الأعلى الأشجار. ترعى في هذا الجزء من المحاط قطعان كثيرة من الماعز.

ص 248 جوانب السفوح جد وعرة عند القمة ومستقيمة انطلاقا من قدمها. تشبه مساكن بني غييس مساكن غياثة : إنها من المقدار وقليلة الارتفاع جداً وسيئة الإنجاز. بني غييس إحدى فخدات أولاد الحاج وهي خاضعة للسلطان.

14 ماي.

لا يمكن لأفراد الخفر الهموزيين أن يتعدوا أراضي أولاد الخول لكون مجموعتهم في نزاع مع قبائل جوار دبدو. عهد بي بلقاسم إلى مضيفي وإلى 3 من أصحابه لإتمام ما بقي من الطريق. اثنان من أصحابه نصحهما كثيراً ألا يتركاني أدخل دبدو إلا بعد أن يتوصلوا بالرسالة المتفق عليها.

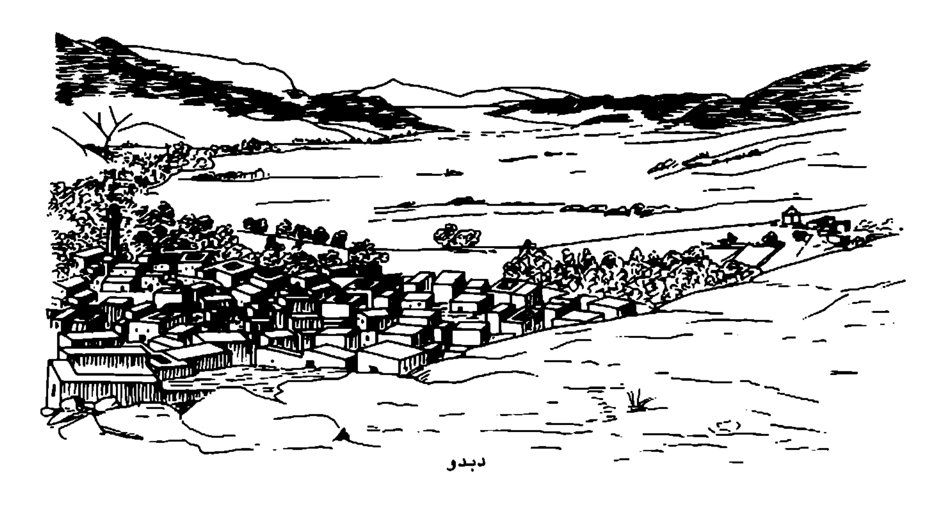
الذهاب في الساعة 6 صباحاً. سرت في اتجاه سافلة واد بني غييس. واديه كما كان عليه البارحة. تكسوه الحقول في الأسفل ؛ تنتصب فيه الصخور وهي مشجرة في اتجاه القمة. بعد ربع ساعة من السير وصلت إلى مقرن واد بني غييس وواد أولاد عثمان وهو مجرى مائي من نفس قوة واد بني غييس. سرت في هذا الوادي الجديد باتجاه العالية. هذا الوادي شبيه بالوادي الذي غادرته إلا أنه أكثر اتساعاً منه في البداية. سرت في قعره لمدة من الزمن. وبعد قليل يضيق ويصير في الأخير شعباً ضيقاً وصخرياً لا أثر فيه للمزروعات ومشجوجراً منذ سرير السيل حتى نهاية الأصواح. غادرت حينئذ هذا الشعب.

تسلقت صوحه الأيمن. الصعود صعب جداً بين جلاميد صخرية كبيرة. في الساعة 8 و 30 دقيقة وصلت إلى القمة، تابعت السير تحت الأشجار. تشبه الغابات التي أراها هذا الصباح ــ بجميع تفاصيلها ــ الغابات التي عبرتها البارحة. هذه الغابة جزء من الكَعدة.

في الساعة 8 و 45 دقيقة ظهرت دبدو. مدينة صغيرة تشرف عليها مئذنتها. تنثر دبدو تحت أقدامي منازلها الوردية في قعر واد أخضر. تنتشر حواليها المراعي والبساتين. في الأعلى ترتفع جدران عالية من الصخور قممها مشجوجرة تتوجها الكَعدة. نزلت إلى هذا المكان المبتسم الذي يوصل إليه طريق صعب ؛ مستقيم وشاق. في الساعة 10 كنت في دبدو. لم يفهم زطاطي ؛ الذين لم يطلعوا على أسرار وتفاصيل المغامرة ؛ أي شيء من نصائح الهموزيين. عند وصولنا إلى دبدو سمحوا لي بدخول المدينة مباشرة.

صادفت كثيراً من الناس خلال الطريق. كان عرض واد أولاد عثمان ؛ المجرى المائي الوحيد الذي اخترقته ؛ 3 م وعمقه 25 سم وبه ماء صاف وجار.

24 توجد دبدو في موضع عذب ؛ عند الصوح الأيمن للوادي. يرتفع هذا الصوح جداراً مستقيماً علوه 80 م فوق مستوى السطح ؛ مكونا حائطاً عالياً من صخر أصفر ذي ألوان ذهبية تحزه أوراق المتسلقات الداكنة. توجد هضبة في القمة وبها قصبة قديمة مرتفعة بجلال ؛ على شفا الهوة ؛ أبراجها سائرة في الانهيار ومئذنتها الشامخة فيما بعد الهضبة ؛ ترتفع حتى نهاية الإبط مجموعة جدران مستقيمة وحافات وعرة. هنا على علو 500 م فوق مستوى دبدو يبرز عرف طويل تُتوِّجه الأشجار. إنها الكَعدة. جداول ماء ؛ مندفعة من قمة الجبل ؛ تقفز على شكل شلالات عالية على طول هذه الجدران الشديدة الانحدار وتكسو زرداثها الفضية وجه هذه الجدران. لا شيء يمكن أن يعبر عن جمال هذا المشهد. تحيط بدبدو بساتين غناء من كروم وزيتون وتين و رمان وخوخ فتكون أجمات كثيفة قرب المدينة وفيما وراءها ممتدة على جوانب الواد في شكل شريط داكن. تكسو باقي الوادي المروج وحقول شعير وقمح مسترسلة حتى المنحدرات الأولى من الإبط.



دبدو

تتكون البليدة من قرابة 400 مسكن مبني من المقدار ذي التريت العادي. تتكون المساكن من طابق سفلي به فناء داخلي صغير وطابق آخر كما هو عليه الأمر في تلمسان. يوجد الطابق السفلي وعدد من الفناءات تحت مستوى الأرض. الأزقة ضيقة ولكن ليست بالدرجة التي هي عليها الأزقة بالقصور. لا توجد بتاتاً جدران للتسوير. تحصل البليدة على الماء من عدد كبير من العيون مياهها عذبة وباردة طول السنة. تنبع إحدى هذه العيون في الجهة السفلى من دبدو ؛ عند حدود البساتين. تكثر المياه بجوار دبدو. لقصبة دبدو ؛ الحصن القديم الذي يشرف على المدينة ؛ عدد كبير من العيون.

دبدو خاضعة للسلطان كما هو شأن ساكنة الوادي. تعرف هذه الأماكن المختلفة باسم أهل دبدو. لا قايد بتاتاً ولا شيخ ولا مؤتمن على السلطة بل تسير المنطقة شؤونها بنفسها. كل سنة ؛ قايد تازا الذي تخضع المقاطعة لسلطته ؛ أو أحد خلفائه ؛ يقوم بجولة بالمنطقة. فينظر في المشاكل المطروحة ويجمع الضرائب. تمثل ساكنة دبدو ظاهرة غريبة في المغرب : يكون اليهود 2/3 ساكنتها ضمن قرابة 2000 نسمة. عدد اليهود 1500 فرد. انها البليدة الوحيدة في المغرب التي يفوق فيها عدد اليهود عدد المسلمين. ص 250

دبدو هو أول مكان صادفته في المغرب يتعاطى التجارة مع الجزائر. توجد حركة تجارية مستمرة بين هذه المدينة الصغيرة وتلمسان. يجلب التجار اليهود من هذه المدينة البضائع المستوردة من أماكن أخرى من العواصم المغربية أو من المدن

الشاطئية. يختزن التجار اليهود البضائع عندهم ويبيعونها قسطاً قسطاً في عين المكان أو في الأسواق المجاورة. لدبدو بعض العلاقات التجارية مع مدينتي فاس ومليلية إلا أن علاقاتها الوحيدة ذات الأهمية هي التي تربطها مع الجزائر. وسوف يكون الأمر نفسه بالنسبة للمراكز التي أعبر بها منذ الآن ـــ أعني قصبة العيون ومدينة وجدة.

تربي دبدو وكتلة الجبال التي تحمل اسمها قطعاناً كبيرة من الماعز والأبقار وبغال ممتازة جنسها مشهور.

3 ـــ من دبدو إلى للامغنية

وصلت إلى دبدو وقد سلبت مني جميع أموالي و لم أعد أملك ولا قرشاً واحداً. كان من الممكن أن أكون مرتبكاً لو لم أكن قرب الحدود. إلا أنه من حسن الحظ لم أكن إلا على بعد 3 أو 4 أيام سيراً من للا مغنية، إذن بعت بغالي و ما حصلت عليه من هذه العملية وفر لي من المال ما يسمح لي بالوصول إلى الحدود الفرنسية بواسطة كراء بهائم.

18 ماي

استأنفت السفر ضمن قافلة وافرة الأفراد من يهود ذاهبين إلى سوق اثنين واد زا. وصلنا إلى دار الشاوي حيث يقام السوق. سرنا اليوم في اتجاه قصبة مولاي اسماعيل على جانب واد زا. تتكون القافلة من قرابة 30 يهودياً كلهم راكبون البغال. يحمي هذه القافلة 6 زطاطين راجلين ينتمون إلى قبيلة الكرارمة توصلوا بثمن الزطاطة المتفق عليه منذ البداية. ثمن الزطاطة كمية معلومة من المال لكل يهودي ولكل بغل ولكل حمار.

الذهاب في الساعة 9 صباحاً. سرت في اتجاه سافلة واد دبدو. سطح الوادي مترب تتخلله بعض الحجارة. يبقى الوادي كما كان عليه عند الانطلاقة لكن تقل فيه المزروعات. عما قليل لا تحتل المزروعات الا بجزء صغير من القعر وتكسو الجزء الباقي أحراش ذات قامة عالية هنا وهناك تبرز بين هذه الأحراش أشجار

كبيرة. على الساعة 10 و 30 دقيقة كنت أوجد عند نهاية الوادي. وصلت إلى سهل تفرطة.

تفرطة مساحة شاسعة مقفرة مستوية السطح كوجه مرآة. سطح من رمال. في كثير من الأحيان تبقى هذه المنطقة عارية خلال عدة سنوات دون ان تحمل أية محصول فلاحي وبدون نبات. في الوقت الذي مررت فيه بها ؛ تنتشر في المنطقة نباتات طرية ؛ هنا وهناك ؛ نتيجة أمطار فصل الشتاء ؛ الشيء الذي يضفي عليها مظهراً مخضراً نادراً ما تتمتع به.

ص 251 عند نقطتين ؛ توجد ضايات أو معدر ؛ ذات تربة حمئية تتخللها غدائر وتكسوها أعشاب عالية. يمتد هذا السهل ؛ غرباً ؛ حتى ملوية. في اتجاه الغرب هذا ؛ يلمح البصر ؛ عند الأفق ؛ جبال غياثة والريف الزرقاء والمستوى الأسفل لجلز الذي تشرف عليه قمة جبل بني بو يحيى. حدود السهل هي كالتالي :

شرقاً : جبال رمادية على شكل نصف دائرة هي أقل ارتفاعا من جبل دبدو التي تنتمي إليه ؛ جنوباً : جبل دبدو الممتد حتى قصر الراشدة ؛ شمالا : قمتا مرج الشوم الرماديتان والخط الأبيض الذي سرت في اتجاهه.

اخترقت هذا الأخير في الساعة 8 و 30 دقيقة. انه كندة bourrelet كلسية قليلة العلو يخترقها المرء في بضع دقائق من المشي. من هنا انتقلت إلى سهل متموج ذي سطح مترب تتخلله الحجارة تكاد تكون عارية تنبت فيه نفس الأعشاب التي تنبت في صحراء طفراته إلا أنها قليلة ولا تحجب في أي مكان مظهر لون تربتها الصفراء. يبدو أن حدود هذه السهول الجنوبية هي مرج الشوم والقلب، شمالا وشرقا. سرت في هذا الاتجاه خلال ما تبقى من النهار.

في الساعة 5 و 50 دقيقة كنت عند قمة حافة في الأسفل ؛ عند قدمي ؛ يمتد وادي نهر الزه. تملؤ هذا الوادي المزروعات والبساتين والدواوير، الحافة قليلة الارتفاع وذات انحدار منتظم. تتكون الحافة نصفاً من الرمال والنصف الآخر من الحجارة (دماليك). قصدت قدمها ودخلت الوادي. وسط هذا الأخير تنتصب الأطلال الشامخة لقصبة قديمة شيدت على أكمة منعزلة. إنها قصبة مولاي اسماعيل معلنة أسوارها العالية الوردية وسط خلفية السطح الخضراء. سرت في اتجاه القصبة

ماشيا وسط حقول وأشجار مثمرة عابراً كل لحظة قنوات ماء صاف. وصلت إلى هذه القصبة في الساعة 6. إنها نهاية طريقي هذا اليوم.

لم أصادف أي إنسي خلال طريقي منذ دخولي منطقة تفرطة. اخترقت مجريين مائيين كانا الوحيدين اللذين لهما أهمية تذكر. إنهما واد دبدو (3 م عرضا ؛ 20 سم عمقا ؛ ماء جار وصاف في سرير من حصى. ليست له أصواح) وعين حمو (2 م من ماء جار في سرير عرضه 4 م متعمق بين صوحين من رمال علوهما 15 سم).

تحمل قصبة مولاي إسماعيل أيضا اسم توريرت. تعرف هذه القصبة محليا بهذا الاسم. شيدت القصبة فوق ربوة منعزلة في أحد أكواع واد الزاه. يتسع وادي هذا الأخير فيكون سهلا صغيرا. يساراً يحد هذا الوادي المدرج rampe الذي سلكته في اتجاه الوادي. يميناً تحده حافة وعرة. جزء هذه الحافة من رمال وجزؤها الآخر من صخور صفراء. علو هذه الحافة ما بين 60 إلى 80 م. يوفر قعر الوادي المظهر الأكثر طراوة والأكثر بشاشة. تكسو هذا القعر المزروعات وعدد كبير من غابات صغيرة من أشجار زيتون ورمان وتين. إنها بقع داكنة وسط هذا البساط الأخضر. ينتصب وسط الوادي حشد من الخيام الموزعة على شكل مجموعات صغيرة ؛ متوارية بين الخضرة لضفاف نهر الزاه ؛ في هذه المنطقة نفس المظهر إنها ذات ثروة قصوى. هذا الرخاء راجع إلى كثرة مياه النهر التي لا تجف أبداً إنه تفوق منطقة زا (تسمى جوانب النهر ببلاد زا) على دبدو وضواحيه حيث تجف جزئيا خلال فصول الصيف الشديدة الحرارة جدا العيون الجميلة التي شاهدتها. 252

يسور جدار من مقدار قصبة مولاي اسماعيل أو توريرت. هذا الجدار منهدم جزئيا ولا زالت أجزاء مهمة منه قائمة. الجدران الحسنة الإنجاز عالية سميكة، ذات درجات وتحصنها أبراج عالية متقاربة فيما بينها من نوع أبراج مكناس وقصبة تادلا واسعة فلم يعد بالإمكان الدفاع عن القصر مع الشقوق. في الوسط ؛ في قمة الأكمة التي تحيط بها جدران يصل علوها إلى نصف علو الأكمة ؛ تنتصب بناية مربعة الشكل من إنجار حديث يستعملها الكرارمة لخزن حبوبهم. تودع القبيلة نصف مدخراتها هنا. يمثل هذا النوع من الدار ؛ الحديثة التشييد ؛ السيئة البناء ؛ مفارقة مقارنة مع هالة العظمة التي توحي بها جدران القصبة القديمة.

الذهاب في الساعة 6 صباحا. سرت في اتجاه عالية واد الزاه. الوادي كما كان عند توريرت. تكسوه المزروعات ومأهول جداً. في الساعة 7 تبرز دار عند نهاية المدرج الذي يكون إبطها الأيسر. إنها دار الشاوي ؛ مقر القايد ابن الشاوي. انه شيخ وراثي وهو اليوم قايد الكرارمة القبيلة التي تمتلك هذا الجزء من بلاد الزاه. صعدت في اتجاه الدار. عند قدم جدران الدار ؛ على الهضبة التي تحتل جانبها ؛ يوجد سوق ؛ السوق الذي تقصده قافلة : إنه سوق اثنين الكرارمة. توقفت عنده. يميز، من هنا، وادي نهر الزاه، على مسافة ما، في اتجاه الجنوب ؛ حتى منعرج حيث لا تعود العين تبصره يحتفظ الوادي بنفس المظهر دائما مخضر، دائما مأهول.



السوق : حيث أوجد كثير الحركة عادة ؛ به قليل من الناس هذا اليوم. لم يتمكن سكان الضفة اليسرى لنهر ملوية من القدوم إلى السوق لكون النهر لا يمكن عبوره منذ عدة أيام. النهر كثير المياه دائما في هذا الفصل من السنة. الفصل فصل فيضان، سواء سقطت الأمطار أو لم تسقط فالمياه به كثيرة وصعبة أو مستحيلة الاختراق من منتصف شهر أبريل حتى منتصف شهر يونيه.

غادرت السوق في الساعة الواحدة. أخذت زطاطين — من الشلوح — سيقودانني إلى قصبة العيون حيث سأصل غدا. نزلت من جديد إلى وادي نهر الزاه. اخترقته واخترقت النهر أيضا ثم وصلت إلى الحافة التي تكون إبطه الأيمن. عند وصولي القمة وجدت نفسي في سهل رملي متموج. أوجد في خلاء انكَاد. سأبقى في هذا القفر حتى وصولي إلى للا مغنية. ص 253

سهل أنكَاد سهل شاسع تحده أنهار زا وملوية غرباً، وتحده المرتفعات التي تحد التفنة ؛ ويحده جبل بني ازناسن شمالا ؛ وجبال بني بو زكَو وزكاره المتممة لمرج الشوم جنوباً. السهل مكتمل الاستواء في الوسط ومتموج عند أطرافه

الشمالية والجنوبية وهذا بشكل أكثر وضوحا كلما اقتربنا من الجبال المحيطة به. سطح السهل من رمال ويصير صلباً عندما يكون جافاً ويصبح من حمإ زلق حيث يصبح السير صعباً فور تساقط الأمطار. السطح عار عادة لكن يكسو هذا القفر نبات وافر بعد فصول الشتاء الرطبة. هذه السنة وجه هذا القفر كله أخضر من كثرة العشب : إنها الفرجة الكبرى بالنسبة للقبائل الرحل التي تجد قطعانها، في هذه الظروف، ما تتغذى به بوفرة ــ بينما عليها أن تبحث عن المراعي في منطقة الظهرة في ظروف أخرى. قليلا ما تحدث مناسبة سعيدة مثل هذه التي تعرفها المنطقة هذه السنة : السهل في الفترة الحالية كان عارياً وعميقاً خلال السنوات الخمس الماضية. كانت المنطقة مساحة حزينة من رمال صفراء وما بها ولو شيء من العشب.

تحتل أنكَاد 3 قبائل هي المهاية وشدجة وأنكَاد. إضافة إلى هذا، تستبيح أنكَاد عدة قبائل جبلية، من بين تلك القبائل المستقرة في هوامش السهل، في بعض جهات حدوده : هكذا تملأ مجرى نهر مسكَمير مزروعات ودواوير في ملكية بني بو زكَو.

هذا السهل، حتى الحدود الفرنسية، خاضع للسلطان وهذه أيضا حالة الجبال التي تحد أنكَاد. نجد نفس الوضعية بالنسبة للأراضي التي اخترقتها انطلاقا من دبدو. اخضاع هذه الأصقاع تام وفعلي الا أنه لا يعود إلا إلى سنة 1876. إنه نتيجة حركة قام بها آنذاك مولاي الحسن فأوصلته حتى وجدة. قبل هذه الحركة كان الصقع غير طائع تقريباً.

سرت في قفر أنكَاد حتى الساعة 5 و 15 دقيقة. في هذه اللحظة وصلت إلى جانب نهر امسكَمير. اخترقته ووقفت عند ضفته اليمنى. توقفت في خيمة حيث سأقضي الليل.

كان خلال الطريق عدد كبير من المارين. كانوامثلي ؛ عائدين من السوق. رأيت عدداً قليلا من الأماكن المأهولة ؛ بعض دواوير بني بو زكَو. كانت هذه الدواوير صغيرة ؛ يتكون كل واحد منها من 6 أو 8 خيام الدواوير منعزلة بعضها عن بعض. كان سرير نهر زا ؛ في النقطة التي اخترقته فيها ؛ من رمال وعرضه 80م كانت تحتل المياه 20م منها. كان عمق المياه 80 سم. وكان تيارها سريعاً. انطلاقا من هذا النهر حتى نهر المسكَمير ؛ اخترقت مجاري مياه ليست ذات أهمية ؛

بها قليل من الماء على اثر الأمطار القليلة. كان عدد من هذه الأنهار صعب الاختراق. بسبب أصواح هذه المجاري الصعبة التي كان يصل علوها إلى 7 أو 8 م في كثير من الأحيان. كانت هذه الأصواح تجعل من هذه الأودية خوانق حقيقية في هذا السهل. عرض نهر امسكَمير 6 م. تحتل المياه 3 منها. يسيل النهر بين صوحين من 1/1 علوها 20 م. المكان من السرير حيث أوجد هو أعلى نقطة لبقعة المزروعات المحيطة به. لا توجد خيام فيما هو أعلى من هذا المكان. هنا وخلال طول المجرى المائي في اتجاه السافلة ؛ تكسو كلتا الضفتين الحقول والبساتين وأشجار كبيرة وخيام عديدة، بعضها منعزل وبعضها متجمع مثنى أو ثلاث. إنه شريط أخضر يتجلى تدريجياً داخل هذا القفر ترقشه نقط سوداء.

ص 254

كانت خيام منطقة زا من الفليج وخيام امسكَمير من حصير خشن. خيام كلها واسعة. لا وجود بتاتاً للدور في بلاد الزاه الا دار الشيخ ابن الشاوي. هناك دار واحدة على واد امسكَمير توجد على بعض خطوات من هنا. إنها إقامة قايد بني بو زكَو. هذا الأخير ؛ القايد حمان ؛ كان شيخَ القبيلة أن يعيّن قائدها من طرف السلطان. كان حمان أكبر نهاب الصقع قبل 1876. حالياً ؛ على العكس ؛ إنه ذو صرامة قصوى في حق السراق ويفرض النظام الأقسى في منطقة حكمه.

20 ماي.

الذهاب في الساعة 5 و 15 دقيقة. تابعت السير في قفر أنكَاد. وصلت في الساعة 11 صباحا إلى قصبة العيون. كان السير صعباً بسبب حالة الأرض التي بللتها أمطار حديثة التساقط. لم أصادف أحداً خلال الطريق. قطعت مجريي ماء هما واد متللي (عرض سريره 5 م، 1,5 م من الماء، أصواح من رمال علوها 12 م قيل لي ان هذا الواد يأخذ منبعه من جبل بني يعلى) ؛ وواد القصب (عرضه 25 م، سريره من دماليك ؛ جاف ؛ أصواح من رمال وعمودية ؛ علوها 15 م يأخذ منبعه من جبل بني يعلى و يرتمي في ملوية عند بني وكيل. أكد لي أحدهم أنه يتوصل بمياه انسكَمير عند ضفته اليمنى).

قصبة عيون سيدي ملوك، واسمها المتداول بين الناس هو العيون، ترتفع منعزلة وسط قفر أنكَاد. تظهر للمسافر بعض المزروعات وعدد ما من الدواوير الصغيرة

بالجوار هي لقبيلة اشجع، القصبة مكان مسوّر مستطيل الشكل. الجدران من المقدار. علو الأسوار من 4 إلى 5 م سمك الأسوار من 40 إلى 30 سم. لا وجود لدرجات أو أحواض ماء محيطة بالقصبة بتاتاً. توجد بداخل القصبة مساكن أكثريتها في حالة سيئة ؛ ما لها إلا طابق سفلي، وتكون مجموعات مساكن منفصلة بعضها عن بعض. تفصل بينها تارة ممرات واسعة وتارة أخرى ساحات. لاتوجد بالقصبة أزقة حقيقية بتاتاً ولا حتى تلك الأزقة الضيقة الموجودة في القصور. جدران عدد كبير من المنازل مطلى بالجير. حفرت وسط القصبة عدة آبار لتوفير الماء. للمنظر الداخلي للقصبة ما يذكر من بعيد بمنظر بعض الأحياء الداخلية لمدينة جيريفيل Géryville : نفس الطرق الواسعة ؛ نفس المنازل القليلة العلو ؛ نفس الساكنة المكونة من التجار الصغار. خارج السور ؛ في اتجاه الزاوية الشمالية الشرقية، توجد غابة صغيرة وفي وسطها قبة سيدي ملوك. تنبع عدة عيون بالضاحية موفرة ماء كثيراً وجيداً. تسمى هذه الينابيع بعيون سيدي ملوك ومن هنا جاءت تسمية القصبة. هذه القصبة قديمة لكنها كانت مهجورة وفي طريق الخراب خلال حركة مولاي الحسن سنة 1876. رممها هذا السلطان وأقام فيها حامية لازالت مقيمة بها إلى الآن. تتكون هذه الحامية من قرابة 100 جندي تحت قيادة أغا. القصبة إضافة إلى هذا، مقر الشيخ حامد الشركَي ؛ قايد قبيلة اشجع والرئيس الأعلى للحامية. يعيش خليفة القايد وبعض رجال المخزن داخل نفس القبة. باقي سكان القصبة تجار مسلمون ويهود قادمون من دبدو أو تلمسان، يبيعون بضائع أوروبية الصنع للجنود وللقبائل المجاورة.

يعتقد السلطان أن له 600 جندي نظامي تحت إمرة الآغا الحاج محمد. عمليا يتوفر فقط على 100 أو 150 بائس ما لهم من مواصفات الجنود إلا الاسم. يبعث السلطان كل شهر 5000 فرنك راتبا لهؤلاء الجنود. لا يتوصل الجنود بأي شيء من هذا المقدار من المال. الجنود عراة ويموتون جوعاً بينما يحتفظ الآغا وخلفاؤه بكل شيء.

تجارة قصبة العيون ذات أهمية. محلات البيع الموجودة داخلها ممونة بصفة مرضية. يقام كل أسبوع تحت أقدام جدران القصبة سوق ثلاثاء سيدي ملوك. تأتي خلال هذا اليوم ؛ القبائل المجاورة وقبائل الجبال والسهل ؛ يأتون جماعات ؛ حاملين الصوف والتليس tellis والفلج والزرابي والجلود ويقومون بتبادل هذه

المواد بمواد قادمة من الجزائر من منسوجات قطنية الخ.. يحقق تجار القصبة الصغار عمليات تجارية ممتازة خلال سنوات المحاصيل الفلاحية الجيدة. يبيع هؤلاء التجار ؛ وبكميات كبيرة، القهوة والمشروبات الروحية والخمور والشاي والسكر والكيف والمنسوجات القطنية والأواني الخزفية والكؤوس من الزجاج والشموع والبلاغي والعقادة والورق. يبيعون جميع هذه الأشياء للجنود وللقبائل المجاورة الغني بعضها جدا ــ كما هو حال بني ازناسن خاصة. عندما تكون الأرض عقيمة، عندما تقل الغلات، عندما تحدث المجاعات، يكون الرواج منعدما. هذا ما حدث خلال الفترات الأخيرة.

لقد سقط كثير من المطر خلال فصل ربيع السنة الحالية فيأمل الناس من هذه الأمطار محاصيل فلاحية ممتازة. افتقد الماء منذ 5 سنوات فكان الجفاف والجوع.

21 ماي.

إقامة في قصبة العيون. منعني من الذهاب مطر طوفاني تساقط منذ الأمس.

الناس جد متحمسين لأعمال الشريف الباهرة («الشريف» هو الاسم الذي يعطى للمهدي (السوداني) بالمغرب) والذي جعلته رعاية الله في مأمن من الجرح ومن الهزيمة. هو الذي أخرج المسيحيين من أرض مصر وهو الآن في طريق تونس. لقد وصلت عدة رسائل مبعوثة من طرفه إلى فاس وأمر السلطان بقراءتها في المساجد. مولاي الحسن الآن في مكناس. لقد أمر بتجنيد أعداد مهمة من الفرق : ‏ص 256
11 فرقة عسكرية هي الآن جاهزة. منها فرقتان قرب نهر سبو و 9 في منطقة سوس. قوام هذه الفرق العام 000 40 نفر. تتكون من وحدات اختير اعضاؤها من بين القبائل الأكثر جرأة عسكرية في مملكة مراكش وسوس. تجرى هذه التجهيزات ضد الفرنسيين. في شهر رمضان سيكون السلطان على رأس هذه الجيوش و إلى الأمام في اتجاه وجدة.

الجنود النظاميون ورجال مخزن القصبة هم الذين يقصون هذه الخرافات. إنهم يومنون بها، ويجعلهم توقع هذه الحرب يشمئزون من سماعها. تروج شائعات من هذا النوع مثيرة للسخرية وأكثر من هذا عبر طول المغرب وعرضه. في كل مكان من البلاد الأفكار منشغلة باحداث السودان المصري ؛ هذه الأحداث التي تتنامى بنسب خيالية عند اختراقها افريقيا. [حسب هذه الأخبار كما يحكى] في تيسنت ؛

في طاطة ؛ في سوس ان الشريف قضى على كل من هو مسيحي ـــ بعد غزوه مصر واستيلائه على طرابلس وتونس والجزائر. [وحسب نفس هذه الأخبار المتداولة] في وادي زيز فإن الشريف لم يكن في الجزائر ؛ إلا ان تونس كانت سقطت في قبضته وفر الفرنسيون أمامه بعد هزيمتهم. [وحسب نفس هذه الأخبار أيضاً حسب ما يقال] في دبدو فإنه كان في طرابلس. [وحسب نفس هذه الأخبار كذلك واستنادا إلى ما يشاع] في قصبة العيون وفي مدينة وجدة فإنه لم يكن غزا إلا مصر بما فيها القاهرة والاسكندرية.

يتتبع الكل بفضول هذه الأخبار في أي مكان من المغرب ؛ سواء في الجنوب أو هنا ؛ سواء بين أفراد قبيلة اده أو بلال أو في سهل سوس ونفس الشيء عند البرابر. فور وصولي إلى مكان ما ؛ أول سؤال يوجه إلي بصفتي أجنبيا : «أي أخبار عن الشريف ؟». لكن ؛ ان كان الناس يهتمون بالشريف فيبدو أنهم يهتمون به بهدوء وينتظرون بسعة خاطر أن يقدم إليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء استخدام السلاح لمساعدته.

خلاصة القول أن الشريف يثير كثيرا من الفضول ولكن في نفس الوقت يثير قليلا من الحماس وخاصة بين القبائل المستقلة. القبائل الخاضعة للمخزن عموماً أكثر ورعاً وأكثر ثقافة وأكثر تزمتاً من القبائل الأخرى وأقل منها انشغال بال بنزاعات الحياة اليومية مع الجيران ـــ تعطي هذه القبائل اهتماماً أكثر للأخبار الرائجة حول الشريف وقد تكون أكثر استعدادا للتحريض ضد المعتدين. هكذا كان حال الناس خلال سفري بالمغرب. لم يكن أي أحد يرغب في الجهاد لكن الجهل الذي تغذيه السياسة الوجلة للدول العظمى الأوربية كبير إلى حد أن كل شيء قابل للحدوث. رغم الهدوء الحالي يكفي أن ترفع راية الحرب إما من طرف السلطان أو من طرف الشيخ محمد العربي الدرقاوي ليصبح تجميع جيش قوامه 500 000 رجل خلال بضعة أيام أمراً قائماً. هذه المجموعة البشرية التي تحركها آمال النهب وليس الحس الديني ؛ قد تتلاشى بمناسبة أول هزيمة وقد يتضاعف عددها عند ربح أبسط معركة.

22 ماي

الذهاب في الساعة 5 و 30 دقيقة. أخذت من جديد طريقي عبر قفر أنكَاد ؛

سائراً وسط السهل وعن يميني وشمالي السلسلتان الجبليتان الرتيبتان. إنهما صفان طويلان من جبال رمادية ذات نفس العلو تقريباً، كلتاهما عاريتان مثل جميع الكتل التي رأيتها انطلاقا من جبل دبدو عند إبط جبل بني ازناسن تبدو عدة بقع سوداء : إنها قرى وبساتين. ص 257

لا يتغير المشهد. يبقى رملياً وتكسوه الأعشاب. بعد قصبة العيون تنتشر بعض الأشجار خلال 3 أو 4 كيلومترات. صادفت دواوير وعدة قطعان إبل وأغنام وماعز ومزروعات في بعض الأماكن. اغتنم أهل اشجه خير الأمطار التي أخصبت رمال أنكَاد منذ وقت فسارعوا إلى بذر بعض قطع من الأرض. يبقى سطح المنطقة مدة السير مستويا، وعند الاقتراب من وجدة فقط تغير مظهر القفر بسبب عارضين تضاريسيين. في اتجاه الشمال ؛ ضلع ذو انحدار منتظم مواز لجبل بني ازناسن، يسقط ظلاله أمام هذا الجبل وينتهي عند مجرى واد إسلي. في اتجاه الشرق ؛ ترى الكدية الخضراء الشهيرة ؛ مسرح معركة وادي إسلي. من بعيد تبدو على شكل حافة طويلة مخضرة ؛ قليلة الارتفاع وذات عرف منتظم جاعلة حدا لسهل أنكَاد بأجمعه انطلاقاً من جبل زكاره الذي ينفصل منه ويبقى متعامداً معه حتى الضلع الذي تحدثنا عنه سالفا. بين هذا الضلع والكدية الخضراء توجد ثغرة حيث يمر واد اسلي. وصلت إلى هذا النهر في الساعة 2 و 40 دقيقة. عرض النهر 12 م وعمقه 70 سم تياره سريع. سريره من دماليك كبيرة، تغمره المياه بأجمعه. يسيل النهر داخل صوحين من رمال من 1/1 علوها 8 م يسيل النهر عند قدم الكدية الخضراء نفسها. تمتزج ضفته اليمنى مع السفح الغربي لهذه المرتفعات. بدأت الصعود عند الخروج من الوادي : سرت في منحدر côte douce منتظم ؛ خليط من تراب وأحجار، في الساعة 2 و 30 دقيقة كنت عند القمة.

تمتد عند هذه القمة هضبة تجعدها تموجات خفيفة وتكسوها الأعشاب. سطحها مترب مع وجود أحجار وأماكن من صخور. اخترقت هذه الهضبة في الساعة 3 و 30 دقيقة وصلت إلى حاشيتها الشرقية. منذ وقت ؛ أبصر مدينة وجدة ناشرة تحت أقدامي منازلها البيضاء وسط مغارس كبيرة من الزيتون. يحد الهضبة هنا مدرج شبيه بالذي يحد الهضبة عند الغرب. هذا المدرج قصير ومنتظم الانحدار. سلكت هذا المدرج وسرعان ما دخلت بساتين وجدة : واسعة ومستغلة

بعناية تحت ظلال الأشجار، هذه البساتين هي الشيء الوحيد الذي يحظى بالاهتمام. توقفت في الساعة 4 و 15 دقيقة بأحد فنادق المدينة.

تتموضع **مدينة وجدة** عند قدم الكدية الخضراء في أرض مستوية السطح في سهل أنكَاد الممتد حتى للامغنية. إنها مدينة جد صغيرة : تبدو أقل ساكنة من القصر الكبير. يسود فيها الغنى والرخاء : وجود قايد ومخازنية ومرور القوافل بها و التجارة مع الجزائر ينعش فيها الحركة الاقتصادية ويحمل إليها الثروة.

خفرني مخزني راكب من قصبة العيون إلى وجدة ومخزني آخر سيقودني من وجدة إلى الحدود الفرنسية. حصلت على هذا النوع من الخفر بمجرد طلب قدمته إلى القياد. يمنح خفر من هذا النوع بسهولة دائما شريطة أداء الثمن. هذا الثمن زهيد. تشارك الحكومة المغربية في توفير الزطاطة لتمكين المرء من السفر وحيداً في جهات بلاد المخزن القليلة الأمن كما هي عليه المنطقة التي أوجد فيها، خلال الطريق ؛ صادفت قافلة تتكون من تجار يهود قادمين من تلمسان ومتوجهين إلى دبدو. لم أعبر إلا نهراً ذا قيمة متوسطة باستثناء واد إيسلي. إنه واد بو رديم (عرضه 6 م، عمقه 1 م، علو أصواحه 1,5 م) من 1/1. مصدر مياهه الحالية الأمطار المتساقطة أخيرا. النهر جاف طيلة السنة وينتفخ حجم مائه بمناسبة أول شؤبوب ويجف بنفس السرعة. لم يكن من الممكن عبور هذا النهر بالأمس). 258

23 ماي

الذهاب من وجدة في الساعة 7 صباحا، في الساعة 10 عبرت الحدود دخلت الأراضي الفرنسية، عما قليل أصل إلى للامغنية، نهاية سفري.

* * *

فهرس الموضوعات

III ـــ من قصبة بني ملال إلى تيكرت

IV ـــ من تيكيرت إلى تيسنت

V ـــ إقامة في الصحراء

VI ـــ من تيسنت إلى موكدور

VII ـــ من موكَدور إلى تيسنت

VIII ـــ من تيسنت إلى دادس

IX ـــ من دادس إلى قصابي الشرفاء

X ـــ من قصابي الشرفاء إلى للامغنية



الإيداع القانوني رقم 1998/1359

ردمك 9-276-02-9981



RECONNAISSANCE AU MAROC

1883 - 1884

1

Traduction de :

Mokhtar BELARBI

جزآن معا 100 درهم

